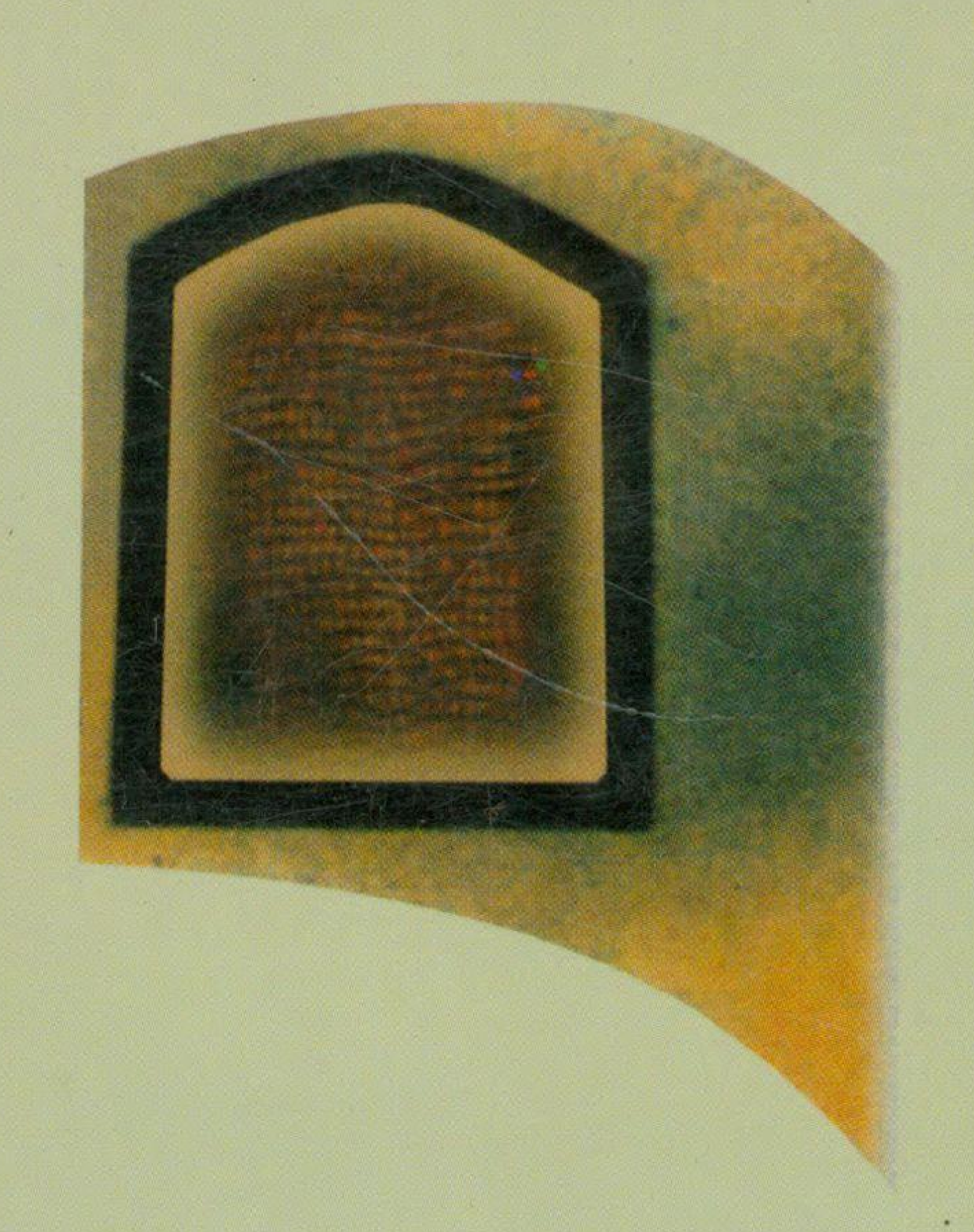
كارين آرمسترونغ

الإسلام في مِرآة الغرب

محاولة جديدة في فهم الإسلام



ترجمة : محمد الجورا

الإسلام

في مِرآة الغرب

تلقي كارين آرمسترونغ الضوء على ما يُوَجَه للإسلام من تهم وعلى المحاولات الدؤوبة والمتعمَّدة لتأكيد هذه التُّهم من خلال ما يجري راهناً على ساحة العالم العربي والإسلامي بل والدولية.

ومن دراستها للتاريخ وإجراء المقارنات بين الطرفين / الغرب والشرق العربي الإسلامي/ **تخلص إلى أن صورة الإسلام والنبي محمد كانت مشوهة بشكل ظالم في مرآة الغرب على مرِّ العصور وما تزال.** وترى أن الغرب يتحمل مسؤولية حالة اللاَّتوازن والعنف والتعصب التي يعيشها الشرق العربي الإسلامي. كما ترى أنه ما لم يكفَّ /هذا الغرب/ عن سعيه الحثيث إلى سحق الشخصية العربية الإسلامية وإذلالها فستكون كارثة تضرُّ ليس بطرف واحد بل بطرفي المعادلة معاً.

كارين آرمسترونغ واحدة من مفكري الغرب القلائل الذين ينتصرون للقضايا الإنسانية ويحكمون العقل في العلاقة بين الغرب والشرق العربي والإسلامي ويُشكل عمل الكاتبة – حسبما نرى – مسعىً جديراً بالاهتمام. ويمكن عدّه شاهداً من أهله. واطّلاع القارئ عندنا عليه يغني معلوماته عن مسار تاريخ من العداء طويل، تاريخ صراع دامٍ يقوده التعصّب الديني تارة وتارةً أخرى التعصب العرقي والمصالح وكثيراً ما تكون الأمور مجتمعة. حتى النهضة الأوربية وعصر أنوارها لم يستطيعا إزالة هذا العداء، بل ربما زادا فيه، ولا يلوح في الأفق أن العصرنة الراهنة الرافعة لواء الحرية وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، قادرة على أن تزيل ركامات العداء.

والمحاولات المبعثرة من بعض المفكرين الغربيين في توضيح الصورة وإيقاف عجلة العداء – ونحن نثمنها عالياً ونتمنى أن تثمر – هي الأخرى لن تجدي على ما يبدو، إذ الأمر ليس في دائرة الجهل وإنما في دائرة العمد. تلك هي المشكلة، وما نشهده اليوم ألا يفقأ العين!؟

الناشر

دار المدى
سورية – دمشق – ص.ب: ٤٤٩٠
هـ: ٢١٣٤٦٩٢ / فا: ٢١٢٦٣٢٦




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الإسـلام في مرآة الغـرب

محاولة جديدة في فهم الإسلام



MUHAMMAD
A WESTERN ATTEMPT
TO UNDERSTAND ISLAM

* - دار الحصاد للنشر والتوزيع

سورية - دمشق - برامكة

ص.ب: 4490 ها،فا: 2126326

* - حقوق الترجمة محفوظة

* - ط/٢- 2002

كارين آرمسترونغ

الإسلام في مرآة الغرب

محاولة جديدة في فهم الإسلام

ترجمة محمد الجورا

فهرس الكتاب

في هذا العمل تلقي المؤلفة الضوء على ما يوجه للإسلام من تهم وعلى المحاولات الدؤوبة لتأكيد هذه التهم من خلال مايجري راهناً على ساحة العالم الإسلامي. ومن ثم تسعى إلى تبيان أن هذه الاتهامات لم تتحل بالموضوعية. ولتأكيد رأيها هذا تستعرض محطات كثيرة من التاريخ، تكشف فيها مواقف الساسة الغربيين ورجال الدين والفكر وكيف أن هذه المواقف كانت معادية وظالمة، بعيدة عن التعقل ويسيطر عليها الحقد والجهل. وفي معرض ردها على اتهام الإسلام ونبيه بالعنف والتعصب تبين كيف أنه على العكس، في الإسلام لايكتمل إيمان المسلم مالم يؤمن بالأديان الأخرى والأنبياء الآخرين وأنه لا إكراه في الدين، في حين «أننا نحن الغربيين مازلنا إلى اليوم لانعترف بالنبي محمد» ليس هذا فحسب كما تقول بل حِيكت عبر التاريخ أساطير وترّهات عن الإسلام ونبيه بشكل مخجل لايقرها أي عقل، وتورد فيضاً من الأمثلة على ذلك.

تخوض في عمق التاريخ العربي الإسلامي وتجري المقارنات بين الغرب والشرق العربي اعتماداً على معطيات هذا التاريخ وتأتي على المقارنة بين حالة العصبية التي يعيشها العرب والإسلام اليوم إزاء التفوق الغربي وتلك الحالة المماثلة التي عاشها الغرب فيما مضى إزاء التفوق العربي الإسلامي. وتخلص إلى أن العرب كانوا أكثر تسامحاً ورفقاً من الغربيين اليوم. فالعرب لم يسعوا إلى قهر السكان ومسخ شخصيتهم بل كانوا يتسامحون حتى مع أولئك المعقدين الغربيين من التفوق العربي. لكن الغرب يسعى اليوم بكل قوة إلى سحق الشخصية العربية وإذلال المسلمين.

ومن هنا فهي تحمل الغرب مسؤولية حالة اللاتوازن والعنف والتعصب التي يعيشها الشرق العربي الإسلامي. وترى أن طرفي المعادلة، الغرب والشرق العربي الإسلامي اللذّيْنِ كانا دوماً نِدّان عبر التاريخ الطويل، هي اليوم في حالة اهتزاز عنيف وأنه ما لم يعترف الغرب بِندّه ويتعامل معه على هذا الأساس فستكون كارثة تضر ليس بطرف واحد بل بطرفي المعادلة معاً.

توجّه الكاتبة خطابها للغرب الذي تنتمي إليه. وكما في كتابها (الله والإنسان على امتداد ٤٠٠٠ عام) تستخدم اللغة الهادئة وأسلوب الإقناع المُدعّم بالشواهد، تتابع الاحداث التاريخية وتقرأها في زمانها وتبين خطأ تفسير الماضي بمفاهيم الحاضر وكيف يؤدي ذلك إلى قلب الحقائق.

يُشكّل عمل الكاتبة ـ حسبما نرى ـ مسعاً جديراً بالاهتمام ويمكن عدّه (شاهداً من أهله). واطّلاع القارئ العربي والإسلامي عليه يغني معلوماته عن مسار تاريخٍ من العداء طويل، تاريخ صراعٍ دام يقوده التعصب الديني تارةً وتارةً أخرى يقوده التعصب العرقي وكثيراً ما يجتمع الأمرين معاً. حتى النهضة الأوروبية وعصر أنوارها لم يستطيعا إزالة هذا العداء. ولا يلوح في الأفق أن العصرنة الراهنة الرافعة لواء الحرية وحقوق الإنسان، وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها قادرة أن تزيل ركامات العداء.

والمحاولات المبعثرة من بعض المفكرين الغربيين في توضيح الصورة وإيقاف عجلة العداء ـ ونحن نثمنها عالياً ونتمنى أن تثمر ـ هي الأخرى لن تجدي، إذ الأمر ليس في دائرة الجهل وإنما في دائرة العمد. وتلك هي المشكلة.

يبقى أن نذكّر بضرورة القراءة بانتباه وألّا يُؤخذ كل شيء (على عواهنه).

الناشر

تعريف بالكاتبة

نستطيع أن نعرف عن **محمد** أكثر مما نستطيع معرفته عن مؤسس أي من الأديان العالمية الأخرى، وتفاصيل حياته تلهم مبادئ وممارسات الإيمان الإسلامي في أعمق مستوى له. مع ذلك لا يعرف معظم الناس في الغرب سوى النزر اليسير عنه، أو لا يعرفون عنه شيئاً، بعد أن تشكلت لديهم مفاهيم سلبية رسمتها القرون الثلاثة عشر المنصرمة.

إن السيرة التي تقدمها **كارين أرمسترونغ** عن **محمد** هي سيرة تحرض على التفكير، كما ترسم له صورة تُيسِّر الحصول على فهم للإسلام أكثر دقة وعمقاً، حتى للناس الذين يلتزمون به التزاماً صارماً. أثناء عرضها لحياته ومجتمع الجزيرة العربية الهش كما كان في القرن السابع، فإنها تسأل إلى أي مدى ينبغي اعتبار الإسلام دين السيف؟ وفي وصفها لعلاقات النبي مع زوجاته وبناته فإنها تناقش المزاعم القائلة إن الإسلام دين يكره النساء. وبينما تحلل إنجازاته السياسية الرئيسية في توحيد قبائل الجزيرة العربية فإنها تكشف عن الأسباب التي تدعو المسلمين إلى اعتبار النشاط السياسي واجباً دينياً. إنها تتساءل، في الوقت ذاته، لماذا يميل المسلمون إلى اعتبار النجاح الدنيوي دليلاً على بركة الله بينما يقدس المسيحيون فكرة الفقر والتواضع.

تتخذ كارين أرمسترونغ ـ وهي في هذا ليست على شاكلة كُتّاب سيرة محمد الآخرين ـ نقطة انطلاق لها، حقيقة تجربته الدينية، فتنير بذلك الطبيعة الإلهامية القوية للإسلام، وتقدم مقارنات تحدٍ مع الدينين اللذين يرتبطان به ارتباطاً وثيقاً: أي اليهودية والمسيحية.

أمضت **كارين أرمسترونغ** سبع سنوات راهبة كاثوليكية رومانية قبل البدء

ببحث لنيل درجة في **أوكسفورد**. أخذت تدرّس الأدب الانجليزي في القرنين التاسع عشر والعشرين في **بيدفورد كوليج** - جامعة لندن. بعدئذ أمضت ست سنوات تدرس في إحدى مدارس البنات. بعد نجاح كتابها الأول (عبر البوابة الضيقة ١٩٨١) الذي يقدم عرضاً سيرياً لحياتها في الرهبنة، غدت كاتبة عصر، ومذيعة. ومن بين كتبها الكثيرة الأخرى وبرامجها التلفازية (المسيحي الأول)، وهو دراسة جدلية للقديس بولس بُثّت في ست حلقات في القناة الرابعة. وهي تعيش الآن في لندن.

مقدمـــة

كلما اقتربنا من نهاية القرن العشرين، وجدنا أن الدين قد أصبح ثانية قوة يجب أن يُحسب حسابها. إننا نشهد إحياءً للدين واسع الانتشار لم يتصوره كثيرون خلال الخمسينيات أو الستينيات من هذا القرن، أي عندما كان أنصار النزعة المادية ميالين إلى الاعتقاد بأن الدين خرافة بدائية تخلص منها الإنسان العاقل المتمدن. ولقد تنبأ بعضهم بزواله الوشيك بكل ثقة. كان الدين ـ في أفضل الحالات ـ نشاطاً خاصاً ثانوياً كفَّ عن امكانية التأثير على الأحداث العالمية، أما الآن فإننا نعرف أن ذلك كان نبوءة زائفة. في الاتحاد السوفيتي وبعد عقود من إلحاد رسمي يطالب الرجال والنساء بحقهم في ممارسة شعائرهم الدينية. وفي الغرب عاد الناس ممن لم يكن لديهم سوى اهتمام قليل بالمعتقد التقليدي والكنائس المؤسساتية ليظهرون وعياً جديداً تجاه الروحانية والحياة الداخلية. واليوم يُثير فينا الدهشةَ اندلاعُ تلك النزعة الدينية المتطرفة التي نطلق عليها كلمة «الأصولية» وذلك في أغلب الأديان الرئيسية. إنها حالة الإيمان المُسيَّس بشدة، ويراها بعضهم خطراً كبيراً على السلم المدني والعالمي. ولا تملك الحكومات تجاهلها، وهي تتعرض للخطر. وهكذا فكما كان الأمر في أغلب الأحيان في الماضي فقد تلا عصر النزعة الريبية فترة حماسة دينية مكثفة. على أية حال يبدو أن الدين حاجة إنسانية هامة لا يمكن إهمالها بسهولة أو دفعها إلى مواقع جانبية، بغض النظر عن مقدار عقلانية أو تعقيد مجتمعنا. بالتأكيد سيرحب البعض بهذا العصر الجديد من الإيمان بينما سيستنكره آخرون، لكن لن يستطيع أحد استبعاده بدعوى أن لاعلاقة له بالاهتمامات الرئيسية في عصرنا. فالدافع الديني قوي جداً، وبالإمكان استخدامه من أجل الخير والشر،

ولذلك يجب أن نفهمه ونتحرى تمظهراته بدقة لا في مجتمعنا فحسب بل أيضاً في ثقافات أخرى.

لقد كشف عالمنا الذي يتقلص بشكل مأساوي عن ارتباطنا الذي لا بد منه. لم يعد باستطاعتنا الاعتقاد أننا منفصلون عن أناس في بقاع نائية من الأرض بحيث نتركهم إلى قدرهم. على كل منا مسؤولية تجاه الآخر ومواجهة الأخطار المشتركة. لقد صار من الممكن أيضاً أن نعجب بحضارات أخرى ونحترمها وهو ما لم يكن يُتَخيَّل قبل يومنا هذا. لقد بدأ الناس ولأول مرة في شتى أرجاء العالم يجدون إلهاماً في أكثر من دين واحد، وتبنى آخرون دين حضارة أخرى. فالبوذية تمر بفترة ازدهار في الغرب الذي كانت تسوده المسيحية ذات يوم. ثمة أناس ممن بقوا مخلصين لدين آبائهم نجدهم قد تأثروا أحياناً بتراثات أخرى. فالفيلسوف الهندي العظيم ورجل الدولة سارفِبالي ريدهكاريشنان sarvepalli Rudharishnan (١٨٨٨ - ١٩٧٥) - على سبيل المثال تلقى تعليمه في الكلية المسيحية في مدراس، وقد أثر كثيراً على فكر الناس الديني في الشرق والغرب على السواء. ويقرأ المسيحيون بحماس مؤلفات الفيلسوف اليهودي **مارتن بوبر** (١٨٧٨ - ١٩٦٥) الذي كتب أطروحته لنيل الدكتوراه حول المتصوِّفَيْن المسيحيَيْن القروسطويَيْن **نيقولا الكوزي ومايستر إكهارت**، وكان له تأثير عميق على أفكارهم وروحانيتهم، بينما لايبدي اليهود نحوه مثل هذا الحماس، بيد أنهم يقرؤون اللاهوتي البروتستانتي **بول تيليش** (١٨٨٦ - ١٩٦٥)، والمفكر الحداثي **هارفي كوكس**. لقد بدأت تتداعى الحواجز الجغرافية، وكذلك حواجز العداوة والخوف، هذه التي كانت تبقي الأديان في حجرات منفصلة مغلقة.

فعلى الرغم من بقاء قدر كبير من التعصب القديم إلا أن ماذكرناه يُعَدُّ تطوراً واعداً بالأمل، ومشجعاً، تحديداً ونحن نرى - بعد قرون من عداء مسيحي شديد للسامية - علماء يهوداً ومسيحيين يحاولون الوصول إلى فهم جديد. لقد راح يتعمق فهم أولي للوحدة العميقة لتجربة الإنسان الدينية، وإدراك بأن التراثات التي «كنا» نكرهها ذات يوم، بإمكانها أن تخاطب ظروفنا الراهنة وأن تعيد الحياة إلى روحانيتنا. مايتضمنه هذا قد يكون عميقاً: فقد نكفّ عن رؤية ديننا وثقافتنا، وكذلك أديان وثقافات الآخرين بالطريقة نفسها التي كنا نراها فيها. لقد قورنت

النتيجة الممكنة لهذا بالثورة التي أثر فيها العلم على نظرة الرجال والنساء الى الحياة في أرجاء العالم. بالتأكيد سيجد أناس كثيرون هذا التطور شديد الخطورة، وسيشيدون متاريس جديدة ضد «الآخر» بينما بدأ البعض يلمحون آفاقاً أرحب، ويجدون أنهم يتجاوبون مع مُثل دينية سبق لأسلافهم أن تخلوا عنها بازدراء.

لكن يبدو أن هناك ديناً رئيسياً خارج هذه الدائرة من النوايا الطيبة، وماتزال ثمة صورة سلبية عنه محفوظة، في الغرب على الأقل. فالناس الذين بدأوا يجدون إلهاماً في **الزينية** أو **التاويه** نجدهم غير متلهفين عادة لتلطيف نظرتهم إلى الإسلام، مع أنه الدين الثالث **لإبراهيم** والأكثر انسجاماً مع تراثنا المسيحي اليهودي. اننا نحن الغربيين نملك تاريخاً طويلاً من العداء تجاه الإسلام، ويبدو أنه يطوقنا مثل نزعتنا المعادية للسامية التي شهدت في السنوات الأخيرة إحياء مزعجاً لها في أوروبا. لقد طور أناس كثيرون تخوفاً صحياً من هذا التعصب القديم منذ الهولوكست النازي. ان الحقد القديم على الإسلام مازال مستمراً في تصاعده على جانبي الاطلنطي، ونادراً مايتردد الناس في التهجم على هذا الدين وإن تكن معرفتهم له ضحلة.

إنه لمن السهل على المتتبع فهم السبب الكامن وراء هذا العداء: حتى ظهور الاتحاد السوفيتي في قرننا لم يسبق أن شكَّلَت أية دولة أو أيديولوجيا تحدياً مستمراً للغرب مثل التحدي الذي شكله الإسلام. فعندما شُيدت الإمبراطورية الإسلامية في القرن السابع كانت أوروبا متخلفة وسرعان ما اجتاح الإسلام معظم العالم المسيحي في شرقي المتوسط، إضافة إلى الكنيسة الكبيرة في شمال أفريقيا التي كانت تحظى بأهمية كبيرة لدى الكنيسة في روما. كان هذا النجاح الباهر نذير خطر دفع الغرب الى التساؤل ان كان الله قد تخلى عن المسيحيين وأسبغ عطفه على الكافرين؟ لقد بقي هذا الخوف القديم من الإمبراطورية الإسلامية المتسعة حتى عندما تعافت أوروبا من العصور المظلمة. ولم تستطع أوربا حتى بعد أن أسست حضارتها العظيمة من أن تحدث تأثيراً على هذه الثقافة الديناميكية المقتدرة للاسلام. لقد أخفق المشروع الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في نهاية المطاف، ليس هذا وحسب بل لقد تمكن العثمانيون من جلب الإسلام إلى عتبة أوروبا. ان خوف المسيحيين الغربيين هذا قد أفقدهم القدرة على أن يكونوا عقلانيين أو موضوعيين حيال الدين

الإسلامي. لقد نسجوا في وقت واحد صوراً مخيفة عن اليهود، وصورة مشوهة عن الإسلام، وكان هذا يعكس مخاوفهم الدفينة منه. لقد شجب العلماء الغربيون الإسلام بدعوى أنه دين تجديفي، وشجبوا نبيه محمد بدعوى أنه المدعي الأكبر الذي أسس ديناً عنيفاً استخدم السيف كي يفتح العالم. وهكذا فقد أصبح اسم محمد ـ الذي حُرّف الى (ماهوند) ـ بعبعاً للناس في أوروبا تستخدمه الأمهات في إخافة أطفالهن عندما لا يمتثلون لأوامرهن. كما صُوِّرَ في المسرحيات الصامتة على أنه عدو الحضارة الغربية الذي حارب قديسنا الشجاع جورج.

أصبحت هذه الصورة غير الصحيحة للإسلام إحدى المثل المتوارثة في أوروبا، وهي ماتزال تؤثر على مفاهيمنا عن العالم الإسلامي. وما فَاقَمَ هذه المشكلة هو الحقيقة التالية: بدء تنامي كراهية المسلمين الشديدة ـ ولأول مرة في تاريخهم ـ تجاه الغرب. و إلى حدٍّ ما يعود هذا، جزئياً، إلى السلوك الأوروبي والأمريكي في العالم الإسلامي.

إنه لمن الخطأ أن نتصور أن الإسلام دين عنف أو تعصب كما يقول البعض أحياناً. إن الإسلام دين عالمي ليس فيه عدوانية شرقية أو شيء ضد الغرب. فعندما تعرف المسلمون على الغرب الاستعماري في القرن الثامن عشر تأثر الكثيرون منهم بحضارته الحديثة، وحاولوا محاكاتها؛ لكن في السنوات الحالية أفسحت هذه الحماسة الأولية المجال أمام كراهية مريرة.

ينبغي علينا ان نتذكر كذلك أن النزعة الأصولية قد طفت إلى السطح في معظم الأديان لأنها تبدو استجابة عمت العالم جرّاء التوتر الغريب الذي عمَّ جميع مناحي الحياة في أواخر القرن العشرين. فقد نزل هندوس أصوليون إلى الشوارع دفاعاً عن نظام الطبقات والطوائف الاجتماعية ومعارضة لمسلمي الهند، وأقام الأصوليون اليهود مستوطنات غير شرعية في الضفة الغربية وقطاع غزة، بعد أن أقسموا على طرد العرب جميعاً من الأرض المقدسة. كما نجد أن الأغلبية الأخلاقية التي يتزعمها **جيري فالويل** وحركة اليمين المسيحي الجديدة اللتين اعتبرتا الاتحاد السوفييتي امبراطورية الشر قد أحرزتا قوة مدهشة في الولايات المتحدة خلال

ثمانينات هذا القرن. من هذا يتبين أنه من الخطأ أن نرى المتطرفين المسلمين يُمثلون الصور النموذجية لدينهم، ويتساوى في الخطأ عدُّ آية الله الخميني وحده المجسد للإسلام، وكذلك حذف التراث الغني والمعقد لليهودية بسبب السياسات اللاأخلاقية التي يمارسها الحاخام مائيركاهانا. قد نستطيع أن نعزو سبب انتشار النزعة الأصولية في العالم الإسلامي إلى الانفجار السكاني. ولنأخذ إيران على سبيل المثال: كان تعداد سكانها قبل الحرب العالمية الثانية /٩/ مليون نسمة أما اليوم فيبلغ /٥٧/ مليوناً ومتوسط أعمارهم /١٧/ سنة. فالإسلام الأصولي هو دين شبابي ليس في عقيدته سوى الأبيض أو الأسود.

معظم الغربيين لا يعرفون ما يكفي عن التراث الإسلامي كي يقدروا أهمية هذا الضغط الجديد ويضعوه ضمن منظور صحيح. عندما يأخذ بعض الاسلاميين رهائن باسم الإسلام يشعر الناس في أوروبا وأمريكا بنفور من هذا الدين دون أن يعرفوا أن هذا السلوك منافٍ لتشريع هام في القرآن. ومن المؤسف أن وسائل الإعلام والصحافة الشعبية في الغرب لا تقدم لنا دوماً العون الذي نحتاجه. فعلى سبيل المثال فُسِح المجال أمام المسلمين الذين يساندون فتوى آية الله الخميني ضد الكاتب البريطاني سلمان رشدي أكثر من المجال الذي قُدِّم للأغلبية التي تعارض هذه الفتوى. فالسلطات الدينية في السعودية ومشائخ الأزهر أدانت الفتوى كونها غير قانوينة وغير إسلامية. ان القانون الإسلامي لا يسمح بالحكم على إنسان بالموت دون محاكمة، وليس للحكم سلطة خارج العالم الإسلامي. وفي المؤتمر الإسلامي المنعقد في شهر آذار عام ١٩٨٩ رفض أربعة وأربعون مندوباً من أصل خمسة وأربعين مندوباً فتوى آية الله. لكن هذا لم يحظ سوى باهتمام سطحي في الصحافة البريطانية فتركت كثيرين فريسة انطباع مضلل بأن العالم الإسلامي كله كان يطالب بدم رشدي. وهكذا يبدو أنَّ الصحافة تحرِّكُ فينا أحياناً نوازع تعصّبنا التقليدية القديمة، كما حدث في أزمة النفط التي أثارتها منظمة البلدان المصدرة عام ١٩٧٣ ، حيث كانت الصور المستخدمة في رسوم الكاريكاتير والإعلانات والمقالات الشعبية نابعة أصلاً من مخاوف غربية قديمة عميقة الجذور من وجود مؤامرة إسلامية للاستيلاء على العالم.

كثيرون يشعرون أن المجتمع الإسلامي في حالته الراهنة يقدم مسوغاً لنظرتنا النمطية الأحادية له: فالحياة فيه تبدو رخيصة، والحكومات فاسدة أحياناً أو طاغية، والنساء مضطهدات ولهذا ليس مستغرباً أن يوجه الناس اللوم في ذلك إلى الإسلام. لكن العلماء يحذروننا من المبالغة في التشديد على دور أي دين في أي مجتمع. فالمؤرخ البارز للإسلام المارشال **جـ. س هودغسون** يشير إلى أن المظاهر التي يدينها الغرب في العالم الإسلامي تشكل سمات لمعظم المجتمعات التي ماتزال في مرحلة ماقبل التحديث. وما كانت الحياة في أوربا قبل نحو /٣٠٠/ سنة خلت لتختلف كثيراً عن ذلك.

لكن يبدو أن هناك رغبة أحياناً لإلقاء اللوم على الدين ذاته في كل اضطراب في العالم الإسلامي. فالحركات النسائية تدين الإسلام على عادة ختان النساء، علماً ان هذه العادة هي في حقيقة الأمر افريقية، وليست مذكورة أبداً في القرآن، ولا تنصح بها ثلاثة من مدارس الفقه الأربعة، وقد تم استيعابها في المدرسة الرابعة في شمال أفريقيا حيث كانت واحدة من حقائق الحياة. فإصدار تعميمات عن الإسلام أمر محال مثل استحالة ذلك عن المسيحية لأن في كليهما مجالاً واسعاً من الأفكار والمثل.

مثال جلي على النمطية الأحادية هو الافتراض الشائع في الغرب بأن الإسلام المطبق في المناطق التي ظهر فيها الإسلام أولاً هو الشكل الأكثر صدقاً للدين. إذ يُفترض طالما أنه يمثل الطابع الأكثر قدماً، أن يكون أكثر شبهاً بالدين الذي مارسه المسلمون الأوائل. وبما أن الغرب يعدّ ـ ومنذ زمن طويل النظام في تلك المناطق بغيضاً، نجده يسحب الأمر على الإسلام أيضاً. لكن الوهابية هي مجرد مذهب طائفة واحدة وحسب. لقد نشأت في القرن الثامن عشر، وكانت مماثلة للبيوريتانية المسيحية التي ازدهرت في القرن السابع عشر في انجلترا وهولندة، وولاية ماسا تشوستس الأمريكية. لقد زعم البيوريتانيون والوهابيون أنهم يعودون إلى أصل الدين، لكنَّ كليهما كانا تطوراً جديداً كلياً، واستجابة للظروف الفريدة في عصرهما. كان لهما تأثير هام في العالمين الإسلامي والمسيحي، ومن الخطأ أن نعدّ أياً منهما حالة معيارية في الدين. فالحركات الإصلاحية في أي دين تحاول العودة إلى روح مؤسسه الأصلية، لكن من المحال إعادة إنتاج ظروف سابقة بالكامل.

نستطيع القول أن الأديان جميعاً تتركز في مؤسسات بشرية وأن هذه المؤسسات كثيراً ما ترتكب أخطاء جسيمة. وقد اتّسم تعبيرها عن عقائدها بطرق قاصرة ومقيتة أحياناً. لكنها في الوقت ذاته كانت إبداعية أيضاً إذ مكّنت وتمكّن الملايين من الرجال والنساء من أن يجدوا إيماناً في معنى الحياة النهائي وقيمتها بالرغم من العذاب الذي يرثه الجسد. لذا فانه لحكم غير دقيق وجائر أن نضع الإسلام في مجال غير مقدس خاص به أو أن نفترض أن تأثيره كان سلبياً، لأن ذلك يعتبر خيانة للتسامح والرحمة اللتين ـ كما يفترض ـ تميزان المجتمع الغربي. فالإسلام ـ في حقيقة الأمر ـ يشارك اليهودية والمسيحية في كثير من المُثل والرُؤى التي كانت تمدهما بالإلهام، وبالتالي فقد ساعد الإسلام الناس على تنمية قيم يشترك فيها مع ثقافتنا نحن. فالتراث المسيحي ـ اليهودي لا يحتكر وحده الوحدانية أو اهتمامه بالعدالة والحشمة والرحمة والاحترام للبشرية.

حقاً ان التفسير الإسلامي للدين الوحداني تتجلى فيه عبقرية خاصة به، ولديه أشياء كثيرة هامة يعلمنا إياها. فمنذ أن استحوذ الإسلام على اهتمامي أصبح إدراكي لهذه الحقيقة يتزايد يوماً بعد آخر، بينما كنت جاهلة له تماماً قبل بضع سنوات خلت. لقد تبين لي أن الإسلام يشكل تراثاً باستطاعته التحدث إليَّ. لقد جاءتني مثل هذه الفكرة لأول مرة في أثناء إجازة أمضيتها في سمرقند . فهناك وجدت الهندسة الإسلامية التي تعبر عن روحانية ردَّدَت صدى ماضيَّ الكاثوليكي. في عام ١٩٨٤ كُلِّفتُ بإعداد برنامج تلفزيوني عن الصوفية الإسلامية، فبُهِرْتُ بما يكنه الصوفيون للأديان الأخرى، وهذه مزية لم اقابلها في المسيحية بكل تأكيد. شكَّل هذا تحدياً لكل شيء كنت اتبناه بدهياً عن الإسلام، فأردت أن أعرف المزيد عنه. وأخيراً أفضت بي دراسة للصليبيين والصراع الراهن في شرق المتوسط إلى حياة **محمد** والكتاب المقدس الذي جلبه إلى العرب، أي **القرآن**.

لم أعد مؤمنة بالمسيحية أو ممارسةً لشعائرها، ولم أعد أنتمي رسمياً إلى أي دين آخر. لكنني أخذت أراجع افكاري عن الإسلام وفي الوقت نفسه رحتُ أعيد النظر في التجربة الدينية ذاتها. في جميع الأديان العظيمة تصوَّرَ الرسل والأنبياء رؤى متماثلة إلى درجة مذهلة ـ لمتعالٍ وحقيقة نهائية. فمهما اخترنا كي نفسر هذه

التجربة الدينية فإنها كانت إحدى حقائق الحياة. قد ينكر البوذيون وجود أي شيء في هذه الرؤى خارق للطبيعة: إنها حالة عقلية طبيعية للبشرية بينما تسمي الأديان الوحدانية هذا المتعالي «الله». وأعتقد أن محمداً قد مر بتجربة مماثلة، وقدَّم مساهمة قيِّمة ومتميزة للتجربة الروحية للبشرية. فإذا ما كان علينا أن ننصف جيراننا المسلمين فلا مفرّ من أن نقدر هذه الحقيقة الأساسية، وهذا هو السبب الكامن وراء عملي في هذا الكتاب.

هناك ندرة مذهلة في الكتب التي تتناول سيرة محمد بين أيدي عموم القراء (عندنا في الغرب). إنني مدينة ـ تحديداً ـ للمُجلَّدَيْن اللذين كتبهما مونتغمري واط /محمد في مكة/ و /محمد في المدينة/ ، لكن كليهما قد وُضِعا للدارسين، وبِفترضان معرفة أساسية مسبقة بحياة محمد ليست متوفرة لدى كل شخص. وكتاب **مارتن لينغز** /محمد: سيرته استناداً إلى أقدم المصادر/ يقدم فيضاً من المعلومات المدهشة، مأخوذة من كُتَّاب سيرة محمد في القرون الثامن والتاسع والعاشر. لكن لينغز يكتب إلى المؤمنين، وسيكون لدى من هم خارج دائرتهم أسئلة أساسية عديدة ذات طبيعة جدلية لم يطرحها لينغز. من المحتمل أن السيرة المتداولة في الوقت الحاضر والأكثر جاذبية للقراء هي تلك التي كتبها **مكسيم رودنسون** بعنوان /محمد/، فرودنسون يتناول مادته برشاقة وقد تعلمت الكثير من كتابه، لكنه يُدوِّن هذه السيرة كريبي ودنيوي. لذلك نراه يركز على الناحيتين العسكرية والسياسية من حياة النبي، وبالتالي لا يساعدنا على فهم الرؤية الروحية عند محمد.

لقد اتبعتُ منهجاً مختلفاً بالأحرى، منطلقة من أننا نعرف عن محمد أكثر مما نعرف عن مؤسس أي من الأديان الرئيسية الأخرى وبذلك فإن دراسةً لحياته يمكنها أن تقدم لنا رؤية هامة في طبيعة التجربة الدينية. فجميع الأديان تمثل حواراً بين حقيقة مطلقة لا سبيل إلى وصفها، وبين أحداثٍ دنيوية، وباستطاعتنا تحري هذه السيرورة بدقة أكثر من خلال حياة محمد أثناء النبوة. وسوف نرى أن التجربة الروحية التي مر بها محمد ذات أوجُهِ تشابهٍ مذهلة مع التجربة الروحية التي مر بها أنبياء اسرائيل، والقديسة تيريزا الأفيلية والسيدة جوليان من نورويتش. لقد استخدمتُ أيضاً أحداثاً متنوعة من حياة النبي لأوضح النقاط التي يؤكد عليها التراث الإسلامي تحديداً. صحيح ان جميع الأديان الرئيسية تغطي العديد من

الموضوعات ذاتها، لكن لكلٍّ منها منظوره الخاص به. لهذا السبب سوف أناقش لماذا يَعُدُّ المسلمون علم السياسة واجباً دينياً. لقد حقق محمد نجاحاً سياسياً باهراً. ويميل المسيحيون إلى التشكيك في الطابع الرباني لهذا الانتصار الدنيوي. لكن لايسعنا هنا إلاّ أن نتساءل: هل السبيل الوحيد إلى الله هو إخفاقٌ مشابهٌ للإخفاق الذي مني به المسيح؟

إنني أنظر إلى النبي من منظور شخص لديه تصورات محددة مسبقة عن الإسلام. وهكذا عندما نرى محمداً يشن حرباً على مكة علينا أن نسأل هل كان قد أسس فعلاً ديناً يقوم على السيف؟ فكيف يكون رسول من الله على استعداد أن يحارب ويقتل؟ وعندما نستعرض علاقة محمد مع زوجاته وبناته علينا أن نتساءل: أكان فعلاً شوفينياً أسس ديناً يكره النساء ويتعصب للرجال؟

لقد بيّنت حرب الخليج عام ١٩٩١ أن روابط عميقة تربطنا مع العالم الإسلامي سواء أحببنا ذلك أم لا. فعلى الرغم من التحالفات المؤقتة فقد خسر **الغرب** ـ كما هو واضح ـ ثقة **الناس** في العالم الإسلامي إلى حد بعيد. فانهيار التواصل في أي وقت يصعب عزوه الى طرف واحد، وإذا أراد **الغرب** استعادة التعاطف والاحترام اللذيْن كان يلقاهما في العالم الإسلامي، ينبغي عليه أن يتفحص دوره في المنطقة العربية، وأن يتأمل صعوباته مع الإسلام وجهاً لوجه. لهذا السبب فقد خصصت الفصل الأول لتتبع تاريخ الكراهية الغربية لنبي الإسلام. بيد أن الصورة ليست قاتمة تماماً، إذ منذ القديم كان بعض الأوروبيين قادرين على بلوغ نظرة أكثر توازناً، لكنهم كانوا دائماً قلة، وكانت لهم إخفاقاتهم. لقد حاولت هذه الحفنة من الناس تصحيح الأخطاء التي وقع فيها معاصروهم، والارتفاع فوق مستوى الرأي الذي نقل إليهم. وبكل تأكيد علينا الآن أن نشجع هذا التراث المتسامح، المتراحم والشجاع.

الفصل الأول

محمد، (عدو الغرب)

يصعب على الغربيين تَفَهُّم رد فعل المسلمين العنيف إزاء الصورة التي قدمها **سلمان رشدي عن النبي محمد** في روايته /آيات شيطانية/. يرى الغربيون أن من غير المعقول أن تثير رواية من الروايات حقداً يبلغ حد الدعوة إلى هدر دم مؤلفها. ووجدوا في رد الفعل الإسلامي هذا دليلاً على انعدام التسامح العضال في الإسلام. لقد كان مزعجاً بل ومقلقاً ـ تحديداً للناس في بريطانيا ـ أن يعلموا أن التجمعات الإسلامية في مدنهم تعيش وفقاً لقيم مختلفة وغريبة كما بدت لهم، وأنها على استعداد للدفاع عنها حتى الموت. لكن ثمة أشجان استعيدت من هذه القصة المأساوية؛ قصة أشجان غريبة لا تبعث على الارتياح. لقد شاهد البريطانيون مسلمي **برادفورد** وهم يحرقون الرواية فهل يا ترى أقاموا حينها علاقة بين ما كانوا يرونه وبين حرق الكتب في أوروبا المسيحية عبر القرون؟ فالملك **لويس** التاسع ـ على سبيل المثال ـ الذي رَسَّمته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قديساً أدان في عام ١٢٤٢ التلمود اليهودي بدعوى أنه تهجّم شرير على شخص المسيح، ومُنِع الكتاب، وحرقت نسخ منه علانية بحضور الملك. لم يكن لويس مستعداً لمناقشة قضايا الخلاف التي لديه مع التجمعات اليهودية في فرنسا بأسلوب عقلاني سلمي. فقد زعم مرة أن الطريقة الوحيدة كي تناقش يهودياً هي أن تقتله «بضربة قوية بالسيف في بطنه ليبلغ أقصى مدى ممكن»[١]. ولويس هذا هو الذي انشأ محاكم التفتيش الأولى لمحاكمة الهراطقة من المسيحيين. فلم يكتف بحرق كتبهم فقط بل حرق المئات من الرجال والنساء. كما كان يكره المسلمين كثيراً وقاد حملتين صليبيتين

ضد العالم الإسلامي. وفي عهد لويس التاسع هذا كان الغرب المسيحي، هو وحده من يرى أن من المحال التعايش مع الآخرين، بينما لم يكن الاسلام يؤمن بوجهة النظر هذه.

حقيقة يمكن القول ان تاريخ العلاقات المسيحية ـ الإسلامية المرير قد بدأ بالتهجّم على محمد في إسبانيا المسلمة. في عام ٨٥٠م ذهب راهب يدعى **بيرفكتوس** Perfectus للتسوق في أسواق **قرطبة**، عاصمة الدولة الإسلامية في **الأندلس**. وهناك بادرته جماعة من العرب بالسؤال أيُهما أعظم برأيك، يسوع أم محمد؟ فَهِم بيرفكتوس أن في السؤال مكيدة لأن توجيه إهانة إلى محمد كان يعتبر جريمة كبرى في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، لذلك كانت إجابته في البداية تتسم بالحذر. لكنه مالبث أن انفجر فجأة وأخذ يكيل سيلاً من الذم للنبي محمد قائلاً: دجال، منحرف جنسياً وأنه هو المسيح الدجال ذاته. وسرعان ما وقع في المصيدة.

كانت هذه الحادثة أمراً غير عادي في قرطبة إذ كانت العلاقات المسيحية ـ الإسلامية جيدة عادة. كان المسيحيون ـ مثل اليهود ـ ينعمون بحرية دينية كاملة ضمن الإمبراطورية الإسلامية. وكان معظم الإسبان يشعرون بالاعتزاز لانتسابهم إلى الثقافة العربية الاسلامية الرفيعة التي كانت متقدمة على غيرها بسنوات مشرقة كثيرة، وكانوا يسمون **موزعرب** Mozarabs أو المستعربين Arabisers وقد كتب العلماني الاسباني **بول ألفارو** Paul Alfaro الهجوم التالي على **الموزعرب** في تلك الفترة:

> **«يحب المسيحيون قراءة القصائد والرومانسيات العربية ويدرسون اللاهوتيين والفلاسفة العرب لا لكي يفندوا أقوالهم بل ليكتسبوا لغة عربية صحيحة أنيقة. أين هو العلماني الذي يقرأ الآن الشروح اللاتينية للكتب المقدسة، أو الذي يدرس الأناجيل أو الأنبياء أو الرسل؟ يا إلهي جميع المسيحيين الشبان الموهوبين يقرؤون الكتب العربية ويدرسونها بحماس(٢)».**

رأى **الفارو** في الراهب بيرفكتوس بطلاً دينياً وثقافياً. فقد ألهم ذمه لمحمد حركة أقلية غريبة في قرطبة قدَّم الرجال والنساء فيها أنفسهم أمام القاضي، وأثبتوا ولاءهم المسيحي عن طريق شن تهجم انتحاري لاذع على النبي.

عندما وصل بيرفكتوس إلى السجن دب الذعر في أوصاله، غير أن القاضي قرر ألا يحكم عليه بالموت لأنه قدّر أن المسلمين. قد أثاروه دون مسوّغ لكن بيرفكتوس انهار ثانية بعد مضي بضعة أيام وَوَجّه للنبي كلمات مقذعة إلى درجة أنه لم يترك أمام القاضي خياراً آخر سوى تطبيق القانون في أقصى درجاته، فصدر الحكم بالإعدام. وفي الحال قطّعت جماعة مسيحية ـ يبدو انها كانت تعيش على هامش المجتمع ـ جسده، وأخذ أفرادها يبجلون بقايا شهيدهم. وبعد مضي أيام قليلة ظهر راهب آخر يدعى **اسحق** أمام القاضي وتهجم على محمد ودينه، وهو في أقصى درجات انفعاله الى درجة أن القاضي حسبه إما مخموراً أو مخبولاً فقام بصفعه كي يعيده إلى رشده. لكن الراهب تمادى في السباب فلم يكن في وسع القاضي السماح بهذا الخرق الفاضح للقانون.

لم تكن **قرطبة** القرن التاسع مثل **برادفورد** عام ١٩٨٨ . كان المسلمون مقتدرين وواثقين من أنفسهم، لذلك بدوا مترددين جداً في قتل هؤلاء المسيحيين المتعصبين، جزئياً ليس فقط لأنهم بدوا بغير كامل قواهم العقلية، بل لأنهم كانوا يدركون أيضاً أن آخر شيء كانوا بحاجة إليه هو عبادة الشهيد. لم يكن المسلمون يكرهون سماع ما تقوله الأديان الأخرى. لقد ولد الإسلام وسط تعددية دينية في شرق المتوسط، حيث تعايشت أديان عديدة طوال قرون. وفعلت الامبراطورية البيزنطية المسيحية الشرقية الشيء ذاته، فسمحت بحرية دينية للأقليات كي تزاول شعائرها الدينية. في الامبراطورية الإسلامية لم يكن هناك وجود لقانون ضد محاولات الدعاية التي يقوم بها المسيحيون شرط ألا يتهجموا على شخص النبي محمد المحبوب جداً من أتباعه، وفي بعض أنحاء الامبراطوية كان هناك تراث راسخ من الريبية والفكر الحر مادام ضمن حدود الحشمة ولا يعبر عن عدم الاحترام. لم يكن قاضي قرطبة وأميرها يريدان قتل بيرفكتوس واسحاق، وفي الوقت ذاته لم يكن باستطاعتهما السماح بهذا الانتهاك للقانون. وبعد انقضاء ستة أيام وصل ستة رهبان من دير بيرفكتوس وشنوا هجوماً عنيفاً على محمد. في ذلك الصيف توفي نحو / ٥٠/ شهيداً بهذه الطريقة. لقد شجب أسقف قرطبة سلوكهم، وشعر المتعربون بالذعر من هذه العبادة للشهادة العدوانية، لكن الكاهنين: **إيلوغيو Eulogio** وبول

ألفارو دافعا عن الشهداء ووصفوهم بأنهم «جنود الله»، يذودون عن دينهم ببسالة. لقد شنّ هذان الراهبان هجوماً أخلاقياً معقداً ضد الإسلام، وكان صعباً على السلطات المسلمة الرد على هذا الهجوم لأنها اعتقدت أن ذلك سيوقعها في خطأ، هي في غنى عنه.

كان الشهداء من جميع المستويات الاجتماعية: رجالاً ونساءً، قساوسة، علمانيين، أناساً بسطاء وعلماء محنكين. لكن يبدو أن معظمهم كانوا يبحثون عن هوية غربية واضحة مميزة. ويبدو أن بعضهم كانوا من بيوت مختلطة: أي أحد الوالدين مسلم والآخر غير مسلم. لقد دُفِع آخرون إما لاستيعاب الثقافة الإسلامية عن كثب وإما إلى مهنة في الخدمة العامة وسمّوا بأسماء عربية فشعروا بفقدان التوجه والإرباك. قد يكون فقدان الجذور الثقافية تجربة مزعجة جداً، وفي يومنا هذا قد يُولِّد نزعة دينية عدوانية متحدية نتيجة لتأكيد الذات المحاصرة. ربما علينا أن نتذكر شهداء قرطبة عندما نشعر بالإرباك الناجم عن العداوة والغيظ في بعض التجمعات المسلمة في الغرب وفي أجزاء أخرى من العالم حيث تهدد الثقافة الغربية قيمهم التراثية. كانت حركة الشهيد التي تزعمها الراهبان المذكوران مناهضة للمتعربين بقدر مناهضتها للمسلمين، واتهمتهم بأنهم مرتدُّون ثقافياً. فعندما قام إيلوغيو بزيارة إلى بامبلونا Pamplona المسيحية المجاورة عاد ومعه كتبٌ غريبة: نصوص لآباء الكنيسة اللاتين، ومؤلفات كلاسيكية لفرجيل وجوفينال. كان يريد مقاومة التعريب وسط الإسبان، وخلق نهضة لاتينية كانت تنظر نظرة حنين إلى ماضي بلاده الروماني كوسيلة لتحييد التأثير المهيمن للثقافة الإسلامية. إلّا أن هذه الحركة أخفقت بعد مقتل إيلوغيو على يد القاضي الذي توسل إليه أن يظهر أي شيء يُبدي إقراره بالإسلام كي ينقذه ـ إذ ما من أحد سيتعرض لسلوكه الديني اللاحق ـ وألاَّ يستسلم لهذا التدمير المأساوي للذات، مثل الحمقى والبلهاء الآخرين»(٤). لكنه استمر في عناده وطلب منه أن يشحذ سيفه.

لم تكن هذه الحادثة الغريبة سمة للحياة في اسبانيا المسلمة. فعلى امتداد / ٦٠٠/ سنة تلت كان الأفراد الذين ينتمون إلى الأديان التوحيدية الثلاثة قادرين على العيش سوياً في سلام وانسجام نسبيين. فاليهود الذين كانوا مطاردين حتى الموت

في بقية أنحاء أوروبا نعموا بنهضة ثقافية غنية خاصة بهم. لكن قصة شهداء قرطبة تفصح عن موقف شاع بسرعة في الغرب. في تلك الفترة كان الإسلام قوة عالمية عظمى بينما كانت القبائل البربرية تجتاح أوروبا، فأدخلت ثقافتها في بركة آسنة. وبدا العالم أنه إسلامي في مرحلة تالية مثلما يبدو غربياً اليوم وظل الإسلام تحدياً مستمراً للغرب حتى القرن الثامن عشر. ويبدو الآن أن حرباً باردة ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي.

اعتقد كلاً من ألفارو وإيلوغيو أن ظهور الإسلام وسطوع نجمه كان تحضيراً لظهور المسيح الدجال، المُدّعي الأكبر الذي جاء ذكره ووصفه في العهد الجديد(*) وبيّن أن حكمه من علامات قرب القيامة. لقد شرح مؤلف الرسالة الانجيلية الثانية لأهالي سالونيك أن يسوع لن يعود حتى تحدث الردة الكبرى Great Apostasy ويؤسس «متمردٌ» حكمه في هيكل أورشليم، ويضلل العديد من المسيحيين بمعتقداته الزاهية[٥]. لقد تحدث سفر الرؤيا أيضاً عن وحش كبير مُعلَّم برقم غامض /٦٦٦/ يزحف خارجاً من الهاوية، منصِّباً نفسه على جبل المعبد، ويحكم العالم[٦]. لقد بدا لهؤلاء أن الإسلام كان مناسباً تماماً لهذه النبوءات القديمة. إذ فتح المسلمون القدس عام ٦٣٨م، وبنوا مسجدين رائعين على تلة الهيكل، وبدا أنهم كانوا يحكمون العالم فعلاً. كذلك قيل أن محمداً جاء بعد المسيح إذ لم يكن هناك حاجة تستدعي وحياً جديداً، ونصب نفسه نبياً فارتد كثير من المسيحيين وانضموا إلى الدين الجديد. لقد كان عند ألفارو وإيلوغيو موجز عن حياة محمد علماً أنه توفي في عام ٦٦٦ في التأريخ الإسباني الذي كان أسبق بـ /٣٨/ سنة من التأريخ التقليدي. كان الغربيون قد نسجوا هذه السيرة عن محمد في القرن الثامن وتمت كتابتها في دير ليار Leyer بالقرب من بامبلونا، في منطقة نائية من العالم المسيحي الذي كان يرتجف أمام العملاق الإسلامي الجبار. إضافةً إلى التهديد السياسي أثار النجاح الإسلامي مسألة لاهوتية مزعجة، إذ كيف سمح الله لهذا الدين غير الورع أن يزدهر؟ أيُحتمل أن الله قد تخلى عن شعبه؟

لقد كانت السخرية اللاذعة التي وجهها شهداء قرطبة إلى محمد ترتكز على

(*) يقصد بالعهد الجديد الإنجيل، وبالعهد القديم أو العتيق التوراة.

تلك السيرة الرُؤَوية apocalyptic . هؤلاء المسكونون بالخوف صوَّر لهم وهمهم أن محمداً مدّعٍ ودجالٌ، نصّب نفسه نبياً كي يخدع العالم. كما تصوَّر لهم أنه كان فاسقاً، انغمس في فسق مقرف، وألهم أتباعه أن يحذوا حذوه، وأجبر شعبه على اعتناق دينه بحد السيف. لم يكن الإسلام حسب زعمهم وحياً مستقلاً بل هرطقة، مجرد شكل مشوه عن المسيحية. كان دين عنف انتشر بالسيف وممجِّد الحرب والقتل، هكذا كانوا يرون الأمور. بعد زوال حركة الشهيد في قرطبة تناساها الناس، ولم يكن قد سمع بها سوى قلة من الناس في أرجاء أخرى من أوروبا، كما لم تُحْدِثْ سوى رد فعل ضعيف. لكن بعد مضي نحو /٢٥٠/ سنة تالية، أي عندما كانت أوروبا على وشك الدخول إلى المسرح الدولي، أعادت الأساطير المسيحية هذه الصورة الخيالية لمحمد بكل دقة. مع أنه سعى علماء جادون لتكوين نظرة أكثر موضوعية للنبي ودينه، إلا أن هذه اللوحة الخيالية لمحمد الذي حُرّف اسمه إلى «ماهوند» ظلت ماثلة في المستوى الشعبي. وبذلك أصبح العدو الأكبر للهوية الغربية الصاعدة، مُجَسِّداً كل شيء لا نرغب وجوده فينا. وماتزال آثار من هذه الصورة القديمة باقية حتى يومنا هذا. فمايزال شائعاً بين الغربيين الاعتقاد بأن محمداً قد استخدم الدين كوسيلة تمكنه من فتح العالم، وأن الإسلام دين انتشر بالسيف. علماً أن هناك العديد من الدراسات الموضوعية للإسلام ونبيه تدحض عنه هذه الأسطورة المتعلقة بـ «ماهوند».

مع اقتراب نهاية القرن الحادي عشر كانت أوروبا قد بدأت بالنهوض بقيادة البابا، وراحت تدفع الحدود الإسلامية إلى التراجع. في عام ١٠٦١ بدأ النورمانديون مهاجمة المسلمين في جنوبي ايطاليا وصقلية، وفتحوهما في عام ١٠٩١ . وبدأ مسيحيو شمال اسبانيا الحروب المضادة للمسلمين في الأندلس ففتحوا طليطله عام ١٠٨٥ . وفي عام ١٠٩٥ دعا البابا أوربان الثاني فرسان أوروبا إلى تحرير ضريح يسوع في القدس في حملة عُرِفَت لاحقاً باسم الحملة الصليبية الأولى. وبعد صعوبات لا تصدق تمكن الصليبيون من فتح القدس عام ١٠٩٩ ، وشيدت المستعمرات الغربية الأولى في الشرق الأدنى. اتخذ هذا النجاح الغربي الجديد شكل حرب شاملة ضد الإسلام. لم يكن لدى أحد في أوروبا أي حقد على الدين الإسلامي أو على نبيه في بداية هذه الحرب لأنهم كانوا معنيين بأحلام المجد الخاصة

بهم وباتساع أوروبا البابوية. تكشف أنشودة رولان التي نظمت في عهد الحملة الصليبية الأولى عن جهل فاضح بالطبيعة الأساسية للدين الإسلامي، إذ صورت أعداء شارلمان ورولان من المسلمين عبدة أصنام يسجدون أمام ثالوث من الآلهة: أبولو وتيرفاغانت Tervagant ومحمد. وإنْ تكنْ قد صورتهم جنوداً بواسل وأن هناك متعةً في قتالهم. فعندما حاربت جيوش الحملة الصليبية الأولى الأتراك للمرة الأولى في آسيا الصغرى كانوا يقدرون كثيراً شجاعة الأتراك ويبدون إعجابهم بها:

> **مَنْ من الرجال مهما كان خبيراً وذا علم ـ يمتلك القدرة على الكتابة عن مهارة وبسالة وشجاعة الأتراك الذين حسبوا أنهم سيلقون الذعر في صفوف الفرنجة، مثلما ألقوا الرعب في قلوب العرب والأرمن والسوريـين واليونانيـين من خلال تهديد سهامهم؟ مع ذلك لم يكن رجالهم ليتفوقوا على رجالنا والحمد لله. ولديهم قول مأثور يزعم أنهم من أصل مشترك مع الفرنجة، وأنهم قد ولدوا كي يكونوا فرساناً. هذا صحيح ولا يستطيع أحد أن ينكره. فلو أنهم اعتنقوا المسيحية وكانوا راغبين بقبول إله واحد في أقانيم ثلاثة... فلن تجد جنوداً أكثر قوة أو شجاعة أو براعة منهم، مع ذلك فقد هزمهم رجالنا بنعمة الله[٧].**

شعر الفرنجة بصلة قرابة مع جنود المسلمين في معركة دوريليه في عام ١٠٩٧، لكن لم تمض سوى سنتين ـ أي عندما فتح الصليبيون القدس ـ حتى بدوا غير قادرين على رؤية المسلمين ككائنات بشرية مثلهم. لقد ذبحوا سكان المدينة بأعصاب باردة، وقد أحدثت هذه المذبحة صدمة بين معاصريهم. وبعد ذلك عدّوا المسلمين حشرات يجب إبعادها عن الأماكن المقدسة، فالكلمة الرسمية التي كانت تطلق عليهم في اللهجة الصليبية هي كلمة «قذارة».

قبل عام ١١٠٠ لم يكن هناك ـ عملياً ـ اهتمام بمحمد في أوروبا، وبحلول عام ١١٢٠ كان كل واحد يعرف من هو محمد. في الوقت الذي كانت قد تطورت فيه أساطير شارلمان والملك آرثر وروبن هود في الغرب كانت أسطورة محمد العدو والذات الظلية للمسيحية قد ترسخت بقوة في المخيلة الغربية. وقد أوضح ذلك ر. و. ثُوثرن R.W.Southern في مقالته/وجهات نظر غربية حول الإسلام في العصور الوسطى .

ما من شك أن المراد من هذه الأساطير والقصص الخيالية لحظة تأليفها هو أن تمثل بشكل أو بآخر عرضاً صادقاً لما كانت تريد وصفه. لكن ما إن تم إنتاجها حتى اتخذت حياة أدبية خاصة بها. ففي مستوى الشعر الشعبي لم تتغير صورة محمد وأتباعه إلا قليلاً من جيل إلى جيل. مثلهم في ذلك مثل الشخصيات المحببة التي يراد منها إيضاح سمات محددة، وأعاد الكتاب انتاجها على مدى مئات السنين[٨].

ولعلّ الخيال القصصي عن ماهوند هو ماجعل الناس في الغرب يجدون صعوبة أكبر في أن ينظروا إلى محمد كشخصية تاريخية جديرة بالمعالجة الجادة كنابليون أو الاسكندر الكبير. والصورة القصصية لماهوند في رواية /الآيات الشيطانية/ هي صدى عميق لتلك الخيالات الغربية الراسخة حوله.

فلكي تشرح هذه الأساطير نجاحَ محمد، زعمت أنه كان ساحراً لفق معجزات زائفة كي يستميل العقلاء من العرب وليدمر الكنيسة في أفريقيا والشرق الأوسط. وتحدثت إحدى الحكايات عن ثور أبيض أرعب السكان وأخيراً ظهر القرآن محلقاً بشكل إعجازي بين قرنيه. ويقال أنَّ محمداً دَرّب حمامة على نقر الحب من أذنيه بحيث تبدو كأنها الروح القدس وهو يهمس فيهما. وجرى تفسير تجاربه الصوفية بالقول إنه كان مصروعاً أي مسكوناً بشياطين. وقد تم التركيز على حياته الجنسية بشكل مسرف بالقول: كان مثالاً للمنحرفين، وقيل إنه كان يجذب الناس إلى دينه من خلال تشجيعهم على إشباع غرائزهم الأكثر انحطاطاً. ثم زعموا أن لا شيء في ادعاءات محمد صحيح: كان دجالاً بارد الدم خدع كل أتباعه تقريباً. ومن رأى من أتباعه أن أفكاره مخالفة للعقل بقي صامتاً لطموح خسيس في نفسه. حقيقة كانت الطريقة الوحيدة التي مكنت المسيحيين الغربيين من تفسير الرؤية الدينية الرائعة والمقنعة التي جاء بها محمد هي إنكار وجود الوحي فيها. وهذا يعني أن الإسلام كان ـ بالنسبة لهم ـ أحد أشكال الانفصال عن المسيحية، هرطقة الهرطقات. كما زعموا أن شخصاً يدعى سيرجيوس ـ راهب هرطقي ـ كان قد أجبر على الهروب من المسيحية، قابل محمداً في الجزيرة، وزوده بنسخة مشوهة عن المسيحية. ولولا السيف لما قدر للمحمدية أن تزدهر حسبما كانوا يقولون. فالنقاش الديني الحر بزعمهم كان أمراً محظوراً في أرجاء الامبراطورية الإسلامية. وقد انتهى

محمد وِفْق زعمهم نهاية مناسبة له: فقد مَزَّقَ قطيع من الخنازير جسده أثناء واحدة من تشنجاته الشيطانية.

تعكس بعض تفاصيل هذه الحكايات المخاوف المسيحية تجاه هويتهم الناشئة. وإلى فترة الحملات الصليبية تعود بداية اتهام الإسلام بأنه «دين السيف». ولا شك أنه في هذه الفترة بدأ المسيحيون يعانون من قلق دفين من هذا الشكل العدواني الذي اتخذته عقيدتهم والذي لم يكن له علاقة مع الرسالة السلمية التي نادى بها يسوع. لقد فرضت الكنيسة رهبنة قاسية على رجال الدين رغماً عنهم، لهذا يتضح أن القطع الوصفية المدهشة لحياة محمد الجنسية تكشف عن الكبت الذي كان يعاني منه المسيحيون أكثر مما تكشف عن حقائق تتعلق بحياة النبي.

هناك إيقاع حسد وغيرة في هذا التصوير للإسلام على أنه دين انغماس شهواني ودين يسر. حقيقة كان الغرب هو من منع النقاش العلني للمسائل الدينية وليس الاسلام. ففي فترة الحملات الصليبية بدت أوروبا ممسوسة برغبة من أجل انسجام فكري، وكانت تعاقب كل منحرف عن ذلك بحماسة كانت فريدة في تاريخ الدين. فملاحقة محاكم التفتيش للساحرات، واضطهاد الكاثوليك للبروتستانت والعكس صحيح، كانت تلهمها آراء ثيولوجية مبهمة، تعتبر في اليهودية والإسلام مسائل خاصة واختيارية. لم تكن اليهودية والإسلام يُشاركان المسيحية في مفهومها للهرطقة التي تثير أفكاراً إنسانية حول المقدس إلى مستوى عالٍ غير مقبول، جاعلة من هذه الأفكار شكلاً من أشكال الوثنية. كذلك كانت فترة الحملات الصليبية عندما، ترسخت صورة «ماهوند»، القصصية فترة توتر شديد وإنكار للدين في أوروبا، وتم التعبير عنهما تصويرياً في الرهاب من الإسلام.

وهكذا فقد أصبح جلياً ان المسيحيين الغربيين لن يتمكنوا من استيعاب تجمعات دينية وأيديولوجية مختلفة ضمن نظمهم كما فعل المسلمون ذلك بكل نجاح أو البيزنطيون. كانت اليهودية هي الدين الغريب الوحيد على التراب الأوروبي، لذلك بدأ الصليبيون الأوَّل رحلتهم إلى منطقة شرق المتوسط بذبح التجمعات اليهودية على طول وادي الراين، في أول مذبحة جماعية منظمة في أوروبا. وهكذا أصبحت معاداة السامية مرضاً أوروبياً عضالاً خلال الفترة الصليبية.

ففي الوقت الذي كان فيه المسيحيون يطورون الأساطير حول «ماهوند» والعرب كانوا يؤلفون حكايات مرعبة عن اليهود. لقد قيل عن اليهود إنهم يقتلون الأطفال ويمزجون دمهم في خبز المناولة، وإنهم يدنسون القربان المقدس وإنهم متورطون في مؤامرة دولية لقلب المسيحية. بينما لا نجد في العالم الإسلامي مثيلاً لهذه الأساطير عن اليهودية.

إن هذه الأساطير تكشف عن اضطراب غير صحي، وعن مرض في النفسية الغربية.

ماالذي حدث لعشرات الآلاف من المسلمين داخل حدود المسيحية في اسبانيا وصقلية بعد فتحهما؟

لقد فرضت المؤسسة الدينية سبيلاً وحيداً للتعامل مع هؤلاء الأجانب. لقد اتبعت سياسة تمييز عنصري رسمية. فقد منعت المسيحيين من إقامة أي احتكاك مع جيرانهم المسلمين واليهود. وصدر تشريع كنسي خاص ربط بين الاثنين كعدوين مشتركين في مجلسي **لاتيران** المنعقدين في عامي ١١٧٩، ١٢١٥ . لقد حُظّر على المسيحيين القيام بأعمال في منازل المسلمين أو اليهود، وهُددوا جرّاء ذلك بالمقاطعة ومصادرة أملاكهم وكذلك إذا اعتنوا بأطفالهم، أو تاجروا معهم، أو حتى إذا أكلوا معهم. وقد أضاف البابا **غريغوري** التاسع البنود التالية في عام ١٢٢٧: ينبغي على المسلمين واليهود أن يرتدوا ملابس تميزهم عن غيرهم، وينبغي ألا يخرجوا إلى الشوارع العامة أثناء الاحتفالات المسيحية،أو أن يشغلوا وظائف عامة في البلدان المسيحية، وكان محرماً على المؤذن أن يؤذن داعياً الناس إلى الصلاة لأن ذلك يسيء إلى مسامع المسيحيين.

لقد أعلن البابا **كليمنت الخامس** (١٣٠٥ ـ ١٣١٤) أن الوجود الإسلامي على التراب المسيحي إهانة لله. وكان المسيحيون قد بدؤوا يزيلون هذه (الفاحشة) كما كانوا يسمونها، قبل هذا الإعلان. وفي عام ١٣٠١ كان **شارل أنجو** ملك فرنسا قد استأصل آخر المسلمين في صقلية وجنوبي إيطاليا في معتقل **لوسيرا** Lucera الذي وصفه بـ «عش للطاعون... شنيع في تلوثه ـ الوباء العنيد والعدوى القذرة في أبوليا (Apulia)»[٩] . وبحلول عام ١٤٩٢ دمر المعقل الإسلامي الأخير

عندما استولى **فرديناند وإزابيلا** على **غرناطة**. لقد دقت أجراس الكنائس في أرجاء أوروبا تعبيراً عن الفرحة بهذا الانتصار المسيحي على الكفار. وبعد سنوات قليلة تم تخيير المسلمين الاسبان بين الترحيل أو تغيير دينهم، ففضل كثيرون مغادرة أوروبا، بينما تحول البعض إلى المسيحية، فتعرضوا هم وأحفادهم للإضطهاد على يد محاكم التفتيش الاسبانية طوال /٣٠٠/ سنة تلت. وهكذا فقد حلت روح شهداء قرطبة محل التسامح القديم، وبدا أن المسيحيين كانوا مسكونين بخوف من المسلمين المتخفين الذين كانوا يعيشون بينهم، وينظرون إليهم كأعداء سريين للمجتمع.

كثيراً ما تجلى هذا الموقف الغربي غير الصحي تجاه الإسلام في رد فعل فصامي. وهكذا بدا الامبراطور الروماني المقدس فريدريك الثاني متأسلماً، لأنه كان يحس أنه في بيته في العالم الإسلامي أكثر مما كان يحس ذلك في أوروبا المسيحية. وفي الوقت ذاته كان يقتل المسلمين بشكل منظم ويجليهم عن صقلية. كذلك الأمر نجد أنه في الوقت الذي كان المسيحيون يسفكون دماء المسلمين في الشرق الأدنى كان آخرون يجلسون عند أقدام علماء المسلمين في اسبانيا. لقد تعاون علماء مسيحيون ويهود ومستعربوين في مشروع ترجمة ضخم، فجلبوا إلى الغرب المعرفة التي كانت متوافرة في العالم الإسلامي، وأعادوا إلى أوروبا الحكمة القديمة والكلاسيكية التي أضاعتها خلال العصور المظلمة. فالفيلسوفان المسلمان **ابن سينا وابن رشد** كانا مبجلين كمنارتين فكريتين، وقد وجد الناس صعوبة في استيعاب حقيقة كونهما مسلمين أيضاً. وقد صورت هذه المشكلة في /الكوميديا الالهية/ لدانتي. فابن سينا وابن رشد هما في الليمبو Limbo أي الجحيم مع الوثنيين الفاضلين الذين أسسوا الثقافة الفكرية، والذين ساعدوا الغرب على اكتسابها، من أمثال **اقليدس، بطليموس، سقراط، أفلاطون**، وأرسطو. أما **محمد** شخصياً فقد تخيله دانتي في الدائرة الثامنة من الجحيم مع المنشقين. إنه يتعرض لعقاب مقيت تحديداً........(١٠*)

(*) تأتي المؤلفة بأبيات قبيحة من الكوميديا الالهية لدانتي لتبين للغربيين مدى الانحطاط الخلقي حتى عند كبار شعرائهم وقد رأينا حذف هذه الأبيات من الترجمة العربية لما فيها من بذاءة إضافة إلى أن حذفها لاينتقص من الغرض التي سعت المؤلفة إلى إبرازه .

لقد ظل **دانتي** غير قادر على الاعتقاد بأن محمداً كانت له رؤياه الدينية المستقلة. بل كان يراه مجرد منشق عن الدين الأم. وتكشف الصورة الداعرة التي رسمها دانتي عن الكراهية التي يثيرها الإسلام في صدر المسيحي، وتصور أيضاً الشرخ الموجود في النفس الغربية التي ترى الإسلام كصورة لكل شيء لاتستطيع أن تهضمه. كما أنَّ الخوف والكراهية اللّذين هما إنكار تام لرسالة المحبة التي نادى بها يسوع يمثلان أيضاً جرحاً غائراً في سلامة المسيحية الغربية.

مع ذلك حاول آخرون الوصول إلى رؤية أكثر موضوعية. وما يبعث على الطرافة أنه في الوقت الذي تم دمج اليهود والمسلمين معاً في المخيلة المسيحية الغربية كعدو مشترك للحضارة ظهرت أول صورة إيجابية لمحمد في الغرب قدمها **بيتر الفونسي** وهو يهودي اسباني تحول إلى المسيحية في عام ١١٠٦ ، ثم عاش في انجلترا طبيباً لهنري الأول. لقد كان **بيتر** هذا معادياً للإسلام، لكنه يقدمه كخيار قد يقوم به الشخص الذي لم يسبق له الالتزام بالدين «الحق». وعندما كان الحقد المعادي للإسلام في ذروته في عام ١١٢٠ كان **وليم مالمسبري** أول أوروبي يميز الإسلام عن الوثنية. «فالعرب والأتراك يعبدون الله الخالق ويبجلون محمداً لا كإله لهم بل كنبي»[١١]. كان كثيرون من الغربيين مترددين في قبول هذا الرأي: كان بعضهم يشعر بالدهشة لدى سماع أن لدى المسلمين الله نفسه الذي لدى المسيحيين واليهود. إنهم يتخيلون أن «الله» إله مختلف كلياً مثل **جوبيتر** في البانثيون الروماني. بينما يميل آخرون إلى الاعتقاد أن المحمديين يبجلون نبيهم مثلما يبجل المسيحيون المسيح.

إن صعوبة فصل الحقيقة عن الخيال واضحة في كتاب /تاريخ شارلمان/ المنسوب إلى **توربان** Turpin الذي كتبه قبل عام ١١٥٠ . تصور هذه الرومانسية العرب الوثنيين يعبدون محمداً إلى جانب أبولو وتيرفاغانت بالطريقة المعتادة. لكننا نجد في منتصفها المناقشة العقلانية بين رولان والعملاق المسلم فيراكوتوس ويظهر فيها أن المسلمين يعبدون الله الواحد الأحد. وفي الفترة ذاتها تقريباً أنكر المؤرخ **أوتو فريزنغ** الأسطورة القائلة بوثنية المسلمين:

> من المعروف تماماً أن العرب يعبدون الله الواحد الأحد، ويرحبون بشريعة العهد القديم وشعيرة الختان، ولا يتهجمون على المسيح أو

الرسل. إنهم بعيدون عن الخلاص لإنكارهم أن يسوع هو الله، أو ابن الله، ولأنهم يبجلون الغاوي محمد على أنه نبي الله العلي[١٢] العظيم.

مع حلول منتصف القرن الثاني عشر بدأت تنتشر رؤية أكثر دقة ـ عن الإسلام؛ لكن هذه الموضوعية لم تكن قوية بما يكفي لدحر أساطير العداء. لقد عاشت الحقيقة والوهم جنباً إلى جنب، فكان الحقد القديم يظهر عند تناول بعض النقاط عندما كان الناس يحاولون أن يكونوا منصفين فعلاً. بقيت النظرة السائدة لمحمد دجالاً ومنشقاً، علماً أن لدى **أوتو** نظرة أكثر عقلانية لدين محمد.

المحاولة الأكثر موضوعية حول الإسلام هي تلك التي قام بها في القرن الثاني عشر **بطرس** المبجل، رئيس دير **كلوني** Cluny، الذي تميَّز بنزعته الانسانية. في عام ١١٤١ قام بجولة على الأديرة **البندكية** في **اسبانيا** المسيحية، وكلّف فريقاً من علماء مسلمين ومسيحيين برئاسة الإنجليزي **روبرت كيتون** بترجمة بعض النصوص الإسلامية، وقد اكتمل هذا المشروع في عام ١١٤٣ . لقد أنتجوا أول ترجمة لاتينية للقرآن، ومجموعة من الأساطير الإسلامية، وتاريخاً إسلامياً للعالم، وشرحاً للتعاليم الإسلامية، ومؤلفاً في اللاهوت الجدلي بعنوان /دفاع الكندي/. لقد كان هذا المشروع مأثرة عظيمة أمدت الناس في الغرب، ولأول مرة، بسبل للقيام بدراسة جادة للإسلام، لكن هذا المشروع لم يحقق إلا القليل، إذ في هذه الفترة كان المسيحيون يتعرضون لهزائم كبيرة في الولايات الصليبية في الشرق الأدنى. فعمت موجة جديدة من المشاعر العدائية للمسلمين أشرف عليها **برنار** رئيس دير **كليرفو** Clairvoux وبالتالي لم يكن الوقت ملائماً للقيام بدراسة موضوعية للقرآن. لقد كتب بطرس كتابه الذي توجه إلى العالم الإسلامي برفق ومحبة[١٣]:

«إنني أتوجه إليكم لا بالسلاح ـ كما يفعل الرجال غالباً ـ بل بالكلمات، لا بالقوة بل بالعقل، لا بالحقد بل بالحب... إنني أحبكم ولذلك فإنني أكتب إليكم لأدعوكم إلى الخلاص».

لكن كتابه هذا جاء تحت عنوان /موجز الهرطقة الكلية التي جاءت بها طائفة الشرقيين الشيطانية/ وقد كُتِب باللاتينية. لذا فانه كان من الصعب أن يجد كثير من المسلمين الطيبين أي نوع من التجاوب مع مثل هذا السلوك حتى لو قدروا على

قراءة النص اللاتيني. حتى رئيس الدير الذي أوضح معارضته للتعصب في عصره إلا أنه في مناسبات أخرى أظهر دلائل على عقلية فصامية أوروبية تجاه الإسلام. فعندما قاد الملك لويس السابع، ملك فرنسا، الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق الأوسط في عام ١١٤٧ كتب بطرس إليه قائلاً إنه يأمل أن يقتل الكثير من المسلمين مثلما قتل موسى ويشوع العموريين والكنعانيين[١٤].

في مطلع القرن الثالث عشر حاول رجل دين مسيحي آخر الاتصال المباشر مع مسؤولين إسلاميين ليحاورهم بلغة دينية هادئة. كان هذا الرجل ويُدعى **فرنسيس الأسيسي**، قد ظهر في معسكر الحملة الصليبية الخامسة الفاشلة (١٢١٨ ـ ١٢١٩) في دلتا النيل. اجتاز خطوط معسكر الصليبيين، ودخل في معسكر المسلمين، وطلب أن يأخذوه إلى السلطان الكامل. يقال إنه أمضى ثلاثة أيام مع السلطان يشرح له رسالة الانجيل ويحثه على اعتناق المسيحية. وبما أنه لم يوجه إهانة لذكر النبي محمد فقد أصغى له المسلمون جيداً، وبدا عليهم أنهم تأثروا بهذا الرجل الذي كان يرتدي أسمالاً متسخة. وعندما غادر الأسيسي قال الكامل: «صلِّ من أجلي، عسى أن يتلطف الله بي فيريني الشريعة والدين اللذين يجلبان رضاه». ثم أعاد الأسيسي إلى المعسكر المسيحي بكل مظاهر التقدير والاحترام، سالماً تماماً[١٥].

قبل أن ينطلق **فرنسيس الأسيسي** إلى الشرق كان قد أوفد مجموعة من رهبانه ليعظوا المسلمين في اسبانيا وأفريقيا، فتعامل هؤلاء مع الإسلام بروح مختلفة تماماً عن تناوله هو. فلدى وصولهم اشبيلية لجؤوا إلى أساليب شهداء قرطبة. في البداية اندفعوا إلى داخل المسجد أثناء صلاة الجمعة، وعندما طُرِدوا خارجه أخذوا يشتمون النبي خارج قصر الأمير بصوت عالٍ. لم يكن هناك سبيل للوصول إلى العرب بالرحمة والمحبة أثناء هذه المغامرة التبشيرية الرئيسية ضد الإسلام. ذلك لأن الفرنسيسكان لم يكونوا مهتمين بكسب المسلمين إلى المسيحية، بل كانوا يريدون استخدامهم من أجل الفوز بإكليل الشهادة. لقد أصبحوا صاخبين جداً إلى درجة أن السلطات ـ التي تضايقت كثيراً من هذه الحادثة ـ اضطّرت إلى زجهم في السجن، وكانوا يرحلونهم من سجن إلى آخر تجنباً لانتشار أمرهم. وكانت السلطات مترددة في إصدار حكم الموت عليهم، لكن خشية المسيحيين المتعربين المحليين من أن يهدد هؤلاء المتعصبون مركزهم دفعتهم إلى مناشدة السلطات أن

تتخلص منهم. وفي نهاية المطاف تم ترحيلهم إلى سبتة في المغرب حيث ذهبوا إلى المسجد مباشرة وسبوا النبي اثناء اجتماع الناس لصلاة الجمعة مما اضطر السلطات إلى قتلهم. ومن المعتقد أنه عندما سمع فرنسيس حكايتهم صاح مسروراً: «الآن أعرف أنّ لدي خمسة رهبان صغاراً»[١٦].

يبدو أن هذا الموقف كان سمة مميزة للبعثات الفرانسيسكانية اللاحقة. ففي عام ١٢٢٧ أعدمت مجموعة أخرى في المدينة نفسها. لقد كتبوا إلى أوطانهم قائلين إن الهدف الرئيس من بعثهم كان «الموت واللعنة على الكافرين»[١٧]. لقد ذهب آخرون إلى الأراضي المقدسة. إلاّ أن جيمس ڤيتري Vitray أسقف أكري Acre لم يكن موافقاً على أساليبهم فقد كتب:

> **يستمع العرب بمحض إرادتهم إلى الرهبان الصغار عندما يتحدثون عن دين المسيح وتعاليم الاناجيل. لكن عندما تتعارض كلماتهم صراحة مع محمد ــ الذي كانوا يصورونه في مواعظهم كذاباً وغداراً ــ عند ذلك كانوا يضربونهم دون رحمة، ولو لم يحمهم الرب بأعجوبة لكانوا على وشك قتلهم وطردهم من مدنهم[١٨].**

خلال العصور الوسطى، حتى عندما كان الناس يحاولون أن يكونوا منصفين وموضوعيين، أو عندما كانوا يحاولون الاقتراب من العالم الإسلامي ومعهم الرسالة المسيحية، كانت تتفجر فيهم العداوة التي كانت تتخذ أحياناً شكلاً عنيفاً. ففي نهاية القرن الثالث عشر ارتحل العلامة الدومينيكاني **ريكولدو دامونتي كروسي** إلى البلدان الإسلامية، فأثرت فيه التقوى التي شاهدها فكتب عن ذلك: «إن موقف المسيحيين من المسلمين يبعث على الخجل مقارنة بورع المسلمين وتقواهم.» لكنه عندما عاد إلى موطنه ليكتب /تاريخ النزاع مع العرب المسلمين/ أعاد الاساطير القديمة بكل بساطة. كانت الصورة الغربية عن الإسلام قد بدأت تحظى بسلطة أقوى من أية صورة تكتسب من خلال الاحتكاك مع المسلمين الحقيقيين، مهما تكن الصورة إيجابية. لقد وجد الغرب روحه أثناء عصر الصليبيين وبالامكان إرجاع معظم انفعالاتنا وحماستنا المميزة إلى تلك الفترة. ونلمح هذا عند **أمبيرتو إيكو** في مقالته /أحلام العصور الوسطى/:

حقاً، إن الأمريكيين والأوروبيين هم ورثة التركة الغربية. فقد ظهرت جميع مشكلات العالم الغربي في العصور الوسطى: لغات حديثة، مدن تجارية، اقتصاد رأسمالي (بنوك، شيكات، وفائدة) هي اختراعات المجتمع الوسطوي. وفي العصور الوسطى نشهد نشوء الجيوش الحديثة، ونشوء المفهوم الحديث للدولة القومية إضافة إلى فكرة الإتحاد المدعّم بالعناية الإلهية (تحت لواء امبراطور ألماني يختاره مجلس يمثل مؤتمراً انتخابياً) وكذلك الصراع بين الأغنياء والفقراء، ومفهوم الهرطقة أو الانحراف الأيديولوجي وحتى مفهومنا المعاصر للحب كسعادة مدمّرة تجلب التعاسة. وأستطيع أن أضيف النزاع بين الكنيسة والدولة، واتحادات العمال (على الرغم من شكلها التعاوني) والتحول التكنولوجي لعمل العمال[١٩].

كان باستطاعته كذلك أن يضيف مشكلة الإسلام. فبعد العصور الوسطى استمر الغربيون في السير على خطا الأساطير القديمة وعلى الرغم من المحاولات التي بذلت من أجل الوصول إلى نظرة أكثر إيجابية وموضوعية، وبالرغم من إجماع العلماء على أن الإسلام ونبيه لم يكونا الظاهرة الوحشية التي تخيلها الناس إلا أن العداوة القديمة بقيت.

لقد بقيت الصورة الوهمية عن الاسلام التي نشأت على أيدي شهداء قرطبة، واستمرت خلال الفترة الصليبية، مع أنها لم تكن موضوعاً رئيساً. ففي عام ١١٩١ بينما كان **ريتشارد قلب الأسد** يشد الرحال إلى الأرض المقدسة على رأس الحملة الصليبية الثالثة، اجتمع في مدينة مسينا الصّقلية بالمتصوف الإيطالي الشهير **يواكيم الفيوري**، فأكد له هذا أنه سيهزم **صلاح الدين**. ومع أنه أخطأ في نبوءته، إلا أنه أبدى ملاحظات أخرى مثيرة. إذ ذكر أن نهاية العالم وشيكة، وأن الإسلام القوي هو أحد الوسائل الرئيسة للمسيح الدجّال، لكنه أضاف أن المسيح الدجّال كان يعيش آنئذ في روما، وأن الأقدار ستنصبه بابا روما. حقيقة كان نقد الأوربيين لمجتمعاتهم قد أخذ يتزايد كما تزايد وعيهم بنقائضها وهذا كله جعلهم يربطون بين الاسلام والعدو الداخلي. وقد قام المصلحون بالمماثلة نفسها بين البابوية الكافرة (عدوهم الرئيس) والإسلام. فالمصلح الانجليزي **جون وايكلف** يماثل بين عيوب

الإسلام وعيوب الكنيسة الغربية في عصره: التكبر ، الجشع، العنف والشهوة للسلطة والتملك. لقد كتب مشيراً إلى الكنيسة الغربية ككل: «نحن المحمديون الغربيون ـ (وهو يعني بذلك الكنيسة الغربية عموماً) ـ على الرغم من أننا قلة في جسم الكنيسة كله، نعتقد أن العالم سيضبط وفقاً لتقديرنا، ويرتجف عندما نصدر أمرنا»[٢٠]. وأنه مالم تعد الكنيسة إلى روح الأناجيل الحقة وإلى الزهد الإنجيلي فإن الروح الإسلامية هذه ستهيمن في الغرب كما هيمنت في الشرق. لقد كانت مقولاته تلك مؤشراً على تحوّل دقيق للعادة القديمة التي تجعل من الإسلام ونبيه النقيض لكل شيء كنا «نأمل» أو «نخشى» من أن نكونه.

لقد اعتمد وايْكْلِفْ على معلومات كثيرة لا يعتمد عليها، لكنه قرأ القرآن مترجماً فاعتقد أنه وجد نقاطاً هامة مشتركة تسمح له بالمقارنة بين محمد والكنيسة في روما. فقد جادل بأن محمداً كان ـ مثله مثل الكنيسة ـ لايبالي بالكتاب المقدس، فكان ينتقي منه مايلائمه ويهمل الباقي. لقد رأى أن محمداً قام ببدع شكلت عبئاً إضافياً على المؤمنين، شأنه في ذلك شأن التراتبات الدينية، وفوق كل ذلك منع أي نقاش حر في أمور الدين مثلما فعلت الكنيسة. لقد استند وايكلف في ذلك إلى تفسيره بعض الآيات القرآنية بطريقة تفوح منها رائحة التعصب القروسطي القديم. إن الآيات القرآنية التي استند إليها لا تمنع النقاش الديني بحد ذاته، بل تشير إلى أن بعض النقاش اللاهوتي كان سبباً في الشقاق في أديان التوحيد الأكثر قدماً، فأدى ذلك إلى جعلهم طوائف متحاربة. فبعض الأفكار عن ذات الله لا يمكن أن تكون إلا تخمينية تأملية: فعلى سبيل المثال لم يتمكن أحد من إثبات معتقد التجسيد، الذي دفع محمداً إلى الاعتقاد بأن بعض المسيحيين قد أضافوه إلى رسالة النبي عيسى الأصلية. كما قارن وايْكْلِف التعصب الإسلامي المزعوم بموقف الكنيسة تجاه مؤسسات معتقدية إشكالية مثل القربان المقدس، الذي يأمر المسيحيين أن يؤمنوا دون فهم بأشياء لم يكونوا يفهمونها.

لقد سار **لوثر** والمصلحون الآخرون البروتستانت على هذا المنوال. إذ واجه في أواخر حياته الهجوم المرعب الذي كان يشنّه الأتراك العثمانيون في أوروبا، وقد دفعه هذا إلى الغرق في كابوس شهداء قرطبة، واعتقد أن من المحتمل أن يبتلع الإسلام

المسيحية تماماً. وفي مقدمته لكتاب **ريكولدو دامونتي** (إقامة الدليل) الذي ترجمه ونشره عام ١٥٤٢، يذكر أنه قد قرأه قبل سنوات خلت، لكنه وجد أن من المحال قبول أن يؤمن الناس بأكاذيب فاضحة كهذه. أراد أن يقرأ القرآن لكنه لم يتمكن من العثور على ترجمة لاتينية له. وهذا، كما يشير ر. و. **ساوثرن**، يعطي دلالة على المستوى المتدني للدراسات الإسلامية، التي كانت في حدها الأدنى في القرن السادس عشر، لكنه بعد أن وصلته نسخة مترجمة ،كما يقول، أدرك أن **ريكولدو** قد قال الحقيقة. فقد تساءل أيكون محمد والمسلمون هم ذاك (المسيح الدجال)؟ فأجاب بأن الإسلام ماهو إلاّ دين ساذج في نظره بحيث لايستطيع تحقيق هذا المصير المرعب للبشرية. لكن العدو الحقيقي في نظره هو البابا والكنيسة الكاثوليكية، وما دامت أوروبا متعلقة بعدوها الداخلي فإنها تعرض نفسها إلى خطر الهزيمة على يد المحمديين. لقد طرح **زفنغلي** Zwingli ومصلحون آخرون أفكاراً مماثلة فقد اعتبروا روما هي «رأس» المسيح الدجال والمحمديين هم «الجسد». يوضح هذا التطور البروتستانتي أن الإسلام قد تم إدخاله كشأن داخلي في أوروبا، فأصبح رمزاً لشر مطلق في مشاعر حياتهم. وكما يفسر **نورمان دانييل** في دراسته الدقيقة /العرب وأوروبا في العصور الوسطى/: لم يعد الاسلام حقيقة تاريخية خارجية بالإمكان دراستها دراسة نقدية مثل أية حقيقة أخرى. ذلك لأن المصلحين قدموا فكرة الإسلام كحالة داخلية بالإمكان إلصاقها بأعداء المعتقد النقي (مهما يكن تعريف الكاتب له). وهكذا فقد كانوا فعلاً يحولون الاسلام الى شخصية داخلية باعتباره العدو «دون تمييز»، العدو الذي ظل ماثلاً في المخيلة الأوروبية منذ أمد بعيد[٢١]. ويضرب دانييل مثالاً على ذلك، الكاثوليك والبروتستانت المتخاصمين إذ كل منهما يماثل الآخر بالإسلام، لكن مع فهم يسير لما تتضمنه هذه المقارنة فعلاً. فالمبشر الكاثوليكي م. **لوفيبفر** الذي عاش في القرن السابع عشر، رأى المسلمين بمثابة «بروتستانت محمديين» يؤمنون بالتبرئة الدينية أي أن إيمان البشر يبرر أفعالهم: «إنهم يأملون غفران جميع ذنوبهم شرط الإيمان بمحمد». لكن كاتب الرحلات البروتستانتي **ل.ر. راوولف**، الذي عاش في القرن الثامن عشر رأى المسلمين «ككاثوليك محمديين»: «إنهم يسعون إلى تقواهم المبتكرة في أعمال الخير والصدقات والصلاة

والصوم، وإطلاق سراح الأسرى الخ كي ينالوا مرضاة الله»[٢٢]. في العصور الوسطى لم يكن المسيحيون قادرين على أن يروا الإسلام إلاّ كنسخة مشوهة عن المسيحية، ولفقوا أساطير كي تبين أن محمداً قد لقنه أحد الهراطقة. وفي مرحلة تالية، وعلى ضوء انقسامات داخلية جديدة في المسيحية، استمر الغربيون في رؤية محمد ودينه بكلمات مسيحية أساساً، فبدوا غير مهتمين بالحقيقة التاريخية الموضوعية ولايبدو أنه خطر لهم أن لدى المسلمين نقاطاً تثير حماستهم الخاصة بهم وأن هذه النقاط لا يمكن تعريفها بشكل وافٍ بالرجوع إلى الممارسة المسيحية.

لكن في عصر النهضة حاول غربيون آخرون بلوغ فهم للعالم الإسلامي أكثر موضوعية. كانوا يحملون تقاليد وطموحات بطرس المبجل. وقد استمر في حملها باحثون في القرن الخامس عشر من أمثال **جون سغوفيا ونقولا الكوزى** . ففي عام ١٤٥٣، تماماً بعد أن استولى الأتراك على امبراطورية بيزنطة المسيحية جالبين معهم الإسلام إلى عتبة أوروبا، أشار **جون سغوفيا** إلى أنه ينبغي إيجاد طريقة للتعاطي مع التهديد الإسلامي لأن هذا الخطر لن يهزم أبداً بالحرب أو بالنشاط التبشيري التقليدي. بدأ بترجمة جديدة للقرآن بالتعاون مع قاضٍ مسلم من **سالامنكا**. واقترح أيضاً فكرة مؤتمر دولي يتم خلاله تبادل الآراء بين المسلمين والمسيحيين. لكن جون توفي في عام ١٤٥٨، قبل أن ياتي أي من مشروعيْه ثماره، إلّا أن صديقه **نقولا الكوزى** بقي متحمساً لهذا التوجه الجديد. فقد كتب في عام ١٤٦٠ كتابه /منخل القرآن Cribratio Alchoran/ الذي لم يسر فيه على مسارات لاهوتية جدلية حسبما كان مألوفاً لكنه حاول استخدام التصنيف الأدبي والاختبار اللغوي والتاريخي للنص الذي كان جون قد اعتبره اساسياً. كانت الدراسات العربية قد تأسست في أثناء عصر النهضة، وهذا التوجه الموسوعي التحرري أدى إلى تقييم للعالم الإسلامي أكثر واقعية، وإلى التخلي عن المواقف الصليبية الفظة. لكن القبول المتزايد للحقائق لم يكن كافياً لتحييد الحقد القديم الذي كان له سيطرة قوية على المخيلة الغربية.

كان هذا شديد الوضوح في عام ١٦٩٧ ، في بداية عصر التنوير عندما تم نشر كتابين مؤثرين الأول /البيبلوغرافيا الشرقية/ للكاتب **بارتلمي ديربلوت**، الذي بقي المصدر المرجعي الأكثر وثوقية في الدراسات الإسلامية والشرقية في إنجلترا

وأوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر، وقد عُدَّ أول /موسوعة عن الإسلام/. لقد استخدم مؤلفه مصادر عربية وتركية وفارسية، وقام بجهد حقيقي للابتعاد عن أصحاب التوجه المسيحي العقيم: حيث قدم عروضاً مختلفة لأساطير خلق الكون التي كانت منتشرة في الشرق. فكان هذا التوجه إيجابياً ودليلاً على روح صحية أكثر. لكننا نجد تحت عنوان محمد هذه المداخلة المألوفة المسيئة والمحزنة:

> **هذا هو الدجّال الشهير محمد، مؤلف ومؤسس هرطقة، أسبغت اسمه على دينه، محمدي.**
>
> **إن شارحي القرآن وفقهاء الشريعة الإسلامية أو المحمدية أطلقوا على هذا النبي المزيف كل المديح الذي أطلقه الآريانيون Arians وأنصار القديس بولُس والهراطقة الآخرون على يسوع المسيح إلاَّ أنهم يجردونه من الألوهة(٢٣).....**

فعلى الرغم من أن ديربلوت كان مدركاً للإسم الذي أُطلق على الدين فإنه استمر في تسميته «محمدي» لأن هذا هو الاسم الذي «نَـ» ستخدمه ولأن العالم المسيحي كان مايزال يرى النبي بأسلوب مشوه، فيرى فيه نسخة دونية «عَنَّا».

في السنة ذاتها نشر المستشرق الإنجليزي **همفري بريدو** كتابه: محمد الطبيعة الحقيقية للدجل. فالعنوان بحد ذاته يوضح أن الكاتب قد تشرب الحقد القديم الوسطوي، فهو يشير إلى **ريكولدو دامونتي** كمصدر رئيس من مصادره، ومع ذلك زعم أنه قد بلغ نظرة أكثر عقلانية واستنارة للدين أكثر مما كان ممكناً في القرون الوسطى الخرافية القاتمة. لقد جادل أن الإسلام ليس فقط مجرد محاكاة للمسيحية، بل كان مثالاً جلياً على البلاهة التي قد تغوص إليها جميع الأديان، والمسيحية من ضمنها إذا لم تكن مرتكزة بقوة على صخرة العقل. يفترض أن يكون عصر العقل قد حرّر الناس من التعصب الديني المُشِلّ الذي كان سائداً في الفترة الصليبية، لكننا نجد بريدو يكرر جميع الهواجس اللاعقلانية القديمة التي كانت تُغلِّف الأذهان في الماضي. لقد كتب عن محمد مايلي:

> **في القسم الأول من حياته سلك درباً شريراً وشهوانياً، كان يجد متعة كبيرة في السلب والنهب وسفك الدماء كعادة العرب الذين عاش معظمهم هذا النوع من الحياة. كانوا يقاتلون بعضهم من أجل**

السلب وأخذ ما يمكنهم أخذه.

> **كان نهباً لانْفِعالَيْن هما: الطموح والشهوة. فالسبيل الذي سلكه كي يحقق امبراطورية دليل بيِّن على الأول، وحشد النساء الذي كان لديه يثبت الثاني. في الحقيقة يجري هذان الاثنان في إطار دينه كله. فقلما تجد سورة في قرآنه لا يضع فيها تشريعاً للحرب وسفك الدماء من أجل تحقيق الأول، أو تبيح الحرية لاستخدام النسوة هنا، أو يقدم وعداً بالتمتع بهن في الآخرة إرضاء للآخر.[٢٤]**

خلال القرن الثامن عشر حاولت بعض الجهود الارتقاء إلى فهم أكثر دقة للإسلام. ففي عام ١٧٠٨ أنتج **سيمون أوكلي** المجلد الأول من كتابه /تاريخ العرب المسلمين/ الذي أقلق الكثيرين من قرائه لأنه لم يقدم الإسلام كانعكاس لدين السيف، بل حاول أن يرى جهاد القرن السابع من وجهة نظر إسلامية. وفي عام ١٧٣٤ نشر **جورج سال** ترجمة إنجليزية ممتازة للقرآن، وما تزال تعد دقيقة مع أنها مملة قليلاً. وفي عام ١٧٥١ نشر **فرانْسْوَا فولتير**/ طبائع الأمم وروحها/ دافع فيه عن محمد كمفكر سياسي عميق ومؤسس دين عقلاني حكيم، واستنتج أن نظام الحكم الإسلامي كان دائماً أكثر تسامحاً من التراث المسيحي. أما المستشرق الهولندي **يوهان يعقوب ريسكي** (ت ـ ١٧٧٤)، الذي كان علَّامة في اللغة العربية، فقد تمكن من أن يرى مزية المقدس في حياة محمد وخُلُق الإسلام (لكن جهوده هذه تعرضت لملاحقة مسعورة من زملائه). في القرن الثامن عشر راحت تتطور أسطورة تُصوِّرُ محمداً رجلاً حكيماً مبشراً عقلانياً بعصر التنوير. وأما **هنري، كونت دو بولانڤييه** فقد نشركتابه /حياة محمد/ في باريس عام ١٧٣٠ وفي لندن عام ١٧٣١ وقد صور فيه النبي محمداً كمبشّر بعصر العقل. لكنه اتفق مع من سبقه من القروسطيين بأن محمداً قد صاغ دينه كي يصبح سيد العالم فقلب التراث رأساً على عقب. لم يكن الإسلام حسبما قال كالمسيحية، بل كان تراثاً طبيعياً غير موحى، من هنا تأتي روعته التي تدعو إلى الإعجاب به. كان محمد بطلاً عسكرياً عظيماً مثل يوليوس قيصر والاسكندر الكبير. كانت هذه نزوة أخرى لأن محمداً لم يكن بكل تأكيد ممن اهتدوا الى وجود الله بالعقل وحده، رغم ذلك فقد حملت محاولته في كتابه ضوءاً إيجابياً. وفي نهاية القرن امتدح إدوارد غيبون في الفصل

الخمسين من كتابه /انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية/ الوحدانية النبيلة في الإسلام، وبين أن المغامرة الإسلامية كانت تستحق مكانة في تاريخ الحضارة العالمية.

لكن التعصب القديم كان محصناً جداً الى درجة أن العديد من الكتاب لم يستطيعوا مقاومة الرغبة في طعن النبي من حين لآخر ليؤكدوا على أن الصورة القديمة لم تمت بعد. فقد وصف **سيمون أوكلي** محمداً بأنه «رجل حاذق وماكر جداً، أبرز إلى السطح تلك الصفات الحميدة فقط بينما كان مبدأا روحه هما الطموح والشهوة»[٢٥]. لقد وافق **جورج سال** في مقدمة ترجمته أن «من المؤكد أن المحمدية لم تكن سوى ابتكار بشري، والبراهين الأكثر إقناعاً على ذلك هي أنها تدين بنجاحاتها وانتشارها للسيف كلياً»[٢٦]. وفي نهاية مقالته الاخلاق، les Moeurs وصف فولتير الإسلام إيجابياً، منوهاً إلى أن محمداً «قد اعتبره من كانوا يعرفون أنه دجالٌ ـ رجلاً عظيماً وبجله الباقون بوصفه نبياً»[٢٧]. وفي عام ١٧٤١ استفاد فولتير في مسرحيته /محمد أو التعصب/ من الكراهية الشائعة لمحمد ليقدمه مثالاً للمشعوذين الذين جعلوا من شعوبهم عبيداً للدين من خلال الاحتيال والأكاذيب، وحين لم يجد بعض الأساطير القديمة سفيهة بما فيه الكفاية، لفق وبسعادة أساطير أخرى من عنده. حتى غِيبون نفسه لم يكن لديه سوى وقت يسير لمحمد فزعم أنه أغوى العرب على اتّباعه بطعم دسه لهم: النهب والجنس. أما بالنسبة لإيمان المسلم بأن القرآن وحي إلهي فقد أعلن غِيبون متكبراً إنه موقف مستحيل بالنسبة للإنسان المتمدن حقاً:

> **هذا الجدال (في القرآن ـــ المترجم) موجه إلى عربي ورع، عقله يتناغم مع الايمان والنشوة، وتستعذب أذنه سماع موسيقا الأصوات، موجه للذي جهله يجعله غير قادر على إجراء المقارنات بين نتاجات العبقرية البشرية. فانسجام وغنى الأسلوب لن يصل في أي ترجمة، للأوربي المغاير؛ لأنه سوف يدرس متململاً الإيقاع غير المترابط واللانهائي للحكايات والتعاليم والخطب التي قلما تثير عاطفة أو فكرة، والتي تزحف أحياناً في الغبار، وتضيع أحياناً أخرى في الغيوم[٢٨].**

يكشف هذا القول عن ثقة غربية جديدة: لم يعد الأوروبيون يرتعدون أمام التهديد الإسلامي. فبدلاً من ذلك أخذوا ينظرون إلى الدين الإسلامي من علٍ

مفترضين أنه إذا كنا «نحن» لانفهم القرآن فلا بد أن ذلك يعني أنه لايوجد فيه شيء. ففي عام ١٨٤١ استبعد **توماس كارليل** القرآن باحتقار في محاضرة له عن محمد /البطل نبياً/. مع ذلك فقد كانت محاضرته دفاعاً عن محمد وإنكاراً للوهم القروسطي القديم. فلأول مرة تقريباً كان في أوروبا شخص يحاول أن يرى محمداً رجلاً متديناً حقاً، حتى وهو يحكم على القرآن أنه الكتاب الأكثر إثارة للضجر في العالم: «مرهق، خليط مشوش ذو نسج غليظ وتركيب ركيك مع زخرفة لانهاية لها، إسهاب، وتكرار، باختصار فان غلظته وركاكته وغباءه وصلت الى الحد الذي لايطاق»[٢٩].

في نهاية القرن الثامن عشر دلت حادثة موحية على الاتجاه الذي كانت تميل إليه الثقة الأوروبية الجديدة. ففي عام ١٧٩٨ أبحر نابليون إلى مصر ومعه عشرات المستشرقين من معهد الدراسات المصرية الذي سبق أن أنشأه لأنه كان ينوي استخدام هذه المعرفة والفهم الجديدين لإخضاع العالم الإسلامي، وليتحدى السيطرة البريطانية على الهند. فحالما رست سفنه أرسل العلماء في مهمة تقصٍ للحقائق، وزود ضباطه بتعليمات دقيقة بأن يتبعوا نصائح العلماء ، فقام هؤلاء بعملهم بشكل جيد. لقد خاطب نابليون الحشد المصري في الاسكندرية متهكماً بالزعم التالي: «نحن المسلمون الحقيقيون». ثم استدعى ستين شيخاً من الأزهر أكبر جامع في القاهرة إلى مقر قيادته محاطين بكل مظاهر الحفاوة العسكرية. لقد امتدح النبي بشكل مدروس، وناقش معهم كتاب فولتير /محمد/، ويبدو أنه نجح في إثبات جدارته أمام العلماء. لم ينظر أحد جدياً إلى نابليون كمسلم، لكن فهمه المتعاطف مع الاسلام خفف من عداوة الناس له إلى حدٍّ ما. إلا ان حملته قد تلاشت بعد أن هزمته الجيوش التركية والبريطانية، فأبحر عائداً إلى أوروبا.

تميز القرن التاسع عشر بالروح الاستعمارية التي كانت تمد الأوروبيين بالاعتقاد المريض، الاعتقاد بتفوقهم على الأعراق الأخرى، وأن خلاص عالم آسيا وأفريقيا البربري وتمدينه رهن مشيئتهم. وكان لابد لهذه الرؤية من أن تؤثر على النظرة الغربية للإسلام بسبب ما كان يسيل من لعاب الفرنسيين والبريطانيين على الامبراطورية العثمانية المنهارة. فعلى سبيل المثال نجد في المدافع المسيحي الفرنسي **فرانسوا رينيه دوشاتوبريان** إحياءً للمثل الأعلى الصليبي، الذي تم تعديله كي

يلبي، مقتضيات الظروف الجديدة، بعد أن تأثر بحملة نابليون، ورأى فيه حاجّاً صليبياً. ودافع بالقول إن الصليبيين قد حاولوا جلب المسيحية إلى الشرق، وأن المسيحية هي من بين جميع الأديان «الأكثر ملاءمة للحرية»، لكن في المغامرة الصليبية اصطدمت المسيحية بالإسلام «عقيدة عدوة للحضارة، مواتية منهجياً للجهل، والطغيان والعبودية»[٣٠]. في الأيام الأولى، التي تلت الثورة الفرنسية أصبح الإسلام ثانية النقيض «لنا»، فخلال العصور الوسطى التي سادتها العقلية التراتبية وجه بعض النقاد ـ الذين انتقدوا الإسلام ـ اللوم إلى **محمد** لإعطائه سلطة كبيرة أكثر مما ينبغي إلى من هم من منبت وضيع مثل العبيد والنساء. أما الآن، بعد الثورة الفرنسية، فقد حدث عكس هذا النمط ليس لأن الناس زاد إلمامهم أكثر بالإسلام، بل لأنه صار يناسب احتياجات«نا» له، ولأنه صار «الآخر» الذي بإمكاننا أن نقيس إنجازاتنا به.

في كتاب /رحلة من باريس إلى القدس، ومن القدس إلى باريس/، الصادر في عامي ١٨١٠ ـ ١٨١١، حلّق شاتوبريان في خياله الصليبي حول الوضع في فلسطين. كتب قائلاً: «هيأة العرب توحي بأنهم جنود لا قائد لهم، مواطنون بلا مُشرّعين، وأسرة بلا أب». إنهم مثالٌ على «انسان متمدن سقط ثانية في حالة همجية»[٣١]. ولذلك كانوا يطالبون بسيطرة الغرب عليهم لأن من المحال أن يتولوا شؤونهم بأنفسهم. ويقول إنه لم يكن في القرآن «أي مبدأ من مبادئ الحضارة ولا فرضاً يرفع من سوية الأخلاق الشخصية». فالإسلام ليس مثيلاً للمسيحية، فهو لا يدعو إلى كراهية الظلم ولا إلى حب الحرية»[٣٢].

لقد حاول فقيه اللغة الشهير الفرنسي **أرنست رينان** تقديم تفسير علمي لهذه الأساطير الامبريالية العرقية الجديدة، فجادل بأن العبرية والعربية لغتان منحطتان، تمثلان انحرافاً عن التراث الآري، وأن عيوبهما لا سبيل إلى إصلاحها. ويتابع القول: بالإمكان دراسة هذه الألسن السامية كمثال على تطور مُعَطَّل لأنها تفتقر إلى الطابع المتقدم في أنظمتنا «نحن» في علم اللسانيات. لهذا السبب فان اليهود والعرب معاً «تركيبة سفلى من الطبيعة البشرية». ثم يضيف:

> **بوسع المرء أن يرى أن العِرْقَ السامي يتبدى لنا في جميع الأشياء عِرْقاً غير مكتمل بسبب بساطته. ويُمثل هذا العرق ــ إذا ماشبهناه**

بالعائلة الهندو ــ أوروبية ــ ما تمثله مسودة بقلم الرصاص بالنسبة للوحة زيتية. إنه يفتقر إلى ذلك التنوع، والاتساع وتلك الوفرة في الحياة التي هي الشرط للكمال. إن مثل الشعوب السامية مثل أولئك الأفراد الذين ليس لديهم سوى القليل من الإبداع، وليس لهم أن يبلغوا بعد طفولة كريمة سوى الحد الأدنى من القوة. لقد مرت الأمم الساميّة في أقصى درجات ازدهارها في بداية حياتها المبكرة، وليس لها بعد ذلك أن تبلغ النضج الحقيقي»[٣٣].

من جديد نرى أن اليهود والعرب قد دُمِجوا في صورة واحدة تؤمّن وصفاً مداهناً لفضائلنا العليا. وبالطبع سيكون للعِرْقية الجديدة نتائج كارثية على اليهودية الأوروبية. لقد اعتمد **هتلر** على النماذج المسيحية القديمة للكراهية في صليبيته الدنيوية ضد اليهود، وكان غير قادر على احتمال وجود عرق غريب فوق التراب الآري والأوروبي النقي.

في القرن التاسع عشر لم يعد هناك مسلمون في أوروبا، بل بدأ البريطانيون والفرنسيون بغزو أراضي المسلمين، فاستعمرت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وفي عام ١٨٨١ استولت على تونس وكذلك المغرب في عام ١٩١٢ وفي العام نفسه احتلت ايطاليا ليبيا، وكان البريطانيون قد احتلوا عدن في عام ١٨٣٩ ، ومصر عام ١٨٨٢ والسودان عام ١٨٩٨ . ومع أنه قُدِّمت الوعود إلى البلدان العربية أن تنال استقلالها بعد هزيمة الامبراطورية العثمانية إلاّ أن الدولتين (فرنسا وبريطانيا) قسّمتا المنطقة العربية فيما بينهما إلى انتدابات ومحميات.

في يومنا هذا يربط العالم الإسلامي الإمبريالية الغربية والعمل التبشيري المسيحي بالحملات الصليبية، وليس هذا الربط بخاطئ. فعندما وصل الجنرال **اللنبي** إلى **القدس** عام ١٩١٧ أعلن أن الحملات الصليبية قد اكتملت. وعندما دخل الفرنسيون دمشق سار قائدهم إلى ضريح **صلاح الدين** في الجامع الكبير وصاح: «ها قد عدنا يا **صلاح الدين**». لقد ساعد جهد البعثات التبشيرية المسيحية المستعمرين في محاولة نسف الثقافة الإسلامية التراثية في البلدان المهزومة، وتم إعطاء الجماعات المسيحية المحلية ـ مثل الموارنة اللبنانيين ـ دوراً لا يتناسب مع عددهم في تسيير أمور المحمية. زعم المستعمرون أنهم كانوا يجلبون التقدم والتنوير، لكن

مسعاهم هذا كان يتسم بالعنف والاحتقار. إن تهدئة الجزائر مثلاً قد استغرقت سنوات عديدة، وكانت أية مقاومة تقمع بغارات وحشية. ويقدم لنا المؤرخ الفرنسي المعاصر م. **بودريكور** فكرة عن واحدة من تلك الغارات الانتقامية:

> **حتى جنودنا العائدون من الحملة كانوا يشعرون بالخزي... لقد أحرقوا نحواً من /١٨٠٠٠/ شجرة، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ. كان حظ النساء هو الأسوأ إذ كن يثرن الجشع بسبب الأقراط الفضية والخلاخل والأساور التي كن يتزين بها. فالأساور ليست على شاكلة الأساور الفرنسية التي كان لها مفاتيح، فالفتاة تلبسها عادة عندما تكون صغيرة، ولا يمكنها خلعها عندما تكبر. فكان الجنود يبترون أطرافهن ويتركوهن على قيد الحياة وهن مشوهات(٣٤).**

لقد أظهر المستعمرون حقدهم الدفين على الإسلام. ففي مصر نجد اللورد**كرومر** بمسعى المثقف الليبرالي **محمد عبده** (ت ـ ١٩٠٥) الذي حاول أن يجدد بعض الأفكار التراثية الإسلامية. أعلن كرومر أن الإسلام ليس في وسعه أن يصلح نفسه، وأن العرب غير قادرين على إعادة بناء مجتمعهم. وفي كتابه /مصر الحديثة/ المكون من مجلدين شرح كيف أن «الشرقي» يتسم بنزعة طفولية ولاسبيل إلى إصلاحه وهو النقيض تماماً لما «نحن» عليه:

> ذات مرة قال لي السير أَلْفرِدْ لِيْل : **«الدِّقة بغيضة على العقل الشرقي، وينبغي على كل انجلو هندي أن يتذكر تلك البديهية دائماً. حقيقة ان الافتقار إلى الدقة الذي قد ينزل وبكل سهولة ليصل إلى حالة الكذب، هو سمة العقل الشرقي الرئيسة.**
>
> **فالأوروبي مُعَلِّل دقيق، وتعابيره عن الحقيقة لا لبس فيها، إنه منطقي بالفطرة مع أنه قد لا يكون درس المنطق البتة. إنه شكاك بطبعه، ويطلب البرهان قبل قبوله مصداقية أي اقتراح، وعقله المدرب يعمل مثل قطعة من آلة. بالمقابل، العقل الشرقي مثل شوارع الشرق الجميلة، يفتقر إلى التناسق بشكل ملحوظ. ويستند إلى قواعد استدلال هي إلى حد بعيد غير محكمة. وعلى الرغم من أن العرب القدامى قد بلغوا درجة عالية في الجدل والقياس إلا أن أحفادهم يفتقرون كثيراً إلى المقدرة المنطقية. إنهم في أغلب الأحيان عاجزون عن استنتاج أبسط النتائج من مقدمات بسيطة يقرون بصحتها»(٣٥).**

ومع أن العلماء الغربيين استمروا في سعيهم نحو صورة أكثر موضوعية للعالم الإسلامي والعربي إلّا أن التفوق الاستعماري جعل كثيرين منهم يعتقدون أن

الإسلام ليس جديراً بأن يُولى اهتماماً جاداً.

لقد نجح الموقف الغربي العدواني الجارح للمشاعر في إثارة العالم الإسلامي وإغضابه. في أيامنا هذه يتعاظم الشعور المعادي للغرب، وهذا تطور جديد تماماً. إذا كان الغرب قد نسج حكايا وأساطير تصور محمد عدواً إلاَّ أن معظم المسلمين ظلوا إلى ماقبل ٢٠٠ سنة خلت يجهلون الغرب في سلوكه هذا. لقد كانت الحملات الصليبية حاسمة في تاريخ أوروبا، وكان لها تأثير تكويني على الهوية الغربية كما قلت في كتاب آخر(٣٦). ومع أن الصليبيين أحدثوا تأثيراً عميقاً واضحاً على حياة المسلمين في الشرق الأدنى إلا أن تأثيرهم كان طفيفاً على بقية العالم الإسلامي، حيث لم تجر سوى أحداث محدودة معه. وهكذا بقي مركز الامبراطورية الإسلامية في العراق وإيران دون أن يتأثرا بتاتاً بهذه الهجمة الغربية القروسطية، وبالتالي لم تتشكل لديهم فكرة عن الغرب كعدو لهم. وحين كان المسلمون يتحدثون عن العالم المسيحي لم يكن حديثهم عن الغرب بل عن بيزنطة. ففي تلك الفترة بدت أوروبا الغربية بربرية وثنية متخلفة جداً عن بقية العالم المتمدن.

لكن أوروبا تمكنت من اللحاق بالعالم المتمدن بينما أخفق العالم الإسلامي في ذلك ـ لأنه كان منشغلاً بشؤونه الخاصة، فلم يلاحظ ما كان يحدث. حملة نابليون على مصر كانت الحدث الذي فتح عيون كثيرين من مفكري الشرق الأدنى، فكانوا متأثرين جداً بالجنود الفرنسيين الموحين بالثقة في جيش ما بعد الثورة الفرنسية. لقد استجاب المسلمون دائماً لأفكار من ثقافات أخرى. ففي بداية هذا القرن كان كل مثقف بارز تقريباً في العالم الإسلامي ليبيرالياً وداعية للنزعة الغربية. من المحتمل أن هؤلاء كانوا يكرهون الامبريالية الغربية، لكنهم تخيلوا أن الليبراليين في أوروبا يقفون إلى جانبهم، وأنهم سيعارضون من هم على شاكلة اللورد كرومر. كانوا معجبين بنوعية وأسلوب الحياة الغربية الذي بدا أنه يقدسُ مُثلاً كثيرة كانت تحتل موقعاً مركزياً في التراث الإسلامي. لكن في السنوات الخمسين الأخيرة خسرنا هذه الإرادة الخيّرة. فالسبب الكامن وراء الانزعاج والغضب في العالم الإسلامي، كان اكتشافه التدريجي للعداوة والحقد على النبي ودينه اللذين كانا متأصلين في الثقافة الغربية، ولا يزالان يؤثران على سياسة الغرب في البلدان الإسلامية حتى في الفترة التالية للفترة الاستعمارية.

فكما أشارت الكاتبة السورية **رنا قباني** في /رسالة إلى العالم المسيحي/:

تُرى أليس الوجدان الغربي انتقائياً؟ الغرب يتعاطف مع المجاهدين الأفغان المدعومين من الاستخبارات الأمريكية مثل الدعم الذي تتلقاه الكونترا النيكاراغوية. بينما لايشعر الغرب بالتعاطف مع المناضلين المسلمين الذين لا يخوضون حرب الغرب الباردة، بل لديهم هموم سياسية خاصة بهم. فبينما أكتب الآن يموت الفلسطينيون في المناطق المحتلة كل يوم. لقد مات نحو /٦٠٠/ حسب آخر إحصاء، وجرح أكثر من /٣٠,٠٠٠/ واعتقل / ٢٠,٠٠٠/ دون محاكمة.. مع ذلك تبقى اسرائيل في عيون الغرب ديموقراطية وقاعدة أمامية للحضارة الغربية.فكيف باستطاعتنا فهم هذه الازدواجية في المعايير(٣٧)؟!

ينبغي أن يتحمل الغرب بعضاً من المسؤولية عن تطور الشكل الاصولي الجديد للإسلام وهو الشكل الذي يقترب من أوهامنا القديمة بأحد معانيها البشعة. ففي أيامنا هذه يرفض كثيرون في العالم الإسلامي الغرب ويرونه ظالماً ومنحطاً بل وكافراً. هناك بعض العلماء الغربيين مثل: **مكسيم رودنسون، وروي موتهيدا** Mottahedeh، **ونيكي كيدي** Keddie، وجيل كيبل Kepel يحاولون فهم معنى هذا الموقف الإسلامي الجديد. لكن هذه المحاولات لبلوغ فهم أكثر موضوعية وتعاطفاً مع الازمة الراهنة في العالم الإسلامي لا تحظى سوى باهتمام أقلية فقط. فهناك أصوات أخرى أكثر عدوانية لاتبدي رغبة يسيرة حيال فهم ذلك، بل الأسوأ من ذلك إنها تزيد تراث الكراهية القديم.

ان الإسلام الأصولي الجديد لايستمد إلهامه من كراهية الغرب فقط. وهو ليس حركة متجانسة بأي معنى من المعاني فالمسلمون الاصوليون مهتمون أساساً بترتيب أوضاعهم ومواجهة الاقتلاع الثقافي الذي مر به كثيرون في العصر الحديث. من المحال إصدار تعميمات حول نهوض هذا الشكل الأكثر تطرفاً من أشكال الدين فهو لايختلف من بلد إلى آخر فحسب بل يختلف من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى قرية. فالناس يشعرون أنهم منقطعون عن جذورهم. لقد غزت الثقافة الغربية خبايا حياتهم: حتى أثاث منازلهم قد تعرض لتغير كبير ليصبح دليلاً مزعجاً على الهيمنة والضياع الثقافي. من خلال العودة إلى الدين إنما يحاول كثيرون العودة إلى جذورهم كي يستعيدوا هوية مهددة بخطر كبير. في كل فترة تاريخية يكون نوع الإسلام مختلفاً كلياً وذا خصوصية، وتؤثر عليه الظروف والتراثات المحلية ـ غير

الدينية تحديداً - تأثيراً عميقاً. فميكائيل جيلسِنان في كتابه الكلاسيكي /التعرف على الإسلام، ديناً ومجتمعاً في الشرق الأوسط/ جادل في أن أَوْجُه الاختلاف تتفاوت من منطقة إلى أخرى إلى درجة أن كلمتي إسلام أو نزعة أصولية ليستا مفيدتين في تحديد المحاولة الراهنة لإيضاح تجربة الناس في الشرق الأوسط خلال الفترة التي تلت الفترة الاستعمارية فهذه الظاهرة هي بالتأكيد أكثر تعقيداً مما توحي به وسائل الإعلام. فقد تعرض مسلمون كُثُر في المنطقة إلى الإحساس بالخوف وفقدان الهوية تماماً مثلما حدث لشهداء قرطبة، أولئك الذين كانوا يشعرون أن ثقافتهم وقيمهم التراثية تتآكل تحت وطأة سلطة أجنبية.

إننا في الغرب ننتج باستمرار أنماطاً جديدة كي نعبر عن كراهيتنا المتأصلة في نفوسنا تجاه الإسلام. ففي سبعينيات القرن العشرين سكنتنا صُوَر شيوخ النفط، وفي الثمانينيات آيات الله المتعصبون. ومنذ قصة سلمان رشدي أصبح الإسلام ديناً يعني الموت للإبداع والحرية الفنية. لكن مامن صورة من هذه الصور تعكس الحقيقة التي هي أكثر تعقيداً بشكل لامتناه. مع ذلك فهذا لا يمنع الناس من إصدار أحكام شاملة غير دقيقة. فرنا قباني(*) تورد ملاحظتين معاديتين عند (فاي ويلدون Fay Weldon وكونور كروز أوبريان). اذ جاء عند فاي ولدون ضمن المساهمة في مناظرة حول قضية رشدي بعنوان /بقرات مقدسة/ :

> **القرآن ليس غذاء للفكر بل هو أداة كبح للتفكير، إنه ليس قصيدة يرتكز عليها مجتمع آمن أو عقلاني. إنه يقدم أسلحة وقوة إلى الفكر البوليسي، فهو والفكر البوليسي يسيران سوياً بكل سهولة. وهما يخيفان... إنني أراه نصاً محدوداً ومقيداً عندما يتعلق الأمر بفهم ما أعرِّفه على أنه الله(٣٨).**

استطيع القول إن هذه الملاحظة لا تنسجم مع خبرتي ودراستي للقرآن ولا مع تاريخ الإسلام. وقولي هذا سيجعلني منافقة عند كونور كروز أوبريان الذي يعود إلى

(*) - رنا قباني: كاتبة عربية من سورية تعمل في النقد والتأليف، تقيم في لندن وقد ألفت بالإنكليزية كتاباً بعنوان «أساطير أوربا عن الشرق/ لَفِّق تَسُدْ». وفي هذا الكتاب تفضح تلك الأساطير الكاذبة التي اختلقها الكتبة من الرحالة الغربيين وبعض المستشرقين، والتي ساهمت في تشويه صورة الإسلام والعرب.

التراث ويجعل أي تقدير للإسلام ردة ثقافية، إذ يكتب عن المجتمع الإسلامي قائلاً:

> يبدو مقرفاً جداً... يبدو مقرفاً لأنه مقرف... فأي غربي يعلن عن التزامه بالقيم الغربية ويدعي أنه معجب بمجتمع إسلامي فهو إما منافق أو جاهل تماماً أو فيه مسحة من كليهما.

وهو يؤكد أن (المجتمع العربي مريض، مريض من زمن بعيد. «كل مسلم مريض - [هكذا] كتب المفكر جمال الأفغاني في القرن المنصرم - وعلاجه الوحيد موجود في القرآن» ولسوء الحظ يتفاقم المرض كلما تم تناول العلاج)[٣٩].

لكن ليس جميع النقاد ينحون هذا المنحى الصليبي فقد حاول علماء كثيرون في عصرنا توسيع مدى الفهم الغربي للإسلام، من أمثال: لويس ماسينيون Massignon، وهـ. آ. ر. جيب Gibb، وهنري كوربان Corbin، وإينماري شيمل Schimmel، ومارشال جـ. س. هودغسون Hodgson، وولْفريد كانتويل سميث Smith. لقد سار هؤلاء على خطا بطرس المبجل وجون سغوفيا Segovia . استخدموا المعرفة لدحض التعصب الذي كان في عصرهم. لقد مكَّن الدين أفراد مجتمع ما طوال عصور من تنمية فهم جدي. قد لايُوفّق الناس دائماً في التعبير عن مثلهم الدينية كما ينبغي، لكنهم ساعدوا في إيجاد مفاهيم العدالة والتسامح والتقدير والتراحم تجاه الآخرين، فقدموا بذلك معياراً نقيس به سلوكنا. وتبين إحدى الدراسات الجادة للإسلام أن المثل القرآنية قد ساهمت إلى حد كبير في سلامة المسلمين الروحية على امتداد /١٤٠٠/ سنة. ويمضي بعض العلماء إلى أبعد من ذلك، من بينهم العلامة الكندي المرموق وِلْفريد كانتويل سميث: **«إن القسم المسلم من مجتمع بشري لايمكنه أن يزدهر إلاَّ إذا كان الإسلام قوياً وحيوياً، نقياً ومبدعاً وسليماً»**[٤٠].

إن جزءاً من المشكلة الغربية هو أن **محمداً** قد عُدّ لقرون كثيرة، النقيضَ للروح الدينية والعدو لحضارة لائقة. بدلاً من ذلك ربما علينا أن نحاول رؤيته على أنه إنسان الروح الذي تمكن من جلب السلام والحضارة إلى شعبه.

الفصل الثاني

محمد رجل الله

في شهر رمضان من سنة /٦١٠م/ مرَّ تاجر عربي من مدينة **مكة** في الحجاز بتجربة غيَّرت لاحقاً تاريخ العالم كله. في كل سنة كان محمد بن عبدالله يعتكف مع زوجته وأسرته في غار حراء في وادي مكة كي يكون في عزلة روحية تامة. وكان هذا طقساً شائعاً في شبه الجزيرة العربية. في ذلك الوقت كان **محمد** يمضي شهر **رمضان** في الصلاة وتوزيع الصدقات والطعام على الفقراء الذين كانوا يأتون لزيارته خلال تلك الفترة المقدسة. كانت مدينة مكة المزدهرة تُرى من قمة الجبل بكل وضوح في السهل عند أسفل الجبل. كان محمد ـ كسائر المكيين ـ فخوراً جداً بمدينته التي أصبحت مركزاً مالياً، وأقوى حاضرة في الجزيرة العربية. لقد أصبح تجار مكة أغنى من العرب الآخرين في الحجاز، فنعموا بالأمان الذي لم يكن يتصوره أحد قبل نحوٍ من جيلين مضيا عندما كانوا يعيشون حياةً بدوية قاسية في مراعي شبه الجزيرة. قبل كل هذا كان المكيون يعتزون كثيراً بالكعبة، الصومعة المكعبة الشكل القديمة في وسط المدينة، وكان كثيرون يعتقدون أنها حقاً بيت الله، إله العرب العظيم. لقد كانت أهم صومعة مقدسة في الجزيرة، وكان الحجاج يأتون إليها من كل أنحاء الجزيرة لتأدية مناسك الحج. كانت قريش ـ قبيلة محمد ـ هي المسؤولة عن نجاح مكة التجاري، وكان القريشيون يعرفون أن جزءاً كبيراً من امتيازهم على القبائل العربية الأخرى يعود إلى الامتياز الكبير لحراسة الصومعة الغرانيتية الضخمة وضمان حرماتها مصونة.

كان بعض العرب يعتقدون أن الله ـ واللفظ يعني الإله God ـ هو نفسه الإله الذي يعبده اليهود والمسيحيون[1*]. كان العرب يشعرون بأسى عميق يحز في نفوسهم لأن الله لم يرسل لهم وحياً أو كتاباً خاصاً بهم على شاكلة أهل الكتاب ـ كما كان العرب يدعون أصحاب الديانتين، اليهودية والمسيحية ـ على الرغم من أن صومعته كانت قائمة في وسطهم منذ زمن مغرق في القدم. كان العرب الذين يحتكون باليهود والمسيحيين يشعرون بدونية كبيرة. لقد بدا لهم كأن الله قد تركهم خارج مخططه الإلهي. لكن تلك الحالة قد تبدلت في الليلة السابعة عشرة من رمضان عندما استفاق محمد في كهفه الجبلي، فشعر أن حضوراً مقدساً مذهلاً قد سيطر عليه الى درجة شعر فيها أن نَفَسَهُ كان يخرج بالقوة من جسده. وقد شرح فيما بعد كيف حدث له ذلك بقوله إن ملاكاً أمره أمراً مقتضباً: اقرأ. فاحتج **محمد**: ما أنا بقارئ. إنه لم يكن كاهناً ـ من أولئك المتنبئين النشويين الذين كانوا في الجزيرة العربية لكن احتجاجه لم يجدِ. ثم بيَّن كيف أن الملاك ضمه إليه ثانية فحَسِبَ أنه قد بلغ نهاية احتماله، بعدئذ وجد الكلمات الموحاة إلهياً بكتاب مقدس تتدفق من فمه. وهكذا نُطِقَتْ **كلمة الله** لأول مرة[**] في شبه الجزيرة العربية، فقد كشف الله عن نفسه أخيراً للعرب بلغتهم، ودُعِي هذا الكتاب المقدس: القرآن.

كانت النتائج المترتبة على هذه التجربة الغريبة هائلة. عندما بدأ **محمد** الدعوة

(١*) ـ يقال إن محمداً بعد تلقيه الوحي ضَعَّفَ حرف اللام في كلمة الله Al - llah فأصبحت الكلمة Al - llah كي يميز الشكل الإسلامي عن المفهوم الوثني لله. وهذا الاستخدام أقرب للصحة من كلمة allah المألوفة في كتابتها لدينا.

(**) درج عدد من الكتاب على هذا القول: بأنها المرة الأولى التي تنطق فيها كلمة الله في الجزيرة العربية، كما فعلت فاطمة المرنيسي في كتابها الحريم السياسي... وهذا يجانب الحقيقة فقد كانت لفظة الله منتشرة على ألسنة حكماء وشعراء الجزيرة، فالشاعر الجاهلي المشهور النابغة الذبياني يقول: ... /وليس وراء الله مذهب/. وحتى القرآن سجّل قولهم: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولُنَّ **الله**». وابن اسحاق يخبرنا أن أربعة قرشيين تخلوا عن الوثنية وقالوا: «ياقوم التمسوا لأنفسكم ديناً فانكم والله ما أنتم على شيء...» ويقول زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يبدأ الإسلام:

عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ وفي الأيام يعرفها البصيرُ
بأن **الله** قد أفنى رجالاً كثيراً كان شأنهم الفجور

في مكة كانت الجزيرة كلها في حالة انقسامٍ وتفكك مزمنين. كل قبيلة من القبائل البدوية الكثيرة في شبه الجزيرة كان لها قانون يخصها، وكانت في حالة حرب دائمة مع القبائل الأخرى. لقد بدا محالاً للعرب أن يتوحدوا، وكان ذلك يعني أنهم ليسوا قادرين على تأسيس حضارة ودولة تؤهلهم لتبوء مكانة خاصة بهم في العالم. كانت الحجاز تبدو وكأن القدر قد كتب عليها العيش في بربرية همجية، وأنها وُجِدَتْ خارج حدود الحضارة. مع هذا عندما توفي محمد بعد /٢٣/ سنة تالية في ٨ حزيران عام ٦٣٢م كان قد تمكن من جلب جميع القبائل تقريباً إلى داخل جماعته الإسلامية الجديدة. صحيح أن هذه كانت حالة استقرار غير وطيد، وكان محمد يعرف تماماً أن الكثيرين من البدو كانوا متعلقين في سرهم بالوثنية القديمة، مع ذلك فقد تم الحفاظ على هذه الوحدة العربية عكس جميع التوقعات. كان محمد يتمتع بمواهب سياسية عالية المستوى. لقد حول ظروف قومه كلياً، وأنقذهم من عنف لا طائل وراءه، ومن انحطاط، وأعطاهم هوية جديدة تدعو إلى الاعتزاز بها. وهكذا فقد أصبحوا على استعداد لتأسيس ثقافتهم الفريدة. لقد فتحت تعاليم محمد مخزونات كثيرة من الطاقة إلى درجة أن الامبراطورية العربية امتدت من جبل طارق إلى جبال الهيملايا خلال مئة سنة.

حتى لو أن هذه المأثرة السياسية كانت هي الانجاز الوحيد الذي قام به محمد لاستحق أن ينال إعجابنا. لكن نجاحه اعتمد على الرؤية الدينية التي أوصلها إلى العرب، وتبنتها شعوب الامبراطورية، بكل وضوح، لأنها كانت تلبي حاجة روحية عميقة. لم يُحرز محمد والمسلمون الأوائل انتصارهم بسهولة كما قد يتصور بعض الناس أحياناً. لقد خاضوا صراعاً عنيفاً يائساً، ولو لم يأت الاهتمام بالدين في المقام الأول عند النبي وأصحابه المقربين لما بقي المسلمون على قيد الحياة. وان كان محمد يعتقد أنه كان يتلقى خلال سنوات الخطر تلك إيحاءات مباشرة من الله، إلاّ أنه كان أيضاً مضطراً لاستخدام كل مواهبه الطبيعية. لقد كان المسلمون يدركون مقدرة النبي الاستثنائية، وكانوا يعون أن النبي يُغير مَسار التاريخ. هناك أربعة مؤرخين كتبوا عن حياته في الفترة الإسلامية الكلاسيكية: محمد بن إسحاق (ت . ٧٦٧م)، ومحمد بن سعد (ت. ٨٤٥م) وأبو جعفر الطبري (ت. ٩٢٣م)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ـ ٨٢٠م)، الذي ركز على حملات النبي العسكرية. وما كتبه هؤلاء

يُعد من المصادر الأساسية لأية سيرة عن حياة محمد، وسأرجع إليهم باستمرار. لم يعتمد هؤلاء المؤرخون على أفكارهم فحسب، بل كانوا يحاولون إعادة بناء جاد للتاريخ. لقد أدخلوا في عرضهم الوثائق الأقدم، وتتبعوا التراث الشفوي إلى مصدره الأصلي، ومع أنهم يبجلون محمداً كرجل الله فإنهم لم يكتبوا سيرة غير نقدية. فالطبري يسجل القصة المعروفة الآن بالآيات الشيطانية التي تظهر محمداً مرتكباً خطأً. أما إبن سعد وإبن اسحاق فقد أدخلا تراثات وقصصاً ليست مداهنة: خاصة ماكانت تقوله زوجة محمد ـ عائشة ـ التي كانت امرأة مفوهة، وقد تم تدوين تعليقاتها الحادة حول زوجها. فمن هذه السير الموثوقة بما فيه الكفاية ـ من حيث موضوعية موضوعها بحيث لا تتورط في تبييض الأحداث ـ نحصل على لوحة واقعية آسرة لهذا الرجل الاستثنائي.

طبيعي ألا يكتب كتّاب السِّيَر هؤلاء بالطريقة نفسها التي يكتب بها المؤرخون الغربيون الحديثون. إنهم رجال عصرهم وغالباً مايضمنون قصصاً ذات طبيعة إعجازية نفسرها اليوم بشكل مختلف عنهم. لكنهم كانوا مدركين لتعقيد مادتهم وللطبيعة المراوغة التي تتسم بها الحقيقة. ولسوف نرى أن الروح المسلمة هي، إلى حدٍّ بعيد، روح مساواة. فالأرابيسك في الفن الإسلامي برسوماته وأشكاله المتكررة لا يسبغ أهمية أكبر على أي موضوع أكثر من بقية موضوعاته من خلال منظور ما أو منطلق مسبق. فالتأثير يحدثه النموذج ككل من خلال العلاقة المعقدة الموجودة بين الأجزاء المتساوية. وهذه هي الروح نفسها التي نجدها في مؤرخينا الأربعة هؤلاء. إنهم لا يرجحون نظرية أو تفسيراً للأحداث على حساب التفسيرات الأخرى. بل يقدمون أحياناً روايتين مختلفتين تماماً لحادثة ما، ولا يحاولون تفسير التناقض بينهما. فعلى سبيل المثال نرى أن الطبري يقدم روايتين منفصلتين تماماً لقصة الآيات الشيطانية، ويقدم ابن اسحاق روايتين مختلفتين لاعتناق عمر بن الخطاب الإسلام دون التعليق على التناقض البيّن فيهما. في كل حالة يعدد المؤرخ مصادره بوحي من وجدانه وهذه السلسلة لن تلبي الشروط الحديثة. إنهم يبذلون كل مافي وسعهم كي يعطوا وزناً متساوياً لكل عرض للأحداث. فهم لايتفقون على الدوام مع التراثات التي يعايشونها. وهذا بحد ذاته يوضح أنه على الرغم من تبجيلهم للنبي إلا أنهم كانوا يحاولون سرد قصته بكل نزاهة ومصداقية ممكنة.

مع ذلك هناك ثغرات في عرضهم. فنحن لا نعرف عملياً شيئاً عن بداية حياة محمد قبل البدء بتلقي الوحي في سن الأربعين. وكان لا بد من ظهور أساطير عن ولادة محمد وطفولته وصباه وقد تم تدوينها. كما أن هناك مادة قليلة جداً عن مطلع الدعوة في مكة. ففي ذلك الوقت، عندما كان محمد شخصية مغمورة نسبياً لم يعتقد أحد أن دعوته جديرة أن ينوه إليها أحد. لكن خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، أي بعد الهجرة إلى المدينة أدرك المسلمون أن التاريخ كان يُرْسَمُ أمام عيونهم المندهشة، ولذا فإن الأحداث قد دُوِّنت في تلك الفترة بتفاصيل أكثر.

كان المؤرخون يستمدون مادتهم من التراثات الشفوية التي كان أصحاب النبي ينقلونها إلى الأجيال التالية. في القرن التاسع دقق علماء مثل **محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القُشيري** في كل سند لكل حديث قبل الركون إلى صحته. فكل حديث فيه ثغرة في اسناده سواء لوجود فجوات أو لأن الراوي ذو سمعة سيئة، كان يتم استبعاده بصرف النظر إذا كان الحديث يرفع أو يتملق إلى النبي أو المسلمين الأوَل. لقد أصبح الحديث مصدراً رئيساً للشريعة، القانون الإسلامي المقدس. وتبين طبيعة الحديث أن المسلمين كانوا قادرين على تبني موقف انتقادي تجاه تاريخهم المبكر. فهذه الموضوعية جلية أيضاً في عمل المؤرخين الأوائل، إذ لم يعتبروا كل التراثات صحيحة أو موثوقة، وكذلك فعلت الأجيال اللاحقة من المسلمين.

المصدر الأساسي للمعلومات هو القرآن إلّا أنه ليس عرضاً لحياة محمد: إنه يتحدث عن الخالق أكثر مما يتحدث عن رسوله، لكنه يزودنا، ولو بشكل غير مباشر بمادة ذات قيمة عن تاريخ الجماعة الإسلامية المبكر. وسأوضح بتفصيل في الفصول القادمة كيف أن الغربيين كانوا يجدون القرآن كتاباً صعباً. ومن الأهمية بمكان أن نوضح ماهية هذا الكتاب المقدس الموحى من البداية، وكيف ينبغي النظر إليه. لقد كان محمد طوال ثلاثة وعشرين عاماً، يعلن عن تلقيه رسائل مباشرة من الله، وقد جمعت تلك الرسائل في كتاب سُمّي قرآناً. لم ينزل القرآن من السماء دفعة واحدة كالشريعة أو التوراة التي تلقاها موسى - وفقاً للرواية التوراتية - في لقاء واحد على قمة جبل سيناء. لقد نزل على محمد آية آية، سطراً تلو سطر، وسورة فسورة، تتناول أحياناً الحالة في مكة أو المدينة. في القرآن يبدو أحياناً أن الله يرد على بعض

منتقدي محمد، ويشرح المعنى الأعمق لمعركة أو نزاع ضمن الجماعة المسلمة. حينما كانت توحى رسالة إلى محمد كان يقرؤها بصوت عالٍ (لأنه كان أمياً كسائر الكثيرين من العرب في الحجاز)، وكان المسلمون يحفظونها غيباً، ويُدوِّنها من كان يعرف القراءة والكتابة. وجد العرب القرآن مذهلاً: لم يكن مشابهاً لأي أدب آخر عرفوه من قبل. لقد آمن بعضهم فور سماعهم القرآن لاعتقادهم أن الوحي الإلهي وحده هو الذي يستطيع أن يصوغ هذه اللغة الفريدة، وأما الذين رفضوا أن يؤمنوا فقد كانوا يشعرون بالإرباك، ولم يدروا ماذا يفعلون حيال هذا الوحي المحيِّر. يجد المسلمون القرآن محركاً من الأعماق، ويقولون إنهم يشعرون ـ عند سماعه ـ أن صوتاً ذا بعد إلهي يغلفهم الى حدٍّ ما مثلما حصل لمحمد في جبل حراء عندما ضمه إليه الملاك جبريل والذي كان يرى فيه كائناً غير عادي مالئاً السماء حيثما نظر.

يجد الغربيون صعوبة في فهم هذا الأمر. فقد رأينا أن علماء من أمثال **غيبون وكارليل**، اللذين يتعاطفان بشكل معقول مع الإسلام، كانا محتارَيْن بالقرآن، وهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة لأن تذوق الكتب المقدسة في ثقافات أُخرى أمر يصعب فهمه في أغلب الأحيان. وعلى هذا الصعيد هناك قصة معروفة حول سياح يابانيين كانوا يزورون الغرب للمرة الأُولى، وبما أنهم يجيدون الانكليزية فقد كانوا يودون الاطلاع على دين البلدان التي زاروها. لذلك كانوا يجلسون ويبدؤون بقراءة الكتاب المقدس. لقد أربكهم وشعروا بالحيرة ازاءه، ولدى وصولهم إلى الولايات المتحدة عبَّروا عن صعوباتهم لِعلّامة مرموق: لقد حاولوا فعلاً الانسجام مع هذا الكتاب لكنهم ـ كما قالوا ـ لم يتمكنوا من العثور على أي دين فيه. فوافقهم العالم وفسّر لهم الأمر قائلاً إنه مالم يقارب المرء هذه الكتب المقدسة بإطار عقلي محدد فإن من الصعب جداً أن يجد أي شيء ديني أو تسامٍ في عرضه لتاريخ اليهود القدماء.

أما فيما يتعلق بالقرآن فان الترجمة تشكل مشكلة كبرى. فأجمل الأبيات التي نظمها شكسبير تبدو في أغلب الأحيان غريبة الوقع في لغة أخرى لأنه ليس بالإمكان التعبير عن شعر جزل في مصطلح أجنبي، والعربية تحديداً لغة يصعب ترجمتها. ويشير العرب إلى أن قصائد وقصصاً يعرفونها بلغتهم الأم يكادون لايعرفونها بعد ترجمتها إلى لغة أخرى. إن في العربية شيئاً ما غير قابل للنقل عبر

مصطلح آخر. فحتى خطب الساسة العرب تبدو غريبة ومصطنعة بعد ترجمتها إلى الانجليزية، فإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة للعربية العادية، لغة الكلام الدنيوية أو الأدب التراثي، فما بالك بلغة القرآن التي هي لغة لماحة مكثفة ومعقدة جداً. يقول العرب ممن يتكلمون الإنجليزية بطلاقة إنهم عندما يقرؤون القرآن مترجماً إلى الإنجليزية يشعرون أنهم يقرؤون كتاباً آخر تماماً. إنني سوف أورد شواهد كثيرة من القرآن، لكن على القارئ ألا يتوقع أن تُغلِّفه الكلمات مثلما غَلَّفت المسلمين الأوائل.

لا يعني هذا أن علينا استبعاد القرآن متعجرفين، بدعوى أنه يجب ألا يُقرأ كما تُقرأ الكتب الأخرى. فإذا ما قُرئ بالطريقة الصحيحة فإنه يعطي إحساساً بالحضور الإلهي كما يقول المؤمنون. ويصعب فهم هذا الأمر من قبل امرئ تربى على تراث مسيحي، لأنه ليس لدى المسيحيين لغة مقدسة، بينما نجد السنسكريتية والعبرية والعربية مقدسة لدى الهندوس واليهود والمسلمين. إن يسوع هو نفسه الذي يُكَوِّن الوحي المسيحي وليس النصوص المقدسة، وما من شيء مقدس في العهد الجديد المكتوب باللغة اليونانية. أما اليهود فيجدون سهولة في فهم هذه الروحانية المسلمة لأنهم يجلّون التوراة (الكتب الخمسة الأولى لما يسميه المسيحيون العهد القديم) بطريقة مماثلة. فعندما يدرس اليهود التوراة فإنهم لا يمرون بعيونهم فوق الصفحات فقط للحصول على المعلومات، بل يلفظون الكلمات بصوت عالٍ متذوقين اللغة التي استخدمها الله ذاته عندما تجلى لموسى كي يحفظوها عن ظهر قلب (كونها عبارات موحاة). وغالباً مايتحرك قسمهم العلوي إلى الأمام والخلف أثناء القراءة وكأنهم بنَفَسِ روح الله يتحركون. عندما يقرأ اليهود التوراة بهذه الطريقة فإنهم يخبرون كتاباً مختلفاً تماماً عمّا يخبره المسيحيون الذين يجدون في أغلب الأحيان أن الأسفار الخمسة مملة جداً في معظمها وأنها مجرد مجموعة لقوانين غامضة. يحصل المسلمون على إحساس بالبركة في كلمات الله المقدسة في القرآن على شاكلة القربان المقدس، إنه يمثل حضوراً حقيقياً للكلمة المقدسة في وسطنا وفيها عبر الله عن ذاته في شكل بشري. وبالإمكان معرفة سلطة القرآن من الحقيقة التالية: إن أناساً كثيرين ضمن الامبراطورية الإسلامية قد تخلوا عن لغاتهم وتبنوا لسان القرآن المقدس.

لا يُقَدِّم لنا القرآن كما هو الآن، السور بالترتيب الذي نزلت فيه على محمد.



فعندما تم أول جمع رسمي للقرآن في نحو عام ٦٥٠ ـ بعد وفاة النبي بعشرين عاماً ـ تم وضع السور الأطول في البداية والقصار في النهاية، من بينها أوائل السور التي نزلت على النبي. لم يكن هذا الترتيب اعتباطياً كما قد يبدو، لأن القرآن لا يقدم قصة أو جدالاً بحاجة إلى ترتيب متسلسل. لدينا ـ بدلاً من ذلك ـ قرارات وتأملات في موضوعات متنوعة مثل: حضور الله في الطبيعة أو حياة الأنبياء، ويوم الحساب. يجد الغربيون القرآن مكرراً بشكل ممل لأنه كما يبدو لهم يعالج الموضوع ذاته مرة تلو أخرى. لكن القرآن ليس موضوعاً من أجل دراسة فكرية خاصة بل من أجل تلاوة طقسية. فعندما يستمع المسلمون إلى سورة في المسجد فإنهم يُذَكرون بمعتقدات دينهم الأساسية في تلاوة واحدة. ويجد غير المسلمين في القرآن مصدراً قيماً للمعلومات عن محمد، إنه يعتبر مرجعاً موثوقاً علماً أنه لم يجمع إلا بعد وفاته بعشرين سنة. فالعلماء المعاصرون، الذين تمكنوا من تحديد تاريخ السُوَر بدقة معقولة يشيرون إلى أن القسم الأكبر من القرآن يتناول مشكلات اعترضت محمداً بينما كان دينه مايزال دين طائفة صغيرة مكافحة، وعندما ترسخ الإسلام وغدا ديناً منتصراً نُحيت تلك الصعوبات وأبعدت. ولذلك نجد تعليقاً معاصراً على القرآن حول حياة محمد وهذه مزية فريدة في تأريخ الدين: إنها تمكننا من التعرف على المصاعب الخاصة التي كان عليه أن يواجهها، وتبين لنا الكيفية التي تطورت فيها رؤيته كي تصبح أكثر عمقاً وشمولية في مداها.

بالمقابل لانعرف سوى القليل جداً عن يسوع، فأول كاتب مسيحي لسيرته كان القديس **بولس**، الذي أنهى أول رسالة له بعد نحو عشرين سنة من وفاة المسيح. فبولس لم يكن مهتماً بحياة يسوع الدنيوية، لكنه ركز بشكل كلي تقريباً على المعنى الروحي في موته وقيامته. وفي مرحلة لاحقة استمد الانجيليون من التراث الشفوي، الذي ركز على حياة يسوع في فلسطين ودونوا حياته أكثر مما فعل **بولس**. **فمرقس** هو أول من كتب بعد نحو أربعين سنة من وفاة المسيح، أي في السبعينيات، وكتب متّى ولوقا في الثمانينات ويوحنا في نحو سنة /١٠٠/ ميلادية. بيد أن هذه الروايات الإنجيلية مختلفة تماماً عن السير الذاتية لحياة محمد التي دونها المؤرخون الإسلاميون. الروايات الانجيلية كانت أكثر اهتماماً بالمعنى الديني لحياة يسوع من اهتمامها بالحقائق التاريخية، وكثيراً ماتعبر عن احتياجات وهموم ومعتقدات

الكنائس الأولى أكثر من اهتمامها بالأحداث الأصلية. فالدارسون للعهد الجديد يشيرون إلى أن الروايات الإنجيلية لوقائع عذابات وانفعالات يسوع وموته مشوشة بشكل يدعو إلى اليأس، وأن الحقائق تم تغييرها. فالمسيحيون في هذه الفترة كانوا قلقين من جرّاء فك ارتباطهم باليهود، ويلقون عليهم اللوم دون الرومان في موت يسوع. لم تُدَوَّن سوى كلمات قليلة من تلك التي نطقها المسيح. لايعني هذا أن الأناجيل ليست صحيحة، إنها تعبر عن حقيقة دينية هامة على أية حال. لقد وعد يسوع حوارييه أن يرسل إليهم روحه بحيث تغدو أعمق إلهاماتهم إلهاماته بمعنى من المعاني.

أما محمد فهو (وفق الكتابات) يظهر بشكل مختلف جداً عن شخص المسيح المثالي الخارق للطبيعة في الأناجيل. لقد طوَّر المسلمون ولاءً رمزياً لمحمد، لكنهم لم يزعموا أنه إلهي، بل شخصية بشرية تماماً كما تصوره التواريخ المبكرة. لا توجد فيه أوجه شبه مع قديس مسيحي، علماً أنه ما إن يخترق المرء غلالة السيرة الذاتية حتى يصبح جميع القديسين بشريين جداً. محمد أكثر شبهاً بالشخصيات الزاهية في الكتاب اليهودي: **موسى، داؤود، سليمان، إيليا** أو **أشعيا** الذين لم يكونوا قديسين، بل رجالاً متدينين جداً مفعمين بالحياة. إن محاولة تجسيد الحقيقة المتعالية التي لا توصف والتي أسماها البعض الله في الشروط البشرية المأساوية المليئة بالعيوب هي صراع مؤلم بحد ذاته. لم يكن **محمد** قديساً فقد عاش في مجتمع خطر وعنيف، وتبنى أحياناً أساليب يجدها من عاش في عالم أكثر أمناً مزعجة. لكن إذا وضعنا جانباً توقعاتنا المسيحية من القداسة فإننا سنجده كائناً بشرياً متوقد المشاعر وذا أبعاد مركبة. لقد كان يتمتع بمواهب روحية عظيمة إضافة إلى مواهبه السياسية ـ ونادراً ما تسير الاثنتان معاً. لقد كان مقتنعاً أن على جميع الناس المتدينين تقع مسؤولية خلق مجتمع عادل وخيّر. فقد نرى محمداً في ثورة غضب ولا يسامح، لكنه قد يكون أيضاً رقيقاً، رحيماً، شديد اللطف. نحن لم نقرأ عن يسوع وهو يضحك، بينما نجد محمداً باسماً وممازحاً المقربين منه، ونراه يلعب مع الأطفال، ويدخل في متاعب مع زوجاته، وباكياً بحرارة على وفاة أحد أصدقائه، ومتباهياً بطفله كما يفعل أي والد.

لو كان باستطاعتنا أن ننظر إلى محمد مثلما ننظر إلى أية شخصية تاريخية هامة فإننا بكل تأكيد سنعتبره واحداً من أعظم العباقرة الذين عرفهم العالم. لقد أبدع رائعة أدبية، وأسس ديناً رئيسياً، وقوة عالمية جديدة؛ وهذه كلها إنجازات غير عادية. لكن كي نُقدِّر عبقريته إلى مداها ينبغي أن نتفحص المجتمع الذي ولد فيه والقوى التي صارعها. كان تقريباً يحاول المستحيل بعد نزوله من جبل حراء حاملاً كلمة الله إلى العرب. قلة من عرب الجزيرة كانت تتحرك نحو الوحدانية لكنهم لم يكونوا قد استكشفوا تماماً مضامين هذا الاعتقاد باله واحد فقط. فهذا أمر غير مستغرب. لقد استغرق اليهود قروناً كي يؤمنوا أن يهوه كان الإله الوحيد. ومن المحتمل أن الاسرائيليين قد مارسوا عبادة رب واحد إلى جانب آلهة أخرى: أي أنهم وافقوا على عبادة يهوه، لكنهم اعتقدوا أن الآلهة الأخرى كانت موجودة أيضاً، وحتى موسى يحتمل أنه لم يكن موحداً بشكل كلي. فالوصايا العشر التي جلبها إلى شعبه تعتبر وجود آلهة أخرى أمراً بدهياً: «أنت لن تضع آلهة غريبة قبلي». لقد مضت نحو /٧٠٠/ سنة بين الخروج من مصر بقيادة موسى (١٢٥٠ ق.م.) وبين الوحدانية الجلية التي نادى بها أشعيا الثاني الذي عاش مع اليهود المنفيين في بابل في حوالي عام /٥٥٠ ق.م./. مع ذلك فقد انطلق محمد كي يجعل العرب ينجزون هذا التحول الأساسي في مدة لم تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة. وسوف نرى أن بعض العرب توسلوا إليه أن يتبنى حلاً وسطاً بأن يتبنى آلهة أخرى إلى جانب الله الواحد، وأن يقبل عبادة الآلهة الأخرى بينما يعبد وأتباعه الله وحده، لكنه رفض هذه المساومة رفضاً قاطعاً.

لم يكن إعلان الاعتقاد بإله واحد فقط مجرد إقرار عقلي نظري، بل كان يتطلب تحولاً في الوعي. فالكتاب المقدس يوضح أن قدامى الإسرائيليين قد وجدوا إغراء الوثنية لا يقاوم. وكذلك تبين أن العرب قد وجدوا إمكانية التخلي عن آلهة الأسلاف أمراً مؤلماً للغاية. ليس مستغرباً أن نجد اليهود لم يتخلوا نهائياً عن الوثنية وإلى الأبد إلاَّ في فترة نفيهم ضمن الإمبراطورية البابلية. فالوحدانية ـ مثلها مثل جميع الأديان الرئيسة العالمية ـ هي بإحدى معانيها نتاج الحضارة. ففي إمبراطورية عالمية اكتسب الناس منظوراً أكثر اتساعاً، ونظرة جديدة كل الجدة إلى العالم، جعلت الآلهة المحلية صغيرة وغير كافية. فالإمبراطوريات القديمة قدمت الاستقرار

العام والأمن الضروريين لازدهار الحضارة، وبدأ الناس يرون أن الكون كله مكان متراتب قد يكون تحت إمرة قيادة واحدة. في المدن الكبيرة تسارع التحول الثقافي، وولد الوجدان الفردي، بينما كان الناس يدركون أن باستطاعة أفعالهم أن تؤثر على مصير أجيال المستقبل لذا راح وعيهم ينمو ويتسارع. لكن هذه النظرة كانت مستحيلة في مجتمع أكثر بدائية كمجتمع شبه الجزيرة في القرن السابع الميلادي. فالاعتقاد بإله متسامح كلي القدرة كان محالاً، أي عندما كانت الحياة خطرة وبدا القدر اعتباطياً، حين كانت تسيطر الجماعية بدلاً من الفردية، وحيث كان الأمن الاجتماعي قليلاً في حدوده الدنيا. في عالم وثني بدائي فيه آلهة متنوعة تُمثل مصادر القوة والتأثير بدا أن من الخطأ أن يدير المرء ظهره إلى مصدر مساعدة هام باختيار إله واحد فقط. صحيح ان بعض العرب كانوا يعيشون في مدن مثل ـ سكان مكة، لكن ذكرى الصحراء كانت ماتزال حية في عقولهم، وبقيت الروح الجماعية القبلية اليائسة سائدة.

كانت عزلة محمد واحدة من أبرز جوانب إنجازاته. لم يكن يعرف سوى القليل عن اليهودية والمسيحية. لم يكن على شاكلة أنبياء اسرائيل. فأثناء عمله باتجاه الحل الوحداني الصعب لم يكن يدعمه تراث راسخ له دافعه ورؤيته، ويستطيع تقديم التوجيه الأخلاقي الذي شُذِّبَ عبر القرون. فيسوع والقديس بولس كانا محاطين باليهودية. فالمسيحيون الأوائل أتوا من اليهود وأعوانهم الذين يتعبدون الله في الكُنُس. لقد ضربت المسيحية جذورها في الامبراطورية الرومانية أي حيث كانت الجماعات اليهودية قد مهدت لها الطريق، وأعدت عقول الوثنيين، لكن محمداً كان عليه أن يبدأ من نقطة الصفر، وأن يشق طريقه باتجاه وحدانية روحانية خالصة معتمداً على ذاته. وما كان لمراقب غير متحمس له أن يعطيه فرصة للنجاح عندما بدأ مهمته. وربما اعترض عليه بدعوى أن العرب لم يكونوا على استعداد لقبول الوحدانية، إذ لم يكونوا متطورين بما يكفي من أجل قبول هذه الرؤية المعقدة. وإدخالها على نطاق واسع في هذا المجتمع المخيف العنيف قد يكون خطراً جداً، وسيكون محمد محظوظاً إذا نجا بحياته.

حقاً لقد كان محمد في خطر قاتل، وبقاؤه كان أشبه بمعجزة، لكنه فعلاً نجح في مسعاه. إذ قبل أن تأتي حياته إلى نهايتها كان قد استطاع قطع جذر حلقة العنف

القبلي المزمنة التي كانت بلوى على المنطقة. أما الوثنية، فلم تعد هماً قابلاً للاستمرار. وهكذا أصبح العرب على استعداد كي يبحروا في طور جديد من تاريخهم. ولكي نقدر هذا الانجاز الفريد حق قدره ينبغي علينا أن نفهم الظروف التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام، ونعني بهذه الفترة التي سماها المسلمون، «الجاهلية» أي عصر الجهل.

الفصل الثالث

الجاهلية

تُعَدّ الجزيرة العربية واحدة من أغنى مناطق العالم في وقتنا الراهن، والقوى الرئيسة تحمي مصالحها النفطية هناك بقلق. لم تكن أي من القوى العظمى تعير الجزيرة اهتماماً عندما ولد **محمد** في مدينة **مكة** قرابة سنة ٥٧٠ م. كانت الامبراطوريتان **الفارسية والبيزنطية** منغمستين في صراع منهك ضد بعضهما، إلا أن الصراع كان قد انتهى قبل وقت قصير من وفاة محمد. وكانت كلتا الامبراطوريتين المذكورتين متلهفتين إلى مصادقة العرب في جنوب الجزيرة أي فيما يعرف الآن باسم اليمن. كانت مملكة جنوبي الجزيرة تختلف كثيراً عن بقية المنطقة سواء بأمطارها الموسمية، أو بخصوبتها وغناها اضافة الى ما كان لها من ثقافة عريقة متقدمة. بالمقابل كانت مناطق السهوب غير آهلة، برية مرعبة يسكنها عرق من البشر لمّا يتحضر بعد، أسماهم الأغريق Sarakenoi سراكينوي، أي الذين يعيشون في خيام. فلم تفكر لافارس ولابيزنطة بغزو هذه المنطقة القفر، ولم يكن يدور في ذهن أحد أنها على وشك أن تلد ديناً عالمياً جديداً وتصبح قوة عالمية رئيسية.

كانت الجزيرة العربية تُعدُّ منطقة لا رب لها، ولم يتمكن أي من الأديان الأكثر تطوراً ـ تلك المرتبطة بالحداثة والتقدم ـ من النفاذ إليها. نعم كانت هناك قبائل يهودية قليلة ـ أصلها مشكوك به ـ في الحواضر الزراعية في يثرب وخيبر وفَدَكْ. لكن عملياً لم يكن بالامكان تمييز هؤلاء اليهود عن جيرانهم العرب الوثنيين، إذ كان دينهم بدائياً في طبيعته إلى حد ما. في المناطق المتحضرة اعتنق كثير من العرب المسيحية، وشكلوا كنيستهم السريانية المتميزة في القرن الرابع. في الصحراء

العربية كان العرب البدو عموماً ينظرون بريبة الى اليهودية والمسيحية رغم ادراكهم أن هذين الدينين كانا أكثر تطوراً من دينهم. لقد أدركوا أن القوتين العظيمتين الفارسية والبيزنطية على استعداد لاستخدام كلا الدينين كوسيلة لسيطرة إمبريالية. وقد تجلى هذا بشكل مأساوي في مملكة جنوبي الجزيرة العربية التي خسرت استقلالها إلى الأبد في عام /٥٧٠/ أي في السنة التي ولد فيها **محمد**. فامبراطورية بيزنطة المسيحية كانت قد جعلت من الحبشة دولة تابعة لها عندما اعتنقت شكلاً هرطقياً من المسيحية يدعي المونوفيزية (أي المذهب القائل بطبيعة المسيح الواحدة). ربما كانت بيزنطة تضطهد الهراطقة في موطنها لكنها كانت سعيدة جداً عندما كانت تستخدمهم لتحقيق مطامعها الامبريالية في الخارج. فقد شجعت حاكمها النجاشي Negus على التسلل إلى اليمن لجعلها تنضوي تحت لواء القسطنطينية. وبدلاً من أن يعتمد عرب الجنوب على أنفسهم توجهوا إلى الفرس طلباً للنجدة في وجه التهديد الحبشي، وقد سُعِدَ الساسانيون الفرس جداً بذلك. فاستخدموا بدورهم الدين أيضاً كسلاحٍ أيديولوجي في الصراع على السيطرة، إذ كانوا يفضلون اليهودية على مسيحية بيزنطة. في عام ٥١٠ اعتنق **يوسف أساي** A'sai ملك جنوب الجزيرة، اليهودية وصار يعرف باسم ذو النواس بسبب خصلات شعره المتدلية(*). لكن طلب الرعاية الفارسية هذه قد أُخفق عندما سقطت المملكة اليهودية أمام الأحباش في عام ٥٢٥ : يقال إن الملك الوسيم الشاب قد امتطى حصانه ومضى إلى البحر يائساً، وسار فيه الحصان حتى غرق هو وراكبه. وبذلك أصبح جنوب الجزيرة ولاية من ولايات الحبشة، بينما كان يتوجه شعبها دوماً إلى فارس من أجل نجدته. وأخيراً غزا كسرى فارس (خسرو) المنطقة في عام ٥٧٠ ، فأصبحت مملكة الجنوب المتكبرة مجرد مستعمرة فارسية. في هذا الوقت كانت النسطورية (التي تعتقد أن للمسيح طبيعتين بشرية «ناسوتية» وإلهية «لاهوتية») قد حظيت بالاعتراف بها وحظيت بدعم بلاد فارس. كان العرب البدو في الحجاز ونجد يعتزون بجيرانهم الجنوبيين، ولذلك اعتبروا سقوطهم كارثة. وبالتالي كان لا بد من أن تكون اليهودية والمسيحية محط شكوك.

غذّت شكوك العرب تجاه الدينين المتقدمين الأحداث في الشمال حيث

(*) الاسم الأصلي: زُرْعَه ذي نواس بن تبان أسعد.

كانت كلًّا من القوتين العُظميين متلهفة لتأمين حدودها ضد الأخرى، وضد العرب البدو غير المتحضرين الذين كانوا يغزون المناطق المستقرة دورياً أثناء سنوات القحط. لقد استخدمتا القبائل العربية في الشمال التي تحولت إلى أشكال مسيحية هرطقية. شجعت بيزنطة العرب في المناطق الحدودية على اعتناق الدين الصحيح من خلال بناء الأديرة ومراكز العبادة هناك. وبالنتيجة فان **الغساسنة** الذين كانوا يقضون الشتاء على الحدود مع بيزنطة المسيحية اعتنقوا المونوفيزية وتحالفوا مع بيزنطة، وشيدوا معسكرهم الشتوي خارج الرصافة في **سرجيوبوليس** Sergiopolis الذي كان يضم قاعة فخمة لزعيمهم وفق الطراز البيزنطي والتي ماتزال أطلاله ماثلة أمامنا حتى اليوم. وهكذا فقد شكل الغساسنة دولة فاصلة، يفترض أنها من أجل الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية ضد الامبراطورية الزرادشتية الفارسية(*١). لكن فارس تمكنت من الرد على ذلك إذ اعتنق العرب اللخميون في شرقي سوريا النسطورية، وهي الدين الذي كان يفضله العرب أيضاً في مناطق بلاد الرافدين داخل الامبراطورية الفارسية. لقد نجح الساسانيون في تمكين العرب اللخميين من تأسيس دولة مواجهة لحراسة حدودهم، وكانت الحيرة عاصمة لها. غير أن فارس وبيزنطة انسحبتا من هاتين الدولتين العربيتين: فقد أوقف هرقل مساعداته للغساسنة كإجراء اقتصادي في حربه ضد فارس عام ٥٨٤ ، كما وضع كسرى نهاية للحكم اللخمي في نحو سنة ٦٠٢ ، وعيّن حكاماً فارسيين بدلاً من الحكام العرب. وعندما دخلت الجيوش الإسلامية هذه المناطق بعد ٣٠ سنة تالية من وفاة محمد وجدت أن العرب كانوا مستائين جداً من القوتين العظميين، وكانوا مهيئين لربط مصيرهم بالإسلام.

كان العرب في وسط الجزيرة محاطين بأشكال منحرفة للمسيحية في مطلع القرن السابع: كانت الكنيسة المسيحية الكبيرة في نجران في الجنوب محط إعجاب البدو، لكنهم حرصوا ألاّ يثقوا بهذه الأنظمة الدينية، وصمموا على البقاء مستقلين عن القوى العظمى. وفي الوقت ذاته كان يتملكهم الإحساس بعدم الرضا، لأنهم كانوا يشعرون بالدونية دينياً وسياسياً، إذ كانوا عرضة للاستغلال. وكانوا يرون أنهم

(*١) - ظهر زرادشت في إيران وعاش في القرنين السابع والسادس ق.م في نفس الوقت تقريباً الذي كان إرميا وأشعيا يدعوان الناس في أورشليم. وكانت دعوته تقوم على ثنائية الصراع الأبدي بين قوتين كبيرتين: الخير والشر.

ما لم يتمكنوا من خلق دولة بدوية موحدة والامساك بزمام أمورهم، فإن فقدانهم لاستقلالهم مثل عرب الجنوب سيكون أمراً محتملاً. كانت فرصة إقامة دولة بدوية متحدة تبدو ضئيلة. فعرب نجد والحجاز عاشوا بدواً قروناً عديدة، في جماعات قبلية متحاربة دائماً. مع السنين أنشؤوا طريقة حياة بالغة الخصوصية، وأصبحت معيارية في شبه الجزيرة بحلول القرن السادس الميلادي. حتى العرب الذين كانوا يعيشون في الحواضر نظموا حياتهم وفقاً لروح الجماعة الرعوية القديمة: منهم من ظلوا يربون الجمال، ويعتبرون أنفسهم أبناء الصحراء.

كانت الأخلاق القبلية تتطلب مهارة اجتماعية وتقنية محددة إضافة إلى سمات شخصية كانت تتم رعايتها بدقة. لم يكن عرب شبه الجزيرة دائماً قبائل من الرُّحل. فالجمل الذي جعل حياتهم ممكنة كان قد تم تدجينه قبل نحو ألفي سنة من بدء تقويمنا. كان لهذا الحيوان بمقدرته الفريدة على تخزين الماء، القدرة على قطع مسافات بعيدة في الصحراء وبسرعة استثنائية. كان العرب أصلاً مزارعين في المناطق الأكثر حضارة في منطقة الهلال الخصيب. وبعد خبرة طويلة في تربية الحيوانات الصالحة للانتقال تعود بعض الأعراب على الحياة في مناطق السهوب غير المضيافة والقاحلة أثناء القحط والجفاف[٢]. فمحاولة انتزاع لقمة العيش في هذه الظروف الصعبة كانت دليلاً على التحدي والتمرد على قدر قاسٍ، وموضحة تصميماً يثبت أن العرب كانوا قادرين على البقاء في هذه الظروف التي كانت تبدو مستحيلة، وسوف يندفعون تدريجياً باتجاه المناطق الصحراوية واضعين مسافة بينهم وبين مراكز المدن. في الصيف كانوا يرعون جمالهم بالقرب من الآبار التي استولت عليها كل قبيلة لنفسها، وشتاء كانوا يتنقلون في مناطق السهوب التي كانت تغطيها خضرة وفيرة فكانت فردوساً لحيواناتهم بعد موسم الأمطار. كانوا يعيشون على حليب نوقهم وعلى لحم الحيوانات التي كانوا يصطادونها. لكن لم يكن باستطاعة الرحل العيش وحدهم: بل كانوا بحاجة إلى دعم المزارعين الذين كانوا يقدمون لهم التمر والقمح اللذين كانا أساسيين في وجباتهم المتواضعة. فبينما كان الرحل يخترقون المناطق الصحراوية في مناطق الهلال الخصيب وشبه الجزيرة تدريجياً كان يتبعهم مزارعون رواد خطوة خطوة، فيستقرون في الواحات، وسقوا المنطقة فجعلوا الصحراء تزهر إلى حدٍّ ما. كان هؤلاء الزرَّاع بدورهم يعتمدون على

حركية الرحل التي كانت تؤمن لهم السلع والمتاجرة مع الخارج. وبما أن الرحل كانوا أكثر براعة في الحرب، فقد كانوا يؤمنون الحماية للعرب المستقرين مقابل جزء من المحصول.

كانت الحياة في مناطق السهوب محفوفة بالمخاطر بشكل يدعو إلى اليأس. كان الرُّحّل يعانون من الجوع ومن سوء التغذية دائماً، وكانوا في حالة تنافس شرس مع بعضهم من أجل الحصول على ضروريات الحياة. وسيلة العيش الوحيدة كانت في وجودهم ضمن جماعة وثيقة اللحمة، إذ لم يكن هناك فرصة للفرد بمفرده. وبالتالي شَكّل الرُّحل أنفسهم في جماعات مستقلة على أساس قرابة الدم، يتحدرون من جد مشترك سواء أكان ذلك حقيقة أم أسطورة. فسموا أنفسهم بني كلب مثلاً وبني أسد (نسبة إلى سلالة كلب أو أسد)... بعد ذلك تحالفت هذه الجماعات مع مجموعات أخرى لتشكل تآلفات أكبر، وإن تكن بروابط أضعف. في الغرب نطلق على هذه الجماعات الصغيرة كلمة «عشائر» وعلى الجماعات الأكبر كلمة «قبائل». بينما لم يقم العرب هذا الفارق، فكانوا يطلقون كلمة «قوم» على الجماعات الأصغر والأكبر. فكيلا تصبح القبائل كبيرة جداً يتعذر إدارتها كانت الجماعات تتشكل ثانية باستمرار. كان تنمية الولاء المطلق والشرس للقوم ولجميع الحلفاء أمراً أساسياً. القبيلة فقط هي التي كان بإمكانها تأمين البقاء الفردي لأعضائها. هذا يعني أنه لم يكن هناك متسع لنزعة فردية بالمعنى الذي نفهمه من الكلمة، وكذلك لا وجود للواجبات والحقوق المتعلقة بها. كل شيء ثانوي أمام مصالح الجماعة، وتنمية لهذه الروح المشتركة، طوَّرَ العرب أيديولوجيا أسموها المروءة، التي يترجمها الغربيون في أغلب الأحيان «الرجولة»، لكن المروءة تحمل معنى أكثر تكثيفاً وتعقيداً. فالمروءة كانت تعني البسالة في المعركة، والصبر والاحتمال في المعاناة، وتكريس الذات لواجبات الفروسية، والثأر ممن يلحق مكروهاً بالقبيلة، وحماية الأفراد الضعفاء في القبيلة، وتحدي الأقوياء. كانت كل قبيلة تعتز لذاتها بطابعها الخاص للمروءة التي كانوا يعتقدون أنها تورث عن طريق الدم. فمن أجل الحفاظ على مروءة الجماعة كان يجب على الفرد أن يكون مستعداً للذود عن أي فرد في قبيلته، وأن يطيع شيخ قبيلته دون مساءلة. كانت الالتزامات تنتهي خارج القبيلة، إذ لم يكن هناك مفهوم لقانون طبيعي عالمي في هذه المرحلة من تطور العرب.

كانت المروءة تقوم بالعديد من الوظائف التي كان يقوم بها الدين، وبذلك قدمت للعرب أيديولوجيا ورؤية مكنتاهم من أن يجدوا معنى في وجودهم المحفوف بالمخاطر، والذي كان متمركزاً كلياً حول شؤون أرضية. كانت القبيلة هي القيمة المقدسة، إذ لم يكن لديهم فكرة عن حياة أخرى، ولم يكن للفرد مصير فردي أو أبدي. فالخلود الوحيد الذي كان باستطاعة الرجل والمرأة تحقيقه كان في القبيلة واستمرارية روحها. واجب كل فرد هو تنمية المروءة للتأكيد على أن القبيلة باقية. وهكذا كانت القبيلة تعنى بذاتها. ينتظر من شيخ القبيلة الاعتناء بالضعفاء، وتوزيع ممتلكاتها والسلع فيها بالتساوي. كان السخاء فضيلة هامة. كان الشيخ يوضح سلطته وثقته (وبالتالي قوة قبيلته) من خلال الضيافة الكريمة الباذخة لأفراد قبيلته وحلفائه في الجماعات القبلية الأخرى. وما يزال الكرم وحسن الضيافة فضيلتين عربيتين تحتلان مكانة مرموقة. بالطبع هناك جانب براغماتي في ذلك. فالقبيلة الغنية ذات يوم قد تصبح وبكل سهولة فقيرة جداً، فإذا كنت بخيلاً في حالة اليسر فمن الذي يساعدك وقت الحاجة؟ بيد أن تنمية السماحة ساعدت الناس على الارتقاء فوق الصراع الشرس أيضاً من أجل الوجود وذلك من خلال عدم التفكير بالغد. لقد شجعت على عدم الاكتراث حيال السلع المادية التي كانت أمراً أساسياً في منطقة لم يكن يتوافر فيها مايكفي من الحاجات الأساسية. وقد لَقَّنَ هذا التوجه أيضاً القدرية العميقة للمروءة: فالدهر «الزمن أو القدر» كان أحد حقائق الحياة القاسية، ويجب تقبله بكبرياء. وستغدو الحياة مستحيلة إذا لم يتقبل الناس بعض الكوارث على أنها أمور لا مفر منها. ولذلك اعتقد العرب أن ليس بوسع الإنسان فعل شيء لإطالة أمد الحياة (الأجل)، أو لتأمين مؤونة كافية (الرزق) من الطعام والقوت.

على شيخ القبيلة أن يكون مستعداً لقيادة الانتقام لأي ضرر يلحق بالقبيلة، حماية لأفرادها. فحيث لا وجود لقانون عام تعززه سلطة مركزية فإن السبيل الوحيد للحفاظ على الأمن الاجتماعي في حده الأدنى هو الثأر للقتيل. كانت الحياة رخيصة، وليس في القتل شيء لا أخلاقي: الخطأ الوحيد هو أن يقتل المرء فرداً من قبيلته أو من حلفائها. ينبغي أن تثأر كل قبيلة لمقتل أحد أفرادها بقتل فرد من قبيلة القاتل، فهذه كانت السبيل الوحيد الذي من خلاله يتمكن شيخ القبيلة من تأمين الحياة لأفراد قبيلته، وإذا أخفق في الثأر لن يحترمه أحد من قومه. فبما أن التواري دون أثر في الجزيرة كان أمراً سهلاً لذا لم يكن هناك واجب يفرض معاقبة القاتل

ذاته، وإنما يتم إضعاف القبيلة المخطئة بفقدان عدد مماثل من رجالها، وهنا تتجلى العقلية الجماعية في أوضح صورها. ففي مسائل الانتقام يتساوى جميع أفراد القبيلة. أما وقد تجاوزنا (في عصرنا) إطار هذا النوع من التنظيم الاجتماعي فإننا نجد الآن أن مبدأ الثأر أمر غير مقبول، لكنه كان الوسيلة الوحيدة لضمان الحد الأدنى من الاستقرار العام. إذ لم يكن هناك ما هو موجود عندنا من رجال ومؤسسات الامن العام. كذلك كان ذلك النظام يؤمن توازناً معقولاً للسلطة لأن خسارة شخص كانت تسبب ضعفاً مماثلاً في قبيلة القاتل. كان هذا يعني أن ما من جماعة باستطاعتها تبوأ الصدارة؛ وهذا ما جعل اتحاد العرب أمراً محالاً. فبدلاً من دمج مصادرهم المتواضعة دخل العرب في دورة عنف، كل ثأرٍ فيها يُؤدي إلى ثأر آخر إذا شعرت القبيلة أن الثأر الذي وقع ضدها من قبيلة أخرى كان أكبر مما ينبغي.

إنَّ الغزو الذي كان هاجساً مستمراً ورياضة قومية تقريباً كان وسيلة محترمة أخرى للحفاظ على توازن السلطة. ففي الأوقات العصيبة يغزو أفراد قبيلة قبيلة معادية على أمل أن يحملوا معهم عائدين النوق والماشية وسلعاً أخرى. كان يجب تجنب سفك الدم ما أمكنهم ذلك لأن ذلك سوف يؤدي إلى الثأر. لم تعتبر السرقة عملاً لا أخلاقياً ما لم تكن سرقة سلع الأقارب أو الحلفاء. كان الغزو يضمن تحولاً معقولاً للثروة، وكان يعني أن الطعام والسلع الأخرى المتوفرة كانت مشتركة بطريقة بدائية بين الجماعات التي كانت تتنافس عليها.

كان للمروءة قوى كثيرة، وسيغدو بعضها قيماً هامة في الإسلام، علماً أنه كانت لها بعض سمات من الوحشية. ولما كان **محمد** لا يعرف شكلاً آخر للتنظيم الاجتماعي فإنه سينظم الجماعة الإسلامية وفق خطوط قبلية. لقد بقيت المثل الاجتماعية والأخوة حاسمة على الرغم من النزعة الفردية الجديدة التي ساعد الإسلام على تنميتها. لقد حظيت المساواة في المنظور الإسلامي بقيمة كبيرة لأنه لم يكن هناك متسع لنخبة ذات امتيازات في النظام القبلي، لا وجود لأرستقراطية أو مكانة متوارثة. لاينقل شيخ القبيلة مركزه إلى ابنه لأن القبيلة كانت بحاجة إلى الرجل الأفضل في القبيلة كي يضطلع بالمهمة بصرف النظر عن الأبوة أو الامتياز. وستشكل هذه المساواة القوية والعميقة سمة مميزة لروح الإسلام، وستكون منطلقاً لمؤسساته السياسية والدينية والأدبية والفنية على السواء.

مع ذلك ظلت أخلاق الجاهلية تمثل شرعة همجية، فالقوي هو الذي باستطاعته البقاء وهذا يعني إهمال الضعفاء أو استغلالهم بشكل مأساوي. فوأد الأطفال كان الوسيلة المألوفة للتحكم بعدد السكان. قلة من الإناث يُتْرَكن على قيد الحياة لأن كل قبيلة باستطاعتها أن تعيل عدداً محدداً من النساء، ولذلك كُنَّ يوأدن دون شعور بالندم(*). كانت النساء كالعبيد دون حقوق قانونية أو إنسانية، بل مجرد متاع، ويلقين معاملة قاسية، ولم يكنَّ يتوقعن تحسناً في مصيرهن. كان الرجال يتخذون لأنفسهم قدْرَ ما يشاؤون من الزوجات. فعلى الرغم من أن النسب كان عبر قرابة أنثوية، وكانت الممتلكات الرسمية تورث للنساء إلا أن هذا لم يعطهن سلطة أو نفوذاً. كان الرجال يتزوجون أحياناً من أجل حيازة ميراث الزوجات.

إذن ليس مستغرباً إذا وجدنا أن العرب لم يكن لديهم سوى وقت ضئيل للدين بالمعنى الأكثر تقليدية للكلمة. لم يكن باستطاعتهم إعالة طبقة من الكهنة المسؤولين عن تطوير تراثات قبلية أسطورية. بدلاً من ذلك كان الشاعر يتغنى بأمجاد القبيلة التي هي القيمة العربية الأسمى ويخلدها في شعره. فبدلاً من أن يروي الشعراء قصصاً عن الآلهة وصراعاتها الكونية أو استكشافهم لمسالك الروح المعقدة في أساطيرهم وحكاياتهم، نجدهم يصفون المعارك التي خاضتها القبيلة، وإنجازاتها ويندبون كوارثها، ويساعدون أفرادها على استحسان المزايا الخاصة للمروءة. كان الشعر مهارة ذات أهمية قصوى، ويلقى تقديراً كبيراً عند العرب. كان الشعراء يقولون أشعارهم بصوت عالٍ، وكان هؤلاء يشعرون أن بهم مساً من جني - أي أحد الأشباح التي اعتقدوا أنها كانت تغشى الطبيعة. لم يكن الشعر يعتبر نتاجاً ما فوق إنساني فحسب، بل فيه مزايا سحرية. فاللعنة الصادرة من شاعر ملهم يمكن أن يكون تأثيرها كارثياً على عدوه. كان الإحساس بأن قدرة غريبة تسيطر على

(*) ثمة مبالغة في هذه الفكرة وكثيراً ما تنقل بشكل مشوه ومضخم فهي أولاً لم تكن بالكثرة التي تتحدث عنها الكاتبة. كان ثمة دافع رئيس هو الفقر والخوف من العار، حين لايملك الأهل أمر الإعالة إضافة الى كونهم ضعفاء لايقوون على مقاومة الغزو فيتعرضون لسبي نسائهم وهذا يُعدُّ عاراً. وثانياً لم يكن هذا القتل بلا ألم أو ندم بل كثيراً ما كان يترافق هذا بحزن وألم شديد وثمة في مراجع تاريخية نبذاً من هذه الحالات التي تصف بها بعض الآباء وهم يحملون بناتهم الى الوأد والدموع تنهمر من عيونهم، هذا وكانت عادة الوأد شبه محصورة ببعض القبائل كبني أسد وتميم.

الشخص أمراً شائعاً في تجارب الإلهام (الشعراء عادة). كان الشاعر يقوم بالكثير من وظائف الكاهن أو النبي في مجتمعات أخرى، كان يفتح نفسه للآمال والرغبات اللاشعورية التي كانت تساور قبيلته. وعندما كان الناس يسمعون كلماته كانوا يعتبرونها كلماتهم هم الصادرة من أعماقهم. لهذا السبب كان للشعراء أهمية حاسمة في حياة الجزيرة الاجتماعية والسياسية. لقد قيل إنهم قاموا بدور الصحافة المسؤولة في مجتمعنا نحن. ينشرون المعلومات، ويزودون القبائل الأُخرى بتفسير للأحداث قد يكون له تأثير كبير في الحرب الدعائية.

على أية حال كان هناك أفراد آخرون ممسوسون، ولم يكونوا يلقون احتراماً كبيراً في عصر محمد. فالكهنة أو المتنبئون النشويون كانوا مماثلين للعرافين الجوالين في الكتب الأولى من الكتاب المقدس. لم يكونوا أنبياء بالمعنى المجيد اللاحق، بل أقرب إلى مفسري الأحلام الذين كان الناس يستشيرونهم إذا أضاعوا شيئاً أو لمعرفة الحظ. كان على الكاهن أن يخفي جهله بالغموض بحيث تقدم نبوءاته عادة في قالب شعري هزلي غير مفهوم أو غير مترابط. فكما سنرى لاحقاً لم يكن لدى محمد وقتٌ يعيره للكهان بعد أن وجد أن نبوءاتهم تافهة عبثية لا معنى لها.

كان عند العرب حياة روحية وكانت تعني الكثير لهم. كانوا يقدسون أماكن عديدة، وأقاموا مقامات لها طقوسها القديمة الخاصة بها، موضوعها إله بحد ذاته. إلا أن الكعبة، الواقعة بالقرب من بئر زمزم المقدسة في مكة، كانت الأكثر أهمية. يبدو أن هذا المقام الغرانيتي الذي يشبه الصندوق مغرق في القدم، وكان مماثلاً لمقامات وأماكن مقدسة أخرى لم تعد موجودة. في زاوية الكعبة الشرقية وُضِعَ الحجر الأسود الذي يحتمل أن مصدره من أحد الشهب الذي اندفع بقوة من السماء واصلاً بين السماء والأرض. كانت الكعبة في عصر محمد مكرسة رسمياً للإله **هبل**، الذي تم استيراده من مملكة **الأنباط** إلى الجزيرة العربية، لكن بروز مكانة الكعبة، إضافة إلى الاعتقاد العام في مكة يوحي أنها كانت مكرسة أساساً إلى الله، إله العرب الأكبر. تُحيط بالكعبة منطقة دائرية يجتمع فيها الحجاج للقيام بالطواف الطقسي سبع دورات حول الكعبة مع اتجاه الشمس، وكانت محاطة بـ /٣٦٠/ صنماً أو تماثيل الآلهة، ربما كانت تمثل الطواطم لجميع القبائل المختلفة التي كانت تأتي كي تتعبد هناك في شهر محدد. كانت الأرض حول مكة (دائرة نصف قطرها عشرون ميلاً) منطقة مقدسة يحرم فيها العنف والحرب.

قد يبدو هذا غريباً لأناس نشؤوا في مجتمع دنيوي كمجتمعنا، لكن يبدو أن مقاماً كالكعبة وطقوسها الخاصة كانت تلبي حاجة روحية ونفسية هامة في الجزيرة العربية. ومحمد ذاته كان يشعر بجاذبية غامضة تشده إلى الكعبة طوال حياته. والطواف الطقسي - الذي يبدو اعتباطياً ومملاً للأجنبي - كان له أهمية كبيرة في حياة المكيين، ولم يكن واجباً مملاً يؤديه الناس متذمرين ودون تركيز. بل على العكس من ذلك كانوا يستمتعون به، وجعلوه جزءاً من حياتهم اليومية إذ كانوا يحبون اختتام يوم صيد جميل بالطواف حول الكعبة قبل العودة إلى منازلهم. وقد كان بعضهم يذهب لاحتساء الخمر مع بعض رفاق لهم، ثم يعدلون عن ذلك من أجل تمضية المساء مطوفين عندما لا يتمكن رفاقهم من المجيء إليهم. فما هو يا ترى ذلك الحافز الذي كان يدفعهم إلى هذه الشعيرة، وما الذي كان الناس يعتقدون أنهم سيحققونه من خلالها؟

يبدو أن الحرم بحد ذاته كان يتمتع بقداسة مشتركة في العالم السامي كله. ويبدو أن فكرة الدائرة والزوايا الأربع (ممثلة أركان العالم الأربعة)، و ٣٦٠ رمزاً حولها يبدو أن هذه جميعاً قد أتت من الديانة السومرية القديمة. فالسنة السومرية كانت تتألف من ٣٦٠ يوماً وخمسة أيام إضافية مقدسة كان الناس يمضونها وكأنما «خارج الزمن» بتأدية طقوس خاصة تربط بين السماء والأرض. وفي الظروف العربية ربما تمّ تمثيل هذه الأيام الخمسة بالحج، الذي كان يحدث مرة كل سنة ويحضره العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية. يبدأ الحج عند الكعبة، ثم ينطلق الى مقامات مقدسة أخرى خارج الكعبة، يبدو أن معظمها كان مكرساً إلى الآلهة الأخرى. كان موعد الحج أصلاً في الخريف، وقد اقترح بعض الناس أن الطقوس المختلفة ربما كانت طريقة من أجل مضايقة الشمس المحتضرة كي تجلب أمطار الشتاء، إذ كان الحجاج يندفعون معاً إلى المُزْدَلِفَه مقرَ إله **الرعد**، ويبقون ساهرين طوال الليل على السهل حول جبل **عرفات** الذي كان يبعد نحو /١٦/ ميلاً خارج مكة، ثم يرمون الحصى على الأعمدة المقدسة لمناة، وأخيراً يقدمون أضحية حيوانية. في يومنا هذا ما من أحد يفهم فعلاًما كانت تعنيه هذه الشعائر، وحتى العرب أنفسهم في عهد محمد كانوا قد نسوا معناها الأساسي. مع ذلك بقوا متعلقين بالكعبة والمقامات الأخرى بشغف، وكانوا يؤدون طقوسها خاشعين.

نحن جميعاً، كل فرد منا يحتاج إلى مكان خاص في حياته يمكّنه من أخذ وقت خاص خارج الزمن المعاش. وقت لإعادة الهدوء والتركيز ومن ثمَّ الإبداع. في الجزيرة، حيث كانت الحياة كلها صراعاً كبيراً كان المكان المقدس ضرورة، كان الناس يلتقون فيه في حرية وطمأنينة إذ كان يُحرم فيه العنف الناجم عن الثأر، فلا خوف طالما أنهم فيه. بكلمات عملية كان ذلك يعني أن بوسعهم مزاولة التجارة مع بعضهم دون خوف من هجوم قبيلة معادية، فكانت مقامات مكة أسواقاً هامة تقيم معرضاً سنوياً. لكن البيت الحرام وطقسه ربما قدما فسحة روحية أيضاً. يبدو أن الطواف كان يعيد الابداع ثانية، مساعداً العرب على تركيز أنفسهم، وعلى اكتشاف بُعدٍ أبدي بصيغة رمزية في حياتهم.

ربما كان البيت الحرام يمثل العالم بزواياه الأربع مشعاً من نقطة مركزية، كما يبدو أن الدائرة كانت نمطاً موجوداً في جميع الثقافات كرمز للخلود، خلود العالم والنفس. إنها تمثل مكانياً وزمانياً كُلاً كاملاً: فالمسار الدائري أو الطواف هو شعيرة دينية هامة في تراثات كثيرة، وتعني أنك تعود باستمرار إلى المكان الذي تنطلق منه، أي تكتشف أن النهاية تقع في البداية. ففي مركز الدائرة تُعتبر النقطة الصغيرة الثابتة للعالم الذي يدور هي الأبدية، والمعنى النهائي الذي لا سبيل إلى وصفه. فعند دوران الحاج حوله (الحجر الاسود) مرة تلو أخرى فإنه يتعلم كيف يعيد توجيه نفسه، وأن يجد مركزه في مواجهة العالم وجهاً لوجه. وغدا الطواف شكلاً من أشكال التأمل. وكان يُؤدى بنوعٍ من الهرولة أي السير السريع: إنه يتطلب تركيزاً جسدياً ربما بدا مضجراً، لكنه يمكّن العقل من الإقلاع. وهناك اعتقاد شائع هو أن معظم الأماكن المقدسة في جميع التراثات تقوم ـ بشكل ما ـ في مركز العالم، وأنها المكان الأول الذي خلقته الآلهة. أما بالنسبة للحاج فإنها كانت تكتسي سحر البدايات ورؤاها، وكان يشعر أنه ـ بشكل ما ـ يقترب من مركز القدرة.

نحن جميعاً بحاجة إلى طقس يساعدنا على خلق موقف داخلي: فأساليب الكياسة ـ مثلاً ـ تساعدنا على تنمية عادة احترام الآخرين. في مجتمعاتنا الأكثر دنيوية لم يعد كثيرون يشاركون في هذا النوع من النشاط الرمزي الذي قد يبدو اعتباطياً أو حتى مزعجاً. في عالمنا، الفنان هو الذي يخلق لنا رموزنا ذات المعنى كي يساعدنا على اكتشاف بُعدٍ آخر للحياة. في مثل هذه الشعائر ـ أي الطواف أو الحج ـ كان العرب يخلقون نوعاً من فنية عملية كانوا يكتشفون عبرها معنى أو أهمية لا

يمكن صياغتهما بسهولة في كلمات. ربما كانوا مدركين ـ في مستوى عميق حتى ـ للطبيعة الشكلية والرمزية لما كانوا يفعلون، وهذه حالة عقلية قد افتقدها كثيرون في الغرب. يصعب على امرئ تربى في عالم بروتستانتي تذوق ذلك لأن بعض أشكال البروتستانتية تنظر إلى الطقس نظرة شك وعداء عميقين وتعتبره أقرب إلى الخرافة.

كانت الكعبة أقدس مقام إلى جانب وجود مقامات أخرى. أثناء العبادة كان الطواف ونوع الوقوف، اللذان كانا يمارسان خلال الحج في فترة ماقبل الإسلام في جبل عرفات، عنصرين أساسيين في كل مكان من الجزيرة العربية، وكذلك كانت قطعة الأرض «الحِمى» التي كانت تقتطع من الاستخدام الدنيوي حقاً مقدساً لجميع الكائنات البشرية. لم يبق أيٌّ من المقامات الأخرى، لكننا نعرف عن هياكل أخرى مثل **كعبة نجران** في اليمن وفي الأبلات إلى الجنوب من مكة. لكن المقامات التي كان لها أهمية كبيرة كانت المقامات المخصصة لبنات الله الثلاث بالقرب من مكة. كانت **اللّات** في بلدة **الطائف** ويشير معنى اسم اللات إلى «الإلهة». وكانت تدين لها قبيلة **ثقيف**. كانوا يحبون مناداتها بالربة. ومقام العُزَّى كان موجوداً في **نخلة** وكانت هي الأكثر شعبية من بين هذه الإلهات الثلاث، واسمها يعني «القديرة». وقرب مقامها في **القديد** كانت توجد **مناة** إلهة القدر. ليست هذه الإلهات على شاكلة الإلهات في هيكل الآلهة الإغريقي ـ الروماني: لم يكن شخوصاً مثلما كانت **جونوا** أو **بالاس** أثينا بقصتهن وأسطورتهن وشخصياتهن، وليس لهن منطقة نفوذ خاصة بهن كالحب أو الحرب. فالعرب لم يطوروا ميثولوجيا لشرح الأهمية الرمزية لهذه الكائنات المقدسة، وعلى الرغم من اسمهن «بنات الله» إلا أن ذلك لا يعني أنهن كن جزءاً من هيكل آلهة مكتمل التطور. غالباً ما استخدم العرب كلمات القرابة للدلالة على علاقة مجردة، فبنات الدهر تعني بنات الزمن، أو القدر حرفياً، وكانت تعني ـ سوء الحظ أو تقلُّب المصير. ربما كانت بنات الله كائنات مقدسة، وقد تم تمثيلهن في معابدهن لا في تماثيل شخصية أو لوحة بل في حجارة كبيرة واقفة، بالأحرى مثل رموز الخصوبة التي استخدمها الكنعانيون، ويرد وصفها كثيراً في التوراة. فعندما كان العرب يعبدون هذه الحجارة فإنهم لم يعبدوها بأية طريقة تبسيطية فجة، بل كانوا يرون فيها بؤرة للألوهة. لقد رأى بعضهم أن هذه الإلهات الثلاث كانت مرتبطة بآلهة الخصب السامية **عناة وعشتار**، وبذلك بدأت عبادتها قبل أن يتبنى العرب الحياة البدوية أي عندما كانوا مزارعين[٣].

من المحتمل أن العرب لم يعبدوا **اللات والعُزّى ومناة** بطريقة مشخصة بل كانوا يشعرون تجاهها بعاطفة كبيرة لأن عبادتها كانت مقتصرة على مقاماتهن، ولم يعبدها الناس في منازلهم كما كان يفعل الإغريق والرومان[٤*]. مع ذلك فقد كُنَّ مُكَوِّناً أساسياً للمشهد الروحي عند بدو الحجاز الذين كانوا يعتبرون نخلة والطائف وقُدَيْد أماكن مقدسة، ومناطق محرمة يجد فيها العرب بؤرة لهم، وكان قدم هذه الإلهات سبباً آخر لعبادتهن. فعندما كان العرب يعبدونهنَّ في مقاماتهن كانوا يشعرون أنهم على صلة مع أجدادهم الذين عبدوا بنات الله هناك أيضاً، وكان هذا الإحساس يقدم لهم إحساساً شافياً بالاستمرارية. لم تكن هذه المقامات بأهمية الكعبة إنما كانت طريقة تخيلية لاستحضار المشهد الطبيعي ولإعطاء مناطق السهوب القاسية مرجعية روحية. لقد كن منغرسات في أعماق هوية الكثيرين من العرب وكانوا يشعرون بتهديد عميق عند تشويه هذه العقيدة القديمة.

مع ذلك فقد أصبح بعض العرب غير راضين عن الدين القديم، إذ ساد في الطور الأخير من الجاهلية قلق وضيق روحيان في الجزيرة العربية. لقد خدم النظام القبلي والوثنية البدو جيداً طوال قرون، لكن الحياة في القرن السادس كانت قد تغيرت. كان معظم شبه الجزيرة خارج تيار الحضارة الرئيسي، إلاّ أن العرب بدؤوا يدركون بعضاً من أفكار ودوافع الحضارة، ويبدو أن بعضهم قد سمع عن الفكرة الدينية المتعلقة بالحياة الآخرة التي جعلت من القدر الأبدي للفرد قيمة عليا. فكيف يتفق هذا مع المثل الأعلى المشترك الذي تنادي به القبلية؟ إن العرب الذين بدؤوا التجارة مع الدول المتمدنة كانوا يعودون ومعهم قصص مؤثرة، وشعراء وصفوا أعاجيب سوريا وبلاد فارس. مع ذلك بدا العرب وكأنه ليس في وسعهم أن يأملوا بسلطة وعظمة كهذه ذلك لأن النظام القبلي كان يجعل من المحال أن يسهموا بمصادرهم المتواضعة وأن يواجهوا العالم مثلما يواجه الناس المتحدين الذين كانوا يدركون وجودهم بشكل أعمى. فالقبائل بدت متورطة في حلقة لانهاية لها من الحروب والثارات، وكل سفك دم كان يفضي إلى آخر، وفي الوقت ذاته كانت ايحاءات النزعة الفردية تُلغّم الروح الجماعية بطريقة خفية.

لكن العرب الذين كانوا يشعرون بفقدان التوجه أكثر من سواهم، كانوا هم

(٤*) ـ يبدو أن بعض الوثنيين في يثرب كانوا يحتفظون بتماثيل للإلهة مناة في منازلهم.

الذين اعتادوا على حياة الاستقرار. فأثناء القرن السادس هاجرت قبيلة من المنطقة المضطربة في جنوبي الجزيرة إلى واحة يثرب واستقرت إلى جانب القبائل اليهودية هناك. لقد حققوا النجاح من هذه المغامرة الزراعية، ووجدوا أن النظام القبلي لم يعد صالحاً عندما لم يعد العرب يطوفون في أرجاء شاسعة، بل يعيشون معاً بالقرب من بعضهم بعضاً. في مطلع القرن السابع بدت الواحة كلها في قبضة حلقة تاريخية من العنف والحرب. وقبيلة **قريش** ـ التي ولد فيها محمد في نحو عام ٥٧٠م ـ في مكة، التي أصبحت أقوى القبائل في الجزيرة، كانت تعاني من قلق غامض، عندما وجدت أيضاً أن النظام الفكري القديم لم يعدها لحياة المدينة.

استقرت **قريش** في مكة في نحو نهاية القرن الخامس، وكان **قصي** الجد الأكبر وأخوه **زهرة** وعمه **تيم** قد استقروا في وادي مكة بالقرب من الكعبة، كما استقر هناك مخزوم وهو ابن عم آخر مع أبناء عمومته جمح وسهم. فهؤلاء وعشائرهم التي سميت بأسمائهم اصبحوا يعرفون باسم قريش الجوفاء The Hollow[٥]. بينما استقر أقارب قصي البعيدون في المناطق المحيطة، وكانوا يعرفون باسم قريش الضواحي (الأطراف). هناك أسطورة تروي أن قصي ارتحل من سوريا وجلب معه الإلهات الثلاث: **اللات، والعزى، ومناة** إلى الحجاز، وتوج الإله النبطي **هبل** في الكعبة. وفي حملة جُمِعَتْ فيها الخدعة والقوة استطاعت قريش الاستيلاء على مكة وطردت **خزاعة**، القبيلة التي كان قد أُوكل إليها الوصاية عليها وحراستها والتي فشلت في نظر الآخرين في أداء الأمانة المقدسة. ويبدو أنه بعد موت قصي تشاجر ولداه **عبدالدار وعبد مناف**، واستمرت نتائج هذا النزاع بين أحفادهما، وأثرت على السياسة الداخلية في مكة حتى عهد **محمد**. كان عبد الدار هو الابن الأكبر والمفضل عند أبيه، وكان يسانده كل من: مخزوم، وسهم، وجمح وعدي وأُسَرِهم. وأصبحوا يُعرفون باسم **الأحلاف**. بينما حارب **عبدمناف** ـ ابن قصي الأصغر ـ من أجل ميراثه وكان يسانده في ذلك بنو أسد بن عبد العزّى بن قصي وبنو زُهرة بن كلاب، وبنوا تيم بن مرة بن كعب، **وزهرة وتيم والحارث** بن فهر بن مالك بن النضر الذي كان يتمتع بمهابة كبيرة. صدقوا على معاهدتهم بغسل أيديهم في وعاء من العطر عند الكعبة فأصبحوا يعرفون باسم

المتطيبين. لم يُرِدْ أي طرف دَفْعَ النزاع إلى ذروته فتوصلوا إلى تسوية احتفظ بموجبها عبدالدار وحلفاؤه بامتيازات اسمية بينما استقرت السلطة الفعلية في يد عبدمناف والمتطيبين. وقد مال أبناؤهم في العشائر التي تسمت باسمائهم إلى الاحتفاظ بهذا التحالف القديم.

بدأت قريش تنهمك في النشاط التجاري، وراحت تمزجه مع النشاط التقليدي القائم على تربية الحيوان. فمكة كانت ذات موقع مثالي للقيام بأعمال تجارية طويلة الأمد. وكان امتياز الكعبة يجلب عرباً كثيرين أثناء الحج إلى المدينة كل سنة، وكانت الأشهر الحرم تخلق مناخاً مناسباً للتجارة. كانت مكة تقع على تقاطع طريقين رئيسيين للتجارة في الجزيرة العربية هما: طريق الحجاز الذي كان يساير الساحل الشرقي للبحر الأحمر رابطاً اليمن بسوريا وفلسطين والأردن، والآخر هو طريق نجد الذي كان يربط اليمن بالعراق، وبذلك ازدهرت أحوال القرشيين كثيراً، فقد قاموا بتأمين الأمن في مكة بإقامة تحالفات مع البدو في المنطقة، لأن الرُّحل كانوا مقاتلين أفضل من القرشيين ، وكانت لهم حصص في الشركات المكية مقابل العون العسكري الذي كانوا يقدمونه. وهكذا فقد نما الدهاء وفن الحكم المعروف بالحلم فأصبحت قريش السلطة الأقوى في الجزيرة في القرن السادس.

كان القرشيون يدركون أهمية منع القوى العظمى من أن تستغلهم كي يتجنبوا مصير مملكة الجنوب، ولذلك بقوا على الحياد في الصراع الدائر بين فارس وبيزنطة. لكن العلاقات مع البيزنطيين تدهورت بحدة في نحو عام ٥٦٠م(٦*) أي عندما كان جنوب الجزيرة مايزال ولاية تابعة للحبشة، الدولة التي كانت بدورها تابعة لبيزنطة. ويبدو أن الحاكم الحبشي **أبرهة** ـ حاكم جنوب الجزيرة ـ أخذته الغيرة من النجاح التجاري الذي حققته مكة فحاول غزوها، وقد صيغ هذا الحادث في أسطورة. يبدو أن أبرهة أدرك أن الكعبة لعبت دوراً حاسماً في نجاح قريش. فمن أجل تحويل الحجاج إلى جنوب الجزيرة، وبالتالي اجتذاب المزيد من التجارة، بنى في **صنعاء** معبداً مسيحياً فخماً من الرخام المعرّق، ويقال إن نيّته كانت تدمير الكعبة

(٦*) ـ يعتقد تراثياً أن محمداً ولد في عام الفيل؛ لكن العلماء الغربيين يعتقدون أن غزو الأحباش قد تم قبل ولادته بعشر سنوات، أي في عام ٥٦٠ .

عندما خيم بجيوشه خارج مكة. ويبدو أن الطاعون ضرب جيشه عند بوابات المدينة، فاضطر إلى القيام بانسحاب مخزٍ، فكان طبيعياً أن يُصَبَّ هذا الخلاص الدراماتيكي لقريش في قالب إعجازي. فالأحباش جلبوا معهم الفيلة، ويبدو أن المكيين أُعجبوا بهذا الحيوان الضخم الغريب الشكل. قيل لاحقاً إنه عندما وصل الفيل إلى المنطقة المقدسة خارج مكة خرَّ على ركبتيه، ورفض أن يتزحزح من مكانه. بعدئذ أرسل الله أسراباً من الطير من الساحل، وأخذت ترمي حصى مسمومة على الأحباش مسببة لهم بثرات مخيفة. وهكذا أصبح لعام الفيل أهمية كبيرة عند القرشيين. يُبين محمد بن اسحاق (٧٦٧)، أول كاتب سيرة لمحمد، أنه بعد هذه المعجزة ازداد احترام البدو للقرشيين كثيراً: فقالوا: «أهل الله، قاتل الله عنهم فكفاهم مؤونة عدوهم»[٧]. وقد وردت القصة في القرآن السورة /١٠٥/. (سورة الفيل)، وحتى أن قصة الفيل هذه أثارت مشاعر النبي نفسه.

أصبح القرشيون حريصين جداً على صون استقلالهم بعد هذه الحادثة. ومع مطلع القرن السابع حققوا قدراً من الغنى لم يكن ليخطر في أحلامهم في أيام البداوة الخوالي. كان من الطبيعي أن يروا الثروة ورأس المال خلاصاً لهم لأنهما أنقذاهم من حياة الفقر والمخاطر، وقدما لهم حماية شبه إلهية فما عادوا جائعين، ولا تبتليهم القبائل المعادية. لقد بدأ المال يحقق قيمة تكاد تكون دينية كما سنرى. لكن الرأسمالية العدوانية لم تكن لتتماشى مع الأخلاق القبلية الجماعية القديمة. من الطبيعي أنّ الرأسمالية شجّعت تفشي الجشع والنزعة الفردية. فكانت العشائر المختلفة منهمكة في تنافس شرس، وعندما كان محمد شاباً كانت العشائر منقسمة إلى مجموعات رئيسة ثلاث. فبعض العشائر الضعيفة ـ من بينها عشيرة بني هاشم التي ولد فيها محمد لم تجْنِ ماجنته العشائر الأخرى، فشعرت أنها قد دُفِعَت إلى الحائط. كان الأفراد يكدسون ثروات شخصية بدلاً من الاشتراك في الثروة على قدم المساواة وفقاً للأخلاق القبلية القديمة. كانوا يستغلون حقوق اليتامى والأرامل، ويضمون ميراثهم إلى ممتلكاتهم الخاصة، ولا يعتنون بأفراد القبيلة الضعفاء والفقراء مثلما كانت تتطلب الأخلاق القديمة. هذا الرخاء الجديد جعل علاقاتهم مع القيم التراثية أكثر قساوة، فشعر العديد من القرشيين الأقل نجاحاً بالضياع وبإحساس غامض بفقدان التوجه. كان من الطبيعي أن يستمتع التجار والمصرفيون وأرباب المال الأكثر

نجاحاً بهذا النظام الجديد فأخذوا يجمعون بشكل عدواني أموالاً طائلة بحماسة تكاد تكون دينية. لم يكن قد مضى سوى جيلين على ما كانوا يعانون منه في حياة البداوة عندما اعتقدوا أن المال والسلع المادية بإمكانها أن تنقذهم فأرادوا الحصول على أكبر قدر مستطاع منها. لكن الجيل الأصغر سناً كان أقل افتتاناً من أبائهم، وبدا أنهم كانوا يبحثون عن حل روحي وسياسي للقلق والانحراف الذي راح يسود المدينة.

غالباً مايُقال إن الإسلام هو دين الصحراء لكن ذلك ليس صحيحاً. نعم لقد أثرت الأخلاق القبلية القديمة على رسالة القرآن، لكن الدين الجديد ـ الذي انبثق من مكة في جو لا يرحم من الرأسمالية، والموارد المالية الضخمة ـ كان نتاج المدينة، مثله في ذلك مثل الأديان العظيمة والعقلانية الفلسفية في اليونان. يبدو هذا غريب الوقع على الذين تربوا على اعتبار هجر يسوع الناصري للحياة الدنيوية هو خلاصة الروح الدينية. إننا لا نتوقع ظهور نبي في أحياء المال والتجارة في لندن أو في نيويورك. لكن الهندوسية والبوذية والجانسينية والكونفوشية ظهرت جميعاً في مكان السوق. والفلاسفة اليونانيون العظام علّموا في الساحات العامة، وبشر أنبياء إسرائيل العظام في المدن في وقت كان الاسرائيليون قد بدؤوا بترك الحياة البدوية خلفهم. لقد نشأت هذه الأديان العالمية في جو المدينة التجاري، في وقت كان فيه التجار ينتزعون بعض السلطة التي كانت ذات يوم في أيدي الملوك والطبقات الأرستقراطية والكهنة. لقد لفت الرخاء الجديد انتباه الناس إلى التفاوت بين الأغنياء والفقراء، وجعلهم مهتمين جداً بمشكلات العدالة الاجتماعية. جميع القادة الدينيين العظام والأنبياء تناولوا هذه المسائل وقدموا حلولهم المتميزة. مع بداية القرن السابع كان القرشيون وبعض العرب الآخرين يتركون حياة البداوة خلفهم، ليتفهموا المشكلات الاجتماعية التي تمخضت عنها حياة الاستقرار. وفي هذه المرحلة بالذات أحضر نبي الإسلام رسالة دينية جديدة إلى العرب.

كان بعض الناس قد بدؤوا يبحثون من قبل باتجاه دين وحداني، وكان بعضهم على استعداد لسماع رسالة محمد بأن هناك إلهاً واحداً فقط. ويبدو أن من المعترف به عموماً أن الكعبة كانت مكرسة إلى الله ـ إله العرب الوثنيين المتعالي ـ على الرغم من وجود تمثال هبل وعلو شأنه على باقي الأصنام. مع حلول القرن السابع كان الله قد أصبح أكثر أهمية من ذي قبل في الحياة الدينية عند الكثيرين من

العرب. ثمة أديان بدائية عديدة طوّرت إيماناً بإله متعالٍ يدعى أحياناً إله السماء، يعتقد أنه خلق السموات والأرض ثم استراح وكأنما كانت عملية الخلق متعبة له. وبعدئذ فقد الناس اهتمامهم بهذا الوجود المتعالي الذي اختفى عن الأنظار فحلت مكانه آلهة أكثر جاذبية وأسهل منالاً. لقد أثرت إلهات الخصب تحديداً على حياة الرجال والنساء بشكل مباشر تقريباً بعد أن استقروا وبدؤوا زراعة الأرض. ونرى هذا في الكتاب اليهودي المقدس. فقد بدأ الاسرائيليون القدامى عبادة **بعل** و**عناة** و**عشتروت** عندما استقروا في بلاد **كنعان** إلى جانب عبادة إلههم العلي **يهوه**. وقد بدا لهم أن إهمال هذه الآلهة القديمة التي كانت تعرف الأرض أكثر مما كانوا يعرفونها هم، هو ضرب من الغباء. وفي أوقات الضيق كانوا يناشدون يهوه ثانية.

لعلَّ وظائف الخصوبة للإلهات العربيات كانت قد نُسِيَت خلال سنوات البداوة، ولذلك أصبح الله العلي أكثر أهمية فقد أوضح القرآن أن قريشاً كلها كانت تعتقد أن الله قد خلق السموات والأرض، وهذه حقيقة كانت تعتبر بديهية:

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخَّر الشمسَ والقمرَ ليقولُنَّ الله فأنّى يؤفكون[٨]﴾.

لكنهم استمروا أيضاً في عبادة الآلهة الآخرى التي بقيت تحظى بأهمية كبيرة لديهم. فالعرب كانوا يلتفتون إلى اللات والعزى ومناة في أوقات اليسر مثلهم في ذلك مثل الاسرائيليين القدماء، لكنهم في أوقات الشدة كانوا يتجهون غريزياً إلى الله، الذي هو وحده لديه القدرة على مساعدتهم. ويبين القرآن أنهم عندما كانوا يذهبون في رحلة بحرية ـ كان يجدها العرب خطرة جداً ـ كانوا يدعون الله حتى يتم زوال الخطر، وما إن تطأ أقدامهم الأرض ويشعروا بالأمن حتى يتوجهوا إلى الآلهة الأخرى[٩].

لكن البعض ـ كما يبدو ـ كان مستعداً للذهاب إلى أبعد من ذلك. في مطلع القرن السابع كان يعتقد معظم العرب أن الله ـ إلههم العلي ـ كان هو نفس الله الذي كان يعبده اليهود والمسيحيون. فالعرب الذين اعتنقوا المسيحية سَمّوا إلههم «الله»، وكانوا يقومون بالحج إلى بيته الحرام مثلما كان يفعل الوثنيون. لكن ادراك العرب كان يتزايد بأن الله لم يعطهم كتاباً خاصاً بهم. ويمكننا أن نرى من خلال السير الأولى لمحمد أن العرب الوثنيين كانوا يشعرون باحترام كبير تجاه «أهل

الكتاب» الذين أُوتوا من العلم والمعرفة مالم يؤتوا مثله، لذا قرر بعضهم البحث عن دين حق ليس مرتبطاً بالقوى العظمى، أو مشوباً بعلاقة مع سيطرة امبريالية أو أجنبية. فالمؤرخ المسيحي الفلسطيني **سوزومينوس** Sozomenus من القرن الخامس ذكر أن بعض العرب قد اكتشفوا ثانية دين ابراهيم القديم، واستمروا في ممارسته كما كان في عهد ابراهيم. وإذا أردنا توخي الدقة، فإن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا مسيحياً فقد عاش قبل جلب موسى التوراة إلى شعب اسرائيل. وسوف نرى أن بعض الناس في الجزيرة العربية كانوا يحاولون ممارسة دين ابراهيم عندما كان محمد يتلقى الوحي.

يخبرنا ابن اسحاق في سيرته أنه قبل أن يبدأ محمد دعوته قرر أربعة قرشيين الانسحاب من العبادة الوثنية في الكعبة والبحث عن الدين الحق. ونظروا فيما يفعله قومهم وقال بعضهم لبعض:

> **«لقد أخطؤوا دين أبيهم ابراهيم، ما حجرٌ نَطِف به، لايسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع، ياقوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين ابراهيم»**(١٠).

لقد جادل بعض العلماء الغربيين في أن طائفة الحنفية القليلة العدد ما هي سوى أسطورة ورعة تجسد القلق الروحي الذي كان يسم القسم الاخير من الجاهلية أكثر مما هي حقيقة تاريخية، لكن لا بد أنه كان لها أساس حقيقي(*). فثلاثة من أفرادها الأربعة معروفون في حياة محمد وأصحابه الأوائل، والرابع هو **عثمان بن الحويرث** الذي كان شخصية هامة في مكة عندما كان محمد شاباً في العشرينات من العمر. فهو تاجر قرشي اعتنق المسيحية وحاول اقناع أفراد قبيلته أن يتوجوه ملكاً عليهم. لقد وعدهم أن يقدم لهم شروطاً تجارية أفضل مع البيزنطيين الذين ربما كانوا يريدون جعل مكة دولة تابعة لهم. إلا أن اقتراحه هذا باء بالفشل، لقد كان القرشيون يعارضون حتى أعماقهم فكرة المُلكية مثلهم في ذلك مثل العرب جميعاً.

كانت الجماعة الإسلامية الأولى تعرف الأحناف الثلاثة الآخرين: **عبدالله بن**

(*) يمكن لمن يود متابعة أمر الحنفية الرجوع إلى كتاب (الأحناف) تأليف عماد الصباغ، ط١، ١٩٩٨، صادر عن دار الحصاد ـ سورية.

جحش ابن عمة الرسول، أسلم لكنه تحول إلى المسيحية أخيراً. **وورقة بن نوفل** ابن عم خديجة زوجة محمد الأولى، الذي قدم له التشجيع عندما بدأ بتلقي الوحي من الله. لكن الأخير من هذه الطائفة الأسطورية، **زيد بن عمرو** بقي باحثاً طوال حياته، ولم يعتنق أي دين رسمي معروف. لم ينسحب فقط من العبادة في الكعبة بل قيل عنه أنه كان منتقداً للدين الوثني علانية. وكان **خطاب بن نفيل**، عمه وأخوه من أمه، وثنياً عنيداً، وأدى سلوك زيد إلى فضيحته له لارتداده وعدم احترامه للإلهات، فطرده من المدينة في النهاية. ويقال إنه نظم جماعة من الشبان الوثنيين المتحمسين كي يجوبوا التلال خارج مكة حيث كان يختبئ زيد ليمنعوه من دخول المكان الحرام. لذلك غادر زيد الحجاز مرتحلاً في البلدان المتحضرة بحثاً عن الدين الحق. وصل **الموصل** في العراق ثم سوريا سائلاً أي راهب أو حبر كان يلتقي به عن دين ابراهيم الحنيف. وفي النهاية، قابل راهباً أخبره أن نبياً على وشك أن يبعث في مكة، وهذا النبي سوف يدعو إلى الدين الذي كان يبحث عنه. عندئذ قفل راجعاً، لكنه تعرض لهجوم قتل فيه على الحدود الجنوبية لسوريا، ولم يتصل بمحمد. وأما ابنه سعيد فقد أصبح واحداً من أكثر الموثوقين لدى محمد.

إنها قصة تعليمية. تعبر ببلاغة عن الروح المتسائلة عند بعض العرب في هذه الفترة، لكنها تبين أيضاً المعارضة التي سيلقاها امرؤ يهدد الدين الوثني. كان هناك كثيرون من أمثال خطاب بن نفيل الذين كانوا مخلصين لدين آبائهم، ولم يكن باستطاعتهم سماع كلمة واحدة ضد آلهتهم القديمة. لم يكونوا يشعرون بأن هناك حاجة للتغيير: فدين الكعبة كان ذا معنى كامل، وكان بؤرة تركيز لوحدة القرشيين في مدينتهم. فسوف نرى أن ابن خطاب «عمرو» قد شارك والده حبه للدين القديم. لكن التوق إلى دين بديل قد بقي. فهناك قصة تروي أنه قبل أن يجبر على مغادرة مكة ذات يوم كان زيد واقفاً بالقرب من الكعبة متكئاً عليها، وخاطب القرشيين الذين كانوا يطوفون حولها:

> **«يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري»** ثم أضاف **«اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه»**[١١].

على أية حال، سرعان ما جاءت الاستجابة على هذا الدعاء.

الفصل الرابع

الوحي

لا نعرف سوى النزر اليسير عن مطلع حياة النبي محمد. والقرآن يقدم لنا أكثر عرض موثق حول وضعه في الحياة قبل أن يتلقى الوحي في مهمته النبوية عندما كان في الأربعين من عمره:

﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾[1].

وفي مرحلة تالية زين التراث الإسلامي هذه الحقائق المجردة بتفاصيل أسطورية كتلك القصص الأسطورية حول ولادة يسوع وطفولته والتي أضيفت إلى الإنجيلَيْ مَتَّى ولوقا، وهي عبارة عن عروض شعرية لحقائق لاهوتية: إنها تتناول طبيعة مهمة يسوع، وتشير إلى أنه قد لُقِّنَ المجد وهو في رحم أمه. لقد أصبح يسوع ومحمد بطلين بالمعنى الكلاسيكي للكلمة تقريباً. فكلاهما نفذ إلى ممالك تجربة جديدة، وواجها ظروفاً محفوفة بالمخاطر، وجلبا لشعبيهما نعمة حولت مسار حياتهما، تماماً مثلما سرق بروميثيوس ناراً من الآلهة وجلبها إلى الأرض كي يضيء حياة الناس. وتبين القصص حول طفولة أبطال كهؤلاء أنهم كانوا في أغلب الأحيان مستعدين لقدرهم الاستثنائي بقدرات تقع خارج فهمنا. فيسوع أصبح شافياً فاتناً للناس، وكان العنصر الإعجازي عاملاً بارزاً في شبابه. بالمقابل لم يقم محمد بمعجزات: كان يقول دائماً إن وحي القرآن كان معجزة بحد ذاته، ودليلاً كافياً على مصدره الإلهي. كان يصر على أنه «إنسان كبقية البشر»، وقد أكد القرآن هذا: فالآية التي أوردتها للتو، تشير إلى أن محمداً كان غافلاً عن الشريعة «ضالاً» عندما بدأ الله

يتكشّف له(*٢). فالقصص الإعجازية لحمل أمه به وطفولته ليست سمات مميزة لبقية حياته، لكنها تأملات شعرية حول طبيعة نبوءته، وتكشف قناعة المسلمين اللاحقة أنه كان «حبيب الشعوب» وأن الجميع من يهود ومسيحيين كانوا ينتظرون قدومه متلهفين.

لقد قيل إن أحد الرهبان المسيحيين قد تنبأ بمجيء النبي العربي للحنيفي زيد بن عمرو، وهذه فكرة ثابتة في بداية محمد والجماعة المسلمة. في الحقيقة لم يكن لعرب الحجاز سوى احتكاك قليل مع المسيحيين، وكانوا لا يعرفون سوى القليل عن المسيحية، ولم يتعرف المسلمون على الكنائس المزدهرة التي تقوم بوظيفتها في سوريا وفلسطين إلا بعد وفاة محمد. وعرض القرآن للدين المسيحي محدود جداً، ولم يكن معادياً تجاه دين يسوع. فقد رأى القرآن في الوحي الذي نزل على محمد استمرارية وتأكيداً للدين السابق له. لقد ترجم بعض المسيحيين العرب في الكنيسة السريانية إحدى فقرات الأناجيل بطريقة تدل على أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد. فيسوع قال إنه سوف يرسل ـ بعد موته ـ إلى تلاميذه «روح القدس paraclete» الذي سوف يذكرهم بكل شيء علمهم إياه ويساعدهم على فهمه[٣]. ففي كتاب الفصول lectionary السرياني ترجمت كلمة paraclete بكلمة موناهيما munahhema التي بدت قريبة جداً من اسم محمد. وقد لفظ مسيحيون عرب آخرون الكلمة Periklytos التي بالامكان ترجمتها إلى العربية بكلمة «أحمد Ahmad». كان هذا الاسم شائعاً في الجزيرة، ومثله مثل اسم «محمد» يعني «الانسان الحميد الخصال». ويبدو أن محمداً قد أحيط علماً بهذه الترجمة لأن القرآن يشير إلى الاعتقاد بأن يسوعاً قد تنبأ بمجيء نبي آخر اسمه أحمد يأتي بعده ويؤكد رسالته.

﴿وإذْ قال عيسى ابنُ مريمَ يابني اسرائيلَ اني رسولُ اللهِ إليكمْ مصدقاً لما بين يَدَيَّ من التوراة ومُبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سِحْرٌ مبين﴾[٤].

(*٢) ـ في يومنا هذا يعتقد مسلمون كثيرون أن محمداً كان النموذج الأصلي للإنسان الكامل ولذلك فهو معصوم. وأناقش هذه النقطة بشكل مفصل في الفصل التاسع.

كان يهود الجزيرة العربية في المستوطنات الزراعية في الشمال يعتقدون أيضاً بظهور مرتقب لنبي في شبه الجزيرة، ومن المحتمل أنه كان هناك تصاعد متزايد لهذا الاعتقاد، الذي ترجم بكلمات يهودية تراثية، القلق في شبه الجزيرة العربية في نهاية الفترة الجاهلية. فقد حدَث أن هاجر أحد الأحبار الورعين من سوريا إلى يثرب فعلاً. وعندما سأله الناس عن السبب الذي دفعه إلى ترك تلك البلاد الخصبة اللطيفة إلى أرض سمتها صعوبة العيش والجوع أجاب أنه أراد أن يكون في الحجاز عند وصول النبي، وقال مخاطباً القبائل اليهودية في يثرب «**إن وقته قد حان، ولا تدعوا أحداً يسبقكم إليه أيها اليهود، لأنه يرسل كي يسفك الدم ويأخذ نساء وأطفال من يعارضونه أسرى. لا تدعوا ذلك يؤخركم عنه**»[٥]. وقد أحدثت هذه الخميرة المسينية تأثيراً كبيراً على عرب يثرب الوثنيين الذين كانوا يشعرون أن دينهم أدنى مستوى، وغير كاف، مقارنة مع الوحي عند اليهود في الكتب المقدسة. وفي مرحلة لاحقة استحضر أحدهم التوتر الذي كان قائماً بين القبائل اليهودية والعرب في يثرب:

> **نحن كنا مشركين نعبد أصناماً، بينما كانوا [اليهود] أصحاب كتب مقدسة تحتوي على معرفة لا نملك مثلها. كانت هناك عداوة مستمرة بيننا، وعندما كنا نحصل على أفضل ما عندهم، ونثير كراهيتهم كانوا يقولون: «إن وقت النبي الذي سوف يرسل قد حان. إننا سوف نقتلكم بمساعدة منه مثلما هلكت عاد وإرم». كنا نسمعهم يقولون هذا في أغلب الأحيان**[*٦].

وسنرى في الفصل السابع أن هذا قد أعدَّ عرب يثرب لتأييد محمد، وأنهم عندما قابلوه تعرفوا عليه في الحال على أنه النبي الموعود. وتتحدث الأناجيل أيضاً عن إحساس بأمل متعاظم في فلسطين حيث كانت هناك حالة مسينية مماثلة. فالنبي الذي يتكلم نيابة عن الله هو أيضاً ـ بمعنى عميق ـ الناطق بلسان أبناء شعبه معبراً عن آمالهم ومخاوفهم. إنه سيشاركهم أيضاً القلق والاضطراب في عصره، لكنه سيكون

(*٦) ـ نفس المصدر ١٤٤ ص ٩٣ . عاد وإرم كانا من الشعوب العربية القديمة ذكر هلاكهما في القرآن.

قادراً أيضاً على مخاطبتهم في مستوى أعمق. وتعكس قصص التنبوء اليهودية ـ المسيحية، القلق الروحي الذي ساد الجزيرة في بداية القرن السابع، كما تظهر التأثير القوي الذي مارسه أبطال أنبياء مثل يسوع أو محمد على جيلهم وعلى اجيال تالية. فما أنجزوه كان رائعاً جداً ومتناغماً تماماً مع احتياجات العصر الى درجة أن هذا الانجاز تم بطريقة غامضة، ولبى الطموحات الدينية في الماضي.

كان محمد مدركاً تماماً علة المجتمع المكّي بالرغم من النجاح البراق الذي حققه هذا المجتمع. وُلد في نحو سنة ٥٧٠ في عشيرة هاشم تلك التي كانت سلطتها تضعف، وتشعر أنها محرومة. فهاشم بن عبد مناف، حفيد **قصي** كان شخصية هامة في مكة أثناء حياته. فهو الذي كان يجهز القافلتين اللتين كانتا تذهبان كل سنة من مكة إلى **سورية واليمن**، وقيل إنه كان على صلة جيدة مع نجاشي **الحبشة** وإمبراطور بيزنطة. في البداية استمرت العشيرة التي أسسها في نجاحها. كان **عبدالمطلب** ـ ابنه ـ شخصية ساحرة، ويعتقد أنه هو الذي اكتشف ثانية نبع زمزم الذي ردمه بعض القرشيين غير الورعين ممن سبقوه إلى مكة. وهكذا كان لقبيلة هاشم امتياز سقاية الحجاج من زمزم عند أداء الحج. وكان عبدالمطلب تاجراً غنياً أيضاً، ويوضح قطيع الإبل الذي كان يملكه أنه استمر في بعض أوجه الحياة البدوية. أنجب عشرة أبناء وست بنات وكانوا ذا جمال أخّاذ. ويستذكر المؤرخ **محمد بن سعد** التأثير الذي أحدثه أبناء عبدالمطلب على سكان مكة:

> «لم يكن بين العرب من هم أكثر أهمية ورجال دولة منهم، ما من أحد نبيل قسمات الوجه مثلهم، كانت أنوفهم كبيرة جداً لدرجة أن الأنف كان يشرب قبل الشفتين»(٧).

وكان الإبن الأصغر من هؤلاء ويُدعى **عبدالله** هو الأغلى على قلب عبدالمطلب، وقيل إنه الأكثر وسامة من بين أخوته، وعبدالله هذا هو والد **محمد**.

بيد أن هذه السنوات كانت حاسمة بالنسبة للقرشيين، وكانت أقدار عشائرهم في حالة تذبذب مستمر فخلال طفولة محمد وقعت حادثة حرّكت الصراع القديم بين «الأحلاف» و«المتطيبين»، ودلت على مدى تردي أقدار بني هاشم عندما كان عبد المطلب رجلاً عجوزاً. كان تاجر يمني قد باع بضاعة إلى أحد وجهاء عشيرة سهم التي كانت عضواً في «الأحلاف»، ورفض هذا الوجيه دفع

ثمنها، فالتمس اليمني الأمر في قبيلة قريش كلها من أجل إحقاق الحق وإقامة العدل. فطلب زعيم عشيرة تميم إلى كل من يهمه احقاق الحق والعدل الاجتماع فاستجاب لدعوته بنو هاشم، وأسد، وزهرة وهؤلاء جميعاً من **المتطيبين**، وعقدوا معاهدة عرفت فيما بعد **بحلف الفضول**، أي عصبة الفاضلين[٨]. مضوا جميعاً إلى الكعبة وأقسموا على الوقوف إلى جانب المضطهدين والمظلومين، وقيل أن الصبي **محمداً** كان حاضراً في هذا الاجتماع، وتحدث بحرارة مبدياً موافقته على هذه الرابطة النبيلة. لكن ربما كان لهذا الحلف غاية تجارية، لأن العشائر التي ضمها كانت في موقع أضعف من عشائر الأحلاف التي كانت تحتكر التجارة المكية دافعين بالآخرين إلى الحائط. وربما قام هذا الحلف لمحاربة الاحتكاريين، وكي يحرسوا زاويتهم.

لقد مرت أسرة محمد بظروف صعبة، وعندما حان وقت زواج عبدالله قرر عبدالمطلب أن يتخذ لنفسه زوجة كي يعقد تحالفاً مع عشيرة **زهرة**، فخطب لنفسه **هالة بنت أهيب** وخطب لابنه عبدالله **آمنة بنت وهب** أم محمد، وكلتاهما تنتميان إلى كبار التجار في عشيرة زهرة. هناك أسطورة تدور حول حمل آمنة بمحمد وهي مناقضة بشكل مذهل لحمل يسوع كما وردت في إنجيلَيْ متى ولوقا. لم يناد الاسلام بالعزوف عن الزواج، ولم يولد نبيه من عذراء. يروى أن عبد المطلب وابنه عبد الله كانا يسيران معاً في شوارع مكة لزيارة المرأتين اللتين ستصبحان زوجتيهما الجديدتين وفي أثناء سيرهما اندفعت امرأة إلى الخارج ودعت عبدالله إلى فراشها. ويبدو أنه كان باستطاعة العرب أن يتخذوا لأنفسهم أي عدد من الزوجات في الفترة السابقة للإسلام، فلم يبد عبد الله استياء من اقتراح المرأة، علماً أنه كان في طريقه إلى زفافه. بل أجاب أن عليه أن يبقى مع أبيه، لكنه نوى زيارة المرأة في أثناء العودة إلى بيته عند الصباح. فعندما وصل إلى منزل والد آمنة، أتم زواجه، وحملت آمنة بمحمد. وعندما بحث عن المرأة التي دعته إليها، اتضح له أنها لم تعد

(*) المرأة المقصودة هنا هي من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي، أخت ورقة بن نوفل، وقد قالت لعبد الله «لك مثل الإبل التي نحرت عنك (كناية عن الـ ١٠٠ ناقة التي فدي بها) وقَع عليّ الآن». وحين عاد عبد الله من عند آمنة قال للمرأة: «مالك لا تعرضين عليّ اليوم ماكنت عرضْتِ عليَّ بالأمس؟ قالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة.» سيرة ابن هشام ج١ ص ١٥٦ - ١٥٧

راغبة به في صباح اليوم التالي. وقالت المرأة(*) أنها حين دعته الى فراشها كان ثمة نور ساطع يشع من بين عينيه الأمر الذي يُشير إلى قرب ولادة نبي مُرسَل إلى شعبه وأنه سيكون أباً لهذا النبي. أما اليوم فقد انطفأ النور، وحملت امرأة أخرى برسول الله.

توفي عبدالله بينما كانت آمنة حاملاً، وكانت ظروف الأسرة صعبة، إذ لم يترك لها سوى نوقٍ خمس وعبدة شابة تدعى **أم أيمن** (بركة الحبشية). ويقال إن آمنة لم تتعرض لأي ازعاج أثناء حملها محمداً، وإنها سمعت هاتفاً يقول لها إنها تحمَل بسيد العرب، وإنها رأت نوراً صادراً من بطنها، وبانت على هذا النور قصور **بصرى** في **سوريا** التي تلقت نور الإسلام لاحقاً.

ولد محمد في /١٢/ ربيع الأول. فأرسلت آمنة في إثر جده، وأخبرته بأن الطفل سيكون ذا شأن ذات يوم. فحمله جده فرحاً إلى الكعبة شاكراً. ويقال إنه قد أُخبر بالمستقبل العظيم الذي ينتظر محمداً إذ كان قد تنبأ له كاهن أن أحد أحفاده سيحكم العالم. وذات ليلة رأى في حلمه شجرة نامية من ظهر الطفل، قمتها تبلغ السماء وتمتد أغصانها شرقاً وغرباً وكان يصدر من هذه الشجرة نور كان يعبده العرب والفرس الذين اعتنقوا الإسلام لاحقاً.

جرت العادة أن تتم تربية الأطفال في الصحراء، ولذلك كانوا يعطونهم إلى أسر تعيش هناك لان ذلك كان أفضل لصحة الطفل من بقائه في مكة. وكانت نساء البدو يرغبن في أخذ أطفال القرشيين طمعاً في الهدايا والمساعدة من أسرة الطفل. لم تُبْدِ أية امرأة رغبة في أخذ محمد لأن آمنة كانت فقيرة جداً. كانت سنة قحط عمَّ الجزيرة، وعانت قبائل كثيرة من المجاعة القاسية. كانت قبيلة **بني سعد** يائسة، وكانت **حليمة بنت أبي ذؤيب** واحدة من أفقر الأسر في القبيلة، لذلك أخذت محمداً لأنها لم تكن قادرة على أخذ طفل آخر. كانت حليمة تتضور جوعاً ولم يكن في ثدييها حليب تعطيه للطفل، كذلك كان حليب ناقتها قد جفّ. وأصاب الاعياء أتانها التي كانت ركبتها إلى مكة. مع ذلك هاكم ما حدث حالما أخذت الطفل محمداً:

فلما أخذْتُه، رجعت به إلى رَحْلي، فلما وضعته في حِجَري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنّا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فاذا إنها لحافل، فحلَب منها ما شَرب، وشربتُ معه حتى انتهينا رِيّا وشبعا، فبتنا بخير ليلة.قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تَعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نَسمة مباركة؛ قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت (أنا) أتاني، وحملتُه عليها معي، فوالله لقطعت بالرَّكب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلْن لي: ياابنة أبي ذُؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله. إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قَدِمْنا به معنا شباعا لُبّنا، فنحلُب ونشرب، وما يحلُب إنسان قَطْرة لبن، ولا يجدها في ضَرع، حتى كان الحاضرون من قَوْمنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسْرَحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تَبِض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لُبّنا[٩].

لم يكن مستغرباً إذن أن تتردد حليمة في التخلي عن محمد، فقد توسلت إلى آمنة أن تدعه يبقى معهم مدة أطول. لكن وقعت حادثة عجيبة ومرعبة في آن جعلتها تغير رأيها فيما بعد.

تسير القصة على النحو التالي: ذات يوم اندفع أُخوته بالرضاعة إلى والديهم وهم يصرخون رعباً من أن رجلين يرتديان ملابس بيضاء أمسكا محمداً، وبديا وكأنهما شقا بطنه. فاندفعت حليمة إلى المكان لتجد الصبي الصغير ممدداً على الأرض منهكاً. لقد شرح ذلك لاحقاً بأن الرجلين أخذا قلبه من جسده، وغسلاه بالثلج، ثم رفعاه إلى كفة ميزان، فأعلنا أنه كان أثقل وزناً من جميع العرب مجتمعين. في النهاية قبله أحدهما على جبينه قائلاً: «يا حبيب الله، من الآن فصاعداً لن تجزع، ولو أنك تعلم الخير المعد لك فإنك ستسر كثيراً»[١٠]. فهذه القصة مماثلة لأساطير في ثقافات أخرى تصف عملية الإدخال: إنها ترمز إلى الطهارة الضرورية إذا كان على المدخل أن يتلقى تجربة من المقدس دون أن يدنس

الرسالة المقدسة. حدَّث بعض الكتاب المسلمين أن هذه الحادثة وقعت قبل الرحلة الليلية (الاسراء والمعراج) (التجربة الغامضة الأسمى في حياة محمد، والتي سنناقشها في الفصل السابع) التي تبين أنهم كانوا جميعاً مدركين تماماً لمغزاها الحقيقي.

لكن حليمة المسكينة وزوجها الحارث لم يكونا يعلمان شيئاً عن كل هذا، فدب الرعب في قلبيهما دون أن يفهما شيئاً. وخوفاً من أن يكون قد تلقى ضربة أخذاه عائدين إلى مكة قبل أن يصبح أثر الضربة واضحاً ويزداد الألم. لكن آمنة هدَّأت من روعهما وطلبت منهما أن يخبراها القصة كاملة، ثم أكدت لهما بعد أن أخبراها ما حدث، أن محمداً طفل استثنائي، وأن مستقبلاً عظيماً ينتظره. ثم قررت أن تبقي ولدها في مكة. توفيت آمنة عندما كان محمد في السادسة فذهب ليعيش مع جده عبدالمطلب الذي كان أثيراً لديه. كان عبدالمطلب قد رزق بولدين من زواجه الأخير، فترعرع محمد مع عميه **العباس** و**حمزة** الذي كان في سن مماثلة لِسِنّه. وفي تلك الفترة كان عبدالمطلب قد أصبح في أواخر أيام شيخوخته. كان يحب أن يحمل فراشه إلى الكعبة ويستلقي بظلها محاطاً بأبنائه. وكان محمد يقفز على الفراش قرب الجدِّ، والجدُّ ينظر إليه شغفاً ويربت على ظهره. لكن عبدالمطلب توفي عندما كان محمد في الثامنة، لذلك انتقل محمد كي يعيش في كنف عمه **أبي طالب** الذي أصبح زعيم بني هاشم، فنعم برفقة وَلَدَيْ عمه **طالب** و**عقيل**.

كان أبو طالب رجلاً فاضلاً ويلقى احتراماً كبيراً في مكة على الرغم من أوضاع عشيرته المتدهورة. لقد كان دائماً لطيفاً مع ابن أخيه اليتيم مع أن حالته المادية كانت تزداد سوءاً. وذات يوم اصطحبه معه في رحلة عمل إلى سوريا. وكم كانت دهشة من كانوا في الرحلة عندما وصلوا بصرى(*) اذ اندفع الراهب بحيرى من صومعته ليدعوهم إلى العشاء. كان الراهب يتجاهل القافلة فيما مضى لكن هذه السنة رأى غيمة مضيئة تظلل القافلة فعرف أن النبي المنتظر لا بد من أن يكون موجوداً معها. والرواية الإسلامية توازي القصة الواردة في الانجيل عن يسوع الطفل الذي ضاع في الهيكل. لكن الحديث المبكر عن القصة يُوضح أن مصادرها الأولية كانت تجهل المسيحية وبما أنه قد تم الخلط بين اسم الراهب بحيرى واللفظ

(*) بصرى مدينة أثرية تقع على بعد ٩٠ كم جنوب دمشق تقريباً وفيها آثار مهمة لاتزال باقية ومن أهمها المدرج والبناء المحيط به.

السرياني bhira الذي يعني المبجل، فسيزعم المعادون من المسيحيين أن بحيرى هو الذي درب محمداً على الهرطقة التي أسموها لاحقاً المحمدية.

كان محمد الأصغر سناً في القافلة ولذا تُرِكَ في الخارج كي يحرس البضاعة بينما لبَّى القرشيون دعوة بحيرى. وأثناء الطعام تفحص الراهب التجار بعناية فلم يجد بينهم من تنطبق عليه الأوصاف الواردة في كتبه. عندها سألهم إن كان معهم شخص آخر. شعر القرشيون بالخجل فجأة لأنهم تركوا الحفيد العظيم لعبد المطلب جالساً في الخارج كأحد العبيد، فأدخلوه وراقبه الراهب متمعناً. وبعد تناول الطعام أخذ بحيرى محمداً على انفراد، وطلب منه أن يقسم باللات والعزى أي بإلهات قومه ـ أن يجيبه بكل صدق. فاحتج محمد قائلاً: «لاتسلني باللات والعزى شيئاً فوالله ما أبغضت شيئاً قطّ بغضهما». فأقسم بالله وحده وأجاب على أسئلة بحيرى التي تركزت على حياته. بعدئذ تفحص الراهب جسد محمد فوجد علامة النبوة بين لوحي كتفيه. عندئذ نصح بحيرة أبا طالب:

> «فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهودَ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفتُ ليَبْغُنّه شرّاً فانه كائنٌ لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به إلى بلاده»(١١).

لم تَبْدُ سوى إمارات قليلة من عظمة محمد هذه إلى أن بلغ الخامسة والعشرين، أي عندما غدا رجلاً مقتدراً. عرف في مكة بلقب الأمين ـ أي الموثوق ـ فكان يوحي بالثقة للآخرين طوال حياته. لقد كان حسن الهيئة مكتنزاً، صلب الجسم ومعتدل الطول. كان كث الشعر واللحية وأجعد، وملامحه مشرقة بشكل يدعو إلى الذهول، وهذا أمر مذكور في جميع المصادر. كانت شخصيته حازمة ومخلصاً وكان يعير اهتمامه كله إلى أي شيء كان يفعله، واتضح ذلك في قدرة احتماله الجسدية. لم يكن يلتفت وراءه حتى عندما كانت تعلق عباءته في شجيرة شوكية. وفي السنوات اللاحقة كان باستطاعة أصحابه أن يتحدثوا إليه ويضحكون بحرية خلفه لأنهم كانوا متأكدين من أنه لن يلتفت وراءه ويراهم. وإذا ما التفت كي يُحَدّثَ أحداً فإنه لم يكن يميل جزئياً نحوه بل كان يدير جسده كله ويخاطبه وجهاً لوجه. ولم يكن أول من يسحب يده من يد مصافحه. لقد حرص أعمامه أن يتلقى تدريباً قتالياً جيداً فأصبح رامي سهام بارعاً وسيافاً ومصارعاً ماهراً. إلا أنه لم يبلغ في ساحة المعركة ما بلغه عمه الشاب حمزة الذي كان عملاقاً ذا قوة جسدية

استثنائية. عمه العباس أصبح صيرفياً وأصبح هو تاجراً يقود القوافل إلى سوريا وبلاد الرافدين. في الغرب يصفونه بكلمة «جمّال»، وصف انتقاصي لهذا العمل الاداري الذي كان يقوم به والذي كان يتطلب مسؤولية كبيرة وادارة حسنة. لقد تساءل بعض العلماء الغربيين الحديثين عن مهنته زاعمين أنه لم يكن على معرفة مباشرة بسوريا والبلدان المتمدنة الأخرى، وأن القرآن لا يشير أبداً إلى المواكب الجذابة الجميلة، والى ممارسات المسيحية السريانية التي الهمت شعراء معاصرين لها في شبه الجزيرة(١٢). لكن يبدو من الخطأ مساءلة وجهة النظر التراثية عن مطلع حياة محمد كتاجر. إذ تجد صعوبة في معرفة السبب الذي دفع شخصاً ما أن يقصها.

على الرغم من مقدرته إلا أن مكانته كيتيم كانت تعيقه ولا بد أن هذا كان مؤلماً له، فقد بقي طوال حياته مهتماً بمأزق ومعاملة اليتامى. مركزه المتواضع جعل من الصعب عليه أن يجد زوجة. فذات يوم أراد أن يتزوج من **فاختة** ابنة **أبي طالب** التي كان عمرها يقارب عمره، لكن أبا طالب أشار إلى أنه ليس في وضع يسمح له بالزواج فزوجها في عشيرة مخزوم الأرستقراطية. ومع أن أبا طالب كان طيباً ولبقاً إلّا أن هذا الأمر كان مزعجاً له حتى الأعماق. كان محمد بحاجة إلى النساء، وهو بهذا قد اختلف عن الكثيرين من معاصريه. وتشير المصادر إلى أن معظم المكيين، لم يكونوا يفكرون بالنساء إلا قليلاً. فقد رأينا فيما سبق أنه لم يكن للنساء مكانة في الجاهلية حتى أن بعضاً من أبرز المسلمين كانوا يعاملون زوجاتهم وبناتهم معاملة خشنة. ويبدو أن محمداً كان يستمتع فعلاً بصحبة النساء، وأنه كان بحاجة إلى الحب والمودة. وقد حيرت رقته وتسامحه الجلي مع النساء بعضاً من أصحابه المقربين. لم يكن محمد ذاك الشهواني الآثم، كما تصوره الأسطورة الغربية، إنما كان بحاجة إلى امرأة كصديقة محبة وحبيبة.

في نحو عام ٥٩٥ تغير حظه دراماتيكياً عندما طلبت منه إحدى قريباته البعيدات ـ خديجة بنت خويلد ـ أن يأخذ لها تجارة إلى سوريا، فحياة المدينة كثيراً ما تعطي بعض الناس فرصة لتزدهر أحوالهم في الأعمال والتجارة. ففي أوروبا القرن الثاني عشر أصبحت نسوة كثيرات ذات أعمال مزدهرة في الصيرفة والتجارة، ويبدو أن هذه الحال كانت في مكة أيضاً في القرن السابع. كان قد سبق لخديجة الزواج مرتين ورزقت ببعض الأطفال. تنتمي لعشيرة أسد التي كانت أقوى من بني هاشم بحلول القرن السابع. كان باستطاعتها أن تعيش حياة رغيدة كتاجرة. وافق

محمد وانطلق في رحلة حاسمة برفقة رجل يدعى مُيسَّرة. رأى ميسرة هذا خلالها أشياء غريبة كثيرة ذكرها لخديجة لدى عودته. لقد أخذه راهب على انفراد وأخبره أنه هو النبي المنتظر الذي طال انتظار مجيئه. وبعد ذلك دُهش لما رأى ملكين يظللانه من الشمس الحارقة. عندما سمعت خديجة هذه القصص ذهبت مباشرة إلى ابن عمها **ورقة بن نوفل** ـ الحنيف ـ كي تستشيره، وكان ورقة قد أصبح مسيحياً ودرس الكتاب المقدس. كان ورقة ينتظر النبي العربي متلهفاً فصاح متعجباً عندما سمع أخبار خديجة:

«إذا صح ما تقولين يا خديجة فمحمد هو حقاً نبي هذه الأمة»[١٣].

عرضت خديجة الزواج من محمد، علماً أنها لم تكن مدفوعة بحماسة ورقة فحسب، بل كانت متأثرة بمزايا قريبها الشاب. فعلى الرغم من الفارق في سنهما كانت بحاجة إلى زوج جديد فكان محمد اختيارها المناسب: **«إني قد رغِبْتُ فيك لقرابتك وسِطَتِك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك»**[١٤]. ويروي التراث أن خديجة كانت في الأربعين من عمرها عندما بدأت تلد وأنها ولدت لزوجها مالا يقل عن ستة أطفال. في الغرب يسخر الناس من زواج كهذا من أرملة ثرية متقدمة في السن، ويرون الأسباب التي دعت محمداً كي يوافق مدعاةً إلى السخرية. فحتى **مكسيم رودنسون** يقترح في سيرته التعاطفية أن محمداً لا بد أنه قد وجد هذا الزواج محبطاً جنسياً وعاطفياً، لكن يبدو أن النقيض من ذلك كان هو الصحيح. ففي السنوات الأولى من دعوته النبوية ما كان ليكتب له النجاح لولا دعمها له ولولا مشورتها المعنوية. لقد كانت خديجة امرأة رائعة. ويقول ابن إسحاق عنها أنها كانت حازمة نبيلة وذكية، وكلما كان أعداء محمد يهاجمونه أو تهزه قوة تجربته الغامضة كان يذهب دائماً إلى زوجته كي تواسيه، وكانت خديجة ـ طوال حياتها ـ أول شخص اعترفت بمقدرة زوجها الاستثنائية: «فشحذت عزيمته، وخففت من عبئه، وأعلنت صدقه»[١٥]. كان محمد رجلاً عاطفياً، لكنه لم يتخذ لنفسه زوجة أكثر شباباً طوال فترة زواجه من خديجة وهذه حقيقة ينبغي الإشارة إليها من قبل الذين ينتقدونه بتعدد الزوجات في سنواته الأخيرة. بعد وفاتها كان محمد يغيظ زوجاته بامتداحها إلى مالانهاية، وذات مرة شحب وجهه حزناً عندما حسب أنه سمع صوتها. زواج كهذا لم يكن زواج مصلحة. لقد قدم محمد نصيباً كبيراً من دخل الأسرة إلى الفقراء وجعل أسرته تعيش على الكفاف.

على الرغم من تقشف منزله إلا أنه كان بيتاً سعيداً، أنجبت خديجة ستة أطفال: **القاسم وعبدالله** توفيا في فترة الرضاعة. وأربع بنات هن: **زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة**. كان محمد يحب الأطفال فيلاعبهم ويقبلهم طوال حياته وكان وفياً لبناته. كانت عادة العرب أن يُكَنُّوا لدى ولادة أول ولد، ولذا كان النبي يعرف بأبي القاسم، وكثيراً ما كان يُدخِل هذا الاسم السرور إلى قلبه[١٦]. لكن محمداً كان قادراً على التعويض عن فقدان ولديه. لقد قدمت خديجة له يوم زواجه هدية: عبداً صبياً من قبيلة عربية شمالية تدعى كلاب. فأصبح **زيد بن الحارث** شديد التعلق بسيده لدرجة أن اسرته عندما اقتفت أثره، وأتت إلى مكة ومعها المال كي تعتقه توسل زيد لوالديه ان يبقياه عند محمد. بالمقابل أعتقه محمد وأصبح أباه بالتبني. وعندما كانت ابنته فاطمة في الرابعة من عمرها حدثت إضافة أخرى إلى العائلة. إذ كان أبو طالب في هذه الفترة يعاني من مشكلة مالية في عام المجاعة فتدهورت أحواله أكثر من ذي قبل. وتخفيفاً للعبء الملقى على عاتق أبي طالب أخذ العباس أخاه الأصغر **جعفر** إلى بيته وأخذ محمد أصغر أبناء أبي طالب **علي** الذي كان في الخامسة من العمر. وبما أن محمداً كان يتيماً فقد أخذ أبوته جدياً. فعندما كان ولداه بالتبني يأتيان لزيارته كان يقدم لهما الهدايا. وتحت رعايته ازدهرت أحوال زيد وعلي فأصبحا قائدين بارزين في الجماعة المسلمة الأولى، فبدا أن لدى علي المقدرة على بث الولاء العميق في أصدقائه.

في تلك السنوات غير الحافلة بالأحداث ـ أي قبل أن يتلقى محمد نداء ربه ـ كانت مكانته في مكة قد تحسنت. لقد كان معروفاً بطيبته مع الفقراء والعبيد. ثمة حادثة نلمس ما لها من دلالة حين التأمل في الأحداث اللاحقة. ففي عام ٦٠٥ قررت قريش ترميم الكعبة ـ كان محمد آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمره. كانت بعض أحجار الكعبة مخلخلة، وبحاجة إلى سقف جديد، بدلاً مما خربته يد بعض اللصوص. لكن قداسة البناء جعلت هذا الأمر مغامرة محفوفة بالمخاطر، مهمة حساسة. ففي المجتمعات الأكثر تعلقاً بالتراث تصبح الأشياء المقدسة محرمات، وينبغي التعامل معها بحذر كبير. فلا بد أن قريشاً كانت متوترة جداً من هدم هذا المحرم الكبير. **فالوليد بن المغيرة** زعيم **بني مخزوم** كان واحداً من أكثر الناس نفوذاً في **مكة** اقترب من الكعبة حذراً وفأسه بيده قائلاً: «اللهم لم تُرَعْ ـ اللهم إنا لانريد إلاّ الخير». وهكذا بدأ العمل فتحملت كل عشيرة مسؤولية محددة للتأكد من أن

ذلك كان عملاً جماعياً للقبائل كلها. فعندما وصلوا إلى أساسات البناء قيل إن مكة كلها قد اهتزت، فقررت قريش تركها دون أن تمسها. بعدئذ شيدت الجدران الجديدة لكن نزاعاً كبيراً نشب عندما حان وضع الحجر الأسود في مكانه لأن كل عشيرة كانت تريد ذلك الشرف لنفسها. وبعد مضي خمسة أيام أصبح الخلاف شديداً، وكان ذلك دليلاً على التنافس الشديد الذي كاد يدمر كل الوحدة القبلية في مكة. وفي نهاية المطاف قرروا القبول بحكم أول رجل قادم بعد أن يئسوا من التوصل إلى تسوية مرضية فيما بينهم. فكان محمد أول قادم وكان قد عاد للتو من رحلة عمل، فذهب مباشرة إلى الكعبة كي يؤدي الطواف كالمعتاد لدى وصوله. كان قدومه مبعث ارتياح الجميع فصاحوا قائلين: «هذا الأمين، رضينا[١٧]، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال:

> «هلّم إليّ ثوباً، فأُتي به فأخذ الركن (الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه».

وكما قدّر لمحمد أن يرمم وحدة قريش حول الكعبة المقدسة فقد رمّمَ الكعبة بطريقة أفضل وأعمق عندما جعلها مركز العالم الإسلامي.

عندما كان محمد في الأربعين من عمره كان يقوم بعزلة روحية منتظمة. وتقول زوجته عائشة إنه كان في تلك المرحلة من عمره يعتكف وقتاً أطول منصرفاً لعبادة الله. وبدأ يرى أحلاماً بدت أنها مشبعة بالوعود والأمل «مثل فلق الصبح». كان يمارس ـ أثناء فترة الاعتكاف هذه ـ التدريبات الروحية، التي أسماها العرب «التحنث». وكان يوزع الطعام على الفقراء ولاحقاً أصبحت الصلاة والزكاة شعيرتين من شعائر دين الله. ربما أمضى وقتاً كثيراً في حالة تفكير قلق بالله. فنحن نعرف من أواخر حياته أنه قد شخص الداء في مكة تشخيصاً دقيقاً. لكن لا بد أنه شعر بالإحباط لأن ما من أحد في مكة سيأخذ أفكاره جدياً، وكانت مكانة عشيرته الفقيرة تمنعه من القيام بدور قيادي في حياة مكة، ولا بد أنه كان مدركاً غريزياً أن فيه مزايا استثنائية لم تستخدم بعد. كثيراً ما يشير القرآن إلى أن الله لم يرسل نبياً إلى قريش علماً أنه قد أرسل نبياً إلى كل أمة على وجه الأرض. لقد اعتقد محمد أن نبياً من الله هو وحده من يستطيع أن يحل مشكلات مكة، لكننا نعرف من القرآن أنه لم يكن يتخيل أبداً ولو للحظة أنه هو من سيكون ذلك النبي[١٨]. رغم

ذلك فمثله مثل موسى صعد الجبل وقابل إلهه على قمة الجبل في ليلة السابع عشر من رمضان عام ٦١٠م.

لا نعرف الكثير عن التحنث، لكنه ربما كان يتألف من تدريبات صارمة ظهرت في معظم التراثات الدينية كي تساعد ذوي البصائر على تجاوز حدود تجربتهم العادية. ويصف محمد لاحقاً هذه التجربة التي لا توصف بالقول إن ملاكاً ظهر بجانب الكهف قد زاره، وأعطاه أوامره أن «اقرأ». ومثله مثل بعض الأنبياء العبرانيين الذين كانوا مترددين جداً في نطق كلمة الله، رفض محمد قائلاً «ما أنا بقارئ»، معتقداً أن الملاك لا بد قد أخطأ بينه وبين أحد الكهان السيئي السمعة، أو أحد مفسري الأحلام في الجزيرة، لكن الملك ضمه إليه حتى «وصلت إلى نهاية احتمالي»[١٩]. وفي النهاية وجد محمد نفسه ينطق الكلمات الأولى من القرآن:

> ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم[٢٠]﴾.

استعاد محمد وعيه في حالة الرعب والتحول. فكما يقول المؤرخ **الطبري**، امتلأ يأساً لاعتقاده أنه قد أصبح مكرهاً كاهناً ممسوساً، فلم يعد يريد الاستمرار في الحياة فاندفع إلى خارج الكهف صاعداً إلى قمة الجبل ليرمي نفسه كي يلقى حتفه. لكن على سفح الجبل رأى رؤيا أخرى لكائن عرفه فيما بعد على أنه الملك جبريل:

> «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر،فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلّا رأيته كذلك[٢١].

لم يكن هذا الملاك كائناً طبيعياً كما يظهر في الفن المسيحي أحياناً. فجبريل في الإسلام هو روح الحق، الوسيلة التي بها يكشف الله نفسه للانسان. كانت هذه تجربة غامرة متعاظمة بالحضور الإلهي الذي ملأ الأفق كله ولا مفر منه. كان لدى محمد ذلك الخوف العظيم من حقيقة مقدسة دمرت الأنبياء والمنجمين في معظم التراثات. فلقد وصفت في المسيحية بأنها تجربة غامضة مخيفة وساحرة، وسميت في اليهودية قدوس Kaddosh .

تقدم كتب التراث المتنوعة روايات متناقضة لرؤيا محمد الأصلية. فيقول البعض إنها كانت تتألف فقط من الرؤيا في الكهف، بينما يذكر آخرون رؤيا الملاك في الأفق، وتؤكد الروايات جميعاً رعب محمد وخوفه من الرؤيا. كان الأنبياء العبرانيون يبكون لدى رؤية القدوس، ويخافون ويشعرون أنهم على حافة الموت. لقد صاح **أشعيا** عندما رأى تجلّي الله في الهيكل: «ويل لي إني هلكت» لأنَّ عينيه رأتا الملك رب الجنود[٢٢]. وحتى الملائكة غطت نفسها بأجنحتها من الحضور الإلهي. وشعر إرميا بالله كألم ممض ملأ كل أطرافه، مثلما شعر محمد أثناء ضمة الملاك، لقد خبر الوحي كنوع من الاغتصاب الإلهي[٢٣]. لقد غزا كيانه بقوة مخيفة، محدثاً عنفاً في طبيعته الذاتية التي لم تكن مهيأة لهذا التأثير الإلهي. فكل ما خبره هؤلاء الأنبياء جميعاً كان تساميَ transcendence حقيقة تقع خارج المفاهيم أسمتها الأديان التوحيدية «الله». كانت التجربة مرعبة لأنها أخذت كل نبي إلى مملكة مجهولة بعيداً عن عزاءات الأمور العادية، حيث كان كل شيء صدمة عميقة، مع ذلك فقد كانت ساحرة أيضاً لأنها كانت تمارس جاذبية لا تقاوم لأنها ـ بشكل ما ـ تذكر بشيء معروف مسبقاً مرتبط بشكل معقد بأعماق الذات. لكن محمداً كان مختلفاً عن أشعيا وأرميا: لم يكن لديه العزاءات المستمدة من دين راسخ كي تدعمه وتساعده في تفسير تجربته.بدت أنها قد هبطت عليه دون أن يتوقع ذلك، وتركته يشعر بإحساس انتحاري يائس. لقد تم دفعه إلى جو لم يكن يتخيله أبداً، وكان عليه أن يفسره بنفسه، فعاد غريزياً إلى زوجته وهو في غمرة عزلته ورعبه.

عاد إليها «فجلس الى فخذها مُضيفاً (مُلتصقاً) اليها» زاحفاً على يديه وركبتيه والجزء العلوي من جسمه يرتجف تشنجياً، ورمى نفسه في حجرها. «زملوني زملوني» طالباً منها أن تحميه من هذا الحضور المخيف. على الرغم من كراهية محمد للكهان الذين كانوا يغطون أنفسهم بعباءة عندما يقدمون نبوءة فقد تبنى محمد غريزياً الوضع نفسه. انتظر مرتجفاً زوال الرعب، وأمسكته خديجة بذراعيها تهدئ روعه. تؤكد جميع المصادر على اعتماد محمد على خديجة خلال هذه الأزمة. وقد رأى ـ لاحقاً ـ رؤى أخرى على سفح الجبل، وفي كل مرة كان يذهب إلى خديجة مباشرة ويتوسل إليها أن تزمله بعباءته. لم تكن خديجة مجرد شخصية مواسية بل كانت أيضاً مستشاره الروحي. فهي التي كانت قادرة على تقديم الدعم

الذي كان يجده المنجمون والأنبياء في دين راسخ. فبعد أن خف الخوف في المرة الأولى سألها محمد هل أصبحت حقاً كاهناً؟ لأن ذلك كان الشكل الوحيد للإلهام الذي كان معروفاً لديه، وعلى الرغم من قداسته المتزايدة فقد بدت مماثلة بشكل مزعج لتجربة الناس الذين يسكنهم جني في الجزيرة العربية. وهكذا يقول حسان بن ثابت - شاعر يثرب الذي اعتنق الإسلام - إنه عندما كان يتلقى إلهامه الشعري فإن جنياً خاصاً به كان يظهر له ويرميه أرضاً وينتزع الكلمات الملهَمَة من فمه(٢٤). لم يكن محمد يقدر الجن إلا قليلاً لأنها قد تكون نزوية وترتكب أخطاء. ولم يكن ليريد العيش إن تكن تلك هي الكيفية التي يكافئه بها الله على عبادته له. ويبين القرآن مقدار حساسية محمد - طوال حياته - من أي إيحاء بأنه قد يكون مجنوناً أي يسكنه جني، فيميز وبكل دقة الآيات القرآنية عن الشعر العربي التقليدي الذي يُربط بإلهام الجن.

ومحمد الذي سعى للعيش وبكل أمانة بالطريقة التي يطلبها الله، لايمكن أن يخذله ربه، واعتماداً على ذلك بادرته خديجة مطمئنة له، بأن الله لايتصرف بالطريقة القاسية والعشوائية:

> **«أعيذك بالله ياأبا القاسم من ذلك. ماكان الله عزّ وجل ليفعل بك ذلك مع ما أعلم من صدق حديثك وعِظَمِ أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك»(٢٥).**

وإمعاناً منها في طمأنته اقترحت عليه أن يستشير ورقة بن نوفل الذي كان عارفاً بالكتب المقدسة، وبوسعه أن يقدم لهما نصيحة خبير. لم يشك ورقة إطلاقاً فصاح حالاً:

> **«قدُّوس، قدُّوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صَدَقْتِني يا خديجة إنه لنبي هذه الأمة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام، فقولي له فليثبت»(٢٦*).**

(٢٦*) - نفس المصدر ١٥٤ ص ١٠٧ كلمة الناموس كانت هي الكلمة اليونانية nomos أي الشريعة، شريعة موسى أو التوراة التي يقدسها بنو إسرائيل. هذه الكلمة التي استخدمها ورقة كانت جديدة على مسامع العرب، فقابلها المسلمون بجبريل، في حين كان ورقة يعني بها أنها أحد الإيحاءات الكبيرة التي أرسلها الله إلى بشر.

وفي المرة التالية التي قابل فيها محمداً عند الكعبة هرع المسيحي إلى النبي الجديد للإله الواحد وقبله على جبينه.

ينبغي أن نتوقف قليلاً كي نتأمل طبيعة هذه التجربة، فإننا لم نعد نستبعد آلياً كل الرؤى أو الإيحاءات على أنها هستريا أو دين فاسد. لقد اعتُبر الإلهام في جميع الثقافات شكلاً لمسٍّ حميدٍ بكلمات فنية أو دينية أيضاً فيبدو أن القصيدة أو الرسالة تضغط على مبدعها بقوة آمرة، ويبدو أنها تعلن عن ذاتها. فالمفكر المبدع حقاً غالباً ما يشعر أنه تلقى إلهامه بهذه الطريقة: إنه يحس أنه ـ بمعنى من المعاني ـ قد لامس أو اكتشف واقعاً غير مخلوق ذا وجود مستقل. فالمثال الشهير على ذلك هو **أرخميدس** الذي قفز من حمّامه عندما اكتشف مبدأه الشهير صائحاً: **«وجدتها، وجدتها!»**. فبينما كان مسترخياً كان في إطار عقلي منفتح، ويبدو أن الحل قد دخل دون أن يُطْلبَ، وكأنما له وجود مستقل في عقله. فكل فكر إبداعي حق هو بمعنى ما حدسي، إنه يتطلب قفزة إلى الأمام في عالم الحقيقة الغامضة والتي لم تخلق بعد. فإذا ما نظرنا إلى الحدس بهذه الطريقة فإن الحدس ليس تنازل العقل لكنه بالأحرى العقل متسارعاً، فانطلق من مركزه في لحظة بحيث يظهر البرهان دون الاستعدادات المنطقية المجهدة المعتادة. فالعبقري المبدع يعود من هذه المنطقة غير المكتشفة مثل أحد الأبطال في العصور القديمة الذي انتزع من الآلهة شيئاً، وعاد به إلى الجنس البشري. وقد يكون ممكناً أن نرى الإلهام الديني بطريقة مماثلة.

حين يستمع الشاعر إلى القصيدة التي تبدو أنها خارج ذاته فإنه بالطبع يستمع إلى اللاشعور، لقد أصبح الحامل لرسالة أو هبة مما كان يسمى ربة الشعر أو الآلهة. ففي مجتمع صغير كمجتمع مكة كان لعقول الناس الباطنة الشيء الكثير المشترك فيما بينها. بكلمات عقلانية محضة وصل محمد مستوى أكثر عمقاً للمشكلة التي تواجه معاصريه، فجلب لهم شيئاً كانت قلة منهم على استعداد للاستماع إليه. فبينما كان ينقل القرآن إلى الضوء آية تلو آية وسورة تلو سورة، ويتلوه على الناس فقد تعرف عليه العديدون في مستوى عميق. لقد كان قادراً على النفاذ عبر أهوائهم ومخاوفهم واعتراضاتهم الأيديولوجية نحو حل اجتماعي وروحي وإبداعي على نحو لم يخطر ببال أحد منهم من قبل، أضف إلى ذلك فقد كان استجابة لطموحاتهم ولتوقهم الأكثر عمقاً. ففكرة الله أو الحقيقة المطلقة في كل دين مشروطة ثقافياً. ويبدو أن عرب الحجاز كانوا يبحثون عن حل ديني جديد يلبي

حاجاتهم المحددة الخاصة بهم. إنهم لم يريدوا الفكرة المسيحية عن الله ـ مثلاً ـ التي أصبحت مشوبة بالفلسفة العقلانية والمثل عند الاغريق القدماء. لقد شذَّب محمد غريزياً في التجربة السامية للأنبياء العبرانيين الكبار فكان أكثر ملاءمة للناس في الشرق الأوسط. من المعزي أن نرى انتشار الإسلام بين الناس في سوريا والعراق وإيران وشمال إفريقيا كرفض لفكرة الله المستمدة من الإغريق، هذا الله الذي كان غريباً عن احتياجاتهم وعودة إلى رؤيا أكثر سامية.

لكن لم يكن لدى محمد أية فكرة عن أنه كان يؤسس ديناً عالمياً جديداً(*)، ديناً للعرب المتروكين خارج الخطة الإلهية. لقد أرسل الله كتباً مقدسة إلى اليهود والمسيحيين(**) ـ الذين يُسَمُّونَ في القرآن أهل الكتاب ـ لكن لم يكن ثمة من وحي خاص بالعرب. والوحي الذي بدأ محمد بتلاوته تحت إلهام إلهي على جبل حراء كان قرآناً عربياً. كان رسالة تستجيب للاحتياجات العربية الأكثر عمقاً. لقد اقتحم محمد ـ بشكل ما ـ مستوىً جديداً من الوعي حيث استطاع، معرفة الخطأ الموجود في مجتمعه، وكان يُزَوِّد العرب بالحل الخاص بهم رويداً رويداً.

غالباً ما نستخدم كلمة «وحي» لِوَصْفِ فكرة أو رؤية أصيلة كلياً ، لكن يبين أصل اللفظة وتاريخها أنها شيء كان وقد جرى الكشف عنه. فالمفهوم أو الرؤيا الدينية بطبيعتها لا يمكن أن تكون مبتكرة ذلك لأنها تزعم أنها تشير إلى الحقيقة الأصلية السابقة للوجود. لقد فهم محمد هذه الحقيقة، وعبر عنها بوضوح أكبر مما عبر عنها أي من القادة الدينيين الآخرين، لم يكن هناك جديد حول الوحي على

(*) من خلال المعطيات التي تأتي عليها الكاتبة كإدراك مكة لمكانتها بين الجبارين/بيزنطة، وفارس، والحالة التي وصلت إليها مكة إضافة إلى مايذكر تاريخ النبي نجد أنه كان على العكس يدرك بل ويخطط لدين عالمي جديد فإصراره على رفض قبول الملك والتنازل عن المبدأ كل ذلك لايُشير إلى دين محلي وحسب بل إلى دين يخرج عن نظام المحلية (الناشر).

(**) درجت بعض الكتابات في الدراسات الدينية على الخلط بين المصطلحات والمفاهيم بشكل خاطئ فإجراء مقارنة بين كلمة يهود ومسيحيين وعرب تجعل القارئ يعتقد أن الكلمات الثلاث تعني أقواماً أو شعوباً، أي كأن شعباً كان موجوداً سابقاً اسمه الشعب المسيحي وأرسل له الله كتاباً مقدساً ونبياً وكذلك اليهود، وهذا مناقض للواقع.... (الناشر)

جبل حراء. فهذا كان ببساطة الدين القديم لله الذي أوحاه مرة تلو مرة، وهو الدين الذي عُهد به إلى محمد كي يجلبه إلى العرب. فدين الله الذي بدأ محمد يدعو إليه لم يبدأ على جبل حراء، بل بدأ في يوم الخلق. لقد جعل الله آدم خليفة له أو وكيلاً له على الأرض، ومن ثم أرسل نبياً تلو آخر إلى كل أمة على وجه الأرض(٢٧). لقد كانت الرسالة هي ذاتها، وبالتالي كانت جميع الأديان واحدة في أساسها. لم يَدْعُ القرآن أبداً إلى إلغاء الإيحاءات السابقة، لأن هناك ديناً واحداً أساساً، تراث واحد، وكتاب واحد، مثله مثل أي كتاب آخر(٢٨). فالأمر المهم هو التسليم لله وليس لأي تعبير بشري عن ارادة الله. وليس في وسع الناس أن يرغبوا بدين آخر غير دين الله(٢٩). لقد استمر الأنبياء جميعاً في التأكيد على كشف الله عن ذاته عبر الوحي. وهكذا فقد أشار القرآن إلى أن يسوع قد تنبأ بمجيء البارقليط Parclet الذي ترجمه بعض العرب «أحمد» الذي هو أحد تنوعات اسم محمد»:

> **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مُصدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين(٣٠)﴾.**

فالشيء الوحيد الذي جعل وحي محمد مختلفاً هو أن الله قد أرسل ولأول مرة رسولاً إلى قريش وأنزل كتاباً بِلُغَتِها.

هناك موقف عرضي حيال أشكال الوحي التاريخية، وينبغي التأكيد على هذه النقطة لأن الناس في الغرب ليسوا ميالين إلى قبول فكرة التسامح في الإسلام. فكما سيوضح الفصل التالي فإن عدم التسامح في الإسلام (الذي يعتقده الغرب) لا ينبع من نوع في الفروقات المعتقدية التي فرقت المسيحيين، بل من مصدر مختلف تماماً. إننا إذا مابحثنا في تاريخ الاسلام نجد أنه بعد وفاة محمد لم يكن لزاماً على اليهود والمسيحيين اعتناق الإسلام، بل سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية في الامبراطورية الإسلامية، وجرى اعتبار الزرادشتيين والهندوس والبوذيين والسيخ أهل كتاب في مرحلة لاحقة. ولم يكن المسلمون يجدون مشكلة في العيش المشترك مع أناس من أديان أخرى. لقد كانت الأمبراطورية الإسلامية قادرة على أن تلعب دور المضيف للمسيحيين واليهود طوال قرون، وهكذا لم يكن انعدام التسامح الذي

يعتقده الغرب من سلوك الاسلام. إنها أوروبا الغربية المسيحية التي وجدت أن من المحال تقريباً تقبل وجود المسلمين واليهود في البلدان المسيحية.

من الواضح أن الوحي على جبل حراء في سنة ٦١٠ كان حدثاً هاماً في التاريخ الإسلامي، لكنه كان مجرد بداية فقط. فمعجزة القرآن، كما يراها كثيرون من المسلمين، لم تكن طريقة الوحي الأصلية على جبل حراء، وفي مكة والمدينة لاحقاً. إن معجزته تكمن في قدرته المستمرة على تزويد ملايين الرجال والنساء في أرجاء العالم بالإيمان بمعنى الحياة النهائي وقيمتها. فدين الإسلام يجب أن يكون مبتكراً وإبداعياً بصورة مستمرة في تطبيقه للرؤيا الأصلية على العالم المتغير: ينبغي أن يستجيب في كل جيل للحداثة مثله مثل أي دين آخر.

غالباً مايسمى محمد النبي الأمي، ويؤكد الاعتقاد بأميته على الطبيعة الإعجازية لمصدر إلهامه. غير أن بعض العلماء الغربيين قالوا إنه ينبغي ألّا نفسر كلمة أمي أنها تعني غير المتعلم، فبما أن محمداً كان تاجراً فلربما أتقن مبادئ الكتابة. وهم بهذا يذهبون الى أن المقصود كان نبياً لشعب أمي لم يتلق كتاباً من الله. بكلمات أخرى تعني كلمة «أمي» نبي لغير اليهود. بينما انطلق كتاب آخرون إلى تأكيد أن كلمة أمي مرتبطة بكلمة أمة، أي الجماعة، وبذلك يعني لقب الأمي نبي القوم. وهذا تأكيد غير صحيح، ويبدو هنا أن هذا التفسير لكلمة أمي ما هو سوى محاولة لشرح ماحدث. في الحقيقة لا علاقة لكلمتي «أمي» و«أمة» ببعضهما ويجد المسلمون هذا التفسير مهيناً. فقد رأينا فيما سبق أن الغربيين قد بقوا طوال ما يقارب ألف سنة غير مصدقين أن محمداً كان مكلفاً بنبوة حقيقية. إنه لمن السخف تحدي التفسير الإسلامي التراثي لكلمة أمي، لأنه ليس هناك ذكر لمحمد وهو يقرأ أو يكتب في المصادر الأولى. فعندما كان يضطر لإرسال رسالة كان يمليها على شخص مثل علي الذي كان متعلماً. وإذا كان قد حاول إخفاء قدرته على القراءة والكتابة فإن زوجاته جميعاً كن مخدوعات حول هذه النقطة. إلا أن هذه الخدعة يصعب صمودها ما دمنا نعرف أسلوب معيشته بين قومه الذي كان يتسم بالحميمية. إن تفسير كلمة «أمي» أنه غير متعلم هو تفسير قديم حقاً، وذو أهمية كبيرة عند المسلمين. فهذا التفسير له الأهمية الرمزية نفسها التي لها فكرة الولادة من عذراء في المسيحية التي تؤكد على الطهارة المطلوبة من رجل أو امرأة يجلب كلمة الله إلى الجنس البشري: ولا بد أن الوحي كان يشترط الطهارة البشرية.

مع ذلك من الخطأ أن نتخيل محمداً يتصرف سلبياً كنوع من مهتاف بين الله والإنسان. كان عليه أن يكافح أحياناً ـ على شاكلة أنبياء آخرين ـ كي يستوعب الإيحاءات التي لم تكن تأتي دائماً إليه بشكل واضح، فأحياناً كانت تأتيه كرؤى أكثر مما كانت تأتيه في كلمات[٣١]. وفي هذا أوضحت عائشة أن بواكير الوحي كانت بصرية وأنها كانت تتكون من معنى متغير المظهر وغامراً لماحاً وغنياً أكثر غموضاً:

«إن أول ما بُدئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لايرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفَلَقِ الصبح.»[٣٢]

وتعبر هذه العبارة «فلق الصبح» عن التحول المفاجئ للعالم عندما تقتحم الشمس الظلام في البلدان الشرقية حيث لاوجود لفجر كاذب. فالذي خبره محمد كانت رؤيا مذهلة أكثر منها رسالة واضحة النص.

بَيَّنَ التراث الإسلامي أن وضع هذه الرسالة في كلمات لم يكن أمراً سهلاً فقد قال محمد ذات مرة «**أسمع صلاصل، ثم أسكتُ عند ذلك فما من مرة يُوحى إلا ظننتُ نفسي تُقْبض**[٣٣]»، إنها عملية خلق مؤلمة. ومع ذلك يكون المحتوى واضحاً بما فيه الكفاية حسبما كان يقول. بدا أنه كان يرى الملاك على هيئة رجل وكان يسمع كلماته وأحياناً أخرى يكون الأمر أكثر إيلاماً وإبهاماً: «**أحياناً كان يأتي إليَّ مثل صدى جرس ــ وهذا هو الأمر الأكثر صعوبة، فالأصداء تتضاءل عندما أكون واعياً لرسالتها**»[٣٤]. وبعدها سنراه منكفئاً على ذاته وباحثاً في روحه عن حل المشكلة، مثله مثل شاعر يصغي بعناية إلى القصيدة التي يجلبها إلى النور. ويحذره القرآن في ألا يُصغي إلى المعنى المبهم وبالحذر الذي يمكن أن يسميه وُردسُورث «سلبية حكيمة». فعليه ألا يندفع كي يصوغها في كلمات قبل أن تأتي هذه الكلمات في وقتها المناسب.

> **﴿لاتُحَرِّكْ به لسَانَكَ لِتَعْجَلَ به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأنه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه[٣٥]﴾.**

لم يكن الصوت السماوي على شكل رسالة تأتي مُدوية من السماء؛ فالله لا يُحد بوضوح «هناك». كان لابُد من أن يُسْمَع في الإصغاء إلى الداخل. وفي مرحلة

لاحقة يطور المتصوفون المسلمون مفهوم الله هذا على أنه «قاع وجودنا»، ويسمع البعض الهاتف الإلهي يخبره: «لاإله إلاك».

نحن لانعرف عدد المرات التي تلقى فيها محمد الوحي في الأيام الأولى، لكننا نعرف أن محمداً وخديجة وورقة لزموا الصمت حيالها. إن محمداً لم يكن من الذين يقومون بدعاية لأنفسهم متلهفين كما صوره أعداؤه الغربيون. فبعد الإيحاءات الأولى القليلة مر محمد بفترة صمت تقارب السنتين. فكانت هذه الفترة فترة إقفار، ويعزو بعض الكتاب المسلمين يأسه الشديد إلى هذه الفترة فهل تم تضليله في نهاية المطاف.؟ أم أن الله وجده لايصلح كحامل للوحي فتخلى عنه؟ بدا الصمت كارثياً، إلى أن نزلت سورة الضحى بتأكيد ساطع حاملة معها الطمأنينة:

﴿ والضُّحَى * واللَّيل إذا سَجَى * ما وَدَّعَكَ ربُّك وما قَلَى * وللآخِرةُ خيرٌ لك من الأولى * وَلَسَوفَ يُعطيك ربك فترضى * ألم يَجِدْك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ * وأما السائل فلا تنهَرْ * وأمّا بِنِعْمَةِ ربك فحدِّثْ﴾[٣٦].

هنا أضحى محمد على وشك البدء بدعوته وكان قد تعلم أن يكون لديه إيمان بتجاربه، وأصبح يعتقد الآن أنها كانت تأتي من الله مباشرة وأنه لم يكن كاهناً مضللاً. كان هذا الفعل الإيماني يتطلب شجاعة، ـ لكنه قرر الآن القيام بخطوة تتطلب قراراً أكبر حتى أنه قرر قبول تفسير ورقة لتجربته: لقد دعي ليكون نبي قريش. وعليه الآن أن يقدم نفسه إلى قومه. وقد حذره ورقة من أن ذلك لن يكون أمراً سهلاً. لقد قال لمحمد إنه رجل عجوز ومن المرجح أنه لن يعيش طويلاً، وبوده لو يعيش كي يساعده عندما ينبذه قومه. رُعِبَ محمد لدى سماعه هذا، فسأل يائساً هل سينبذونه حقاً، فأجابه ورقة حزيناً بأن لاكرامة لنبي في قومه. كان محمد حذراً جداً عندما بدأ بنشر الكلمة، وكان يعرف أن من المحتمل أن تلقى دعوته السخرية. فربما يظن الناس أنه كان عميلاً للبيزنطيين مثل **عثمان بن الحويرث** المسيحي الحنيف. أو قد يتهمونه بالخيانة وعدم التقوى للدين التراثي. مع ذلك كان محمد قد تهيأ لقبول تلك المهمة الخطرة والتي قادته في اتجاه لايُتَخَيَّل.

الفصل الخامس

النذير

مر محمد بتجربة مخيفة، لكنها كانت تجربة استنارة في النهاية على جبل حراء، كان إلى درجة ما كيعقوب مع ملاكه الذي نزل إليه. كان عليه أن يجلب إلى قومه الرسالة التي تلقاها من مملكة المقدس. لقد تضمنت سورة الضحى أمراً اجتماعياً واضحاً: يجب على الرجال والنساء الاعتناء بفقراء القبيلة وضعفائها. لم يكن في هذا شيء جديد، لكنه كان حاسماً للمثل الأعلى القديم «المروءة»، لكن يبدو أن قريشاً لم تعد تراه. ويقول القرآن إن هذه الرسالة كانت أمراً مركزياً في إيحاءات كل الأنبياء السابقين في أرجاء العالم الذين بلغ عددهم نحواً من /١٢٤/ ألف نبي حسبما يورد التراث الاسلامي وهذا الرقم رمزي يوحي باللانهاية. فالله لم يترك البشر دون معرفة بالسبيل القويم للعيش، مع ذلك كان الناس يتجاهلون الرسالة الإلهية بعناد. لقد أرسل الله نبياً إلى قريش التي لم يزرها مبعوث من قبل. في عام ٦١٢ أي عند بداية دعوته، كان تصوُّر محمد لدوره متواضعاً جداً.

لقد كان مُخَلِّصاً أو مسيحاً، دون مهمة عالمية، وفي هذه الفترة بالذات لم يكن يشعر أن عليه الدعوة بين القبائل العربية الأخرى في الجزيرة. كان يريد أن ينقل رسالته إلى مكة وجوارها، لأنه آخر نبي في سلسلة الأنبياء[1].

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لِتُنذر أم القرى ومن حولها..﴾

ينبغي ألا تكون له وظيفة دنيوية[2]. لقد كان نذيراً وحسب، لكن تصوره لمهمته سوف يتغير، فعندما بدأ دعوته كان يعتقد أنه قد أرسل لينذر قريشاً من مخاطر السبيل الذي كانت تسلكه.

يا أيها المُدَّثِّر * قُمْ فأَنْذِر * وربَّك فكَبِّر * وثيابك فَطَهِّرْ * والرِّجزَ فاهْجُرْ(*٣).

لكن هذا لم يكن يعني أن محمداً بدأ برسالة التهديد والتخويف بالآخرة. فيوم الحساب لم يرد ذكره إلا بإيجاز في سور القرآن الأولى. ويتسم مطلع الرسالة بالبهجة أساساً. اذ الفكرة أن يصبح كل رجل وامرأة في مكة مدركاً لخيرية الله التي بإمكانهم رؤيتها بوضوح بما حولهم في الطبيعة. لقد خلقهم وأرشدهم وسخر لهم الكون كله من أجل صالحهم. وإن يتأمّلوا آيات الله في العالم التي كان القرشيون جميعاً يعترفون أن الله قد خلقه ادركوا مدى كرمه الوافر ومدى إنكارهم الضال.

﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرَه * من أي شيء خَلَقَهُ * من نطفةٍ خَلَقه فقدَّرَه * ثم السبيلَ يَسَّرَه * ثم أماتَهُ فأَقْبَرَه * ثم إذا شاء أَنْشَرَه * كَلَّا لمَّا يَقْضِ ما أَمَرَه * فلْيَنْظُر الإنسانُ إلى طعامه* أنَّا صببْنا الماء صباً * ثم شققْنا الأرضَ شقاً * فأنبتْنا فيها حبّاً * وعِنَباً وقَضْباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائِقَ غُلْباً * وفاكهة وأبّاً * متاعاً لكم ولأنعامكم(٤)﴾.

لكن الناس ما يزالون يرفضون العيش كما أراد الله.

لم يصدر محمد قائمة طويلة بالمطالب، لقد كان راضياً ـ بشكل رئيس ـ بإصلاح قانون الشرف العربي القديم الذي كان يعرفه القرشيون. كل ما كان يطلبه القرآن هو أن يسعى الرجال والنساء من أجل خلق مجتمع عادل، يعامل فيه المستضعفون باحترام. وكان هذا يشكل حجر الزاوية في الرسالة القرآنية. واذا كان المسلمون اليوم يبدون لنا غير متسامحين فإنه يجب أن ندرك أنهم لم يكونوا متعنتين كذلك دوماً حول الصور الأخرى للواقع كما كانت عليه المسيحية الغربية من تعنت. نراهم غير متساهلين تجاه الظلم سواء ارتكبه واحد من حكامهم مثل محمد رضا بهلوي، أم أنور السادات في مصر، أم ارتكبته الدول الغربية. فالرسالة الأولى للقرآن بسيطة: تكديس الثروة لبناء حظ شخصي أمر خطأ والأفضل منه تقديم الصدقات وتوزيع ثروة المجتمع.

(*٣) ـ السورة ٧٤ (المدثر): الآية: ١ ـ ٥ ، ٨ ـ ١٠ .
تعتقد بعض المراجع أن هذه السورة هي أول جزء أوحي من القرآن وليست السورة ٩٦ .

يخبرنا الدارسون الغربيون أن من الخطأ رؤية محمد كاشتراكي، ويشيرون إلى أنه لم ينتقد الرأسمالية التي فعلت لقريش أشياء عظيمة. وأنه لم يحاول إلغاء الفقر كلياً، إذ كان ذلك مهمة مستحيلة في الجزيرة في القرن السابع. قد لا يكون محمد ملتزماً بجميع المفاهيم الحديثة للاشتراكية كما نشأت في الغرب، لكنه كان بمعنى أعمق اشتراكياً بكل تأكيد. وترك أثراً لا يمحى على روح الجماعة المسلمة. صحيح أنه لم يعزف عن الثروة والممتلكات كما فعل يسوع. ولم يكن المسلمون مطالبين بإعطاء كل ما لديهم. إنما يجب أن يكونوا كرماء بثروتهم، وأن يعطوا جزءاً ثابتاً من دخلهم إلى الفقراء، وستغدو الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة[*٥]. وكان مطلوباً بعض أنواع الصدقات في المفهوم الإسلامي الأول[٦]. ينبغي على المسلمين ألا يكنزوا المال، أو الدخول في منافسة للتملك أكثر من أي شخص آخر[٧]. بل عليهم العناية بالفقراء، وعدم أكل مال اليتامى من ميراثهم عندما يديرون أملاكهم، كما كان يفعل معظم القرشيين[٨]. لقد سادت روح الجماعة هذه حتى عندما أصبح المسلمون قوة عالمية رئيسة، وعندما كان كثيرون يُثرون. كانت مساواة الإسلام تعني أن الشريعة المقدسة حرمت تدريجياً الخليفة من أية سلطة سياسية واقعية ليصبح رمزاً للوحدة بشكل أساسي. **ربما كان البلاط ثرياً، لكن المسلمين الورعين في جميع المناطق التي كانت تسودها حياة دينية في الإمبراطورية الإسلامية بالإضافة إلى الفقهاء والمتصوفين قالوا إن مظاهر هذا الثراء ليست إسلاميةً.** عندما كان يريد حاكم محلي أن يثبت أوراق اعتماده الإسلامية كان أول ما يقوم به هو أن يعيش حياة تقشف ويلتزم بالمساواة، المثل الأعلى. وهكذا فأثناء الحروب الصليبية قدم **نور الدين وصلاح الدين** ـ اللذان نظما المواجهة ـ معظم ما يملكانه إلى الفقراء. وعاشا حياة تقشف بسيطة هما وأصحابهما. وبهذه الطريقة تقربا إلى الناس، بعد أن أثبتا أنهما مسلمان صالحان أكثر من أي حاكم آخر في الشرق الأدنى. لقد شيدا إمبراطورية قائمة على هذا الترحيب الشعبي، واعتبرهما الناس صادقين لأن حياتهما كانت على نمط حياة محمد.

(*٥) ـ السورة ٥١ (الذاريات): الآية: ١٩ ، ٧٠: ٢٤ . في مطلع الدعوة أرسيت الزكاة كركن لكنها لم تصبح ضريبة نظامية إلّا بعد وفاة محمد.

عاش محمد دائماً حياة شظف بسيطة حتى عندما أصبح السيد الأقوى في الجزيرة. كان كارهاً للترف، وفي أحيان كثيرة كان يخلو بيته مما يؤكل. لم يكن لديه سوى بدل واحد من الملابس، وعندما كان أصحابه يحثونه على ارتداء ملابس أزهى وأبهى كان يرفض ذلك مفضلاً القماش الخشن السميك الذي يرتديه معظم الناس. وعندما كان يتلقى الهبات أو الغنائم كان يقدمها إلى الفقراء. كان يخبر الفقراء ـ مثلما فعل يسوع ـ أنهم سوف يدخلون مملكة السماء قبل الأغنياء. فليس مصادفة إذن إذا كان أول من آمن به هم الفقراء في مكة: العبيد والنساء الذين اعتبروا أن هذا الدين يقدم لهم رسالة أمل. صحيح أنه جذب إليه مؤمنين من أبناء الأغنياء، غير أن غالبية المقتدرين والأرستقراطيين القرشيين أحجموا عنه، وكانوا إذا مارأوا المسلمين يتجمعون عند الكعبة، يسخرون منهم لكونهم رعاعاً في حين كان حفيد عبد المطلب يتملكه السرور بصحبة هؤلاء الرعاع. وعندما قوي الإسلام لم يكن أصحاب محمد المقربون من المسلمين الأغنياء أو من الطبقات العليا، بل من عامة المؤمنين، من بين عشائر قريش الفقيرة. لم تكن هذه مسألة تفضيل شخصي، بل لأن محمداً كان يعرف أن عليه أن يكون نموذجاً للمسلمين الأوائل ولأن الله يكره الجور والاستغلال. فمجتمع كريم يعكس إرادة الله لا بد أن ينمي ويؤسس لأسلوب حياة تسودها المساواة.

قد يسأل دنيوي معاصر لماذا كان عليه أن يزعج نفسه مع الله؟ فبدلاً من المرور عبر جميع هذه التجارب المعذبة على جبل حراء لماذا لم يبدأ وبكل بساطة حملة من أجل إصلاح اجتماعي؟ كان محمد يدرك أن للمشكلة أصلاً أعمق، وأن إصلاحات كهذه ستكون تجميلية فقط. وستبقى دون فاعلية ما لم يضع القرشيون قيمة عليا في وسط حياتهم. لقد أدرك وبمستوى أعمق مما أدركه أي من نظرائه أن ـ هناك في جذر العلة المكية موقفاً غير صحي وغير واقعي ـ موقف الطغيان (إنَّ الانسان ليطغى) والاستغناء (إنْ رآه استغنى)[٩]. في أيام غابرة عندما ظهرت القبيلة لأول مرة أدرك العرب وبدافع الضرورة أن جميع أفرادها كانوا يعتمدون في وجودهم على بعضهم بعضاً. ففي تلك الفيافي الجرداء كانوا يواجهون إمكانية الانقراض، لكن نجاحهم حماهم من المخاطر التي كانت حقائق عربية عادية. وبالتالي اتخذوا من المال ديناً جديداً لهم وهم مدركون لذلك، فاعتقدوا أنهم

أصبحوا أسياد قدرهم. ويشير القرآن إلى اعتقاد البعض أن باستطاعة المال أن يعطيهم درجة من درجات الخلود[١٠]، الذي كانت تقدمه القبيلة فقط في الأيام الغابرة. كان مجتمعهم قائماً ـ على أية حال ـ على مثل أعلى مشترك، أما الآن فأُخذت العشائر تحترب فيما بينها، وكان بعضها مثل عشيرة بني هاشم يحس أن بقاءها مهدد. كانت الوحدة القديمة للقبيلة قد أخذت بالانهيار، ويعني ذلك تفسخها لامحالة. ومن يتبصر في معركة محمد مع قريش يتحقق من هذه النظرة؛ إذ أنه بعد مضي عشرين سنة ألحق الهزيمة بقريش ليس لبراعته فحسب ـ رغم أن ذلك يُحتسب ـ بل لأن قريشاً لم تكن قادرة على مواجهته في جبهة متحدة. وعند بدء دعوته كانت قد بدأت هناك نزعة فردية قاسية تغتصب الأخلاق الجماعية القديمة. فالقرآن يصور ذلك في المثال الذي يقدمه عمّن هو على استعداد أن يضحي بجميع أقاربه كي ينقذ نفسه في يوم الحساب[١١]. بينما لم يكن ليفكر أحد بهذه الظاهرة عندما كانت روابط الدم مقدسة.

لكي يصحح محمد هذه الانتهاكات كان لزاماً على القرشيين أن يخلقوا روحاً جديدة داخل أنفسهم، وكانت معظم الحلول السياسية الجديدة في هذه الفترة حلولاً دينية. لم يكن محمد يقترح أي شيء جديد عندما طالب القرشيين بالتفكير في معاني إيمانهم بالله خالق السموات والأرض. ويبدو أن الإلحاد بمعناه الحديث الذي نستخدمه به كان مستحيلاً سيكولوجياً قبل القرن الثامن عشر، وهو محصور في الغرب فقط. فالقرشيون جميعاً كانوا يؤمنون ضمنياً بوجود الله العلي إلهاً لهم. وأصبح الكثيرون يعتقدون أن الله هو ذاته الذي كان يعبده اليهود والمسيحيون. أما الآن فقد جعلهم محمد يفكرون بالنتائج المترتبة على إيمانهم هذا. لم يكن لزاماً على محمد البرهنة على وجود الله، لكنه استنتج أنه إذا كان القرشيون يؤمنون حقاً بجميع الأشياء التي كانوا يقولونها فإن عليهم أن يفكروا فيها. فاليهود والمسيحيون كانوا يؤمنون أن الله سيبعث الناس في اليوم الآخر، وهذه فكرة أنكرها العرب القدريون القدامى، رغم ما لها من تأثير أساسي في نفس كل فرد: إذ أن حتى أضعف الأفراد في القبيلة كان لديهم قدر أبدي وبالتالي أهمية مقدسة. فإذا كان القرشيون جادين في اعتقادهم بأن الله قد خلق العالم فلربما كان عليهم أن ينظروا إلى خلقه بعيون جديدة.

في بدايات دعوته ـ عندما كان محمد يدعو أناساً جرى اختيارهم بعناية ـ كان يُذَكِّر القرشيين بمعتقدات ثمينة ويطلب منهم إعادة النظر فيها وأن يطبقوها على الظرف الراهن. فكيف كان اعتقادهم الجديد بالاستغناء الذاتي ﴿أَنْ رآه استغنى﴾ ينسجم مع ذكرياتهم التي تتسم بالاعتزاز بعام الفيل عندما أنقذ الله مكة من الدمار بمعجزة درامية، وزاد من امتيازهم بمالا يقاس؟ كانت هذه آية أخرى عليهم أن يفكروا بها بعناية:

> **﴿ألم تَرَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعلْ كَيْدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول(١٢)﴾.**

اعترف القرشيون مدفوعين بتباهيهم بهذه الحادثة بأنه لم يكن في وسعهم بلوغ ما وصلوا إليه من سلطة ونجاح من خلال جهودهم فقط.

لم يكن القرآن يكشف أي شيء جديد: بل قال إنه «مُذَكِّر»(١٣) بالأشياء التي كان يعرفها كل واحد منهم من ذي قبل. كان يجعل الحقائق القديمة واضحة فقط، مقدماً إياها في جلاء وأكثر إشراقاً. كثيراً ما يقدم القرآن موضوعاً بكلمات مثل ﴿ألم تر؟﴾ أو ﴿ألا تفكرون﴾. فكلمة الله لم تكن أوامر متوعدة اعتباطية من علٍ بل كانت تدعو القرشيين إلى الدخول في حوار، كانت تصدر تحدياً لم يكن يدمر الماضي، بل كان يبني على البصائر والتراثات العربية القديمة. فقد ذكر القرآن القرشيين أن الكعبة ـ التي كان يعتز كل منهم بها كثيراً ـ كانت بيت الله، وأحد الأسباب الرئيسة في نجاحهم. وكان هذا سبب الغزو الحبشي في عام الفيل. فلولا هذا المحرم الذي قدمه الله لهم لما استطاعوا إقامة سوق مزدهرة كسوقهم، ولظلَّت مدينتهم مهددة بهجوم القبائل الأخرى، ولما كانوا حرروا أنفسهم من مرض الجوع العربي:

> **﴿لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف(١٤)﴾.**

لم يكن القرآن يحثهم على الجلوس وترك كل شيء على الله، بل على العكس من ذلك تماماً كما سنرى. لكن القرآن كان يطلب منهم أن يعيدوا النظر

ببعض من معظم معتقداتهم الأساسية على ضوء مكانتهم الحالية. كان القرشيون يحبون الطواف حول بيت الله، لكن يبدو أنهم نسوا، بعد أن وضعوا أنفسهم في مركز الدائرة من عالمهم، معنى الشعائر القديمة. فكلمة إيلاف أي وحدة قريش حول هذا المكان المقدّس كانت في خطر محدق لأنهم كانوا يحدثون شروخاً في المثل الأعلى الجماعي القديم، فلم يعودوا يعيرون اهتماماً للعشائر الأضعف واليتامى والشيوخ والمساكين. فإذا ما استمروا على هذا المنوال فإنهم سيفقدون إحساسهم بمكانتهم الحقيقية في العالم.

في هذه المرحلة المبكرة كان القرآن يحاول أن يجعل المكيين يدركون مقدار دينِهم لله على الرغم من نجاحهم الحالي وأمنهم الظاهري. ينبغي عليهم أن ينظروا إلى آيات نعمته وقدرته التي كانت جلية حيثما نظروا في العالم الطبيعي، فإذا ما أخفقوا في إعادة إنتاج هذا التراحم في مجتمعهم فإنهم يضعون أنفسهم خارج الطبيعة الحقيقية للأشياء:

> ﴿الرحمن * علَّمَ القرآن * خلق الإنسان * علَّمَهُ البيان * الشمسُ والقمرُ بحسبان * والنَّجمُ والشجرُ يسجدان * والسماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الميزان * ألَّا تَطْغوا في الميزان وَأَقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخْسِروا الميزان * والأرضَ وَضَعَها للأنام * فيها فاكهةٌ والنخلُ ذاتُ الأكمام * والحَبُّ ذو العَصْف والرَّيْحان. فبأي آلاء ربِّكما تُكَذِّبان[١٥].﴾

فجميع المخلوقات تقر بالله وتنحني له معتبرة إياه العلة الأولى، ومصدر وجودها وليس باستطاعتها الاستمرار لولاه. الله هو القدرة الأساسية التي تعرف كل الأشياء وتضع فيها القوة والحركة. لقد خلق التوازن الذي يبقي جميع الأشياء في علاقاتها الصحيحة مع بعضها بعضاً. وما لم يخلق القرشيون ذلك التوازن ثانية في مجتمعهم ويفوا الميزان بالقسطاس، ويقيموا معياراً عادلاً في جميع معاملاتهم فإنهم سوف يكونون خارج الانسجام مع طبيعة الأشياء. لذا، ولكي يساعد محمدٌ المؤمنينَ الأوائل على بلوغ هذا الموقف المسؤول، الإقرار بالله، طالبهم أن يسجدوا لله في صلاة طقسية مرتين في اليوم مثل النجوم والأشجار. فأصبحت هذه الصلاة ركناً آخر من أركان الإسلام. فالإيماءات الخارجية في الصلاة سوف تساعد المسلمين على

تنمية الوضعية الداخلية وعلى إعادة توجيه حيواتهم في مستوى جوهري.

عُرف دين الله الذي دعا إليه محمد باسم الإسلام أي فعل التسليم الوجودي الذي يتوقع من كل مسلم القيام به إلى الله. المسلم هو «من يسلّم» وجوده كله إلى الخالق. في البداية أطلق المؤمنون على دينهم صفة «التزكّي»، وهي كلمة تبدو لي غامضة، وأجد من الصعوبة بمكان ترجمتها الى الإنكليزية. والتزكي يعني أنه كان عليهم أن يتدثروا بالرحمة والكرم، وأن يستخدموا زكاءهم لتنمية روح المسؤولية والرعاية التي تجعلهم يعطون ما كان لديهم إلى جميع مخلوقات الله بسخاء. فعن طريق الغوص في خفايا الخلق عقلانياً سيتعلم المسلمون التصرف بلطف، وسيعني هذا الموقف السمح أنهم قد نالوا تشذيباً روحياً. فالله كان الأمثولة العظمى. لقد تم تحريض المسلمين على تأمل آياته كي يتعرفوا على نعمته في كل العالم الطبيعي. فنتيجة لتدبيره السمح كان هناك الاستقرار والإثمار بدلاً من العماء والبربرية الأنانية. فإذا ما استسلموا لأوامره فإنهم سيجدون أن حياتهم عرضة للتحول بتشذيب مماثل.

جميع المخلوقات الأخرى مسلمة بطبيعتها، فلا خيار لها سوى أن تنفذ إرادة الله وتستسلم إلى الخطة الإلهية[١٦]. فالإنسان وحده له حرية القيام بعمل اختياري في الإسلام، ويلزم حياته بمصدر الحياة والممد بها. إنه يستسلم لا لطاغية اعتباطي بل إلى القوانين الأساسية التي تحكم الكون. لكن ماذا عن قسوة الطبيعة، والكوارث الطبيعية التي نسميها «أفعال الله» في اللغة القانونية؟ فالقرآن لا يتجاهل هذه:

> **﴿وآيةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهم في الفُلْك المشْحون. وخلقنا لهم من مِثْلِه ما يركبون. وإنْ نَشَأْ نُغْرِقْهم فلا صريخ لهم ولا هم يُنْقَذون. إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين[١٧]﴾.**

ما من أحد خبر قسوة الطبيعة أكثر مما خبرها العرب. فالآلهة المتنوعة في الوثنية والتراث الديني القومي هي مجرد تمظهرات لقوة بدئية Rerum Natura عليا وغامضة ولا شخصية تماماً. لقد جسّد بعض هذه المعبودات سماتها الخيرة وحبها المشخص، والشريعة أو الحكمة، بينما عبرت معبودات أخرى عن جوانب الحياة الأكثر قتامة في العالم. كانت آلهة حرب أو عنف، وأحياناً كانت لها سمات ضارة. فالتراث الهندوسي يقول إن الشر هو أحد أقنعة المتعالي، أي وجود لا

شخصي لله. وكان رأي الوثنيين بآلهتهم المتحاربة مأساوياً، لكنه كان تعبيراً شجاعاً عن الصدق في الصراع الدائر والذي يحس به كل امرىء في العالم، وفي داخل وجوده ذاته. لكن الوثنية لم تكن تقدم حلاً لهذا الصراع. أما في الجزيرة العربية فكانت الأهمية الرمزية الأصلية للآلهة القديمة قد تبددت خلال الفترة البدوية، ولم يطور الدين العربي ميثولوجيا تعبر عن هذه الرؤية الوثنية. لكن يمكن رؤية عناصر لهذه النظرة في القرآن حيث آيات الله في العالم تعبر عن سر الله الذي لا يمكن سبره، هذا الله الذي تجسده الآلهة في أنظمة أخرى.

في القرآن يُصَوَّر الله تصويراً يبعد عن الصفات الشخصية، كما ويبعد كثيراً عن يهوه في الكتب المقدسة اليهودية أو عن الأب الذي تقمص يسوع المسيح. كان يهوه في دين العبرانيين القبلي القديم يوقع الكوارث أو ينعم بالعطاء على البشر كتعبير ـ اعتباطي أحياناً ـ عن سروره، لكن عندما يغرق الله ناساً ـ مثلاً ـ فإنه لا يكون مدفوعاً بعداء شخصي. إنه أقرب إلى تمظهرات قوة بدئية Rerum Natura وإلى الله العلي لدى أنبياء العبرانيين المتأخرين، الذي يتعالى تماماً عن جميع المفاهيم البشرية للخير والشر والحق والخطأ:

> **«لأن أفكاري ليست أفكارَكُم، ولا طُرُقَكُم طُرُقي يقولُ الربُّ. لأنه كما عَلَتِ السماواتُ عن الأرضِ هكذا عَلَتْ طُرُقي عن طُرُقِكُم وأفكاري عن أفكارِكُم[١٨]».**

لا يسع المرء إلا أن يُؤخذ بعبقرية محمد الروحية وهو الذي لم يكن تقريباً على احتكاك مع اليهود أو المسيحيين الممارسين، وكانت معرفته الفعلية بهذه الإيحاءات القديمة دونما شك محدودة جداً. مع ذلك استطاع أن ينفذ إلى قلب التجربة التوحيدية. فالقرآن يؤكد أن الله يستعصي على أفهامنا البشرية، وأنه ليس بإمكاننا التحدث عنه إلا من خلال آياته ورموزه التي تكاد تكشف وتخفي طبيعته التي لا سبيل إلى وصفها. أسلوب الخطاب القرآني رمزي كله. فهو باستمرار يتحدث عن «الأمثلة» العظيمة كي يتأملها المسلمون ويتفكروا في معانيها. ليس هناك معتقدات محددة عن ماهية الله، بل مجرد «آيات» لها طبيعة مقدسة، وبالإمكان أن نشعر بوجود شيء منه فيها.

غالباً ما يسيء الغربيون فهم الطبيعة المجازية للاهوت القرآني، لأننا ميالون إلى

قراءة الكتب كي نحصل على معلومات، غير أن المسيحيين في العصور الوسطى طوروا طريقة رمزية كلياً لقراءة كتابهم المقدس، وهي مماثلة للطريقة التي يقارب المسلمون بها القرآن. فبعض الأحداث التي يصفها في حياة الأنبياء أو يوم الحساب الذي يدنو هي أساساً تجسيدات رمزية لحقائق إلهية، وينبغي عدم فهمها على أنها حقائق حرفية. فكما يرى البوذيون الآلهة كجوانب متنوعة لذواتهم كذلك يتحدث المسلمون دوماً عن «موسى في ذات المرء Moses of One's soul» أو عن «يوسف في قلب المرء»، معتبرين الصراع بين الخير والشر الذي ورد وصفه مراراً في القرآن كمسرحية روحية تمثل إلى ما لا نهاية داخل أنفسهم. فعندما يرتل المسلمون القرآن فإنهم يصبحون مدركين لتاريخ وجودهم أكثر من مجرد تاريخ خلاص موضوعي. إنهم يقومون بجهد تخيلي لخلق تجربتهم الداخلية للصراع من أجل العودة إلى مصدر الخلق ولمحاربة الشر في أنفسهم.

لقد شجع القرآن الرجال والنساء على بلوغ هذا الموقف التخيلي الرمزي، ويتجلى هذا في مقطوعات الوصف العظيمة «للآيات» في الطبيعة. وإذا ماكنا نجد أحياناً نظرة تشاؤمية عند المسيحية تجاه العالم الطبيعي الذي يعتقد أنه هبط من كماله الأصلي بسبب خطيئة الإنسان، فإن الإسلام ـ مثل اليهودية ـ لا يؤمن بهبوط الإنسان والذنب الأصلي بالمعنى المسيحي. فالموت والألم والحزن ليست عقوبات على إخفاق بدئي من قبل البشر، بل كانا دائماً جزءاً من الخطة الإلهية التي لا سبيل إلى بلوغها. العالم المادي ليس هابطاً، بل هو تجلٍ كاشفٍ من تجربة المتعالي، التي لا يمكن التعبير عنها بلغة أو أفكار بشرية عادية. عمل المخيلة أو الفن أو الدين هو أن ننظر عبر هذا العالم المتشظي إلى الطاقة الكاملة لوجود أصلي. فالقرآن يحث المسلمين على القيام بمحاولة فكرية وتخيلية، وأن ينظروا إلى العالم حولهم بطريقة رمزية:

> ﴿إن في خَلْق السموات والأرض واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفعُ الناسَ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرضَ بعد مَوْتِها وَبَثَّ فيها من كل دابَّةٍ وتَصْريفِ الرياحِ والسحابِ المُسَخَّرِ بين السماء والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلونَ[١٩]﴾.

لقد شدد التراث الإسلامي على أهمية المخيلة: فالفيلسوف المتصوف الكبير محي الدين بن عربي (ت ١٢٤٠م) يتحدث عن المخيلة كمقدرة أنعم الله بها على الإنسان، إنها ملكة إدراك التجلي القدسي للفرد، أي إدراك تجليات الله في العالم من حولنا. فهذه المقدرة البشرية غير العادية تمكن الرجال والنساء من احتمال الصدمات والمآسي التي يتعرض لها الجسد. لكن القرآن لا يطالب المسلمين بالتنازل عن العقل، فالآيات هي لقوم «يعقلون» لقوم «يعلمون»: فالمسلمون مطالبون بالنظر إلى الآيات في العالم الطبيعي، وتفحصها بدقة[٢٠].

لقد ساعد هذا الموقف أيضاً على تنمية عادة الفضول العقلي التي مكنت المسلمين من تطوير فهمهم لتراث العلوم الطبيعية والرياضيات فليس هناك تعارض أبداً بين البحث العلمي العقلاني والدين في التراث الإسلامي، بينما غدا التعارض عند المسيحيين جلياً في القرن السابع عشر عندما شعروا أن اكتشافات **ليل Leyell ودارون** كانت تقوض دينهم بشكل يصعب إصلاحه. كذلك استخدم بعض المتصوفين في الطوائف الشيعية الثورية العلم والرياضيات كمقدمة للتأمل.

وهكذا عندما طلب محمد من قريش قبول الوحي على أنه آت من الله فإنه لم يكن يطلب منهم الموافقة على عقيدة أو على مجموعة آراء لاهوتية: ففي الإسلام على غرار اليهودية لا وجود لطقوس ارثوذكسية، حيث المثل والتصورات عن الله هي مسائل فردية خاصة أساساً. إن القرآن يبدي شكوكاً كثيرة تجاه التأمل اللاهوتي. فيرى فيه مجرد إسقاط بشري وتحقيق رغبة. فإذا ما طُبق هذا التفكير المعتقدي على الوجود المتعالي ـ أي الله ـ فإنه سيكون تخميناً فقط، أي ظن. فعادة التخمين التافه هذه حول المسائل التي لا سبيل إلى وصفها أدت إلى تقسيم أهل الكتاب إلى طوائف متحاربة[٢١]. فبدلاً من تصعيد المعتقد أو التفكير الصحيح (الارثوذكسية) يصر الإسلام واليهودية على ما يسمى **Orthopraxy**، الممارسة الصحيحة. فالمؤمن في القرآن ليس من يبدي موافقة على قائمة من المقترحات كتلك المذاهب العقيدية المتنوعة أو المواد التسع والثلاثين، بل من يحس بخشية فورية تهز القلب من الحقيقة الإلهية التي استسلم لها معبراً عن إسلامه في الصلاة والزكاة.

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وَجِلَتْ قلوبهم وإذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم

ومغفرة ورزق كريم[٢٢]﴾.

وأما «غير المؤمن (الكافر بنعمة الله) فهو على النقيض من ذلك لكنه ليس شخصاً يرفض الإيمان بوجود الله، أو يتبنّى لاهوتاً خاطئاً بل هو من ينكر فضل الله». فالقرآن يوضح ذلك في استخدامه لجذر «كَفَرَ»، أن هذا الموقف كان ضلالاً متعمداً، فكفار مكة كانوا يعرفون في قلوبهم ما تعنيه الآيات، لكنهم كانوا يخالفون الله متكبرين، بدلاً من أن يعيدوا ترتيب حيواتهم[٢٣].

على الرغم من أن محمداً في سنواته الأولى لم يعلن دفعة واحدة عن خطّة، بل وراعى المقدسات الأساسية التي كانت تُجلها قريش مثل الكعبة تحاشياً للصدام معها، إلا أنه كان يعرف غريزياً أن رسالته سوف تثير عداوة عميقة، لذلك نراه حذراً جداً مع الناس الذين كان يتوجه إليهم. فطوال السنوات الثلاث الأولى من دعوته تَبَنّى بشكل صارم كهنوتاً مغلقاً، فانتشرت الدعوة بشكل سري واقتصرت على أفراد محددين. لكنه استطاع بناء جماعة صغيرة من مؤمنين متحمسين أدركوا حالاً أهمية ما كان يقول. كانت هذه الجماعة تلتقي لتأدية صلاة طقسية كل صباح ومساء، ويبدو أن الصلاة كانت تثير رد فعل عميق في قريش: لقد بدا لهم مرعباً أن يجدوا أنفسهم ـ بعد قرون من استقلالية بدوية شرسة خلفهم ـ ملزمين بتعفير وجوههم بالأرض في الركوع والسجود مثل العبيد. لقد أوضح رد الفعل الفوري هذا لمحمد أنه قد وضع إصبعه ـ دون أن يخطىء ـ على بقعة حساسة: فالخضوع المطلق كان تحدياً للكبرياء القرشية الجديدة وللكفاية الذاتية المتعجرفة جداً. وبلغت ردة الفعل هذه حداً أصبحت معه تأدية الصلاة علانية أمراً محالاً بالنسبة للمسلمين، فكان عليهم الانسحاب إلى الوديان المحيطة بمكة. ويبدو أنهم قد مارسوا أيضاً نوعاً من الزكاة التي كانت تعتبر تطهيراً أخلاقياً، وكانوا يتهجدون الليل ساهرين يتلون القرآن.

من المحتمل أن هذا الطقس كان مستمداً من قيام الليل الذي كان يمارسه الرهبان المسيحيون في الصحراء السورية، إذ كانوا يقومون في الليل ساعات يتلون الترانيم المقدسة. وقد أثر هذا على الفكرة العربية لما كان يعنيه الكتاب: إنه لم يكن كتاباً للدراسة خاصة بل نصاً يرتل بصوت عالٍ في عبادة طقسوية. مع أن المسلمين يدرسون القرآن انفرادياً إلا أنهم يقولون إن تأثيره الكامل لا يمكن الإحساس به إلا

عندما يرتل بصوت عالٍ ترتيلاً خاصاً. فالصوت له معناه الغامض الخاص به، ويجعل لغة القرآن مماثلة لحالة الموسيقا التي تعطي إحساساً تاماً وقوياً بالمتعالي أكثر مما يعطيه أي فن آخر. فالقرآن هو الذي منع أن يكون الله إلهاً بعيداً كلياً «هناك». كان كتاب السيرة الأوائل يصفون إسلام شخص ما بالقول إن الإسلام «دخل قلبه». وسوف أتناول، في الفصل التالي، دور القرآن وتجربة المسلمين الأوائل الذين كان القرآن دافعاً لإيمانهم. لكن يبدو أن الجمال الرائع للعربية المرتلة كان يلامس شيئاً عميقاً دفيناً، وكان يردد رجع صدى توق لا شعوري ومطامح فيمن كانوا يسمعونه.

جميعنا نمر بتجربة مماثلة، عندما ترفعنا قصيدة أو موسيقا لفترة خارج ذواتنا، وتمدنا بملامح لوجود أكبر. فنطق هذه الكلمة لم يكن هيناً على محمد. استمر نزول الوحي بينما كان محمد يقوم بنشاطات عادية. كان يغمى عليه، ويتنفس بعمق، ويتصبب العرق الغزير حتى في يوم بارد. وتقول مصادر أخرى إنه كان يحس بعبء كبير، إحساساً مماثلاً للحزن، وكان يخفض رأسه بين ركبتيه أثناء استماعه إلى الكلمات الإلهية.

من هم المسلمون الأوائل؟ قبلت خديجة مصداقية الوحي من البداية، وتبعها كل أفراد أسرة محمد: علي وزيد وبناته الأربع. لكن محمداً أحسّ بخيبة الأمل لأن أعمامه أبا طالب والعباس والحمزة لم يعيروا دعوته اهتمامهم. لقد أخبره أبو طالب أن ليس بوسعه التخلي عن دين آبائه، موضحاً بذلك تحفظاً شعر به كثيرون من قريش. كان محمد مدركاً أنه على الرغم من أن للوحي جذوره في التراث الوثني القديم إلا أنه سيهدد من هم أكثر محافظة في قريش، ولهذا السبب أبقى دعوته في حدها الأدنى طوال السنوات الثلاث الأولى. لكن أبا طالب كان يكن لمحمد احتراماً كبيراً، فحتى عندما أصبح صعباً عليه القيام بذلك استمر في لعب دوره كحامٍ رسمي له. كان دعم أبي طالب شيخ بني هاشم أمراً حاسماً لمحمد: فالروح الجماعية القبلية القديمة ربما كانت آخذة بالانهيار، مع ذلك فإن استمرارية فرد في البقاء دون حماية عشيرته كانت أمراً محالاً.

وبالمقابل كان هناك أفراد آخرون من أسرة محمد قبلوه نبياً لهم من بينهم: **جعفر بن أبي طالب** وصديقه وقريبه **عبيد الله بن جحش** وأخته **زينب** وأخوه **عبد**



الله. كان عبيد الله واحداً من الأحناف الذين كانوا يبحثون عن شكل بديل من الوحدانية. بينما لم تصبر **أم الفضل وسلّامة** زوجتا **العباس والحمزة** على تردد زوجيهما، فأسلمتا وكذلك فعلت **أسماء** زوجة **جعفر**، و**صفية** ابنة عبد المطلب عمة محمد. وانضمت إلى أصحابه **أم أيمن** المرأة التي أعتقها محمد وكانت عبدة تركها أبوه عبد الله إلى آمنة مع خمس من الإبل. فقد قال عنها محمد ذات مرة: «من يرد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن»(٢٤). وعندما سمع زيد قوله هذا تأثر كثيراً فطلب يدها من محمد مع أنها كانت تكبره بسنوات. وافقت أم أيمن، وأنجبت له أسامة أول حفيد لمحمد وأحد الأطفال الأوائل الذين ولدوا في الإسلام.

إضافة إلى ذلك نجح محمد في السنوات الأولى من دعوته في جلب نفر من خارج عائلته إلى الإسلام، منهم صديقه **عتيق بن عثمان** المعروف بكنيته أبي بكر. ويعتقد أن محمداً قال في سنوات لاحقة:

> **«مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونَظَر وتردّد، إلاّ ماكان من أبـي بكر بن أبـي قحافة، ماعكمَ عنه حين ذكرتُه له وماتردد فيه»**(٢٥).

قلة من المعتنقين الآخرين أحدثت التأثير الذي أحدثه إسلام أبي بكر، وعنه يقول ابن إسحق:

«وكان أبو بكر رجلاً مألفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر؛ وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممّن يغشاه ويجلس إليه»(٢٦).

جلب أبو بكر كثيراً من شبان مكة إلى دين الله من بينهم أفراد أقوى العشائر. كان معروفاً ببراعته في تفسير الأحلام. فذات يوم أتاه **خالد بن سعيد** ـ ابن رجل غني مرموق في عشيرة عبد شمس ـ وهو مضطرب جداً. لقد رأى في منامه أنه كان واقفاً على شفير حفرة مليئة بالنار، ويالَرُعْبه! فوالده هو من كان يحاول إلقاءه

فيها، ثم رأى يدين على خصره تشدانه إلى السلامة. وفي لحظة اليقظة هذه التفت ليرى أن منقذه كان محمداً. فالحلم كما وصلنا يوضح مدى الشعور الغامض والعاجل بالخطر الذي كان يحسه الجيل الأصغر سناً في مكة. فقسوة الصحراء كانت قد أصبحت حقيقة بعيدة عنهم، ويبدو أنهم كانوا أقل حماسة تجاه الرأسمالية الجديدة مما كان آباؤهم الذين كانوا يخوضون معهم صراعاً عميقاً غير معلن. كان النبي محمد يلامس انفعالات دفينة لمّا تتبلور بعد عند هؤلاء الشبان الذين كانوا يحسون العلة في مكة بحدة أكثر. أصبح خالد هذا مسلماً لكنه أبقى إسلامه سراً عن أبيه. ويوضح اعتناق آخر للإسلام عن طريق حلم الجانب الأكثر إيجابية للتأثير القرآني. فالشاب التاجر الأرستقراطي **عثمان بن عفان** من عبد شمس كان عائداً من رحلة عمل إلى سورية عندما سمع في نومه هاتفاً يصيح بصوتٍ عالٍ في البرية: «أفيقوا أيها النيام، فأحمدٌ قد ظهر في مكة»[٢٧]. تأثر عثمان بهذا الهاتف الذي أربكه، والذي كان استجابة لشيء ما داخله حتى وإن لم يكن يعرف فحوى الكلمات: لقد جعلت تجربة الأسلاف المسلمين يشعرون أنهم قد استيقظوا بعد سبات طويل. وفي اليوم التالي انضم إلى عثمان في الطريق تاجر شاب آخر هو **طلحة بن عبيد الله** من تيم وهو من ابناء عمومة أبي بكر. فطلحة أيضاً كان عائداً من سورية، وأخبر عثمان أنه قد قابل راهباً أخبره أن النبي أحمد سوف يظهر قريباً في الحجاز، لكنه أضاف النبأ المدهش بأن أحمد كان فعلاً هو محمد بن عبد الله الهاشمي. أسرع الشابان عائدين إلى مكة ومنها إلى أبي بكر حالاً.

يخبرنا المؤرخ المكي **ابن شيهان**(*) **الزهري** المولود بعد نحو ٤٠ سنة من وفاة محمد، والذي نذر نفسه للتنقيب في الفترة التي تدعى صدر الإسلام يخبرنا أن جهود محمد سرعان ما تكللت بالنجاح:

> «دعا رسول الله (ص) إلى الإسلام سراً وعلانية، فاستجاب إلى الدعوة الشبان من الرجال والمستضعفين وكانوا كثيرين، ولم تنتقد قريش غير المؤمنة ما كان يقوله. وعندما كان يمر بالقرب منهم كانوا

(*) هو ابن شهاب وليس شيهان

يشيرون إليه: «ها هو الشاب من عشيرة عبد المطلب الذي يقول أشياء من السماء»[28].

ويؤكد **ابن إسحاق** هذا النجاح المبكر[29]. لكن الزهري يوضح أن المؤمنين الأوائل كانوا ينتمون إلى فئتين: الشباب والمستضعفين. وكان من بين الفقراء جداً في هذه الطائفة الجديدة من جذبتهم التعاليم الاجتماعية للدعوة الجديدة فأصبحوا شخصيات هامة في الإسلام. من بين هؤلاء **عبد الله بن مسعود** الراعي الذي كان يتمتع بموهبة كبيرة في حفظ الآيات القرآنية واستظهارها وبذلك أصبح مصدراً موثوقاً لجامعي القرآن الأوائل. و**خباب بن الأرت**: حداد وصانع سيوف، واثنان من الرقيق هما **صهيب بن سنان**، و**عمار بن ياسر** وكان قد تمّ ـ بعد أن أُعْتِقا ـ أجارتهما من قبيلة عشيرة **مخزوم** القوية، وجماعة من العبيد رجالاً ونساءاً وكان **بلال الحبشي** الذي أصبح أول مؤذن في الإسلام هو الأكثر شهرة من بين هؤلاء.

لكن لم يكن جميع هؤلاء مستضعفين فهذه كانت كلمة قبلية تقنية تشير إلى مكانة العشائر المختلفة. فعندما بدأ محمد دعوته كانت قبائل قريش مقسمة إلى مجموعات رئيسية ثلاث صنفها و. **مونتغمري واط** كما يلي:

أ	ب	جـ
هاشم	**عبد شمس**	**مخزوم**
المطلب	**نوفل**	**سهم**
زهرة	**أسد**	**جمح**
تيم	**عامر**	**عبد الدار**
الحارث بن الفهر		
عدي		

كانت العشائر في المجموعة أ تنتمي إلى حلف الفضول القديم وهي العشائر الأضعف في مكة. وكانت الحالات الاستثنائية هي عدي التي انحدرت مكانتها لاحقاً، وأسد (عشيرة خديجة) التي أصبحت أكثر قوة. من المجموعة أ أتى معظم المؤمنين الأوائل. فأبو بكر وطلحة مثلاً كانا من تيم، وكان التاجر الشاب الواعد عبد الكعبة (الذي غير اسمه إلى عبد الرحمن) من زهرة. كان بعض من أفراد هذه

العشائر الضعيفة ناجحين على الصعيد الشخصي فأبو بكر كان رجلاً غنياً، لكن السلطة المتراجعة لعشائرهم أعطتهم مكانة هامشية في مكة. كان معظم أعداء محمد الألداء من العشائر الأقوى من المجموعتين ب و جـ وكانوا أكثر من سعداء بهذا الفارق الطبقي: لكن بعضاً من أنصار محمد كانوا من عشائر هامة مثل خالد وعثمان ـ وربما شعر هؤلاء أن ليس لهم مكانٌ عند القمة، فأصبحوا مدركين للفجوة التي كانت تتسع بين القبائل الأكثر نجاحاً وقبائل المرتبة الثانية. لقد كانت هذه التراتبية وعدم المساواة والتقسيمات غريبة عن الروح العربية، لذلك لاقت رسالة محمد الترحاب. كان الإسلام في البداية حركة تعتمد على الشباب الذين كانوا يشعرون أنه يُدفع بهم إلى مكانة هامشية في مدينة مكة.

كان هذا يعني أن صراعاً آت لا محالة، وسرعان ما اتضح أن الإسلام قد بدأ يُحدث شروخاً في داخل العائلات. وبدلاً من معالجة حالة الانقسام في قريش بدا أن الإسلام يزيد الأمور سوءاً. وقد أصبح هذا واضحاً بشكل متسارع حالما بدأ محمد الدعوة علانية وجهاراً. ففي عام ٦١٥، أي بعد مضي ثلاث سنوات على بدء الدعوة تلقى وحياً يأمره بأن يعلن عن نفسه صراحة، وينذر عشيرته الأقربين، ويدعوها إلى الدخول في الإسلام[٣٠]. في البداية شعر أن المهمة أكبر من طاقته، لكنه مضى إلى الأمام، ودعا أربعين رجلاً، كانوا المرموقين من بني هاشم، دعاهم إلى وجبة متواضعة. فكان الطعام المتواضع رسالة بحد ذاته، إذ كان محمد ينتقد بشدة مظاهر الضيافة الباذخة التي أصبحت تقليداً من تقاليد العرب يوحي بالسلطة والمكانة. كان يشعر بما تحتويه من مظاهر الطغيان (إنَّ الانسان ليطغى)[٣١]. وحادثة الوجبة المتواضعة بدت كمعجزة في سنوات لاحقة، إذ يُروى أن السمكات الخمس والأرغفة الخمسة التي سبق أن قدمها لمدْعُوّيه، لم تكن تكفي سوى لرجل واحد، مع ذلك أكل كل من المدعوين مايزيد عن حاجته. وفي نهاية الوجبة عَرض محمد فحوى ما أُوحي له، وهنا وقف أبو لهب ـ وهو أخ غير شقيق لأبي طالب ـ يعترض الحديث وانفض الاجتماع إثر ذلك. وفي اليوم التالي كان على محمد أن يدعوهم ثانية فشرح لهم الإسلام مرة أخرى وتوسل إليهم أن يؤمنوا برسالته قائلاً:

> **«يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد**

أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟».

ساد صمت مربك، ولم يقل أحد شيئاً لا أبو طالب، ولا العباس أو الحمزة اللذان كانا في عمر النبي نفسه، بينما لم يستطع **علي** احتمال الأمر أكثر من ذلك، مع أنه كان أحدثهم سناً:

«وقلت وإني لأحدثهم سناً وأرفضهم عيناً وأعظمهم بطنا وأحمشهم ساقاً، أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه».

فأخذ برقبتي ثم قال:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب **«قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»**[٣٢].

على الرغم من أن القرشيين كانوا ميالين إلى محمد عموماً إلا أنه كان يقسم العائلات. فابن أخت خديجة **أبو العاص بن ربيع** من عشيرة عبد شمس كان قد تزوج **زينب** ابنة محمد الكبرى. دون أن يعتنق الإسلام، كانت عشيرته تحاول إقناعه في تطليقها. لكنهما كانا يحبان بعضهما، فكان يقول لهم أنه لا ينوي التنكر لها، مع أنه لم يكن بوسعه اتباعها في دينها الجديد. وبدأ الإسلام يتسبب في انقسامات أخرى مريرة في عائلة خديجة: لقد كان أخوها غير الشقيق **نوفل بن خويلد** خصماً عنيداً للإسلام، بينما اعتنق ابنه **الأسود** الإسلام. وكان ابن أخيها **حكم بن حزام** يَكُنُّ لها حباً عظيماً، لكنه لم يعتنق الإسلام علماً أن أخاه خالد قد اعتنقه، وقد عانى أبو بكر من مشاكل مماثلة، فزوجته **أم رمان** تبعته إلى الدين الجديد مع طفليها عبد الله وأسماء، لكن ابنهما **عبد الكعبة** كان معارضاً بشدة له.وهكذا بدا أن **محمداً** ـ مثل **يسوع** ـ يحول الأب ضد ابنه والأخ ضد أخيه، وينسف الروابط الأساسية والواجبات والتراتبات في الحياة الأسرية. وسرعان ما أصبحت هذه المشكلة أكثر حدة.

ما الذي اعترض الناس عليه في رسالة محمد في السنوات الأولى؟ يبدو أنه لم يكن أحد ينتقد تعاليمه الاجتماعية. وحتى العشائر الأوفر حظاً في النجاح

والمعارضة لرسالته لم يكن بمستطاع أفرادها الدفاع عن تبنيهم الأنانية والمادية التي كانوا يتبنونها. وكما يبدو ـ من القرآن ـ فإن معظم الانتقادات الأولى تركزت حول مفهوم يوم الحساب الذي كان يتفق فيه مع محمد التراث اليهودي ـ المسيحي، وكان يحتل تدريجياً مكانة مركزية في الإيحاءات، ويشدد على القدر الأبدي للفرد الذي تلعب أعماله أهمية حاسمة فيه. لقد عززت رمزية الحساب مفهوم الفرد المناقض للمسؤولية الجماعية، ماداً العرب بدافع ومحفزاً لبلوغ وتبني الروح الجديدة. فالقرآن يحذر قريشاً من أن ثروتها وسلطتها التي تتكل عليها لن تجدي لهم نفعاً في اليوم الآخر. بدلاً من ذلك ستتم مساءلة كل واحد منهم على حدة عن اهتمامه باليتامى أو تفقد ما كان الفقراء بحاجة إليه. كما ستتم المساءلة عن سبب مراكمة الثروات الشخصية بطريقة أنانية وعدم تقاسمها مع أفراد القبيلة الفقراء. بكل بساطة كانت هذه فكرة تتوعد الأغنياء في قريش الذين لم يكن لديهم نية لتبني هذه الأيديولوجيا التي تنادي بالمساواة جدياً، علماً أنهم ربما كانوا مدركين لا شعورياً بأن سلوكهم هذا كان انتهاكاً لتراثات آبائهم الأولين. كانت السخرية من فكرة الحساب هي الأيسر على أعداء محمد: «هذه أساطير الأولين»[٣٣] أو مجرد خدعة[٣٤]. فكيف تبعث إلى الحياة ثانية تلك الأجساد البالية والتي أصبحتْ عظامها نخرة؟ هل كان محمد يقترح جدياً أن أسلافهم الموتى منذ أمد بعيد سوف يبعثون من القبور؟[٣٥]. لقد تعلقوا بالاعتقاد العربي القديم أن لا وجود لحياة أخرى بعد الموت، ونرى القرآن يشير إلى أنهم لا يستطيعون إثبات ذلك: إنه مجرد تخمين بشري أي (ظن)[٣٦].

ويشير القرآن إلى أن هذه الاعتراضات مستمدة من الذنب والنزعة المادية التي بلّدت قدرة الناس على الفهم. فالناس الذين ينكرون حقيقة الحساب هم الذين يعرفون أن سلوكهم الاجتماعي خاطىء[٣٧]. ويبدو أن المراد من العديد من الفقرات التي تصف الآيات كان الرد على هذه الاعتراضات: فإذا استطاع الله أن يخلق إنساناً من نطفة مني ـ أعجوبة لايمتدحها القرآن كثيراً ـ إضافة إلى مايبهر النظر من روائع العالم فلماذا لا يستطيع أن يبعث جسداً ميتاً؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خصيم مبين. وضَرَبَ لنا مثلاً وَنَسِيَ خلقه. قال من يُحيي العظام وهي رميم. قل

يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون. أَوَلَيْسَ الذي خلق السماوات والأرض بقادِرٍ على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلّاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون[٣٨]. ﴾

لقد أصبح يوم الحساب صورة قوية للعودة النهائية التي ينبغي على الكائنات جميعاً أن تقوم بها، أي أن تعود آخر الأمر إلى الله خالقها وممدها بالحياة.

لكن على الرغم من هذه الاعتراضات يبدو أن محمداً قد نجح تماماً في السنوات الأولى من دعوته. فمن ناحية بدا كأنه على وشك أن يكسب جميع الناس في قبيلته إلى دين الله الحق. لكن في سنة ٦١٦ برزت مشكلة جديدة. اذ حتى هذه الفترة لم يكن محمدٌ قد ذكر رسمياً الآلهة العربية الأخرى. لربما اعتقد الكثيرون من قريش أن بإمكانهم الاستمرار في تبجيل اللات والعزى ومناة بالطريقة التراثية. ولا يبدو أن محمداً شدد في البداية على عنصر الوحدانية في وحيه. لكنه كان مجبراً على إعلان ذلك في النهاية. فعندما منع أتباعه من عبادة بنات الله اكتشف أنه فقد معظم مؤيديه في ليلة واحدة، وأن القرآن كان على وشك أن يحدث شرخاً في قبيلة قريش.

الفصل السادس

الآيات الشيطانية

أتت بادرة الاضطراب الأولى من عالم الغيب. فقد لحق بعض القرشيين جماعة من المسلمين إلى شعاب مكة وهاجموهم وهم يؤدون الصلاة هناك. ودافع المسلمون عن أنفسهم فأراقوا أول دم من أجل الإسلام عندما جرح ابن عمة محمد سعد بن أبي وقاص واحداً من مهاجميه بعظم فك جمل، وربما صدمت هذه الحادثة كل فرد في مكة. كان القرشيون بشكل عام شديدي التسامح، لكن ما إن منع محمد أصحابه من عبادة الآلهة القديمة في الجزيرة حتى نشأ برزخ من شكوك وحقد بين الأغلبية القرشية والجماعة المسلمة، وفي هذا يقول ابن إسحاق:

> فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلّم قومه بالاسلام وصَدعَ به كما أمره الله، لم يبعد منه قومُه، ولم يردّوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها؛ فلما فعَلَ ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلّا من عَصم الله تعالى منهم بالاسلام، وهم قليل مستخفُون[1].

لكن لماذا كانت قريش قلقة يا ترى؟ فقد كان البعض ـ من قبل ـ يتحرك باتجاه النظرة الوحدانية، ويرى اليهودية والمسيحية أكثر تقدماً من الوثنية العربية القديمة. كما أن عبادة بنات الله كانت تقتصر سابقاً على المقامات في الطائف ونخلة وقُدَيد بشكل رئيسي، ولا بد أنها كانت هامشية بالنسبة للحياة الدينية في مكة. صحيح أن بعض القرشيين كانوا حذرين من إغضاب القبائل البدوية التي

ساهمت قبلاً في طرد القبائل الحارسة للكعبة خارجاً ومنعها من حراستها لعدم التقوى، لكن المشكلة ذهبت إلى ما هو أعمق من هذا. فالقرآن يوضح أن قادة مكة تجمعوا غريزياً معاً ضد النبي وأعلنوا أنه عدو قومه. لقد كانت فكرة إله واحد فقط بدعة غريبة، وكانت عبادة بنات الله واجباً مقدساً مفروضاً على جميع الناس في الجزيرة العربية[٢].

عندما دعا محمد عمه أبا طالب إلى اعتناق الإسلام أجاب أنه ليس باستطاعته التخلي عن دين آبائه. يصعب علينا فهم هذا الولاء الغريزي للماضي لأن مجتمعنا الحديث صار التغيير بالنسبة له شيئاً أساسياً، ومن هنا فنحن نتوقع تقدماً مستمراً ونعتز بالابتكار، ولن نقلق إذا ما اتهمنا أحد ببدعة التجديد مثلما قلق محمد[٣]. لكن الاستمرارية مع الماضي هي قيمة مقدسة في المجتمعات الأكثر تقليدية. إن نوع التغيير الذي نجده بديهياً يتطلب مراجعة مستمرة للبنية الأساسية وهو الأمر الذي لم يتمكن مجتمع قبل مجتمعنا نحن من القيام به. غالباً مايكون للدين طابع بنود المعاهدة في بعض مجتمعات ما قبل الحداثة. فالمدنية والثقافة قد عُدَّتا إنجازات قلقة محفوفة بالمخاطر، لذا ينبغي ألا تتعمد التهديد بإهانة آلهة الآباء. وهكذا فانه في العادة يقتصر التجديد في مثل تلك الأحوال على نخبة قليلة. من هنا يوضح مصير **سقراط** الذي حكم عليه بالموت في **أثينا** عام ٣٩٩ ق. م. إن إطلاق العنان لروح متسائلة بين الناس قد يكون أمراً خطيراً. لقد اتهم بالتحريف وإفساد النشء، وكان على النبي محمد مواجهة التُّهم ذاتها، إلا أنه استطاع النجاة من الموت بأعجوبة.

عندما كان يطالب المكيين بعبادة الله الواحد والتخلي عن عبادة الآلهة الأخرى إنما كان يطلب منهم تبني موقف جديد تماماً لم يكن كثيرون على استعداد لقبوله. لقد رأينا أن العقيدة التوحيدية لم تطلب موافقة فكرية فقط، بل كانت تطالب بتحول في الوعي. جاء طلب محمد ليبثَّ خوفاً عميقاً لأنه كان يهدد المقدسات التي اعتقد الناس أن وجود المجتمع ذاته كان يعتمد عليها. ولقد مر المسيحيون الأوائل بتجربة مماثلة في الإمبراطورية الرومانية حيث لم يكونوا ينظرون إلى التقدم كمسيرة إلى الأمام في المستقبل لا خوف منها بل كعودة إلى ماضٍ رُفِعَ

إلى مرتبة مثالية. فالآلهة الوثنية في روما كانت هي حارسة الدولة. فإذا ما أهمل الناس عبادتها فإنها سوف تسحب حمايتها. لا يعني هذا أن الوثنية الرومانية لم تكن ديناً متسامحاً. فطالما لا تزعم آلهة جديدة أنها تحل مكان الآلهة السلفية عند الرومان كان يتمتع عابدوها بحرية دينية تامة. دائماً كان هناك متسع لعبادة جديدة، وغالباً ما كان الناس ينتمون إلى مذاهب مختلفة. لقد كان التحول الجذري إلى دين مع رفض لبقية الأديان أمراً لم يسمع به أحد من قبل. صحيح أن اليهود عبدوا إلهاً واحداً وأدانوا عبادة الأصنام، لكن الجميع كانوا يعرفون أن اليهودية دين قديم وبالتالي كانت تحظى بالاعتراف والاحترام. وقد حظي المسيحيون بالقدر نفسه من التسامح طيلة الفترة التي كانوا يُعتبرون فيها أفراداً في الكنس اليهودية. لكنهم (أي المسيحيين) عندما أوضحوا أنهم لايلتزمون بالشريعة اليهودية القديمة اتهموا بعدم التقوى وتحقير دين الآباء، كما اتهموا بالإلحاد لرفضهم عبادة آلهة روما. لقد انتهكوا محرماً عندما رفضوا أن يقدموا للآلهة الوثنية نصيبها، فاعتقد الناس أنهم سوف يسببون كارثة، لذا أمر الأباطرة المتعاقبون باضطهاد المسيحيين درءاً لهذه الكارثة. لقد أوضح العذاب المرعب الذي تعرض له الشهداء المسيحيون إلى أي مدى كانوا يهددون الروح الرومانية. فقد قدمت أجسادهم التي شوهها التعذيب أضحية إلى الآلهة لإثبات عدم موافقة الناس ككل على هذه النزعة الإلحادية.

فإذا كانت هذه هي الحال في الإمبراطورية الرومانية القوية فمن السهل أن نرى أن قريشاً ستشعر بالضيق حتى أعماقها من «إلحاد» محمد، طالما أنه رفض أن يقدم للآلهة القديمة ما تستحقه. لقد كانت حياة الترحال محافِظَة، تحديداً لأنها كانت محفوفة بالمخاطر. فما من أحد كان يحلم حتى بالخروج على السبل التراثية ليشق طريقاً جديداً إلى ينابيع الأسلاف. لم يكن يفصل بين قريش وحياة السهوب سوى جيلين، ولا بد أنها كانت تشعر أن نجاحها التجاري كان هشاً على الرغم من تبجُّحهم بسعة الحال . كان القرشيون مثل الرومان يقدرون عالياً تواصلهم مع الماضي، واعتقدوا أن نجاحهم كان يعتمد على احترام تراثات آبائهم. من هنا نجد محمداً في القرآن والمصادر الأولى متهماً من قبل أعدائه في أنه يمثل خطراً على

المجتمع، وإهمالاً لدين الآباء وإلحاداً، فكانت بذلك العقدة العاطفية ذاتها التي عانت منها الجماهير في الملاعب الرومانية الممتلئة سعاراً وخوفاً.

لقد حاول بعض المدافعين عن العقيدة المسيحية الوصول إلى الوثنيين كي يبينوا لهم أن دينهم لم يكن بدعة مجدفة: فاللاهوتي الفلسطيني الشهير **جوستين** Justin كتب دفاعين (١٥٠ و١٥٥م) لإثبات أن المسيحيين كانوا على خطا أفلاطون والفلاسفة المبجلين الآخرين الذين آمنوا بإله واحد فقط. ويشير القرآن إلى لحظة يبدو فيها أن محمداً قد حاول الوصول إلى القرشيين ليهدىء من مخاوفهم، آملاً في إعادة إرساء علاقات ودية معهم، فالله يُذكِّرُ محمداً:

> **﴿وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً[٤]﴾.**

لقد اعتقد بعض العلماء في الغرب أن هذه الآيات تشير إلى الحادثة المعروفة باسم «آيات شيطانية» فقالوا إن محمداً قدم تنازلاً مؤقتاً للشرك.

فالقصة كما وردت في تاريخي **ابن سعد والطبري** تقول إن الشيطان ـ في إحدى المناسبات ـ تدخّل على تلقي محمد لكلمة الله. إذ بينما كانت السورة ٥٣ (سورة النجم) تُوحَى ـ شعر محمدٌ أنه قد أُلهم أن ينطق آيتين أعلنتا أن بالإمكان تبجيل الآلهات الثلاث: اللات والعزى ومناة كوسيطات بين الله والإنسان. لكن بما أن قريشاً كانت تعتبر بنات الله كائنات إلهية فقد اعتقدت مخطئة أن القرآن قد وضعهن مع الله في المستوى ذاته. واعتقدت أن محمداً قد قبل بأن آلهتها لها مركز مساوٍ لمركز الله، لذا انحنت لإقامة الصلاة مع المسلمين وبدا أن النزاع بينها وبين المسلمين قد انتهى. وهكذا فقد بدا للقرشيين بما أن القرآن قد صدّق على تقوى آبائهم فقد تخلى عن رسالته التوحيدية وبالتالي لم يعد القرشيون يرون في الإسلام تهديداً وتدنيساً للمقدسات، الذي يحتمل أن يجلب كارثة على سكان مكة. وتروي القصة أن محمداً تلقى فيما بعد وحياً آخر مفاده أن هذا القبول الظاهري للإيمان ببنات الله قد ألهمه الشيطان، وبالتالي فقد تم حذف الآيتين من القرآن وحلت محلهما آيتان أعلنتا أن هذه الإلهات الثلاث هي من اختراع مخيلة العرب ولا تستحق العبادة مطلقاً.

ينبغي أن نوضح هنا أن كثيراً من المسلمين يعتقدون أن هذه القصة مشكوك في صحتها ويشيرون إلى أنه لا توجد إشارة واضحة إليها في القرآن، ولا يذكرها ابن إسحاق الذي تُعدُّ سيرته عن حياة محمد الأكثر وثوقية. ولا يرد ذكرها في مجموعة الأحاديث النبوية التي جمعها البخاري ومسلم في القرن التاسع. جدير بالذكر أن المسلمين لا يرفضون التراث لمجرد أنهم لا يستطيعون تفسيره نقدياً انما يرفضونه إذا لم يكن محققاً بشكل كاف. أعداء الإسلام الغربيون تشبثوا بالقصة كي يوضحوا عدم مصداقية محمد الظاهرة: إذ كيف يتسنى لرجل غيّر كلمة الله المقدسة أن يزعم أنه نبي حقاً؟ بالتأكيد يستطيع أي نبي حق أن يميز بين الوحي الإلهي والإلهام الشيطاني. فهل يتلاعب رسول الله بوحيه كي يجذب إليه المزيد من المؤمنين؟ مع ذلك حاول باحثون حديثون مثل **مكسيم رودنسون، ومونتغمري واط** تبيان أن القصة حتى كما هي بين أيدينا لاتشير بالضرورة إلى تفسير سلبي كالذي قدمه آخرون، مع ذلك بقي للحادثة أهمية كبيرة في العالم الغربي أكثر من أهميتها في العالم الإسلامي على الأقل حتى عام ١٩٨٨ .

فمنذ نشب النزاع الذي أثارته رواية **سلمان رشدي** /آيات شيطانية/ التي نشرت عام ١٩٨٨، اتخذت القصة أهمية جديدة. لقد احتج المسلمون لأن الرواية تقدم محاكاة ساخرة لحياة النبي محمد، وأنها تكرر جميع الأساطير الغربية القديمة عن النبي التي تجعل منه دجالاً، وذا مطامع سياسية محضة، وفاسقاً استخدم الوحي كجواز مرور له ليتخذ لنفسه قدر ما يشاء من الزوجات، وأن أصحابه الأول كانوا غير إنسانيين ولا قيمة لهم. ويرى المسلمون بامتعاضٍ شديد أن الرواية تحط من شأن القرآن. إنهم يشعرون أن حادثة الآيات الشيطانية التي اتخذها رشدي عنواناً لروايته قد استخدمها لإظهار أن كتاب المسلمين المقدس غير قادر على التمييز بين الخير والشر مثلما زعم دائماً النقاد الغربيون، إنه يزعم أن الإيحاءات البشرية المحضة أو حتى الإيحاءات الشريرة هي إرادة الله.

لقد أعلن كثيرون من مؤيدي رشدي البلغاء أن الإسلام كان ديناً يمنع حرية البحث والإبداع (هكذا!) علماً أن المسلمين الأوائل قد أسسوا حضارة عظيمة، لها جمالها الرائع، وأسسوا تراثاً فلسفياً عقلانياً كان مصدر إلهام للعلماء في الغرب أثناء

العصور الوسطى. حقيقة أن لوحات رشدي الخيالية للنبي وأصحابه الأوائل لم تقدم للقارىء كحقيقة بل رُؤىً حُلْمية لإحدى الشخصيات التي تعاني من إنهيار نفسي. فغبرييل فريشتا النجم السينمائي الهندي أصبح مقتلعاً وفقد جذوره الثقافية، ومن أجل توليف مشكلته مع الغرب تماهى في أعماقه الداخلية مع صورة الحقد والكراهية، تلك الصورة التي لفقها الغرب طوال ألف سنة.

لقد نكأ هذا النزاع الحديث بين الغرب والعالم الإسلامي جروحاً قديمة، لذلك من الأهمية بمكان أن نوضح ما الذي كانت تعنيه حادثة الآيات الشيطانية فعلاً، هذا إذا كانت قد حدثت حقاً. هل كان محمد مستعداً للمساومة في رسالته التوحيدية كي يجتذب إليه المزيد من الأتباع؟ أيُلَوَّث القرآن ولو إلى حين بتأثير شر مطلق؟ لقد دافع رودنسون وواط وقالوا بأن نص القصة لا يُعطي مبرراً لأحد ليعتبر النبي محمداً دجالاً سافراً. وعندما نعود إلى الطبري الذي يقدم لنا روايتين مختلفتين للقصة في تاريخه وفي تعليقه على القرآن فإننا نراه يأخذ في اعتباره ظروف القطيعة النهائية بين محمد وقريش. يقول في البداية إن قريشاً كانت على استعداد لقبول رسالة محمد، ويستشهد بتراث قديم لشخص يدعى عروة بن الزبير أحد أقارب محمد البعيدين، الذي كتب عن محمد بعد نحو سبعين سنة على وفاته، مؤكداً على النجاح الأولي الذي حققه محمد. يقول عروة لم تتخل قريش عن محمد في البداية «بل كانت تصغي إليه». فطالما بقي يدعو إلى عبادة الله، والاهتمام بالفقراء والمحتاجين، كان كل امرىء في مكة مستعداً للتكيف مع هذه العقيدة الإصلاحية لدين الله العلي. لكن ما إن أكد أن عبادة الله يجب أن تحول دون عبادة آلهة الأسلاف القديمة حتى ردت عليه بعنف مبدية عدم موافقتها على ما قاله، وأثارت ضده أولئك الذين تبعوه، عدا من أبقاهم الله آمنين وكان عددهم قليلاً. ففي ليلة واحدة أصبح الإسلام أقلية مكروهة. ويضيف عروة أحد التفاصيل الهامة التي تبين أن القرشيين الأوائل الذين ثاروا على محمد هم أولئك الذين كان لديهم ممتلكات في الطائف، مدينة اللات(٥).

كثير من القرشيين كانوا يحبون الهروب من حر مكة اللاهب إلى الطائف، اذ كان لديهم مصايف في مدينة اللات الواقعة في منطقة أكثر خصوبة وبرودة في

الحجاز. ولا بد أن لمقام الإلهة أهمية لديهم، وكانوا يؤدون شعائرها هناك أثناء غيابهم عن الكعبة. عندما منع محمد قبيلته من عبادة اللات تَمَلَّكهم الخوف والاضطراب دونما شك لأنه عرض مكانة القرشيين في الطائف للخطر. ويستشهد الطبري برواية المدعو **أبي العالية** ليوحي أن قريشاً تضايقت بما يكفي كي تحاول التوصل إلى اتفاق مع محمد: فإذا ما وعد بالقيام ببضع إشارات توفيقية بما يتعلق ببنات الله فإن قريشاً تقبل به في مركز السلطة المكية. وبالتالي يقال إن محمداً تلا الآيتين اللتين تمدحان اللات والعزى ومناة كشفيعات، غير أنه أدرك لاحقاً أنهما كانتا من إلهام الشيطان(٦).

لكن هذه الرواية متعارضة مع القرآن ذاته ومع المأثورات الأخرى. وينبغي أن نتذكر أن مؤرخاً مسلماً كالطبري لا يوافق بالضرورة على جميع الأقوال التي يُدوِّنُها: إنه يتوقع من القارىء أن يقارنها كي يقرر مقدار صحتها. لم يكن محمد ـ في هذه المرحلة المبكرة من حياته النبوية ـ مهتماً بالسلطة السياسية، ولذلك فإن هذه القصة التي يرويها **أبو العالية** غير محتملة. فالقرآن ـ كما رأينا ـ ينكر أن يكون لمحمد وظيفة سياسية في مكة في هذه الفترة، وسيرفض لاحقاً اتفاقات مماثلة مع وجهاء قريش دون أن يتردد ولو لثانية.

يحفظ الطبري في تاريخه رواية أخرى تأتي على عرض الحدث بشكل مختلف تماماً. تصور هذه الرواية محمداً وهو يبحث في نفسه كي يجد حلاً للنزاع مع قريش. إنه لم يكن لينزلق في إشارة تملق لبنات الله كي يحصل على مكسب مادي كما توحي الرواية الأخرى. وفي الرواية الثانية هذه يبين الطبري أن محمداً كان يصغي إلى حل إبداعي حقاً يصالح قريشاً مع رسالته التوحيدية:

> عندما رأى النبي تولِّي قومه عنه وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدَّث بذلك نفسه وتمناه وأحبه فأنزل الله عز وجل ﴿**والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى...**﴾(٧).

يقول الطبري إنه بينما كان يفكر في الكعبة ذات يوم تهيأ له أن الإجابة تأتي في وحي يفسح المجال أمام الإلهات الثلاث دون أن يساوم على نظرته التوحيدية. كان قرشيون كثر جالسين عند الكعبة عندما أوحيت إليه السورة ٥٣ فانتصبوا جميعاً واستمعوا بإمعان عندما بدأ محمد بتلاوة هذه الكلمات(*):

﴿أفرأيتم اللّات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾

وهنا ألقى الشيطان على لسانه ما كان يُحدِّث به نفسه، ويتمنى أن يأتي به قومه [تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى(٨)].

فوفقاً لهذه الرواية سُرَّت قريش بالوحي الجديد. وربما كانت الغرانيق هي نوع من طيور الكركي Numidion التي كان يعتقد أنها تطير إلى مسافة أعلى من أي طائر آخر. فمحمد الذي ربما آمن بوجود بنات الله مثلما آمن بوجود ملائكة أو جنٍ كان يضفي على الإلهات إطراء رقيقاً دون أن يساوم على رسالته. لم تكن الغرانيق مع الله في مستوى واحد، ولم يقترح أي امرىء أن تكون كذلك ـ لكنها تحلق بين السماء والأرض لدرجة أنها تصلح أن تكون وسيطات أكفاء بين الله والإنسان مثل الملائكة التي تقبل في القسم التالي من السورة ٥٣(٩). أذاعت قريش النبأ السعيد في أرجاء مكة: «قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلى وإن شفاعتهن تُرتجى»(١٠).

من المحتمل أن يسيء الذين ترعرعوا في العالم المسيحي فهم كلمة الشيطان كما أشير إليها في هذه الحادثة. لقد أصبح الشيطان رمزاً لشر عظيم في العالم المسيحي، لكنه في القرآن والكتب اليهودية المقدسة شخصية أكثر قابلية للانقياد. فيقول القرآن في معرض وصفه لهبوط الشيطان من السماء إنه بعد أن خلق الله الإنسان أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لكن الشيطان (أو إبليس) المعربة من الكلمة اليونانية ديابولوس Diabolos(**) رفض ذلك فطُرِد من الحضرة الإلهية. ولا يرى

(*) ـ يمكن مراجعة القصة في تاريخ الطبري الجزء الثاني (تاريخ الأمم والملوك) ص ٣٣٨ ـ ٣٤١ طبعة دار سويدان بيروت . (الناشر)

(**) ليس هناك ما يؤكد هذا التعريب.

القرآن هذا كذنب بدئي مطلق، بل يدل على أن الشيطان سينال المغفرة في يوم القيامة[١١]. ولقد بلغ الأمر ببعض المتصوفين حدَّ القول: إن الشيطان قد أحب الله أكثر مما أحبته الملائكة الأخرى لذلك رفض تعظيم مخلوق بإسلوب تبجيلي لايليق إلا بالله وحده. وهكذا فإن الحادثة المثيرة للجدل «آيات شيطانية» لا تعني أن القرآن كان مُدَنَّساً لحظياً بِشَرٍّ حقيقي. فالإسلام لا يقر بمعتقد الهبوط بمعناه المسيحي. اذ أن القرآن يخبرنا أن آدم قد استسلم لإغواء الشيطان، وقد اعتبر المسلمون ومعظم اليهود هذه الممارسة من الإرادة الحرة مرحلة ضرورية للتطور البشري. لقد أصبح آدم أول الأنبياء، على الرغم من أنه كان مذنباً بزلة «شيطانية»، ولم يصبح الشيطان أبداً المدمر للجنس البشري. ويجب أن نضع هذا الفارق المعنوي في اعتبارنا عندما نسمع بعض المسلمين يشيرون اليوم إلى أمريكا بأنها «الشيطان الأكبر». ويعتبر الشيطان في الشيعية الشعبية مخلوقاً تافهاً فقيراً كان قد رضي بأشياء تافهة بديلاً عن النعم الحقيقية للروح. كان كثيرون من الإيرانيين في عهد الشاه يرون أمريكا «المتفّه الكبير» الذي يحاول إغراء الناس كي يضلوا بنزعة مادية منحطة[١٢].

في مرحلة تالية، طلبت قريش من محمد القيام بتسوية: عبادة إله واحد إلى جانب عبادة آلهة أخرى. فمحمد وأتباعه يعبدون الله الواحد الأحد، بينما تعبد قريش آلهة الأسلاف إلى جانب عبادة الله العلي، ولكن محمداً كان يرفض دائماً. ففي القصة موضع اخلاف ـ التي حفظها لنا الطبري ـ يأتي نفي قاطع لتلك الآلهة ووجودها محل ما يُسمى «بالآيات الشيطانية». ويذكر المأثور أن جبريل جاء محمداً ذات ليلة وقال:

> **«ماذا صنعت يا محمد! لقد تلوت على الناس ما لم آتيك به من الله عزوجل، وقلتَ ما لم يُقل لك»[١٣].**

بعدئذ أُوحِيَت آيتان جديدتان حذفت بنات الله «كمجرد أسماء». فالإلهات كن تلفيقاً بشرياً، وليس لهن وجود:

> **﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم وما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى[١٤]﴾.**

هذا هو التحقير الأكثر جذرية للإلهات في القرآن، ولم يعد هناك مجال لتسوية بعد نزول هاتَيْن الآيتين في القرآن.

فالآيات الشيطانية حسب الكيفية التي ترد فيها القصة في تاريخ الطبري لا تعني أن محمداً كان يقيم تسوية سافرة. فالتراث يقول إنه شعر بالدمار حين علم أنَّ الآيات، التي نطقها كانت من وحي الشيطان وأنه وضعها على لسانه. لكن الطبري يقول إن الله أراحه حالاً بوحي أنزله يفيد بأن جميع الأنبياء السابقين قد وقعوا في «أخطاء شيطانية» مماثلة. فهذه لم تكن كارثة، إذ أن الله كان دائماً يحسم الأمور بإرسال آيات بديلة أعلى بكثير من الآيات التي ينبغي إهمالها. فهنا يقر القرآن بالمخاطر المتضمنة في مفهوم الوحي:

> **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم[١٥]﴾.**

قبلاً كان النبي الأول آدم قد استسلم لأحد اغراءات الشيطان، وكذلك ضَمَّن رُسُلٌ لاحقون آيات شيطانية عندما كانوا ينقلون كلمة الله إلى شعبهم. ولا يعني ذلك أن كتبهم المقدسة كانت ملوثة بآثار شريرة. فكثيراً ما استخدم العرب كلمة شيطان كي يشيروا إلى مغوٍ بشري فقط. لقد رأينا مقدار الصعوبة التي كان يجدها محمد في ترجمة الوحي بشكل صحيح. كان الخلط بين الاتجاه الخفي الأعمق للوحي بفكرة من عند المرء، أو التعبير عنها بكلمات خاطئة أمراً سهلاً. بالطبع لا يُعطي هذا ترخيصاً للنبي ليُغَيِّر في القرآن لصالحه. فالقرآن يبين أنه ما من إنسان يستطيع أن يبدل كلمات الله، ولو قام محمد بذلك لكانت النتائج قاتلة[١٦]. واذا ما حصل سوء فهم في حالة وحي ما إلى نبي ما فإن الله قادر على إصلاح ذلك. بمعنى بشري يمكننا القول إن محمداً كان يشعر بإلهام مستمر بينما كان يجلب القرآن إلى العرب. لقد كان إيحاءً مستمراً ورأى أحياناً مضامين جديدة في رسالته كانت تعدل بعضاً من رؤى سابقة.

هنا، في هذه المرحلة نشأ تأكيد جديد في رسالة محمد مشدداً على أن الوحدة الإلهية هي الجزء الأكثر أهمية في الوحي. ومن هذه الفترة أصبح داعياً متحمساً للوحدانية.

لقد بُدئ مؤخراً تقدير جمال الوثنية التراثية بآلهتها المتعددة وبالطريقة الشجاعة والصادقة التي تواجه بها المأساة والعذاب، رافضة الترف الذي يقدم حلاً نهائياً، فبالمقارنة تبدو العقيدة التوحيدية شمولية وأُحادية وهذا ما سبب كثيراً من المشكلات الفلسفية. وإذ أكّد مجمع الآلهة الوثنية على وجود سبلٍ متنوعة للحقيقة المطلقة نجد الإصرار التوحيدي علىأنه ليس هناك سوى سبيل واحد فقط، ويظهر هذا انعدام التسامح ولا يفسح مجالاً أمام اختلافات البشر. لكن يبدو أن تعدد الآلهة ينتمي إلى مرحلة من تطور الجنس البشري لم يكن قد توحد فيها الوعي تماماً، أي عندما كان العالم والكون يحتويان عدداً من عناصر مختلفة ليست في حالة انسجام تام دائماً. فعندما يبدأ الرجال والنساء يرون أن في كل منهم وحدة لا تنفصم، وعندما يبدو أن الكون قد أصبح وحدة واحدة تسيرها قوة مشتركة فإن الناس يبدؤون التحول إلى الحل الوحداني. فالآلهة القديمة تصبح مجرد جوانب للوجود المطلق أو الحقيقة المطلقة أو بكلمات توحيدية تقليدية: مجرد صفات لله.

وهذا ما يمكننا رؤيته في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية. فتجربة العيش ضمن كيان سياسي كبير ساعد الناس على رؤية العالم المعروف ككل واحد: آلهة وعبادات محلية مرتبطة بمنطقة محددة بدت الآن غير كافية. لقد بدأ المزيد من البشر يرون أن الله واحد، مثلما قال الفلاسفة الإغريق العظام. لقد كان ذلك انتقالاً مؤلماً كما رأينا فبعض الناس كانوا أكثر استعداداً من آخرين لتغيير جذري لا بد منه باتجاه الدين التوحيدي. لقد ظلت الوثنية مزدهرة مدة طويلة بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي للإمبراطورية الرومانية في مطلع القرن الرابع.. وكان هذا الحل المحدد للوحدانية يعني أن يُنَحّي الناس الماضي المقدس جانباً، ووجد بعضهم أن القطيعة في الاستمرارية أمر مزعج لهم حتى الأعماق. وفي الجزيرة العربية كانت الكارثة مماثلة في مطلع القرن السابع. لقد أثر المشهد السياسي على الجانب الروحي والشخصي عند العرب: كانت تحيط بهم امبراطوريتان كبيرتان، وكانوا مدركين لوجود عالم موحد خارج الصحراء العربية. لقد بدؤوا يرون أنفسهم أفراداً بحقوق ومسؤوليات غير قابلة للتحول، فكان ذلك يعني أن الناس كانوا يحسون بالوعي كوحدة أساسية بحد ذاته. لقد بدأ يتضح أن النظام القبلي القديم الذي كان يعني أن تمضي كل قبيلة في سبيلها لم يعد كافياً بل وكارثياً ولا يتماشى مع ظروف الحداثة. وتوضح

قصة الأحناف استعداد بعض العرب لتقبل الوحدانية، لكن ثمة آخرون لم يكونوا على استعداد للقيام بالقطيعة الجذرية مع الماضي، ولفقدان تلك الاستمرارية التي كانت أمراً مركزياً في روحانياتهم القديمة.

فإذا كان صحيحاً أن إحساس النبي محمد بمهمته قد بدأ يتسع فلا بد أنه كان أكثر إدراكاً لحاجة العرب كي يجدوا بؤرة تركيز مشتركة. فالوحدانية هي أساساً معادية للقبلية: إنها تتطلب أن يتوحد الناس في جماعة واحدة. وفي النهاية سيرى محمد الوحدة العربية مثلاً أعلى هاماً. وفي عام ٦١٦ - أي عندما حدثت قطيعة خطيرة مع قريش - كان أكثر إدراكاً للحاجة الدينية كي يجد حقيقة متعالية واحدة خلف آيات الطبيعة الشديدة التنوع. فالآيات التي حلت محل الآيات الشيطانية قد قالت إن الآلهة القديمة مجرد إسقاطات بشرية، وليست في المستوى نفسه مع الله المتعالي الذي يتجاوز كل تصوراتنا المحدودة. لكن معظم الجدل اللاهوتي ضد شركاء الله أو مقربيه يؤكد على عدم فعالية الآلهة الوثنية، بالطريقة نفسها التي عولجت فيها الفكرة نفسها في الكتاب اليهودي أي اللاجدوى من جعل هذه الآلهة مركز عالمك لأنها لا تجديك نفعاً ولا ضرراً. إنها لا تستطيع أن تؤمن لعابديها الطعام وسبل البقاء(١٧)، وهي وسائط لا أمل يرتجى منها، وفي الآخرة لن تكون قادرة على مساعدة الرجال والنساء الذين وضعوا ثقتهم بها(١٨). كانت الآلهة مجرد مخلوقات مثل الرجال والنساء والملائكة والجن التي لا تستطيع أن تقدم عوناً جذرياً. فهنا يبدو ثمة تشابه مع بعض المزامير العبرية التي لم يكن يتسنى لمحمد قراءتها، لكن آلية الجدل نفسها اسْتُخْدِمت:

> **﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كِيدونِ فلا تُنْظِرون. إن وليي الله الذي نَزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون(١٩)﴾.**

يُصوِّر القرآن بشكل أساسي هذا الله المتعالي بكلمات عربية: لقد وُصِف بكلمات قبلية كالزعيم القوي الذي يقدم الحماية والمساعدة بينما كانت الآلهة

القديمة مثل زعماء قبائل ضعفاء جداً ليس باستطاعتهم تقديم العناية لأفراد قبائلهم، ولسوف تغدو الوحدة المقدسة هي الأساس للروحانية المسلمة التي تصبح سعياً لتحقيق هذه الوحدة في حياة الفرد الخاصة وفي المجتمع. لقد كانت جهداً مستمراً لبلوغ تكامل شخصي يعطي إحساسات حميمية بالله الواحد في هذه التجربة لإيجاد مركز واحد وهدف في الذات الكاملة حقاً. فالجزء الأول من الشهادة يلخص النية الشخصية لكل مسلم: «أشهد أن لا إله إلا الله» وبالتالي فإنها تمنع المسلمين من تبجيل الإلهات مثل اللات والعزى ومناة، ولا تسمح للمنافع الظاهرية الأخرى أن تشتت انتباههم عن التزامهم بالله. فذنب الشرك بالله يحذر المسلمين من تبني مثل عليا بشرية مهما كانت جيدة بذاتها، مهما تكن ذات أهمية كبرى لئلا تغدو أصناماً.

بعد القطيعة النهائية مع قريش نزلت سورة الإخلاص التي يرددها المسلمون كثيراً في صلواتهم مذكرة بأحدية الله التي يجب أن يحسوا بها في حيواتهم من خلال تكامل شخصياتهم، جامعين قواهم المبعثرة، ويجدون أولوياتهم الأكثر عمقاً:

﴿قل هو الله أحد. الله الصَّمَد. لم يَلِدْ ولم يُولد ولم يكن له كُفوَاً أَحَدٌ﴾.

لم يكن كثيرون من قريش على استعداد للقيام بهذه القطيعة الجذرية مع الماضي والتخلي عن مقدساتهم القديمة وتركها تمضي لشأنها، وبالتالي يبدو أن كثيرين من أتباع محمد قد ارتدوا، وبدأ بعض من أعتى القرشيين حملة للتخلص منه. لقد عدّوه مرتداً عن دينهم، ملحداً وعدواً لما هو أكثر قداسة عندهم ولقيم مجتمعهم التي يجب ألَّا تنتهك. ذهب وفد إلى **أبي طالب** طالباً إليه رفع حمايته عن محمد لأنه لم يكن أحد يستطيع البقاء في الجزيرة دون حماية. ربما كان نظام القبيلة قد انهار، لكن القبيلة أو العشيرة كانت هي الوحدة الأساسية في المجتمع، وكانت الحياة خارج هذه الجماعة أمراً محالاً. كان بالإمكان قتل رجل بلا حماية دون أن يترتب على ذلك عقوبة. ذكّر الوفد أبا طالب بواجبه تجاه قريش كلها:

> «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّهَ أحلامنا وضلّل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه»[٢٠].

كان الموقف شديد الحساسية. فأبو طالب كان يحب محمداً لكنه بالتأكيد لم يكن يريد أن يؤلب عليه العشائر الأخرى كلها. لم يكن مسلماً وكان قلقاً حول إدانة محمد للدين القديم، أمّا أن يُسلِّمَ ابن أخيه كي يقتلوه فهذا يعني فشله كزعيم عشيرة في تقديم الحماية لأحد أفراد عشيرته. وسيكون ذلك ضربة كبيرة لمكانة بني هاشم التي سبق أن تدنت إثر أوقات عصيبة مرت بها. لقد رفض أبو طالب أن يلزم نفسه فقدم إجابة ملتبسة مستخدماً لغة (الدبلوماسية) اللطيفة، فمضى محمد يتابع دعوته تحت حمايته.

عادت **قريش** بعد فترة وجيزة إلى **أبي طالب** مهددة:

> «والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكُفَّهُ عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

شعر القرشيون أنهم كانوا يحاربون من أجل طريقتهم في الحياة التي كانت تُلَغَّمُ يومياً. كانوا قد أدركوا مسبقاً أنه لا وجود لإمكانية المساومة، وأن طرفاً واحداً فقط هو من سيفوز. اغتم أبو طالب فدعى محمداً إليه، وقال له متوسلاً: «لا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق» فأجابه النبي والدموع تملأ عينيه بعدما ظن أن عمه يوشك أن يتخلى عنه:

> **«والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته» .**

ثم استعبر رسول الله ومضى. فناداه أبو طالب حالاً وقال له:

> **«اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»**(٢١).

وهكذا نعم محمد بالسلامة لفترة من الزمن،فما من أحد كان باستطاعته أن يمسه طالما كان أبو طالب حاميه.

كان أبو طالب واحداً من أفضل الشعراء موهبة في مكة: كتب أشعاراً عاطفية شاجباً جميع العشائر التي كانت تقليدياً حلفاء لبني هاشم لكنها انضمت إلى القوى المعادية لها بسبب محمد. أعلنت عشيرة المطلب تضامنها مع بني هاشم التي

تربطها بها صلة قربى، لكن سرعان ما تلا هذا النبأ السعيد ردة محزنة. كان **أبو لهب** عدواً لمحمد منذ البداية، ولإصلاح ذات البين بينه وبين محمد خطب لولديه ابنتي الرسول **رقية وأم كلثوم**. لكن بعد أن رفض محمد الاعتراف ببنات الله قرر أبو لهب أن يتحالف مع قريش وأجبر ولديه على أن يطلقا زوجتيهما. فتقدم الشاب الوسيم المسلم عثمان بن عفان طالباً يد رقية إذ أنه كان معجباً بها منذ زمن لأنها كانت أجمل بنات محمد.

وطّد **أبو لهب** علاقاته قدر استطاعته مع أعداء محمد الرئيسيين وعلى رأسهم **أبو الحكم** ابن أخ **الوليد** زعيم **بني مخزوم** المُسِن الذي أصبح زعيم المعارضة ضد محمد فأسماه المسلمون «**أبا جهل**». لقد كان شخصية طموحة وربما شعر بالغيرة من مقدرة محمد السياسية، لكنه كان متضايقاً جداً من رسالته الدينية. هناك زعماء آخرون انضووا تحت لوائه مثل **أبـي سفيان** زعيم عبد شمس الذي كان داهية وكان فيما مضى صديقاً شخصياً لمحمد. كان والد زوجة أبي سفيان **عتبة بن ربيعة** وأخوه **شيبة** في النسق الأول من المعارضة، وكذلك كان **أمية بن خلف** البدين زعيم عشيرة **جمح** الطاعن في السن وانضم إليهم فيما بعد **سهيل بن عامر** زعيم بني عامر الوثني العنيد الذي كان معتاداً على القيام باعتكاف روحي. حتى هذه الفترة لم يكن سهيلٌ قد حسم أمره بعد، فربما كان معجباً ببعض الأفكار الدينية في رسالة محمد. كان يؤازر هؤلاء رهط من الجيل الأصغر سناً: **عمرو بن العاص** المحارب والدبلوماسي القوي، **خالد بن الوليد وصفوان بن أمية**، لكن أشد أعداء محمد عداءً كان **عمر بن الخطاب** الذي كان في السادسة والعشرين عندما حدثت القطيعة بين محمد وقريش. كان عمر ابنَ وَثَنِيٍّ متحمس هو الخطّاب الذي طرد أخيه من أمه **زيد الحنيف** من مكة عندما شوّه سمعة الدين القديم. كان عمر مثل أبيه، فبينما كان الآخرون يتوخون الحذر بالمكر القرشي المعروف كان عمر مستعداً للعنف.

جميع هؤلاء المعادين لمحمد خسروا أقارب لهم انتقلوا إلى معسكر المسلمين، وكان القرآن مستمراً في تقسيم الأسر بشدة. **فسهيل بن عامر** على سبيل المثال خسر ابنه الأكبر **عبد الله** واثنتين من بناته مع زوجيهما وثلاثة من أخوته، وابن عمه

وأخت زوجته سودة. لقد بدا أن محمداً كان يشكل نوعاً من عشيرة جديدة، معظم أفرادها من الشبان الذين رموا ولاءاتهم العائلية القديمة جانباً. ويحتمل أن خصوم محمد قد فهموا المعاني السياسية لرسالته قبل أن يراها هو. لقد استمر القرآن في التأكيد على أن ليس لمحمد وظيفة سياسية في مكة، لكن كان السؤال: إلى متى سيبقى إنسان يقول إنه يتلقى رسالات من الله، راضياً بقبول قيادة أفراد عاديين يتزايدون كهؤلاء؟ لقد بدا بعض من ألد أعدائه مقتنعاً أن لا أمل للمصالحة معه، إذن فطرف واحد هو من سوف ينتصر في هذه المعركة الحاسمة. ورأى رجال مثل **أبي جهل** وابن أخته الشاب **عمر** أنه ليس بوسعهم أن يروا إمكانية للتوصل إلى حل سلمي. لكن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا إلا القليل. فطالما أنّ محمداً يتلقى دعم أبي طالب فليس بمكنة أحد أن يقتله دون أن تطلب عشيرتا بني هاشم والمطّلب الثأر. ولذلك حاولت المعارضة المقاطعة والسخرية في البداية. كان بوسعهم مهاجمة العبيد والضعفاء دون عواقب، لكنهم كانوا مضطرين إلى استخدام أساليب أذكى مع أمثال محمد الذين يتمتعون بحماية كافية. فابن إسحاق يخبرنا عن سياسة أبي جهل العامة:

> «وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغري بهم في رجال من قريش إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرفٌ ومَنَعَة، أنَّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسفِّهنّ حِلْمك، ولنُفَيِّلنّ(*) رأيك، ولنضعن شرفَك؛ وإن كان تاجراً قال: والله لنُكسِّدَن تجارتك ولنُهلكنّ مالك؛ وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.»(٢٢)

أمّا الناس الذين عُذِّبوا أكثر من سواهم فكانوا من العبيد الذين ليس لهم قبيلة تحميهم. كان **أمية** ـ زعيم جمح ـ يأخذ العبد المسلم **بلال الحبشي** خارج مكة في الهاجرة ويربطه ويتركه معرضاً للشمس بعد وضع صخرة على صدره. إلا أن بلالاً بقي شجاعاً معلناً وحدانية الله ويصيح «أحد، أحد»، فكان صوته القوي يجلجل في أرجاء المكان كله. لم يحتمل **أبو بكر** ـ الذي كان يعيش بجوار المكان ـ رؤية بلال وهو يعذب فاشتراه من أمية وأعتقه. ويقال إنه حرر سبعة عبيد آخرين بالطريقة نفسها. كان ثمة بعض المسلمين من ذوي المكانة المرموقة يُعَذّبون على أيدي أُسَرِهم.

(*) لنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطِّئه .

فخالد بن سعيد الشاب الذي أسلم بعد الحلم الذي رآه حول الحفرة النارية، كان والده يسجنه ويمنع عنه الطعام والماء. وكانت عشيرة بني مخزوم تعامل أسرة الرجل المعتوق **عمار بن ياسر** معاملة سيئة إلى درجة أن أمه توفيت نتيجة لذلك.

قرر محمد أن يجد موطناً آمناً للمسلمين الذين كانوا يتعرضون لأسوأ أنواع العذاب، فطلب إلى **النجاشي** أن يؤويهم. وافق النجاشي على ذلك رغم العداوة القائمة بينه وبين مكة منذ عام الفيل. في عام ٦١٦ غادر نحو /٨٣/ مسلماً مع عائلاتهم مكة، وعلى رأسهم **عثمان بن مظعون** الذي كان موحداً وزاهداً قبل إسلامه. وذهب معهم **جعفر بن أبي طالب ورُقَيّة** مع زوجها **عثمان بن عفان.** ويرى بعض الدارسين الغربيين في العصر الحديث وجود أسباب أخرى لتلك الهجرة، أسباب لاتعود إلى الالتجاء، ورأوا أنها قد تكون محاولة من محمد لإيجاد خط تجاري مستقل لأولئك الذين كانوا يعانون من عقوبات أبي جهل التجارية. واعتماداً على قائمة أسماء المهاجرين، يشير هؤلاء الباحثون إلى احتمال وجود خلافات في الجماعة الإسلامية، ذلك لأن بعض المهاجرين من أمثال **عثمان بن مظعون وعبيد الله بن جحش** اللذين شقا طريقهما إلى الوحدانية ربما شعرا بالغيرة من تأثير بعض المقربين على محمد، من أمثال أبي بكر. لكن إذا كانت هذه الخلافات دافعاً عند البعض فمن المحال أن تكون خلافات خطيرة: فعبيد الله تحول إلى المسيحية أثناء وجوده في الحبشة، وعاد عثمان إلى مكة عندما أصبحت العودة آمنة، واستمر في ولائه لمحمد وأبي بكر.

كانت هذه المغادرة الجماعية تنذر بالخطر من جميع النواحي. لذا أرسلت قريش مبعوثَيْن إلى النجاشي بعيد وصول المسلمين بوقت قصير مطالبين بردهم إلى موطنهم. أخبَرَ المُوفَدان النجاشي بأن المسلمين قد جدَّفوا على دين المكيين وأنهم يقسّمون المجتمع، ويشكلون خطورة بالغة ولهذا ليس من المريح أن يوثق بهم. إثر ذلك جمع النجاشي المهاجرين المسلمين وطلب منهم أن يدافعوا عن أنفسهم. فأوضح له جعفر أن محمداً نبي الله الحق، وأن وحيه مصدّقٌ لما جاء به يسوع، وبدأ يتلو قصة مريم في القرآن:

> **﴿واذْكُرْ في الكتاب مرْيَمَ إذ انتَبَذَتْ من أهلها مكاناً شرقياً. فاتَّخذَت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّا. قال إنما أنا**

رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً. قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً[٢٣]﴾.

وما إن أنهى جعفر تلاوته حتى كان القرآن قد فعل فعله. فقد انتحب النجاشي وابتلت لحيته بالدموع وسالت على خدود أساقفته ومستشاريه حتى بللت اللفائف الورقية التي كانوا يمسكونها في أيديهم.

حاول الموفدان إثارة المتاعب عن طريق التلميح أن القرآن لا يقبل ألوهة المسيح، لكن النجاشي استمر في موقفه ورفض إبعاد المسلمين وإعادتهم إلى مكة. شعر مسيحيو الحبشة بالقلق من دعم النجاشي لأناس كانوا هراطقة كما بدوا، فكان عليه اللجوء إلى أساليب خفية لتبرير سلوكه هذا. لكن المسلمين كانوا قادرين على ممارسة دينهم بحرية طالما اختاروا البقاء في الحبشة. إن قصة المشروع الحبشي كما وصلتنا غير مكتملة: فلربما كانت لدى محمد خطة اقتصادية أو سياسية لم تلق النجاح، وعندما بدأ مؤرخون مثل ابن إسحاق بالكتابة كانت يد النسيان قد طوت هذه الخطط. فمن المحتمل أن الموفدين قد بيّنا للنجاشي أن المسلمين ليسوا جماعة قوية كما تخيل عند استقباله لهم، فلم يقدم لهم الدعم المأمول منذ تلك الفترة فصاعداً.

استمر أبو جهل وأعوانه في مضايقة النبي وأصحابه في هذه الفترة، إذ راحوا يبحثون عن اعتراضات جديدة. لماذا قرر الله أن يختار محمداً، ولم يختر رجلاً أكثر أهمية كالوليد مثلاً؟ ولماذا لم يقم محمد بمعجزات؟ ولماذا كان الله ينزل القرآن آية آية بدلاً من أن ينزله دفعة واحدة مثلما تلقاه موسى على قمة سيناء؟ ولماذا لم يرسل الله رسولاً له من أحد ملائكته بدلاً من بشري عادي؟ اعتقد بعض القرشيين أن محمداً تلقى تدريباً على يد اليهود أو المسيحيين عوضاً عن تلقي الوحي من الله ذاته. لكن جُلّ ماستطاعته قريش هو التذمر والاتهام. وبعد أن رحل معظم المسلمين الذين يمكن اضطهادهم اقتصر الاضطهاد على حظر تجاري وسوء معاملة. وقد نال محمد شخصياً مقداراً من هذه المعاملة السيئة: فعمرو بن العاص الذي كان أحد الموفَدَيْن اللذيْن أُرْسِلا إلى الحبشة، والذي لم يكن قد اعتنق الإسلام بعد، استذكر مناسبة أهين فيها محمد عند الكعبة. حدث ذلك عندما كان محمد يطوف بالكعبة وقادة قريش جالسين بالقرب منها يتذمرون منه:

«قالوا: مارأينا مثل ما صبرنا من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرّق جماعتنا وسبَّ آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم».

عندما أتم محمد الدورة الثالثة على إيقاع أصوات هذا «الكورس» كان وجهه قد اكفهرّ. بعدئذ توقف في مساره ونظر إلى منتقديه وقال:

> **«أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذّبح».**

صدمت هذه الكلمة الأخيرة من كانوا يقفون جانباً فأصمَتتْهم، لكنهم استعادوا تماسكهم في اليوم التالي. فقفزوا عليه حين ظهر عند الكعبة، وأحاطوا به مهددين، وأخذوا يشدونه من عباءته عند ذلك تدخل **أبو بكر** باكياً وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟» فتركوه[٢٤]. ويختتم عمرو بن العاص ماتَذَكّرَهُ قائلاً: **«فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط»**. لا بد أن الأمر كان مزعجاً ومدعاة للغضب في آن، لكن المضايقة لم تكن شديدة فخجل القرشيون من فعلتهم وأوقفوا العنف.

كان لهذا النوع من السلوك تأثير إيجابي لأنه كان يدفع ببعض الناس إلى الانضمام إلى محمد. فذات يوم أهان أبو جهل محمداً، غير أن محمداً لم يكترث له أويرد عليه بل تخطاه واتجه إلى منزله. وفي اليوم ذاته، في وقت متأخر أتى عمه **الحمزة** القوي إلى **الكعبة** إثر عودته من رحلة صيد وقوسه متدلية من كتفه، ويصف ابن إسحاق ذلك:

> **«كان الحمزة أقوى وأصلب رجل في قريش[٢٥]. وكان يحب أن يختتم يومه بالطواف الطقسي ثم التحدث إلى من يصادفه في الكعبة. فأخذته هذه المرة امرأة جانباً وروت له كيف أن أبا جهل قد اعتدى على محمد. لم يكن الحمزة مسلماً آنذاك، لكنه عندما سمع ذلك أصبح وكأن ناراً تشتعل في رأسه، فانطلق راكضاً إلى أبي جهل وضربه بقوسه على ظهره، هل تهينه وأنا على دينه؟. فاضربني إن تستطع. منعه أصحابه من الرد على الحمزة وما لبث أن اعترف «والله لقد أهنت ابن أخيه إهانة كبيرة»[٢٦]. لقد أثر**

إسلام حمزة على قريش، ولأسباب واضحة شعرت قريش أن من الأفضل لها أن تترك محمداً وشأنه.

كان القرآن نفسه سبب إسلام كثيرين. فأثناء الحج إلى الكعبة عام ٦١٦ عين أبو جهل أصحابه عند بوابات المدينة كي يحذر الحجاج من محمد. كان أحد هؤلاء الحجاج الشاعر **الطفيل بن عمر الدوسي**. لقد انتابه فزع كثير مما سمع الى درجة أنه أغلق أذنيه بالقطن كي يتأكد أنه لن يسمع ترتيل النبي. لكنه ما إن وصل إلى الكعبة ورأى محمداً واقفاً يصلي أمام الكعبة حتى شعر بالسخف فجأة فقال:

«واثُكْل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعرٌ مايخفى عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلتُه وإن كان قبيحاً تركته».

ثم تبع محمداً الذي شرح له الدين ورتل آيات من القرآن فدهش الطفيل وصاح قائلاً «فلا والله ماسمعتُ قولا قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه»[٢٧]. فأسلم وعاد إلى قبيلته، وخلال السنوات التالية أسلمت نحو /٧٠/ أسرة من قبيلته.

هكذا نَفَذَتْ جمالية القرآن الفائقة إلى مكنونات نفوس الناس. فقد أزاح طفيل حواجز الخوف بملء إرادته عندما نزع القطن من أذنيه. وكان آخرون قادرين على البقاء دون أن يتأثروا، وأن يبقوا المتاريس في أماكنها. فذات يوم قررت قريش أن تجرب طريقة جديدة فأرسلت **عتبة بن ربيعة** من عبد شمس لعقد صفقة مع محمد: إعطاءه المال والجاه والملك على أن يتخلى عن دعوته. فإذا كان هذا صحيحاً فإنه دلالة على يأسهم لأن المال كان ذا قيمة مقدسة عند معظمهم، وكانوا يكنون كراهية داخلية للسلطة العليا والمؤسسات كالملكية مثلاً. انتظر محمد حتى فرغ عتبة من كلامه ثم قال له: «إسمَعْ مني». فجلس عتبة ووضع يديه خلف ظهره متكئاً عليهما، وأصاخ السمع بينما كان محمد يتلو السورة /٤١/ التي تصف سداً كان يضعه القرشيون في قلوبهم كي يمنعوا دخول الرسالة الإلهية إلى قلوبهم:

﴿قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون[٢٨]﴾.

كثيراً ما يتحدث القرآن عن الحجب التي تجعل القلب قاسياً منيعاً ضد القوة الآمرة للرسالة. لم يكن عتبة مستعداً بعد كي يزيل مكنونات نفسه. عندما سجد محمد في نهاية تلاوته لم ينضم عتبة إليه، لكنه عندما رجع إلى أصدقائه في مجلس الشيوخ رأوا حالاً أنه قد مر بتجربة قوية جداً. لقد وجد عتبة صعوبة كبيرة في وصف ما حدث له عندما كان يستمع إلى جمالية الكلمات، فكان في وسعه فقط أن يقول أن لا مثيل لها. فقد كانت مختلفة تماماً عن أي نوع من الإلهام الذي عرفه العرب من قبل: إنه لم يكن شبيهاً بالشعر أو بتمائم ساحر أو نبوءات كاهن غير ذكية. ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه ما من أحد من خصومه اتهمه بتلفيق الإيحاءات: شيء غريب كان يحدث لدرجة أنهم لم يستطيعوا تفسيره. وفي النهاية حذر عتبة قريشاً:

«سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ، والله ما هو بالشعر ولابالسحر، ولا بالكهانة. يامعشر قريش اطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فمُلكه ملككم، وعزَّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به»[٢٩].

يستطيع المرء أن يقول أن محمداً ـ في مستوىً من المستويات ـ قد أتى بشكل أدبي جديدٍ كل الجدة. كان بعضهم مستعداً له بينما وجده آخرون مفحماً لهم ومربكاً. لقد كان جديداً جداً، وقوياً جداً في تأثيره إلى درجة أن وجوده بحد ذاته بدا معجزة بعيدة عن منال المقدرة البشرية العادية. لقد تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بمثله: فمزيته الفريدة هذه كانت إثباتاً على مصدره الإلهي[٣٠]. وحتى يومنا هذا يشعر المسلمون بحضور غامض عندما يرتلون القرآن أو يجلسون أمام آيات من القرآن تزين جدران مساجدهم. فالقرآن ـ كما رأينا ـ أمر مركزي في الروحانية المسلمة، مثل يسوع ـ كلمة الله ـ في المسيحية. وسيزعم بعض المسلمين في مرحلة لاحقة أن نطق «الكلمة غير المخلوقة» كان بكلام بشري عادي مثل اللوغوس «الكلمة» أو«المسيح» في مقدمة إنجيل القديس يوحنا. ولذلك فالقرآن هو أكثر من مجرد نقل معلومات قيمة، إنه رمز مماثل لرموز التوراة أو شخص المسيح أو الأسرار المقدسة التي اعتبرها الناس في تراثات أخرى آيات للمقدس في وسطنا.

لقد ألهمت فكرة نص أو عمل فني أو مقطوعة موسيقية تفضي إلى «حضور فعلي» أو تجربة تسام، ألهمت نقاداً كثيرين حديثاً مثل **جورج شتاينر وبيتر فوللر.** فعندما يتحدث ابن إسحاق وكُتّاب السّيَر الأوائل عن الإسلام وهو «يدخل قلب» شخص ما إذا ما استمع إلى القرآن متمعناً، محطماً مكنوناته من التحيز أو الخوف، فمن المحتمل أنه كان يقترح شيئاً مماثلاً للتجربة الجمالية التي يصفها شتاينر في كتابه **حضورات حقيقية**: أهناك أي شيء فيما نقول؟ فالذين يجدون صعوبة في رؤية أية جمالية في القرآن من المحتمل أنهم قد خبروا في تراثنا ما يدعوه شتاينر «طيش Indiscretion أو حماقة الفن الجاد والأدب والموسيقا. وهذا التوجه هو الذي «يُشكك في خصوصيات وجودنا الأخيرة». ويخبرنا شتاينر أن فناً كهذا يتطلب منا ضمناً أن «نغير حياتنا». إنها مواجهة مع بُعْدٍ متسامٍ يقتحم «المنزل الصغير لِوجودنا الحذر». ما نكاد نستمع إلى أوامر فن كهذا حتى يغدو هذا المنزل غير صالح للسكنى، لأنه «لم يعد كما كان من ذي قبل»(٣١*). إنَّ شتاينر لا يؤمن بالله، وهو يقترح أن الفن بالنسبة لكثيرين يمثل الإمكانية الوحيدة للتسامي في عالم ريبي. من الواضح أن هناك نقاط اختلاف هامة بين نظريته وتجربة المسلمين الذين شعروا أن حياتهم قد تحولت نهائياً بجمالية القرآن، لكن بينات هذه المواجهات الأولى مع كتاب الإسلام المقدس توحي بحساسية مماثلة غير مستقرة، يقظة ولمحة مزعجة لغنىً يخترق الحواجز الحذرة. قوبل كتاب شتاينر بترحيب لا بأس به عند نشره، وهذا يعني أنه كان يعكس تجربة كثيرين من قرائه، ونظريته قد تعطينا بعض المعرفة بالتأثير الكبير لهذا العمل الكلاسيكي الرائع في الأدب العربي. فمحمد كنبي مُوحى إليه، والقرآن كنص وتجلٍ لا بد أن يكونا أحد الأمثلة الأكثر إذهالاً على العلاقة الوثيقة بين التجربة الدينية والتجربة الفنية.

دون هذا الغزو أو «البشارة» ـ كما يسميها شتاينر ـ كان مرجحاً أن الجماعة المسلمة لم تكن قادرة على القيام بالقطيعة المرعبة مع الماضي، وانتهاكها للمقدسات العميقة، والتغلب على الانحياز الفطري. جمالية القرآن كانت تتجاوب مع شيء ما دفين داخلهم وكانت تشير إلى ما هو خارج نطاق النص، تماماً، مثل «الآيات» التي

(٣١*) ـ جورج شتاينر/ حضورات حقيقية: هل هناك أي شيء فيما نقول؟ /لندن ١٩٨٩) ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

يصفها. وهكذا تمكّن القرآن من بلوغ هذه الخصوصيات، وتشجيع المسلمين على تبديل حياتهم في مستوى أعمق بكثير من المستوى العقلاني. يقول المسلمون اليوم ان معجزة القرآن تكمن في قدرة استمرارية تأثيره على الناس حتى اليوم، وحتى على الذين يتكلمون العربية كلغة ثانية. فالعلامة الإيراني المعروف **سيد حسين نصر** يشير إلى أن القرآن ما يزال يطالب المسلمين بتغيير حياتهم وأن الآيات غير المترابطة، المجتزأة ـ خاصة الآيات في السور الأولى ـ تكشف عن لغة بشرية طُحِنَتْ تحت ثقل الكلمة الإلهية، وتكشف كذلك عن اضطراب حياة الفرد نفسه. فلكي يكتشف المسلم المعنى الرمزي الداخلي للقرآن، ينبغي عليه أن يتكامل في حياته. وقراءة القرآن أو الاستماع له ليست تجربة عقلية للحصول على المعلومات أو لتلقي توجيه واضح بل هي التزام روحي. فعملية التأويل (أي التفسير الرمزي) هي بحث عن معنى داخلي يطالب الفرد بوجوب نفاذ القرآن إلى أعماق وجوده. وكلمة التأويل حرفياً تعني رد شيء إلى بدايته أو أصله. فالقرآن أيضاً يطالب المسلمين عندما يواجهون النص المقدس أن ينتقلوا من ظاهر وجودهم إلى باطنه كي يكتشفوا قاعه ومصدره(٣٢).

من الطبيعي أن تكون التجربة مختلفة تماماً عند الشخص الغربي، إذ ليس فقط أن جمالية اللغة العربية تضيع عبر الترجمة بل يتطلب الأمر مقاربة غريبة عن الكثيرين منا. فإن يقصر المرء نفسه على قراءة ظاهرية عقلية دون الانتباه إلى مزايا اللغة العربية في البحث عن الذي لا يوصف والكامن خلف الكلام فستكون تجربته مجدبة، خاصة إذا تمت القراءة بروح عدائية أو من تعالٍ متخيل، مثلما وجدنا في حالة غيبون، فهذه ليست الروح المبدعة المنفتحة التي تستوعب أي نوع من التجربة الفنية.

في نحو عام ٦١٦ تسبب القرآن بحدث لم يكن ليخطر على بال. فبعد أن اتخذ عمر بن الخطاب قراره بأن الوقت قد حان لقتل محمد سار عبر أحياء مكة والسيف في يده إلى منزل عند سفح جبل الصفاة حيث كان يمضي النبي ـ حسب علمه ـ فترة مابعد الظهيرة. لم يكن يعلم أن أخته فاطمة وزوجها سعيد (ابن زيد الأحنف) قد أسلما، كانا قد علما أن عمر خارج البيت لذلك دعيا خباب بن الأرت الحدّاد المسلم إلى المجيء وتلاوة آخر سورة نزلت. وبينما كان عمر في طريقه

إلى جبل الصفاة قابل مسلماً مستتراً آخر من عشيرته(*)، فطلب منه هذا العودة إلى البيت ليرى ما يحدث فيه وذلك كي يصرفه عن هدفه الذي خرج من أجله. عاد عمر راكضاً، وسمع كلمات القرآن تنبعث من منزله فزمجر وهو يدخل منزله صائحاً: «ما هذه الهينمة التي سمعت؟». اختبأ خباب في غرفة علوية بينما كان عمر يصب جام غضبه على فاطمة وزوجها. فضربها ضربة أسقطتها على الأرض وسال الدم منها. شعر على إثرها بالخجل وتبدلت معالم وجهه. ثم التقط المخطوط الذي سقط من خباب على الأرض وبدأ يقرأ مطلع السورة /٢٠ (سورة طه)/. كان عمر أحد القرشيين القلائل الذين يقرؤون ويكتبون بطلاقة. فقال متعجباً: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمَه!». إن سول(**) Saul الطرسوسي هذا قد أسلم لا برؤيا يسوع الكلمة بل بجمال القرآن الذي نفذ عبر حقده القوي وتحيزاته وأثر في حسه الداخلي الذي لم يكن هو ذاته مدركاً له من قبل. وفي الحال أمسك عمر سيفه ثانية وركض عبر أحياء مكة إلى جبل الصفاة، واندفع إلى المنزل الذي كان فيه النبي محمد الذي لا بد أنه اعتقد أن الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع فأمسك عمراً من عباءته: «ما الذي جاء بك يا ابن الخطاب؟» فأجاب عمر: «يا رسول الله جئتُك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله»(٣٣). فكبّر محمد بصوت عالٍ فهم منه كل من في المنزل ما قد حدث بعد أن كانوا قد اضطربوا من قدوم عمر.

لكن ابن إسحاق ترك لنا رواية أخرى عن إسلام عمر جديرة أن نوردها هنا. كان عمر في جاهليته يشرب الخمر كثيراً، ولم يستمتع بشيء أكثر من شرب الخمر مع أصدقائه في السوق. وذات مساء لم يأت أي من رفاقه، لذلك أحب عمر أن يقوم بالطواف حول الكعبة لتمضية الوقت. فعندما وصل رأى محمداً واقفاً يتلو القرآن بصوت خافت فقرر عمر أن يسمع الكلمات. تسلل تحت أستار القماش الدمشقي الذي كان يغطي الكعبة ودار حتى أصبح واقفاً قبالة محمد ولم يعد بينهما «إلاّ ثياب الكعبة». وهناك فعل سحر اللغة العربية فعله: «فلما سمعتُ القرآن رقّ له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام»(٣٤).

(*) المقصود هنا هو نُعَيْم بن عبدالله

(**) يبدو أن الكاتبة تقصد بالمسلم سول، عمر بن الخطاب تشبيهاً له بسول الذي كان أحد تلامذة المسيح الذي آمن برؤيا يسوع الكلمة

لم يكن عمر رجلاً يؤمن بأنصاف الحلول. ففي صباح اليوم التالي قرر نقل النبأ إلى خاله أبي جهل فذهب إلى عرين الأسد مباشرة. فصاح أبو جهل مُرَحِّباً «مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟». ويخبرنا عمر: فأجبته إنني قد «جئت لأخبرك أنني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به». فصفق الباب بوجهي وقال: «قبّحك الله وقبّح ماجئتَ به»(٣٥).

كان إسلام عمر القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير، فكان يرفض الصلاة سراً بل كان يصلي أمام الكعبة على مرأى من الناس. ولم يكن أبو جهل وأبو سفيان يحتملان رؤيته، لكن لم يكن بوسعهما فعل شيء لأنه كان محمياً من قبيلته عدي.

حاول أبو جهل أن يُجَوِّعَ محمداً حتى يستسلم له، ففرض مقاطعة على عشيرتي **بني هاشم والمطَّلِب**، وتمكن من جعل جميع القبائل الأخرى توقع على معاهدة توحدها أمام التهديد الذي كان يمثله محمد. منع الزواج أو المتاجرة مع أي فرد من العشيرتين الخارجتين على القانون، ويعني هذا أن ليس لأحد أن يبيعهم الطعام. انتقل أفراد العشيرتين (هاشم والمطلب) وبقية المسلمين من غيرهما إلى الشعب الذي كان يسكنه أبو طالب كإجراء أمني فأصبح بذلك حيّ أقلية مصغراً. ولدى وصول محمد وخديجة ومن معهما إلى المكان خرج أبو لهب وأسرته ليقيم رسمياً في حي عبد شمس. دام الحصار سنتين. لقد رفض أبو طالب وبنو هاشم الذين لم يُسْلِموا بعد، التخلي عن أقاربهم وفقاً لمبدأ قبلي. لكن المقاطعة لم تكن شعبية، خاصة من قبل الناس الذين لهم أقارب من عشيرتي بني هاشم والمطلب، فلم يطاوعهم وجدانهم على تركهم يتضورون جوعاً حتى الموت. كان المسلمون من عشائر أخرى مثل **أبي بكر** و**عمر** يرسلون الطعام إلى الشِّعب بانتظام، مثلما كان يفعل أقارب آخرون. ف**هشام بن عمر** الذي كان له أقارب في عشيرة بني هاشم كان يجلب جملاً محملاً بالمؤن ليلاً إلى حي أبي طالب، فيلكز الجمل ويتركه يتجه إلى الشِّعب. ذات مرة أوقف أبو جهل **حكيم بن حزم** ابن أخ خديجة وهو في طريقه إلى الشِّعب ومعه صرة قمح في يده. فأخذا يتجادلان فانضم أحد المشاهدين(*) إلى حكيم في موقفه وقال لأبي جهل: «طعامٌ كان لعمته عنده، بعثت

(*) المشاهد هو: أبو البختري ابن هشام وسيلعب هذا المشاهد دوراً مهماً في فك الحصار عن المسلمين كما سيتبين بعد قليل.

إليه (فيه) أفتمنعه أن يأتيها بطعامها خلِّ سبيل الرجل؟» وعندما استمر أبو جهل في رفضه ضربه هذا المشاهد ضربة قوية بعظم جمل ألقته أرضاً.

كان باستطاعة محمد والمسلمين مغادرة الشِّعب والذهاب إلى الكعبة خلال الأشهر الحرم الأربعة التي كان يحرَّم فيها العنف. وهناك كانوا يتلقون إهانات جديدة. فزوجة أبي لهب التي تخيلت نفسها شاعرة كانت تحب ترديد أشعار مهينة للنبي أثناء مروره بصوت عالٍ كما كانت ترمي الأشواك في طريقه وهذا هو سبب نزول السورة /١١١/:

﴿تبّتْ يدا أبي لهب وَتَبَّ. ما أغنى عنه مالُهُ وما كَسَبَ. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حَمّالة الحطبِ. في جيدِها حبلٌ منْ مَسَدٍ﴾.

قد يجد من تربوا على تعاليم «موعظة الجبل» أنّ سلوك محمد لم يكن مهذباً لأنه لم يُدِرْ خده الآخر. لكن نجد في الأناجيل كيف أن يسوع يلعن أعداءه بكلمات واضحة. فقد تنبأ بمصير مرعب لبلدتي **بيت صيدا وكورزيم**(*) اللتين لم تستمعا لكلماته وفي إنجيل متى يقال إنه شتم الفريسيين والصدوقين في خطبة لاذعة كانت تشهيرية بشكل واضح.

في هذه الفترة راح كذلك ينساب تصلب جديد إلى القرآن: فهو يتنبأ باستمرار بكارثة تحل على مكة التي رفضت الاستماع إلى كلمة الله. ويبدو أن معرفة المسلمين لكتاب اليهود قد بدأت تتسع خلال هذه الفترة العصيبة. بدأ القرآن يسرد قصصاً جديدة عن أنبياء سابقين كي يواسي المسلمين، وهذا يعكس لذة الاكتشاف: فكثيراً ما تبدأ هذه القصص بـ: «هل أتاك حديث موسى؟» أو: «هل أتاك نبأ فرعون؟». فموسى كان النبي الأوسع شهرة في فترة الحظر. إذ يشير القرآن إلى أنه قد أنذر فرعون بضرورة الامتثال لكلمة الله لكن المصريين لم يستمعوا إليه فعاقبهم الله. لكن كان ثمة أنبياء آخرون قد أنذروا شعوبهم يوسف، نوح، يونس، يعقوب، ويسوع بأن عليهم أن يعيشوا حياة مستقيمة، وأن يخلقوا مجتمعاً عادلاً

(*) ربما وقع خطأ في النص الأجنبي فكتبت بلدة كورزيم بـ Korozaim والصواب هو كورزين (بالنون)، انظر انجيل متى الاصحاح الحادي عشر.

ومتسامحاً إذا أرادوا تجنب الكارثة القادمة. وضمَّن القرآن كذلك بعض الأنبياء الذين لم يرد ذكرهم في الكتاب المقدس مثل **هود وشعيب وصالح** الذين أرسلهم الله إلى الشعوب العربية البائدة **كعادٍ ومَدْيَنَ وثمودَ** بالرسالة ذاتها. كانت معرفة محمد بالكتاب المقدس ما تزال محدودة. فالشخصيات النبوية التي كان يجلها العرب في تراثهم وضعت جنباً إلى جنب مع أنبياء الكتاب المقدس وكأنما يحتلون مكانة مساوية. حقاً يرى القرآن أنَّ جميع الأديان الحسنة التوجه آتية من عند الله. لم يكن محمد مطَّلعاً على التسلسل التاريخي لظهور الأنبياء في الكتاب المقدس. فيبدو أنه ظن أن مريم أم يسوع هي نفسها مريم أخت موسى في الكتاب اليهودي. إنَّ قصص الأنبياء تعكس حالة محمد والمسلمين الأوائل أكثر مما تعكس الروايات الإنجيلية الأصلية حالة يسوع وتلامذته. وهكذا فقصة نوح تعطينا فكرة واضحة عن الصعوبات التي واجهها محمد مع زعماء مكة، والاعتراضات العديدة التي أبديت على نبوته:

> **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين[٣٦].﴾**

لكن القرآن ـ كما رأينا ـ يعتبر جميع هذه القصص «آيات»: عروضاً رمزية لعلاقات الله بالإنسان أكثر من كونها سرداً تاريخياً دقيقاً، ويحاول النفاذ إلى لب الرسالة عبر الأحداث في هذه القصص لأن العرب كانوا يعرفونها.

بعد أن تخلى قوم نوح عنه أمره الله أن يبني الفلك، ويغرق جميع الذين لم يستمعوا لتحذيراته. في هذه الفترة يصبح يوم الحساب حدثاً مخيفاً في القرآن: فالمؤمنون مفصولون عن سواهم في (السيناريو) الرمزي العظيم الذي هو «آية» بحد ذاته:

> **﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك يوم مجموعٌ له الناسُ وذلك يوم مشهود[٣٧]﴾.**

لكن القرآن يوضح الأمر بأن هذا العقاب ليس عشوائياً: فالمدن والناس الذين رفضوا الاستماع إلى تحذيرات الأنبياء قد جلبوا الدمار بأيديهم

﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيءٍ لمّا جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب. وكذلك أخذُ ربك إذا أخَذَ القُرى وهي ظالمة إن أخذَه أليمٌ شديد﴾[٣٨].

فمدينة مكة ستتعرض لكارثة لأن قريشاً رفضت أن تصلح نفسها وحياتها ورفضت أن تقيم مجتمعاً منسجماً مع الاستقرار الحق.

لم تكن رسالة القرآن كلها دماراً وهلاكاً في هذه الفترة. فهو يحض المسلمين على الصبر واحتمال العذاب الراهن بقوة وكرامة. ينبغي عليهم ألا يغتنموا الفرصة لثأر شخصي من أعدائهم. قصص أنبياء الماضي كانت عزاء لهم من خلال تبيان أن دينهم لم يكن بدعة شائنة مع أنهم كانوا يديرون ظهورهم إلى دين آبائهم، ولديهم تسلسل روحي يصل حتى آدم النبي الأول الذي علم البشر طريق العيش الصحيح. في هذه الأثناء كان واضحاً أن خصومة قريش لمحمد راحت تتصاعد بيانياً، حتى بالنسبة لمن هم أقل تآمراً من أبي جهل. فبعد فترة وجيزة من المقاطعة وصل وفد مصغر إلى محمد على أمل التوصل إلى حل سلمي. ترأس الوفدَ الرجلُ المُوَقَّر **وليد المخزومي** الذي كان مشرفاً على الموت، ولا داعي لأن يهدده محمد. وضم الوفد في عضويته ثلاث شخصيات قيادية من عشائر **سهم وأسد وجمح** التي كانت جميعها أعضاء في حلف الفضول. لعلَّ الموفدين رأوا أن المقاطعة ستعطي أبا جهل سلطة كبيرة في مكة، وربما أدركوا مقدرة محمد الأساسية، وشعروا أنه ربما يكون قادراً على إحياء أقدار العشائر الأضعف.

اقترح الوفد تسوية تُمكن المسلمين من عبادة الله في دينهم، بينما يستمر الآخرون بعبادة اللات والعزى ومناة. لكن محمداً كان قد استوعب هذا من قبل فأجاب الوفد بآيات من القرآن:

﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولاأنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾. (سورة الكافرون)

بعد عامين من المقاطعة راحت الحالة تتحسن فجأة لصالح محمد، وبدا وكأن ثباته قد أعطى ثماره. لقد أصبحت الصحيفة مكروهة. لقد كان التوقع القائم على رؤية الناس أقاربهم يتضورون جوعاً مناقضاً لكثير من التراثات العربية، ولذلك كان هناك تدفق منتظم وغير قانوني للطعام والمؤن إلى داخل الشعب. وفي النهاية خطط أربعة قرَشيين تربطهم روابط قربى وثيقة ببني هاشم والمطلب، خططوا حملة لإنهاء المقاطعة. **فهشام بن عمرو بن ربيعة** الذي أرسل مراراً جمله المحمل بالطعام إلى حي أبي طالب، بدأ يبحث عمن يسانده فوجد أربعة آخرين كانوا على استعداد للتعاون معه وإجبار أبي جهل على طرح المسألة على بساط البحث. ثلاثة من هؤلاء هم: **المطعِّم بن عدي وأبو بختري** بن هشام **وزمعة بن الأسود** الذين كانوا ينتمون إلى عشائر الحلف القديم. ويحتمل أنهم كانوا يشعرون بالقلق من صعود نجم بني مخزوم وعشيرة أبي جهل والمكاسب التي حققوها أثناء المقاطعة. أما الرابع فهو **زهير بن أبي أمية بن المغيرة** الذي كانت تربطه بأبي طالب علاقة قربى. كان مخزوميا، ووافق على أنه يجب أن يفتتح الإجراءات.

في اليوم المحدد لبس **زهير** حلَّة بيضاء طويلة، وطاف حول الكعبة. وفي نهاية الطواف تقدم إلى الأمام وخاطب كبار السن في مكة علانية(*): كيف تتمكنون من الجلوس ومشاهدة بني هاشم وعبد المطلب يتعذبون بهذه الطريقة؟ فاحتج أبو جهل غاضباً، فتحدث الرجال الأربعة الآخرون بصوت عالٍ مؤيدين زهيراً. ثم خطا

(*) في سيرة ابن هشام جـ١، ص٣٧٦ طبعة لبنان ـ العلمية: تواعدت المجموعة المذكورة «في خطم الحجون (موضع في مكة) ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك. فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم. فلمّا أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلَّة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال:
يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لايُباع ولايُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة».

المطعم إلى الكعبة ليبحث عن الصحيفة التي وقعتها العشائر عند بدء المقاطعة. ويقال إن تأثّر الناس كان شديداً عندما اكتشفوا أن الأرضة قد أكلتها ما عدا موضع صغير يتضمن الصيغة الواردة في الافتتاحية: «باسمك اللهم». فأصروا على إلغاء الصحيفة.

لا بد أن ذلك كان مصدر غبطة للمسلمين، وبدا أن الأوقات العصيبة قد ولت. وما لبثت أن سمعت الجماعة المنفية في الحبشة الأنباء فعاد عثمان بن مظعون على رأس ثلاثين أسرة إلى مكة تاركاً الباقين مع جعفر بن أبي طالب. سر محمد وخديجة لالتئام شملهما مع ابنتهما رقية وزوجها عثمان بن عفان، لكن يبدو أن عودة المهجرين تلك كانت متسرعة لأن الصحيفة كانت قد وضعت صعوبات لا بد منها على الرغم من سيل المؤن غير القانوني. أما ما حدث في مطلع عام ٦١٩ م فقد كان موجعاً لمحمد وجعل بقاءه في مكة أمراً مستحيلاً؛ كان ذلك موت سيد عشيرة هاشم، حامي محمد، عمه أبي طالب.

الفصل السابع

الهجرة: تَوَجُّهٌ جديد

يطلق كتّاب سيرة محمد على عام ٦١٩ أحياناً عام الحزن، الذي مر به محمد. توفيت **خديجة** بعد إلغاء الصحيفة بوقت قصير. كانت في الستين من العمر فلربما تأثرت صحتها بسبب النقص في التغذية. لقد كانت صديقته المقربة ولن يستطيع أحد أن يحل محلها بعد وفاتها. فأبو بكر وعمر لن يكونا قادرين على تزويد محمد بالدعم العاطفي الذي كانت تمده به خديجة. كانت خسارة لا تعوض. لم يمض وقت طويل على وفاتها حتى حدثت وفاة أخرى كان لها نتائج عملية خطيرة. فقد أصبح أبو طالب مريضاً جداً وبدا أنه لن يتعافى. قبل وفاته تقدمت قريش بآخر محاولة للسلام. فعلى الرغم من الضغط الكبير الذي مارسوه عليه إلا أن قريشاً كانت تعرف أنه تصرف كسيد عربي حقاً بإعطائه دعماً غير مشروط إلى أفراد عشيرته. ترأس أبو جهل وفداً إليه يطلب منه السعي للتوصل إلى مصالحة: إذا وافق محمد على الاعتراف بدينهم فإنهم سيتركونه لشأنه. لكن محمداً كان قد فكر في هذه المسألة قبل سنتين مضتا وأخبر قريشاً أن الله هو الإله الوحيد. كانوا غاضبين فغادروا متحدّين متوعدين بأن الله سوف يحكم بينهما.

دهش **محمد** عندما أخبره عمه **أبو طالب** أنه على حق في رفض هذه المساومة، وعندها توسل إلى عمه أن يمضي إلى أبعد من ذلك ويعلن إسلامه، لكنه

أخبره بلطف أنه إذا ما أسلم فإن ذلك سيكون إرضاء له(*). وهكذا فقد مات كما عاش على دين آبائه. في اللحظة الأخيرة لاحظ العباس أن الشفتين اللتين كانتا تحتضران كانتا تتحركان، وكأنما كان يتلو الشهادة، لكن محمداً هز رأسه: كان يعرف أن أبا طالب لم يدخل الإسلام.

كان الزعيم الجديد لبني هاشم هو **أبو لهب** الذي كان واضحاً وجاداً جداً في تعامله مع محمد، فأعطاه في البداية شكلاً من الحماية. وهذا كان أمراً متوقعاً منه بعد أن أصبح زعيماً للعشيرة، لكن حمايته لم تكن فعالة مثل حماية أبي طالب، فكل امرىء كان يعرف أنه قدمها عنوة. بدأ أعداء محمد يستغلون ما أصابه من ضعف جانبه وراح جيرانه يلجؤون الى التعامل القذر معه إذ راحوا يرمون عليه رحم الشاة وأوساخها في أثناء صلاته بل ووضعها أحدهم في القدر الذي تستخدمه الأسرة في الطبخ. وبينما كان محمد يمشي في مكة ذات يوم رمى قرشي شاب سفيه التراب عليه. وحين دخل محمد بيته والتراب مايزال عليه راحت ابنته تبكي وهي تزيل الأوساخ عن ملابسه. قال لها: «لا تبكي يابنية فإن الله مانع أباك». لكنه أضاف بصوت خفيض لم يسمعه أحد سواه:

«مانالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»(1).

ربما أثر ضعف محمد الجديد على مكانة المسلمين الآخرين فقد دمر الحصار أبا بكر مالياً، فانخفض رأسماله من /٤٠,٠٠٠/ درهم إلى /٥٠٠٠/ درهم. كان يعيش في حي عشيرة جمح، وأصبحت علاقته مع زعيم هذه العشيرة **أمية بن خلف** السمين العجوز سيئة جداً بعد اعتناقه الإسلام. كان أمية يحب أن يعرض عبده المسلم بلال إلى الشمس خلال فترة الاضطهاد الأولى، وأصبح يشعر أن بإمكانه فعل الشيء ذاته مع أبي بكر التاجر المحترم. فربطه مع ابن عمه طلحة في قيد واحدة

(*) جاء في السيرة أن أبا طالب لما «رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلّم، قال: يابن أخي، والله لولا مخافة السُبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لاأقولها إلاّ لأسرّك بها....» سيرة بن هشام جـ٢ ص ٤١٨ طبعة بيروت ـ المكتبة العلمية

وتركهما تحت الشمس الحارقة في هذا الوضع المذل. كان ذلك دليلاً أن عشيرتهما **تيم** لم تعد راغبة أو قادرة على حماية أبي بكر، ولذلك أدرك أنه لا مستقبل له في مكة. فبعد أن باركه النبي غادر المدينة وانطلق كي ينضم إلى المهاجرين المتبقين في الحبشة. وفي الطريق قابله ابنُ الدُّغنه زعيم جماعة صغيرة من قبائل رحل تعرف باسم الأحابيش(*) الذين كانوا حلفاء قريش. دب الذعر في قلب ابن الدغنة عندما علم أن أبا بكر قد خرج من مكة شبه طريد، فطلب إليه العودة عارضاً عليه تولّي حمايته بنفسه. كان أبو بكر سعيداً فوافق على ذلك، وقبلت قريش ـ التي كانت تسعى لكسب ود ابن الدغنة ـ الحالة شرط ألا يصلي أبو بكر أو يرتل القرآن علانية. ذلك لأنه كان ساحراً للناس وكان إغواؤه للشبان عن دين آبائهم أمراً مرجحاً. فوافق كلاهما على هذين الشرطين.

ثمة آخرون رفضوا موقف الاستكانة هذا. **فعثمان بن مظعون** الزاهد الذي كان من عشيرة مخزوم وحظي بالحماية القوية والفعالة التي قدمها له **الوليد بن المغيرة** صَعُبَ عليه أن يرفل بالأمن بينما يتعذب الآخرون. لذا مضى إلى الوليد وردّ حمايته مما أربك الرجل العجوز. بدت الفرصة سانحة للقيام بكفارة رائعة طواعية لكن ذلك كانت سمة مميزة للورع المسيحي أكثر مما هو سمة للتقوى الإسلامية. فأثناء الاضطهاد الروماني قام بعض المتحمسين المسيحيين بالإبلاغ عن أنفسهم إلى السلطات طمعاً في نيل الشهادة، لكن محمداً لم يكن ليوافق على مبالغات كهذه. كان ذلك نقيضاً للتراث العربي فقد كانت الحياة دائماً قاسية بما يكفي في الجزيرة دون القيام بالمزيد من المخاطر والمعاناة. بعد انقضاء بضعة أيام على تحرر عثمان من حماية الوليد حضر مجلس إنشاد للشاعر **لبيد بن ربيعة** أعظم شعراء عصره. فقد نالت قريش شرفاً بزيارة لبيد لمدينتهم، ومن ثم أحرجهم ماراح عثمان يعترض به

(*) الأحابيش هم: بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والحون ابن خُزيمة بن مُدْركة، وبنو المصطلق بن خزاعة تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش (نسبة الى الوادي الذي تحالفوا فيه بأسفل مكة ويسمى الأحبش) ولم يكونوا جماعة صغيرة كما تقول المؤلِّفَة لأنه كان لهم مكانتهم في مكة وهذا مايؤكده موقف ابن الدغنة حين دخل مكة وخاطب معشر قريش قائلاً: «إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضَنّ له أحد إلا بخير فكفوا عنه».

الشاعر الكبير وكانوا مكبوتين عندما بدأ عثمان بالتحدي بما يطرحه من أسئلة. فعندما أنشد لبيد:

«ألا كل شيء ماخلا الله باطلُ».

صاح عثمان «صدقت»، لكن عندما أكمل لبيد الشطر الثاني:

«وكـل نعيـم لا محالـة زائـلُ»

صاح عثمان: «كذبتَ نعيم الجنة لا يزول».

كان سلوك عثمان لا يغتفر حيال ضيف مُكَرَّم فقد جرح لبيداً في أعماقه، فقال لبيد: «يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟» فصاح رجل من القوم: «إن هذا سفيه من سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدنّ في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما فقام إليه الرجل فلطم عينه فخضّرها»[٢]. وكان يحضر الجلسة الوليد بن المغيرة الشيخ الوقور الذي رد عثمان حمايته فقال (أي الوليد) لما رأى ماجرى لعثمان قال بأسى وأسف: «أما والله يابن أخي كانت عينك عما أصابها لغنية لقد كنت في ذمة منيعة». أما عثمان فقد أكمل تحدّيه قائلاً: «إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله»[٢]

لكن النبي محمد رفض موقف عثمان لأنه يتنافى مع الذوق السليم ومبادئ المجاملة، ولا بد أنه كان يشعر أن هذا النوع من التحريض هو آخر شيء يحتاج إليه.

بعدئذ أتت الأزمة الكبيرة. فبتوجيه من أبي جهل سأل أبو لهب محمداً عن والده عبد المطلب جد محمد الذي كان يحب محمداً وكان يعتزُّ به جِداً عندما كان طفلاً، سأله عنه إن كان في جهنم حسبما يطرح؟ لقد كان في السؤال مكيدة، فمحمد كان يتبنىالفكرة اليهودية ـ المسيحية القائلة: إن من يقرون بالدين الحق هم وحدهم من يستحقون الخلاص. كانت تلك هي الإجابة الليبرالية اللطيفة التي صاغها الموحدون للإلتفاف على مثل هذا السؤال. فلو أجاب أن الوثنية القديمة بإمكانها إنقاذ الناس مثل عبد المطلب لكانت أجابته قريش بأنه ليس هناك داعٍ لإلغائها. وإذا قال إن عبد المطلب ليس له أن ينجو من النار فباستطاعة أبي لهب سحب حمايته عن امرىء حط من ذكر سلف حبيب على قلبه.

كان على محمد أن يجد لنفسه حامياً جديداً. وكانت محاولته العثور على حامٍ في الطائف ـ مدينة اللات ـ دليلاً على يأسه. كانت الطائف مدينة تجارية مثل مكة، لكنها كانت أكثر خصوبة من بقية الجزيرة. وحين كان محمد يقترب من المدينة المسورة على التل كان عليه السير عبر حدائق وبساتين وحقول القمح الجميلة. كان للعديد من أفراد عشيرة عبد شمس وبني هاشم منازل صيفية هناك، وبذلك كان ممكناً أن يقيم محمد صلات في المدينة. لكن محاولته تلك ستكون مجازفة كبيرة لأن ثقيف ـ حماة المعبد القديم ـ لا بد أن تكون غاضبة من إدانة محمد لعبادتهم اللات. زار محمد ثلاثة أخوة، وطلب منهم اعتناق دينه، وحمايته إلا أنهم كالوا له الإهانات، وأرسلوا عبيدهم يطاردونه في الشوارع.

فلكي ينجو محمد من الرعاع اختبأ في بستان **عتبة بن ربيعة** وأخيه **شيبة** اللذين كانا يجلسان في البستان، وشاهدا كل ما قد حدث: لقد كانا في مقدمة المعارضة المكية لمحمد، لكنهما كانا راجحي العقل، ولا بد أنهما شعرا بالضيق لدى رؤيتهما قرشياً يهرب هروباً شائناً. فأرسلا إليه عبداً ومعه طبق من العنب. لقد شعر محمد وهو مختبىء في البستان أنه قد بلغ نهاية مصادره، ولا بد أنه افتقد خديجة من أعماقه في هذه اللحظة، فقد كانت هي الوحيدة القادرة على التعامل مع هذا النوع من الألم ومداواة الجراح بما تملكه من عطف ومقدرة على تقديم المشورة. كان من عادة العرب «الاحتماء» أي (أن يلجؤوا ويعتصموا) بأحد الآلهة أو الجن حين يتعرضون للمُلّمات لكن محمداً استعاذ بالله الآن:

> **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى. لا حول ولا قوة إلا بك».**

إنه لأمر غير عادي أن يقدم ابن إسحاق وصفاً دقيقاً كهذا للحالة النفسية التي انتابت محمد. وهذا يوحي أن هذا الوصف كان يمثل أزمة في تطوره الروحي. إذ

لم يعد باستطاعته الركون إلى رفقة بشرية، فكان عليه أن يدرك أن لا وجود لحامٍ حقيقي سوى الله.

ويبدو أن الله قد استجاب لدعائه فوراً لدى وصول الغلام **عداس** ومعه طبق العنب. كان الغلام مسيحياً من **نينوى في العراق**، فدهش لدى رؤية هذا العربي يبارك الطعام «باسم الله»، قبل أن يأكل. كما سر محمد أيضاً عندما سمع أن عداساً قد أتى من مدينة النبي **يونس**. فأخبره محمد أنه نبيٌّ أيضاً وأخٌ ليونس. وبلغ التأثر بعداس حدّاً راح معه يقبل رأس محمد ويديه وقدميه، فكان ذلك مدعاة لسخط عتبة وشيبة اللذين كانا يراقبان ما يجري. كان هذا مثالاً آخر على تأثير محمد الخارق على الشباب. شعر محمد بعزلة أقل بعد أن احتك بواحد من أهل الكتاب، مما دفعه إلى التفكير بالناس خارج بلاد العرب ممن قد يفهمون دعواه النبوية، دعواه التي يصمّ عرب الحجاز أسماعهم عن فهمها. وفي طريق عودته إلى مكة يقال إنه قد تلقى العزاء والسلوى من حشد الجن الذين سمعوه يرتل القرآن فأذهلهم جماله(٥).

لم تكن استجارة محمد بالله تعني أنه يستطيع الاستغناء عن الحماية البشرية. فالقرآن يوضح أن على المسلمين القيام بكل جهد بشري للاعتناء بأنفسهم وألا يتركوا الأمر كله إلى الله متكاسلين:

﴿«إن الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم»(٦)﴾.

وكثيراً ما يستشهد بهذه الآية المسلمون المنخرطون في النضال السياسي اليوم. كان النبي محمد قد أرسل، قبل أن يعود الى مكة كلمة إلى ثلاثة زعماء لعشائر أخرى يطلب إليهم قبوله كحليف لهم إذ أدرك أن الخطر الذي سيلاقيه في مكة سيزداد لامحالة حين يبلغ قريشاً عزمه الهجرة إلى الطائف ذلك لإدراكهم أن مكانتهم فيها ستكون هي الأخرى محفوفة بالمخاطر. الزعيمان الأولان اللذان قاربهما هما: **الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو** فرفض كلاهما انطلاقاً من

(٧*) - كِلا الرجلين لم يرفض منح الحماية لمحمد بسبب دينه تحديداً. فالأخنس رفضها لأنه كان يعتبر شيخاً للقبيلة التي كانت حليفة لمعارضي محمد، وبذلك لم تكن لديه سلطة منح الحماية إلى غرباء. وأجاب سهيل أنه ليس في وسعه منح حمايته لمحمد لأنه أتى من الفرع غير المعتبر من قريش.

منطلق قبلي(*٧). أما الثالث فهو المطعَّم بن عدي الذي شن الحملة لإلغاء أمر الصحيفة فيما يتعلق بالحصار. لقد استجاب المطعم هذا إلى طلب النبي محمد مما جعله قادراً على دخول مكة.

لم يكن بالإمكان أن يطول أجل هذا الحل، لذا بدأ محمد يدعو الحجاج البدو الذين كانوا يأتون لأداء الحج السنوي على أمل أن يجد بينهم من يؤمن له الحماية الدائمة، وراح يوسع دعوته لتشمل عرباً آخرين. كان البدو في البداية معادين له وكانوا يكيلون له الإهانات ولم يظهروا اهتماماً بدينه فكانت تلك الفترة فترة بائسة. في سنة ٦٢٠ مر محمد بأعظم تجربة صوفية في حياته ربما كان ذلك عندما أحس أنه بلغ نهاية مصادره الطبيعيةويأسه من آماله القديمة في العرب الأمر الذي دفعه إلى خارج تصوراته الأصلية.

ذات يوم كان محمد في زيارة لابنة عمه **أم هانيء** أخت **علي وجعفر**، ولما كان منزلها بالقرب من الكعبة نهض في منتصف الليل ومضى إلى الكعبة ليتلو القرآن هناك. وفي النهاية قرر أن يغفو لبعض الوقت في الحجْر وهي منطقة مسورة تقع إلى الشمال الغربي من الكعبة. عندئذ بدا له أن **جبريلاً** قد أيقظه ورفعه على جواد سماوي يدعى **البراق**، وطار به بشكل إعجازي إلى **القدس** التي يسميها القرآن **المسجد الأقصى**(٨). وبعد هذا الإسراء (الرحلة الليلية) حط محمد وجبريل على جبل المعبد، فحياهما **إبراهيم وموسى وعيسى** وحشد من الأنبياء. فصلوا معاً. وأحضروا له ثلاثة كؤوس مليئة بالماء واللبن والخمر. فاختار محمد كأس اللبن كرمز لسبيل وسط اختاره الإسلام بين التطرف في الزهد من جهة وبين مذهب المتعة من جهة أخرى. ثم حدث المعراج، فصعد محمد وجبريل إلى السماء الأولى، ومنها إلى العرش. في كل مرحلة كان يرى واحداً من الأنبياء العظام: كان آدم مشرفاً على السماء الأولى وفيها رأى محمد منظراً لجهنم. وكان عيسى ويحي (يوحنا المعمدان) في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، و إدريس في السماء الرابعة، وهارون وموسى في الخامسة والسادسة، وأخيراً إبراهيم في السماء السابعة عند عتبة الكرة الإلهية (الفلك المقدس).

لم يوضح ابن إسحاق تلك (الرؤية العلوية)، احتراماً لها وتبجيلاً لكنه يستشهد بتراث يقدم سبباً عملياً لهذه التجربة، ويبدو أنها كانت تجربة ذات طابع

فردي أي أنها خاصة بمحمد دون سواه لأنها كانت خالية من وحي التنزيل القرآني. عندما وصل إلى العرش الإلهي أخبر الله محمداً أن على المسلمين أن يقيموا الصلاة خمسين مرة يومياً. وفي طريق عودتهما أشار موسى على محمد أن يصعد من جديد ويطلب تخفيف عدد الصلوات. وظل موسى يعيد محمداً حتى أصبح عددها خمساً وفي آخر مرة شعر محمد أن عددها كبير لكنه خجل أن يطلب تخفيفها إلى أقل من ذلك(*). وهكذا أخذ المسلمون يصلون خمس مرات يومياً. ويوضح هذا التراث أنه ليس المقصود من الصلاة أن تُشكل عبئاً ثقيلاً بل أن تكون انضباطاً معتدلاً يستطيع كل امرىء القيام به(٩).

لقد لعبت هذه التجربة الدينية أهمية هائلة في نشوء الروحانية الإسلامية، ويحتفل المسلمون بها كل سنة في ٢٧ رجب ـ أي الشهر السابع القمري ـ. وقد تأمل المتصوفون والفلاسفة والشعراء في معناها عبر العصور. بل لقد أثرت الروايات الإسلامية عن المعراج على وصف دانتي لرحلته الخيالية عبر الجحيم والمطهر والسماء في / الكوميديا الإلهية /، ولو أنه وضع النبي محمداً ـ مُنْطلِقاً من فصام غربي نموذجي كما سبق أن رأينا ـ في واحدة من أخفض حلقات الجحيم. أما المتصوفون

(*) هناك تعليقات وقراءات حديثة تنفي صحة هذا الحديث وتقول إنه من الاسرائيليات المدسوسة. وفي كتاب موسوعة التاريخ الاسلامي للدكتور أحمد شلبي ج١، ط١٢، ١٩٨٧ص: ٢٢٩ ـ ٢٤٩ دراسة مستفيضة حول الاسراء والمعراج ومناقشة كثير من الأشياء التي وردت فيه ونفي صحتها وكذلك فعل الشيخ عبدالجليل عيسى عضو مجمع البحوث العلمية إذ يقول إن أحاديث الاسراء والمعراج وردت عند البخاري في سبع روايات مختلفة في تحديد زمن الاسراء والمعراج والمكان الذي بدأ منه وفي تحديد الطريقة إذ يقول إن اختلاف الروايات في حديث على هذا النمط ينفي عنه صفة الحديث الصحيح والحسن حسب مفهوم علماء الحديث. وهو يقول في هذا المجال إنه رغم أهمية صحيح البخاري إلاّ أنه لاينبغي وضعه في منزلة الكتاب المقدس المعصوم.

ويخلص إلى أن رائحة الاسرائيليات تتسرب من الروايات المتصلة بهذا الموضوع التي تجعل موسى في السماء السابعة ومن ثم «يحتبس» محمد في كل مرة يعود ويعيده إلى الله مثل طفل أو عبد لأمر لايحتاج لمثل هذه الأمور.

وكان ابن كثير قبلاً قد اختصر الكلام في هذا الموضوع بالقول: «ثم عُرِّج به إلى السماء، وفرض الله عليه الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده. وذلك القدر هو ماينبغي أن يقنع به المسلم ويستبعد ماسواه».

فقد أولوا اهتماماً بالغاً لهذه التجربة وقد اعتقدوا أن تلك الرؤية العلوية التي رآها محمد، هي ما أشار إليه القرآن في سورة النجم:

> **﴿ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.**

فشجرة السدرة هنا ترمز إلى الحد الأقصى للمعرفة البشرية، كما في التراث الهندوسي. ويوضح القرآن أن محمداً رأى «آية» واحدة فقط من آيات ربه ولم ير الرب ذاته. وفي مرحلة لاحقة أكد المتصوفون على المفارقة في هذه الرؤيا التي رأى فيها محمد ولم ير ـ في الوقت نفسه ـ الذات الإلهية[11]،

هنا يُصور المتصوفون محمداً بطلاً اختطّ طريقاً جديداً وفريداً إلى الله، ولو أنها تتشابه مع تجارب متصوفين آخرين في تراثات تفصل بينها مسافات شاسعة. فالوصف الفارسي الذي قدمه الشاعر العظيم **فريد الدين العطار** في القرن الثالث عشر كان قريباً جداً في روحه من الوصف الذي قدمه «**يوحنا الصليب**» الذي شدد أيضاً على أهمية ترك التصورات والتجارب البشرية خلفنا والذهاب إلى ما وراء ما يسميه القرآن شجرة السدرة، أي حدود المعرفة الدنيوية العادية. يوضح العطار أنه كان على محمد أن يترك ـ في النهاية ـ كل امرىء خلفه: حتى جبريل لم يستطع مرافقة النبي في المرحلة الأخيرة من رحلته: فبعد المضي إلى ما هو خارج التصورات الحسية وخارج المنطق والعقل في تحليقه، دخل محمد في مملكة تجربة جديدة، ولو أنه توجب عليه أن يكون مستعداً لترك نفسه أيضاً:

> سمع نداءً، رسالة من الصديق.
> نداء أتى من جوهر الكل:
> «اترك النفس والجسد ياأيها الفاني!
> «أنت، يا أملي ومبتغاي، ادخل الآن
> ولْتَرَ جوهري عياناً، يا صديقي!»
> في رهبة، ضاع منه الكلام والنفس ضاعت ـ
> فمحمد لم يعرف محمداً هنا،

ولم يَرَ نفسه - رأى روح الأرواح،
وجه الذي صنع الكون[١٢].

إنها تجربة مشتركة بين جميع التراثات الصوفية الرئيسة، إنها تعبير عن الاعتقاد بأن ما من أحد يستطيع أن يرى الله ويبقى حياً. لكن تجربة الفناء بالنسبة لنفسه ومواجهة تجربة العدم نقلت محمداً إلى مستوى من الوجود أسمى وأرفع. وفي مرحلة لاحقة استعاد هذه التجربة، ووسع المقدرة البشرية على الاحساس بالإلهي. لقد أصبح المعراج مثالاً على الصَّهْر الصوفي في الإسلام: تحدث المتصوفون دائماً عن الفناء في الله الذي يعقبه البقاء والإحساس الأسمى والأرفع للذات.

يؤكّد بعض المسلمين باستمرار أن محمداً قد قام بالرحلة إلى عرش الله في الجسد، بيد أن ابن إسحاق يورد حديثاً عن عائشة يوضح أن الرحلة الليلية والمعراج كانا مجرد تجربتين روحيتين. مهما اخترنا لتفسير هذه الرحلة تبقى التجربة الدينية الصوفية إحدى حقائق الحياة البشرية، وهي متماثلة في معظم التراثات. فالبوذيون يقولون إن هذا الإحساس بالحميمية مع المطلق، واتساع الوعي هما مجرد حالات طبيعية أكثر منهما مواجهة مع «الآخر». ويبدو أنه إذا ما تم دفع الوعي البشري نتيجة ضغط مُرَكّز إلى حالة من التطرف فإنه سينشئُ تصويراً رمزياً يشبه - وان اختلف المسار كلية - ذلك الضغط الذي يتعرض له الجسد عند حافة الموت، اذ يتصور المرء في هذه الحالة أو يتوهم أنه يعبر في ممر طويل يلتقيه شخص عند بوابة يأمره بالرجوع وهلم جرا. فلدى بعض الرجال والنساء من جميع الأديان موهبة في هذا النوع من النشاط. لقد نمّوا هذه التجارب عن طريق تدريبات وتمارين محددة متماثلة أيضاً. فمعراج محمد - كما وصفه الكتاب المسلمون - قريب جداً من تجربة «صوفية العرش Throne Mysticisim» في التراث اليهودي التي ازدهرت من القرن الثاني إلى العاشر الميلاديين. يعد الخبراء أنفسهم لهذا التحليق الصوفي والارتحال إلى عرش الله عن طريق تدريبات خاصة: يصومون ويرددون ترانيم خاصة تحرض على حالة انفتاح محددة، ويستخدمون تقنيات جسدية خاصة. في أغلب الأحيان يضعون رؤوسهم بين ركبهم، كما فعل محمد - حسب ما تقول بعض الروايات الإسلامية وكانت تدريبات التنفس هي الأكثر أهمية في تقاليد أخرى. بعدئذ كانوا يشعرون بصعود خطر إلى عرش الله. وقد وصفوا - مثلما وصف المسلمون - الرؤيا

المثلى بأساليب النقائض التي تؤكد على أنه لا يمكن وصفها أساساً. فالمتصوفون في هذا التراث اعتبروا مؤسسيها أبطالاً اكتشفوا طريقاً جديداً إلى الله، وعرضوا أنفسهم لخطر شخصي أثناء قيامهم بذلك.

بعض جوانب الإسراء والمعراج قريبة جداً من عمليات الإدخال الصوفي، عندما يقوم الناس بعبور مؤلم من حالة حياتية إلى حالة أخرى. إنها مماثلة لتجربة **بيربيتوا** Perpetua الشهيدة المسيحية التي توفيت في **قرطاج** أثناء اضطهاد **سيفيروس** للمسيحيين في عام ٢٠٣ م. ويعتقد بعض العلماء أن أفعالها الواردة في كتاب (أعمال بيربتوا وفيليكيتاس) الذي قام بتحريره أحد النساخ بعد موتها مباشرة، كانت حقيقية. يُروى أنها حين كانت بانتظار إعدامها في السجن حثها رفاقها أن تطلب من الله أن ترى رؤيا تكشف لهم فيما إذا كانوا سيموتون فعلاً، وقد جاء طلبهم هذا لأنهم كانوا يعرفون أن لديها مواهب صوفية متميزة، فوعدتهم بأنها ستخبرهم في اليوم التالي. من المحتمل أنها وضعت نفسها لاشعورياً في إطار عقلي منفتح مماثل للحالة التي يكشف فيها اليوم مرضى التحليل النفسي عن أحلام تعطي دلالات مفيدة لأطبائهم[١٣*]. حلمت بيربيتوا تلك الليلة أنها رأت سلّماً يصل إلى السماء، وكان الصعود خطراً، وفي لحظة شعرت بالخوف وخشيت ألاّ تقوى على صعود السلم إلىآخره، لكن رفاقها شجعوها، فصعدته، فوجدت نفسها في حديقة جميلة فسيحة فيها راع يحلب غنماته، فأعطاها بعضاً من خثرة اللبن. وعندما أفاقت وجدت نفسها «تلوك شيئاً حلو المذاق لا يمكن تحديده. فعرفت على الفور أنها ستموت، وحثت رفاقها على قطع «آمالهم في الحياة الدنيا»[١٤]. لقد روت لرفاقها بعد ذلك عدة أحلام، دلت أنها كانت متصالحة لا شعورياً مع موتها المرتقب، وأنها كانت تعد نفسها لا من أجل العبور إلى حياة أبدية فحسب بل من أجل الشهادة التي كانت تُعدُّ التجربة الدينية النهائية في المسيحية الأولى. لكن محمداً لم يكن في طريقه إلى الموت إنما كان على وشك البدء بجانب جديد من رسالته التي كانت

(١٣*) - في كتاب /تكوين أواخر العصور القديمة/ (كامبريدج، ماساتشوستس ولندن ١٩٧٨، يبين بيتر براون أن النشوة كانت معيارية في المسيحية الأولى. كان للحلم أهمية خاصة في الحياة الدينية في ذلك العصر، سواء عندما يكون امرؤ نائماً وإحساساته الجسدية خامدة والحد مفتوح أمامه بينه وبين الله. ص ٦٥ .

تتطلب انقطاعاً عن الماضي الذي كان نوعاً من الموت، فهو لم يتناول اللبن مثل بيربيتوا من الراعي الطيب بل من أنبياء الماضي العظام الذين سبقوه في رؤيا تعبر عن إحساسه بالاستمرارية مع الإيحاءات القديمة.

المعراج ذاته يشبه أيضاً التجربة الإدخالية التي يقوم بها **الشامان**(*)، والتي ما تزال تتكرر ـ حسب رأي العلامة الأمريكي **جوزيف كامبل** ـ من **سيبيريا** إلى **الأمريكيتين**. فالشامان في بداية شبابه يخضع إلى تجربة نفسية غامرة تحوله كلياً إلى الداخل. إنها نوع من شرخ فصامي (شيزوفيرينيا): فاللاشعور كله ينفتح ويسقط الشامان فيه[١٥]. ويدخل البوشمانيون(**) هذه التجربة في رقصة ماراتون شديدة. وقد وصف أحد الشامان ما حدث له عندما سقط في نشوة وانهار:

> عندما أُشرِق أرى أني كنت قد بدأت الصعود، إنني أتسلق خيوطاً، خيوطاً، هناك في الجنوب. أتسلق خيطاً وأتركه ثم أتسلق آخر، ثم آخر وهكذا... وعندما تصل إلى مكان الله فإنك تجعل نفسك صغيراً. لقد أصبحت صغيراً وأنت تدخل إلى مكان الله. تقوم بما عليك القيام به هناك. بعدئذ تعود إلى حيث يوجد كل امرىء، وأخيراً تدخل الجسد من جديد[١٦].

لقد عَبَرَ شكلاً من أشكال الموت الذاتي واخترق مناطق لا يستطيع الآخرون الذهاب إليها، جالباً أنباء من مملكة الرموز الميثولوجية، من مقر السلطان والقوة.

فالرحلة الليلية ـ كما وصلتنا ـ تبين أن محمداً قد بدأ يرى أن بوسعه أن يكون أكثر من مجرد نذير متواضع لقريش، وفي الوقت ذاته كان ما يزال يفتش عن مجير بشري جديد. كان يزور الحجاج في معسكراتهم طوال الأيام المحددة الثلاثة في وادي مِنىً من خيمة إلى أخرى. وفي سنة ٦٢٠ التقى سِتَّةً من عرب يثرب الوثنيين أثناء الحج، كانوا قد خيموا في وادي العقبة في الجزء القريب من مكة. فجلس إليهم وحدثهم ودعاهم إلى دينه، ورتل القرآن. وبدلاً من أن يقابلوه بعدائية وَصَدّ وجد أنهم مهتمون بما يقول. وعندما انتهى التفت كل منهم إلى الآخر وقال لا بد أن هذا هو النبي الذي طالما تحدث عنه يهود يثرب، أولئك الذين كانوا طوال سنوات

(*) الشامان: العراف أو الكاهن المتنبئ.
(**) البوشمانيين: هم سكان بعض صحاري جنوب افريقيا.

يزعجون جيرانهم الوثنيين بحكايات عن نبي سيدمرهم مثلما دُمِّرتْ عاد وإرم. فإذا كان محمد حقاً هو هذا النبي فينبغي منع اليهود من الاقتراب منه أولاً. وبدا لهم أيضاً أن باستطاعة محمد أن يحل مشاكل يثرب التي بدت لهم عصية على الحل.

في تلك الفترة لم تكن يثرب مدينة مثل مكة بل واحة أرضها خصبة مساحتها نحو عشرين ميلاً مربعاً محاطة بتلال بركانية ذات أرض صخرية لاتصلح للزراعة. لم تكن مركزاً تجارياً بل مستوطنة زراعية تعيش فيها تجمعات قبلية متنوعة نهباً لعداوات قبلية قاتلة في قراهم الصغيرة ومزارعهم. لقد كان المستوطنون اليهود الأوائل الذين لا نعرف من أين أتوا قد استصلحوا هذه المنطقة. فلربما كانوا لاجئين من فلسطين شُتّتوا في الجزيرة بعد أن قمع الرومان تمردهم في عام ١٣٥ ، أو ربما كانوا قبائل عربية اعتنقت اليهودية. أما الاحتمال الثالث فهو أن بعض العرب كأفراد نسبوا أنفسهم إلى جماعة من العبريين وتبنوا دينهم. كان في يثرب ثلاث قبائل يهودية رئيسة في مطلع القرن السابع: **بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع** الأقل عدداً. لقد حافظ اليهود على هوية دينية منفصلة مع أنه كان يصعب تمييزهم عن جيرانهم العرب الوثنيين فكانت أسماؤهم عربية، ويطبقون تقاليد النظام القبلي، وعداوتهم فيما بينهم أكبر من عداواتهم تجاه القبائل العربية.

في فترة من القرن السادس هاجر بنو قيلة من جنوب الجزيرة واستقروا في الواحة إلى جانب اليهود، وشكلوا أنفسهم في فرعين يتصلان ببعضهما هما **الأوس والخزرج** ثم أصبحنا قبيلتين منفصلتين تضمان عدة عشائر. في البداية كان الأوس والخزرج أضعف من اليهود لكن صار لهما تدريجياً أرضٌ خاصة بهم، وبنتا قلاعاً خاصة بهما، فأصبحتا نداً لليهود. وبحلول مطلع القرن السابع كانت الأوس والخزرج في موقف أقوى قليلاً من موقف اليهود وبدأتا تتحاربان.

سبب الانتقال من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار أزمة في يثرب شعر بها الناس هنا بِحِدَّة أكثر مما في مكة. فالعادات القبلية كانت ذات فاعلية جيدة في السهوب، لكنها لم تعد ملائمة في يثرب. في الصحراء كان الرحل يدافعون عن أراضيهم الموروثة من الأسلاف بحمية، وكان هذا محتملاً تماماً عندما كانوا منفصلين أحدهما عن الآخر بمسافات شاسعة. لكن عندما أصبحوا جميعاً مكتظين في واحة صغيرة، وكل قبيلة تحرس أرضها الصغيرة أدى ذلك إلى انهيار النظام العام

في الواحة. في الماضي كانت تقوم جماعة بغزو منطقة معادية بالطريقة المجيدة في تلك الأيام، وبعد فترة ترد عليها المنطقة المغزوة ثأراً. وهكذا أصبحت قبائل يثرب في شَرَكٍ حلقة من العنف. فكانت الحروب المستمرة تدمر الأرض، وتتلف المحاصيل، وتأتي على المصادر الاحتياطية في يثرب سواء من الثروة أو السلطة. كذلك تورّطت القبائل اليهودية بهذا الصراع حتى أعماقه، وصارت حلفاء في تجمعات مختلفة إما مع الأوس وإما مع الخزرج. بحلول عام ٦١٧ تأزم الموقف إذ لم يكن باستطاعة أي فريق تحقيق التفوق، وأنهك النزاع كلا الطرفين مع حلفائهما. فالحرب الأهلية كانت قد تراكمت تلك السنة في معركة **بُعاث** التي أعطت انتصاراً اسمياً للأوس وحلفائها بني النضير، لكنهم لم يكونوا قادرين على أن يجعلوا انتصارهم فعالاً. لقد بدأ كل امرىء في يثرب يدرك أن سلطة عليا هي الأمل الوحيد ليثرب على الرغم من الشك العربي القديم بالملكية (النظام ملكي). **كان عبدالله بن أبيّ** زعيم **الخزرج** قد رفض أن يحارب في معركة بُعاث لأنه رأى أن لا أمل يرتجى منها، وبذلك نال سمعة النزاهة وبدأ الناس يرون فيه ملكاً محتملاً وزعيماً أعلى لهم. وكان طبيعياً أن يقف بعضهم حذرين من هذا الحل. فالأوس كانت مترددة جداً في تسليم السلطة إلى فرد من الخزرج وكذلك كانت العشائر الأقل قوة في الخزرج، والتي لم تكن راغبة بترك **ابن أبيّ** ينال الحكم.

عندما قدّم محمد نفسه إلى حجاج يثرب السِّتَّة خلال الحج عام ٦٢٠ أدركوا حالاً أن رسول الله سيكون القائد الأكثر نزاهة من **ابن أبيّ**. وأما رسالة التوحيد التي يدعو إليها محمد فما كان لها أن تؤرقهم، اذ كانوا قد عاشوا فترة طويلة إلى جانب اليهود وتآلفوا مع فكرة وجود إله واحد فقط. كانوا مستعدين تماماً إلى إنزال مرتبة الإلهات القديمة إلى مستوى الجن والملائكة. كانوا يشعرون بدونية أمام اليهود لأنهم لايملكون كتاباً مقدساً خاصاً بهم «أناس لايعلمون»[١٧]. لذلك شعروا بالنشوة لدعوة محمد: نبي مرسل للعرب ويُحضِر لهم قرآناً عربياً. أسلموا حالاً وانطلقوا باتجاه يثرب وبين جنوبهم آمال عراض. لقد قالوا للنبي:

> «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فَسَنَقْدِم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك»[١٨].

لقد اتفقوا أن يوافوا محمداً بما سيكون في غضون سنة. لأنه كان أمراً أساسياً أن يحصل على دعم أوسع فيما إذا أراد الانتقال إلى الواحة مع أصحابه: لم يكن يتوقع حدوث مشاكل يثيرها اليهود لأنه اعتقد أن رسالته كانت واحدة مع دينهم. لكن الحجاج الذين التقاهم كانوا من العشائر الصغيرة التابعة للخزرج. لذا كان عليهم جذب بعض الأوس من البداية إلى الدين الجديد.

بدا أنَّ القضية الإسلامية ركدت بعد بضع سنوات من هذه الفترة. في تلك السنة قام محمد ببضعة تغييرات رئيسة في بيته. كان بحاجة إلى زوجة، وتواقاً لحضور أنثوي في حياته لذلك اقترح البعض عليه أن يتزوج سَوْدة ابنة عم **سهيل** زعيم **بني عامر** وأخت زوجته. كانت قد هاجرت مع زوجها سكران أخو سهيل إلى الحبشة عام ٦١٦، وتوفي زوجها بعد عودتهما إلى **مكة** بوقت قصير. وافقت سودة فزوجها أبو حاطب بن عمرو وهو الأخ الآخر لزوجها، زَوَّجها للنبي.

كان **أبو بكر** تواقاً لتقوية صلته بمحمد بعد أن خدمه بإخلاص كبير طوال هذه السنين ودفع ثمناً باهظاً. كانت ابنته **عائشة** في السادسة من عمرها في عام ٦٢٠ م. كانت قد وُعِدَتْ أن تتزوج من **المطعم** زعيم نوفل حامي محمد الجديد. لكن مطعماً كان على استعداد تام لإلغاء الخطوبة لأن زوجته كانت خائفة من أن يصبح ابنهما مسلماً، فتمت خطوبة عائشة رسمياً على محمد في حفل لم تحضره الفتاة الصغيرة. واستذكرت ـ في سنوات لاحقة ـ أن أول إشارة سمعتها عن مكانتها الجديدة عندما بيّنت لها أمها أنه لم يَعُد بوسعها أن تلعب في الأزقة كبقية الأطفال، بل أن تدعو صديقاتها للعب معها في المنزل.

لقد أثار حريم محمد أقاويل كثيرة في الغرب. أقاويل تتسم بالتجني والبذاءة إضافة إلى حقد دفين، كما أوضحتُ ذلك في الفصل الأول. لقد أعلن القرآن أن باستطاعة المسلم حيازة أربع زوجات، لكنه سمح لمحمد بأكثر من ذلك. قلة من الناس في تلك الفترة كانت ترغب بالزوجة الواحدة في الجزيرة العربية، وعندما أصبح محمد سيداً عربياً عظيماً كان «الحرملك» الذي كانت تقيم فيه زوجاته دلالة على مركزه الجديد. فتعدد الزوجات كان معياراً في مجتمع قبلي. فالتوراة لاتبدي غضاضة إطلاقاً تجاه مآثر الملك داؤود الجنسية، أو العدد الكبير لزوجات الملك سليمان، وبالمقارنة معهما يبدو محمّدٌ لاشيء يُذكر في هذا المجال.

كان محمد يعيش في فترة كتلك التي عاشها من قبل داؤود وسليمان، إنها الفترة التي كانت شعوبهم تمرُّ فيها بعملية الانتقال من الحياة القبلية إلى الحياة المدنية. لكن مع ذلك من الخطأ بمكان أن نتخيل محمداً وهو ينعم منحطاً في حديقة ملذات دنيوية. لقد كانت زوجاته العديدات نعمة ونقمة في آن واحد. بكل بساطة علينا أن نلحظ شيئين: الأول لم يكن اختيار سودة أو عائشة يستند الى ما في أي منهما من مفاتن جسدية. فعائشة كانت طفلة صغيرة، وكانت سودة في الثلاثين وقد تجاوزت شبابها الأول، وتميل إلى البدانة، ولا نسمع عنها إلا القليل مما يدل على أن هذا الزواج كان ترتيباً عملياً أكثر منه ناتجاً عن حب. كان بوسعها العناية ببيت محمد، وأصبحت زوجة النبي فحققت مكانة لها وسط الجماعة المسلمة. ثانياً كان لهذين الزواجين بُعْد سياسي: كان محمد يصوغ روابط قربى هامة، كان ما يزال لديه آمال بإسلام سهيل الذي كان رجلاً متديناً في أعماقه، وجعله زواجه من سودة أحد أقارب سهيل وتمتين الرابطة مع أبي بكر كان هو الآخر أمراً ضرورياً: لأن محمداً بدأ يشكل نوعاً من عشيرة بديلة عمادها الإيديولوجيا بدلاً عن القرابة الدموية، رغم ما كان الناس يشعرون به من أن قرابة الدم ما زالت هامة جداً.

لا بد أن أبا بكر كان مسروراً جداً بهذه الرابطة مع محمد، بعد أن أصبح معزولاً تماماً في مكة في تلك الفترة. لقد بنى مسجداً صغيراً بالقرب من باب منزله أثار فضيحة لعشيرة جمح: يقول ابن إسحاق:

> «كان رجلاً رقيق القلب، إذا قرأ القرآن استبكى فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته»(١٩).

فعندما أصبح تحت حماية ابن الدّغنة اشترطت عليه قريش عدم إقامة الصلاة علانية، ولذلك نجد موفداً قرشياً قد ذهب إلى الزعيم البدوي وطلب منه غاضباً:

> «يابن الدغنة، إنك لم تُجِرْ هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجلٌ إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة ونَحْوٌ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضَعَفَتنا أن يفتنهم فأته فمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ماشاء»(٢٠).

لكن أبا بكر رفض التخلي عن مسجده: إذ شعر أنه لم يعد بوسعه المساومة أكثر من ذلك فالسيل قد بلغ الزبى، ولذلك عاد من جديد هدفاً للإهانات وراحت

الأوساخ تُرمى عليه في الأزقة. كان زعماء قريش يقولون له بازدراء «أنت فعلت ذلك بنفسك».

خلال الحج في عام ٦٢١ عاد المؤمنون الستة من يثرب إلى مكة حسب الاتفاق جالبين معهم سبعة آخرين اثنان منهم من قبيلة الأوس. التقوا محمداً ثانية في وادي العقبة، فبايعوه على أن يعبدوا الله وحده وأن يلتزموا بالوصايا (الأوامر والنواهي) وقال أحدهم في مرحلة لاحقة:

> «بايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم»[٢١].

في هذا اللقاء الذي عُرِف بالعقبة الأولى جرى التأكيد على الدين أكثر من التأكيد على السياسة. كانت الوثنية القديمة قد أخفقت في حل الأزمة في يثرب، فكان الناس على استعداد لتقبل عقيدة جديدة. كانت تعاليم محمد الدينية تساعد المسلمين على تنمية الاحترام للآخرين على أساس أنهم أفراد لهم حقوق ثابتة محددة، وستحل هذه الأخلاقية محل المثل القبلية الجماعية العليا التي فيها الجماعة أكثر أهمية من الفرد. وستكون هذه النزعة الفردية الجديدة أساساً ممكناً لنوع جديد من المجتمع، لأنها ستساعد سكان يثرب على إدراك أن ما يربحه شخص لا يعني بالضرورة خسارة شخص آخر، كما كان الأمر في الصحراء حيث لم يكن يتوافر ما يكفي من الضروريات للاستمرار في الحياة.

أرسل محمدٌ واحداً من المسلمين المقتدرين جداً، مصعباً بن عمير، العائد حديثاً من الحبشة، أرسله مع الحُجاج العائدين إلى يثرب، كي يعلّم سكان الواحة وليقرأ لهم القرآن. كانت الكراهية وقتها قد استحكمت جداً بين الأوس والخزرج إلى درجة لم يعد أي منهما قادراً على سماع فرد من القبيلة الأخرى يقرأ القرآن أو يؤم الصلاة، ولذلك توّجب أن يقوم بالتلاوة فرد نزيه من خارج القبيلتين. في البداية كان وجهاء الأوس معادين جداً للدين فذات يوم دب الرعب في قلب **سعد بن معاذ** ـ أحد زعماء العشائر الكبيرة ـ عندما سمع أن مصعباً كان جالساً علانية في أحد بساتينه يدعو أفراد قبيلته إلى الدين الجديد، لكن مصعباً كان ضيفاً على ابن

خالته **أسعد بن زرارة** أحد المؤمنين الستة في يثرب، فهذا كان يعني أنه من غير اللائق أن يهين الزائر المكي. لذا أرسل **أسيد بن حضير** المقدم الثاني في العشيرة كي يبعد مصعباً عن أرضه. أمسك أسيد رمحه ومشى إلى البستان، عندما وجد هذه الحلقة الصغيرة جالسة حول مصعب زمجر أسيد غاضباً، وطلب معرفة ما الذي كان يقصده المسلمون من المجيء لخداع رفاقهم الأضعف منهم. فقال له مصعب: «أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبِلته وإن كرهته كُفَّ عنك ماتكره؟». فوافق أسيد لأن ما طلبه مصعب كان عادلاً، فشك رمحه بالأرض وجلس يصغي إلى القرآن. وكالعادة نفذت جمالية الكلمات إلى قلبه، ولاحظ أفراد قبيلته أن ملامح وجهه قد تغيرت، فأصبح مسالماً ومشرقاً. وعند نهاية التلاوة صاح: «ما أحسنَ هذا الكلام وأجمله! ماذا تفعلون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟». فطلب منه مصعب أن يطهر ملابسه ويعلن إيمانه بالله الواحد الأحد، وأن يسجد تبجيلاً لله. وبعد أن أسلم أسيد انطلق راكضاً إلى سعد.

عرف سعد من تعابير وجه أسيد أنه قد خيب أمله. فأمسك رمحه وصاح غاضباً: «والله ماأراك أغنيت شيئاً». وسار إلى البستان فحدث له ما حدث لأسيد تماماً. طلب منه مصعب الجلوس والاستماع فغرس سعد رمحه في الأرض فغلبته جمالية القرآن على أمره. فجاء إسلام سعد حاسماً، إذ جمع قومه وسألهم عن السبب الذي دعاهم للقبول بقيادته فأجابوه: «أنت سيّدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة». بعدئذ طلب سعد أن يضعوا ثقتهم به في هذه المسألة وقال: «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله»[٢٢]. كانت النتيجة أن القبيلة كلها اعتنقت الإسلام جماعياً. لقد خضعت هذه القصة إلى الأسلوبية من قبل الرواة، وأعطيت طابعاً خيالياً عبر السنين لكن سعداً أثبت أنه واحد من أكثر المسلمين حماسة في يثرب. من المرجح أنه كان لإيمانه تأثير قوي على قومه الذين كانوا متلهفين لقيادة قوية جديدة، ولحل مشكلاتهم التي بدت عصية على الحل.

لم يمض وقت طويل حتى كان في كل أسرة في الواحة مسلم. كان هناك جيب صغير من مقاومة وثنية في عشيرة الأوس التي كان يؤججها الشاعر والزعيم **أبو قيس بن الأسلت**. كان للشعراء دائماً دورٌ حاسمٌ في تحديد وتمجيد هوية القبيلة، وكان باستطاعتهم تشويه سمعة شخص ما كلياً بالكفاءة نفسها التي تقوم بها وسائل الإعلام اليوم. كانت الدعاية الشعرية المعادية مدمرة في الجزيرة العربية

مثل أي هزيمة عسكرية كبرى. ويجب أن نضع هذه الحقيقة في اعتبارنا عندما نناقش موقف محمد العدائي تجاه الشعراء الذين سخروا منه. فخلال هذه السنة الاختبارية في يثرب حث **أبو قيس** العرب في عشيرته على الإخلاص للشكّل العربي الحقيقي للوحدانية، وعدم قبول القرآن الذي كان ملوثاً بتداعياته الأجنبية. وها هو يخاطب الله الذي كان سكان يثرب يعرفون مسبقاً أنه الله الواحد(*):

أربُّ الناس أشياء ألمّتْ ... يلفُّ الصّعبُ منها بالذّلولِ
أربُّ الناس أما إذ ضللنا ... فيسرنا لمعروفِ السبيل
فلولا ربنا كنا يهوداً ... وما دين اليهود بذي شُكول
ولولا ربنا كنا نصارى ... مع الرهبان في جبل الجليلِ
ولكنا خلقنا اذ خُلقنا ... حنيفاً ديننا عن كل جيل
نسوق الهدْيَ ترسُف مُذْعنات ... مكشَّفَة المناكب في الجلولِ[٢٣]

ليس ثمة ما يبعث على الاستغراب في رؤية أبي قيس هذه، ذلك أن محمداً كان منذ بيعة العقبة الأولى قد عمل على إقامة بعض الروابط المهمة مع التقاليد والممارسات اليهودية. اذ كان يتطلع متلهفاً إلى اليهود في الواحة، ولا بد أنه كان يتطلع إلى العمل والصلاة مع من كانوا يملكون وحياً أكثر قدماً، بعد أن كانت فترة العزلة قد طالت. لقد طلب من مصعب عقد اجتماع خاص للمسلمين بعد ظهر

(*) عاصر أبو قيس هذا حادثة عام الفيل وهجوم أبرهة الحبشي على مكة وفشله وقد تأثر أبو قيس بالحدث ورأى فيه تأكيداً لما يؤمن به وأن الله هو من كان وراء هزيمة الأحباش وفي هذا يقول:

ومن صُنعه يوم فيل الحبو ... شِ إذ كلما بعثوه رزَمْ
مَحاجنُهم تحت أقرابِه ... وقد شرّموا أنفه فانْخَرَمْ
وقد جعلوا سوطَهُ مِغولاً ... إذا يمّموه قفاه كُلِمْ
فولّى وأدبر أدراجَهُ ... وقد باء بالظلم من كان ثم
فأرسل من فوقهم حاصباً ... فلفَّهمُ مثلَ لفِّ القُزُمْ
تحضُّ على الصبر أحبارُهم ... وقد ثأجوا الثؤاج الغنم

وأبو قيس هذا هو: صيفيّ بن الأسلت بن جُشَم بن وائل بن ... الأوس

«الناشر»

أحد أيام الجمعة، أي في الوقت الذي كان يستعد فيه اليهود لشعائر يوم السبت، وذلك كي يشكل نوعاً من رابطة بين الشعائر عند الطرفين بينما يحافظ في الوقت ذاته على مسافة لبقة. بعد ذلك فرض صياماً على المسلمين في يوم التكفير اليهودي الذي كان يقع في العاشر من تشرين حسب التقويم اليهودي، فسُمِّيَ صومُ المسلمين عاشوراء ومعناه بالآرامية المعربة العاشر. كما صار على المسلمين أن يصلوا في منتصف النهار مثلما كان يفعل اليهود، فحتى هذا التاريخ كان المسلمون يصلون في الصباح والمساء فقط ويقومون الليل للتهجد. كما أصبح باستطاعة المسلمين الزواج من اليهوديات، وأكل الطعام اليهودي، لكن لم يلتزموا بجميع قوانين الحمية اليهودية بل كان التزامهم نسخة معدلة عنها، مماثلة جداً لما جاء في «أفعال الرسل» للمؤمنين من غير اليهود الذين اعتنقوا المسيحية[٢٤*]. زد على ذلك فقد طلب من المسلمين جعل القدس قبلة لهم أثناء الصلاة، وهي قبلة اليهود والمسيحيين. وقد بينت رحلة محمد الليلية إلى القدس أن هذه المدينة القديمة كانت مركزية في الدين الإسلامي أيضاً، وكانت مركزاً مستمراً وإيضاحاً للرابطة الدينية الجديدة مع الإيحاءات الأقدم منه. صار المسلمون يتوجهون في صلاتهم نحو القدس ثلاث مرات يومياً، وأخذت وقفتهم الجسدية تعلمهم توجهاً روحياً جديداً، وأن لهم أيضاً، على مستوى أساسي، أهداف أهل الكتاب نفسها.

لقد تبنى القرآن الاسم الآرامي أيضاً الذي أطلقه اليهود على يثرب Medinta أي المدينة بكل بساطة. قبل خمس سنوات من تلك الفترة ـ أي عندما كان محمد يبحث عن موطن جديد لبعض من أصحابه ـ توجه إلى المسيحيين المونوفيزيين في الحبشة. لكن تلك المغامرة أتت بخيبة أمل، لأسباب يصعب علينا تفهمها كاملاً. في تلك الفترة كان محمد قد اكتشف أن ليس باستطاعته الاستمرار في مكة، لكن أن يقوم النبي المرسل إلى العرب بترك الجزيرة فهذا لم يكن أمراً وارداً إطلاقاً. في هذه المرة يحض الجماعة المسلمة كلها على الهجرة معه إلى الواحة، وكان يناشد القبائل اليهودية هناك من أجل الدعم والعون.

في عام ٦٢٢ م غادر فريق من الحجاج المدينة إلى مكة لأداء الحج. كان

(٢٤*) ـ السورة ٥ (المائدة)، الآية: ٥ ـ ٧ حرمت على المسلمين لحم الخنزير والميتة والدم والنطيحة والمتردية، وكل ما أُهِلَّ به لغير الله. أفعال الرسل ١٥: ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٩ .

بعضهم وثنياً، لكن كان بينهم ٧٣ رجلاً وامرأتان من المسلمين الذين كانوا يمثلون الأُسَرَ الأكثر نفوذاً في المدينة. في أثناء الرحلة وقعت حادثة ثبت فيما بعد أنها استكشفت الغيب بشكل يدعو إلى الغرابة. إذ أن **البراء بن معرور** ـ أحد زعماء الخزرج المسلمين ـ اقترح على الحجاج تغيير القبلة أثناء فترة الحج. إذ بدا ضلالاً وهم يغذون السير متلهفين إلى مكة حيث تقع أقدس صومعة لله، وحيث سيقابل معظمهم النبي لأول مرة، بدا لهم ضلالاً أن يديروا ظهورهم إلى مكة في صلاتهم لِيُيَمِّمُوا وجوههم نحو القدس. شعر الآخرون أن البراء كان على خطأ لأن قبلة محمد هي القدس وهذا كان كافياً لهم. إلا أن البراء تشبث باقتراحه وجعل **مكة** قبلته أثناء الرحلة، لكنه بقي يشعر بالقلق حيال ذلك. وفور وصولهم مكة ذهب إلى محمد ليسأله رأيه. كانت إجابة النبي ملتبسة: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها...»[٢٥] لكن النبي شخصياً كان ما يزال يُيَمِّمُ وجهه إلى القدس وقد فعل البراء الشيء ذاته بكل طواعية. وبعد ذلك تذكر أفراد عشيرة البراء رأيه. توفي البراء بعد فترة قصيرة من عودته إلى المدينة، وكان الناس يعتقدون أن حدوس (جمع حدس) الناس الذين هم على وشك الموت يجب أن تؤخذ بجدية.

أثناء شعيرة الإقامة في وادي مِنىً حدث اجتماع آخر في الشُّعب عند العقبة، حدث ليلاً هذه المرة، وأصبح ما تعاهدوا عليه يعرف لاحقاً ببيعة الحرب:

«بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويُسرنا ومُنْشَطِنا ومُكرهنا، وأثرة علينا وأن لاننازع الأمر أهله وأن نقول بالحق أينما كنا، لانخاف في الله لومة لائم»[٢٦].

لم يكن ميثاق الحرب يعني أن الإسلام أصبح ديناً حربياً بشكل مفاجيء بل لأن الخطوة التي كان محمد على وشك القيام بها كانت تتطلب ذلك. كان يحض أصحابه على الهجرة من مكة إلى المدينة. لم تكن **الهجرة** مجرد تغيير لجغرافية المكان فقط. كان مسلمو **مكة** على وشك هجر **قريش** وقبول الحماية الدائمة المقدمة من قبيلة لا تربطهم بها روابط الدم[٢٧*]. فكانت هذه خطوة لا سابقة لها، وكانت

(٢٧*) ـ كان لبعض المسلمين أقارب في المدينة: فمحمد شخصياً كانت له علاقات مدينية عبر أمه آمنة. لكن الهجرة كانت تتطلب من المسلمين التخلي عن القبيلة كلها وعن الجماعة الدموية إلى قرابة لم تكن موجودة من قبل.

في جانب معين تقدم إيذاءً للحساسيات العربية على شاكلة ما آذاها الحط من مكانة الإلهات الوثنية. في الجزيرة كان هناك دائماً نظام التحالف الذي يستطيع كل فرد أو عشيرة بموجبه أن تصبح أعضاء شرف في قبيلة أخرى، وتقبل حمايتها. لكن هذا لم يكن قطيعة أبدية ذلك لأن روابط الدم كانت قيمة مقدسة في الجزيرة وهي أساس المجتمع. فكلمة «الهجرة» بحد ذاتها تبين أن هذه القطيعة المؤلمة كانت هي الأقوى في أذهان الناس الذين اتخذوا قرار الهجرة إلى المدينة. فجذر الكلمة هجر والفعل المشتق منها هَجَرَ تعني «قطع صلات أو أحاديث المودة أو الحب أي... كف... أي توقف عن الارتباط بهم»[٢٨].

كان دور المسلمين في المدينة هو تقديم وعد للمهاجرين بتأمين الحماية لهم (أولياء) وأن يكونوا أنصاراً على أسس أبدية لأناس لا تربط بينهم قرابة دموية. ومن هذه الفترة فصاعداً سيعرفون باسم الأنصار أي الذين نصروا النبي وأصحابه. فغالباً ما تترجم كلمة أنصار بمعنى «مساعدين» لكن هذه الترجمة تعطي انطباعاً واهياً لما تتضمنه الكلمة: فالنصير كانت تعني أن عليك أن تكون مستعداً لتقديم معونتك ودعمك بقوة إذا اقتضى الأمر. ولهذا السبب وقع مسلمو المدينة ميثاق الحرب.

لقد أبرمت البيعة سراً. لم يكن **محمد** فقط على وشك اتخاذ قرار غريب لنفسه ولأصحابه المكيين بل كان في خطر كبير أيضاً. **فابن إسحاق** يشدد على جوانب الهجرة الإيجابية فيجعلها تبدو قراراً طوعياً، بيد أن القرآن يتحدث عن المسلمين وقد أُخرجوا من «ديارهم» **مكة**[٢٩]. بدا الأمر وكأن محمداً كان مدركاً أن الناس كانوا يتآمرون على حياته[٣٠]. ربما قدم المطعّم حمايته إثر عودته من الطائف شرط أن يتوقف عن الدعوة إلى الدين. لا يتحدث القرآن عن مزايا الهجرة بل يوحي أن المسلمين كانوا مضطرين عليها رغماً عن إرادتهم. ففي الاجتماع أثناء الحج في سنة ٦٢٢ م كان هناك إحساس بالخطر وأن الجسور قد قُطعت ولا يمكن وصلها ثانية. كان لا بد من إبقاء الاجتماع سرياً، فالأنصار لم يذكروه حتى لرفاقهم الوثنيين في رحلة الحج خوفاً من أن تسري شائعات حول الهجرة المخطط لها في مكة فتعطي لقريش فكرة عما كان جارياً.

في ليلة البيعة ترك الأنصار رفاقهم الوثنيين نائمين في خيامهم وانسلوا خلسة

إلى وادي العقبة حيث التقوا محمداً والعباس[*٣١]، لم يكن العباس قد أسلم بعد لكنه كان يحب ابن أخيه وتوضح المصادر الأولى أنه كان يريد التأكد من أن محمداً سيكون آمناً في المدينة. بدأت المفاوضات بتنبيه الأنصار أن يفكروا بدقة قبل تقديم المساعدة والحماية إلى مسلمي قريش:

> «فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[٣٢].

لكن الأنصار كانوا على استعداد لتحمل مسؤولية قرارهم. أخذ **البراء محمداً** من يده ـ كون البراء ممثلاً للأوس والخزرج ـ وأقسم أن المسلمين سوف يقدمون للنبي الحماية نفسها التي يعطونها لنسائهم وأطفالهم. وبينما البراء يتكلم قاطعه أحد الأنصار ـ **أبو الهيثم بن التيهان** ـ قائلاً:

> يا رسول الله؛ إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عَسِيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك، وتدعنا! فتبسم رسول الله (ص)، ثم قال:
>
> **«الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»**[٣٣].

وبعد أن اتفق الطرفان على ذلك أبرم الأنصار معاهدة الحرب.

بعد عودة **الأنصار** إلى المدينة بدأ **محمد** بإقناع المسلمين في مكة بالهجرة التي كانت خطوة مخيفة لا بد منها. لا أحد كان يعرف ما ستتمخض عنه، كانت حدثاً لا سابقة له في الجزيرة. لم يأمر **محمد** المسلمين بالهجرة، فمن كان متردداً أو يشعر أنه لا يقوى على احتمالها سمح له بالبقاء، فبقي بعض المسلمين البارزين دون أن يتهمهم أحد بالردة أو الجبن. خلال شهري تموز وآب من عام ٦٢٢ انطلق نحو

(*٣١) ـ يبحث العلماء الغربيون عن الدور التاريخي للعباس في بيعة العقبة الثانية. إنهم يشيرون إلى أن العباس كان المؤسس للسلالة العباسية، وأن هذا المرجع إضافة إلى مراجع مماثلة أخرى كانت محاولة لتبييض سمعته. لكن يبدو أن العباس، كما سنرى لاحقاً، قد قاتل ضد محمد ولم يعتنق الإسلام حتى اللحظات الأخيرة تقريباً.

سبعين مسلماً مع أسرهم باتجاه المدينة، وسكنوا في منازل الأنصار حتى تمكنوا من تشييد منازل خاصة بهم. ويبدو أن قريشاً لم تبذل جهداً لتثنيهم عن الهجرة علماً أن بعض النسوة والأطفال أجبروا على البقاء، وحمل رجل وهو مربوط على جمله. لكن المسلمين كانوا حذرين ألا يلفتوا الانتباه، وفي أغلب الأحيان اتفقوا على الالتقاء خارج مكة، فرحلوا في جماعات صغيرة لا تثير اهتماماً. غادر **عمر** مع أسرته و**عثمان بن عفان** مع زوجته، وذهب أفراد آخرون من أسرة **النبي** مع **زيد والحمزة**. بقي **أبو بكر** و**محمد** في **مكة** إلى أن غادر كل مسلم رغب الهجرة. لكن سرعان ما تركت هذه القطيعة فجوات مزعجة في المدينة مجسدة الجرح المفتوح الذي أحدثه **محمد** في قبيلة **قريش** التي كانت موحدة ومزدهرة جداً قبل عشر سنوات خلت. وتنقل لنا لقطة مؤثرة وصفاً لتلك الحالة المحزنة، فحين هاجر ابن عمة محمد **عبيد الله بن جحش** مع أسرته وأخواته وفرغ منزلهم الكبير وسط مكة، بعث منظره المهجور الحزن والشؤم عند **عتبة بن ربيعة** لما رأى أبوابه تصطفق مع الريح(٣٤).

توفي المُطَعَّم، حامي محمد في شهر آب، وهكذا أصبحت حياة محمد في خطر من جديد. عقد اجتماع خاص في هذا الشأن في مكة تغيب عنه **أبو لهب**. كان بعض زعماء مكة يريدون إخراج محمد من المدينة، بينما أدرك آخرون خطر انضمام محمد إلى المهاجرين الآخرين. وتم اعتبار المهاجرين خونة لا مبدأ لهم، وتعساء انتهكوا روابط القربى المقدسة، فلن يوقفهم شيء، وبما أن محمداً يتزعمهم فإن باستطاعتهم تهديد أمن مكة. تقدم **أبو جهل** بخطة للخلاص من محمد دون أن تؤدي إلى الثأر بالدم. تقضي الخطة أن تختار كل عشيرة شاباً قوياً منها ممثلاً عنها، ويُقْدِم هؤلاء على قتل محمد في وقت واحد. وبهذا تصبح العشائر كلها مشتركة في قتله ولن يكون أمام **بني هاشم** سوى الرضى بالدية لأنهم لن يقووا على محاربة قريش كلها.

تم ترشيح هؤلاء الشبان سريعاً، وتجمّعوا خارج منزل محمد، لكنهم اضطربوا لدى سماعهم أصوات سوْدَة وبنات النبي آتية من النوافذ. فَقَتْلُ رجلٍ في حضرة نسائه عارٌ وخزي لذلك قرروا الانتظار حتى يغادر المنزل صباحاً. استرق أحد المتآمرين النظر عبر النافذة فرأى **محمداً** مستلقياً على فراشه وقد لف نفسه بعباءته.

فلم يدركوا أن جبريل قد أيقظه فخرج عبر نافذة خلفية، وترك **علياً** بن أبي طالب مكانه. كان **علي** قد أجّل هجرته كي يساعد محمداً في ترتيب أموره. استلقى علي في فراش النبي، متظاهراً بالنوم. ولم ينتبه الشبان إلى الأمر إلاّ بعد أن سار خارج المنزل مرتدياً عباءة **محمد** عندها أدرك الشبان أنهم قد خُدِعوا. عرضت قريش مكافأة ـ ثلاثمئة ناقة ـ لمن يعيد محمداً حياً أو ميتاً إليها.

كان **محمد** وأبو **بكر** مختبئين في غار ثور في أحد الجبال خارج مكة. مكثا فيه ثلاثة أيام. كان أنصارهما يتسللون من حين لآخر من مكة جالبين لهما الطعام والأخبار. يروي التراث أن فرقة بحث مرت بالكهف دون أن تكترث بما قد يحتويه لأن عنكبوتاً ضخماً نسج عشه على مدخل الكهف ونمت شجرة سنط ـ بشكل إعجازي في ليلة واحدة ـ أمام الكهف. وفي المكان الذي يضع قدمه من يريد أن يتسلق الكهف رقدت حمامة صخرية على بيضها، ضمن عش يوحي بمضي وقت طويل على وجوده. وعلى امتداد الأيام الثلاثة شعر النبي براحة نفسية عميقة تستند إلى ذلك الإحساس القوي بوجود الله إلى جانبه ويطلق القرآن على ذلك الشعور السكينة. إنها السكينة التي تتقارب مع الشيكنه Shekinah في العبرية التي تدل على الحضور الإلهي على الأرض:

> **﴿إلَّا تنصروه فقد نصره الله إذْ أَخرجَه الذين كفروا ثانِيَ اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السُّفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم[٣٥]﴾.**

وعندما بدا الوضع آمناً خرج محمد وأبو بكر من الغار حذرين كيلا يُجْفِلا الحمامة الراقدة في عشها، وامتطيا الراحلتين اللتين كان أبو بكر أحضرهما. أراد أبو بكر أن يعطي الناقة الأفضل لمحمد الذي أصر على دفع ثمنها. فهذه كانت هجرته الشخصية، قربانه إلى الله، ولذلك جعل الحدث بأكمله حدثاً خاصاً به كلياً. أطلق النبي على الناقة اسم القصواء وكانت مطيته المفضلة طوال بقية حياته.

كانت الرحلة التي بدأها محمد محفوفة بالمخاطر لأنه لم يكن وهو في طريقه إلى المدينة يتمتع بحماية أحد. أخذهما الدليل في طريق متعرج غير مباشر كي يضلل من يتعقب أثرهما. في هذه الأثناء كان المسلمون يترقبون وصولهما بقلق.

فالعديد من المهاجرين الذين استقروا في قباء - الجزء الجنوبي القصي من الواحة - كانوا كل يوم بعد صلاة الصبح يصعدون الصخور البركانية القريبة ويمسحون الأفق بأبصارهم في كل الاتجاهات بحثاً عنهما. في صباح الرابع من أيلول عام ٦٢٢ شاهد أحد اليهود المجموعة فنادى الأنصار «يا بني قيلة! ها جدُّكم قد جاء»[٣٦]. فخفَّ الرجال والنساء والأطفال لملاقاتهما فوجدوهما يستريحان في ظل نخلة.

أقام محمد وأبو بكر في قباء ثلاثة أيام وانضم إليهما علي في اليوم الثالث. ثم تابع محمد طريقه إلى المدينة (القسم المزدحم بالسكان) لملاقاة المسلمين المتلهفين لرؤيته وليقرر أين يسكن. كان يمتطي راحلته التي قيل إنها كانت تحت تأثير إلهي (مأمورة) فارخى لها العنان. في أثناء مروره بين المنازل توسل إليه كثيرون كي ينزل ويقيم عندهم لكنه كان يعتذر بأدب بالغ. ثم بركت الناقة عند مِرْبَد لغلامين يتيمين من بني النجار، ترجل محمد وسمح بإدخال رحله إلى المنزل الأقرب. وبدأ يفاوض الأخوين على بيع أرضهما. وبعد أن اتفق الطرفان أمر ببناء مسجد ليكون فيه أيضاً سكنه. شارك جميع المسلمين في العمل: المهاجرون والأنصار جنباً إلى جنب، لم يكن القرشيون معتادين على ممارسة العمل اليدوي، ويبدو أن عثمان بن عفان وجد الأمر مرهقاً. وفي أثناء العمل كانوا يرددون أراجيز نظمت لهذه المناسبة:

«لاعيش إلاَّ عيش الآخرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجره»[٣٧].

كان محمد يعدّل في الشطر الأخير إلى: «اللهم ارحم المهاجرين والأنصار»، إلا أن هذا التعديل كان ينسف القافية والوزن، فكان هذا نوعاً من الإيضاح لِأُمّيّة محمد، ولم يكن شاعراً مطبوعاً، ودلت عدم براعته الشعرية على العنصر الإعجازي في القرآن.

لكن المهاجرين والأنصار كانوا بحاجة إلى رابطة رسمية تربطهم أكثر من مجرد نشيد ونشاط مشترك، لذا وُضِعَتْ معاهدة وقد حفظتها لنا المصادر الأولى، فأصبح باستطاعتنا رؤية المخطط الأول في المجتمع الإسلامي.

نصت المعاهدة على دخول محمد في اتفاق مع القبائل العربية واليهودية في المدينة. كان على القبائل في الواحة دفن عداواتها القديمة، وأن تتشكل وكأنما في

قبيلة جديدة «عليا». على المسلمين واليهود العيش بسلام مع الوثنيين في المدينة طالما أنهم لم يبرموا معاهدة منفصلة مع مكة في محاولة للخلاص من النبي. جاء في البند العشرين من العهد: «لايجير مشرك مالاً لقريش ولانفساً ولايحول دونه على مؤمن»[٣٨]: كما جاء في هذا العهد أن أي خلاف «مردُّهُ إلى الله عزّ وجل» و«ذمة الله واحدة»[٣٩]، أما المسلمون ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم فقد شكلوا جماعة من نوع جديد كل الجدة «إنهم أمة واحدة من دون الناس». كانت القبيلة حتى تلك الفترة هي الوحدة الأساسية للمجتمع أما الأمة فهي المجتمع الذي يقوم على الدين لا على القرابة أو النسب. كان هذا ماجاء به الاسلام وكانت هذه رؤية جديدة لاسابقة لها في الجزيرة العربية. لم تكن ولاية محمد في الأصل تعني أنها تبيح له تشكيل «ثيوقراطية» حكومة دينية فربما لم يكن يعرف ما تعنيه هذه الكلمة. لكن الأحداث دفعته إلى خارج تصوراته الأصلية السابقة، إلى حل جديد تماماً. طوال سنوات كان الإسلام قوة تقسيمية في المجتمع، فقد اتهم محمد بسرقة الأبناء من الآباء. ولكن لم يكن ليحلم أحد بالتخلي عن قبيلة قريش. أما الآن فقد ألغيت الروابط القبلية القديمة، وشكلت قريش والأوس والخزرج أمة واحدة. وهكذا بدأ الإسلام يتجه بقوة نحو الوحدة بدلاً من التقسيم.

كان لا بد أن يؤثر مفهوم القبيلة على نظرة المسلمين الأولى إلى الأمة. فالمفردات القبلية ما زالت تشكل الطريقة التي كانوا يرون فيها المجتمع الجديد. وهكذا ورد في القرآن:

> **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضُهم أوْلِياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير[٤١]﴾.**

لكي تصبح عضواً في الأمة عليك أن تقوم بالهجرة، أن تترك قبيلتك وتنضم إلى الأمة. فالأمة ـ على شاكلة القبيلة ـ كانت عالمأبحد ذاته: «أمة واحدة من دون الناس»[٤٢] لكنها تقيم تحالفات مع قبائل أخرى بالطريقة التقليدية. كان على وحدة الأمة أن تعكس الوحدة الإلهية التي كان المسلمون مطالبين ببنائها في حياتهم الشخصية. فروابط الدم والتحالف القبلي القديم ينبغي ألا تقف عقبة في طريق الأمة

أو أن تصدّع وحدتها إلى معكسرات متحاربة. يجب ألا يحارب المسلم مسلماً آخر أياً تكن قبيلته. لم يكن محمد زعيماً لهذه الأمة حتى الآن، وكان مركزه في المدينة متواضعاً إذا ما قيس بمراكز زعماء المدينة مثل **سعد بن معاذ** أو ابنِ أُبَيّ. الوظيفة الخاصة الوحيدة التي كانت منوطة به هي الوسيط النزيه في النزاعات بين المسلمين.

كان الحل الذي قدمه محمد حلاً ثورياً، وكان كل امرىء مستعداً لتجربته في الأيام الأولى لأن الوضع في المدينة أصبح لايطاق، فبدا أن أي تغيير كان مفضلاً لدى الناس على حالة الحرب التي لا علاج لها، ولم تصدر معارضة عن الوثنيين. كان هناك زاهد عربي يدعى **أبو عامر** (ويلقب أحياناً بالراهب) قد ارتد إلى مكة بعد وصول محمد. كذلك طأطأ الوثنيون رؤوسهم، فحتى **أبو قيس** اعتنق الإسلام وأصبح مسلماً ملتزماً فاضلاً. كان اليهود مستعدين لقبول النظام الجديد في البداية وقرر بعضهم التحول إلى هذا الشكل الجديد من الوحدانية العربية. لكن محمداً لم يطلب منهم أبداً قبول دين الله الذي دعا إليه ما لم يرغبوا بذلك. هناك آية في القرآن توحي بأن اليهود يشكلون نوعاً من مجتمع موازٍ[٤٣] إذ بين أيديهم وحي صادق تماماً خاصٌ بهم، وبكلمات قرآنية لم تكن هناك حاجة بهم لاعتناق الإسلام. بدا كل شيء ـ في البداية ـ مفعماً بالأمل. في تلك الفترة اعتنق الإسلام رجل لم يكن عربياً على الإطلاق. فأثناء بناء المسجد قَدِمَ عبد فارسي يدعى **سلمان** كان مملوكاً ليهودي من بني قريظة، قَدِمَ إلى محمد وقص عليه قصته. وُلد قرب أصفهان، واعتنق المسيحية، ثم ارتحل إلى سورية حيث سمع قصصاً عن النبي الذي سيظهر بين العرب، ومن ثمَّ أُخِذَ أسيراً وهو في طريقه إلى الحجاز، وشاءت العناية الإلهية أن يُحضرَ إلى المدينة. لقد غدا سلمان شخصية مرموقة في الإسلام، ويعتبر عادة المتنبىء في جميع الشعوب الشرقية غير العربية التي وضعت مواهبها في خدمة الإسلام.

كان بناء المسجد قد اكتمل في شهر نيسان عام ٦٢٣ أي بعد مضي سبعة أشهر على الهجرة. في الجدار الشمالي المواجه للقدس بُنِيَ محراب ليكون علامة على القبلة، وجهة الصلاة. وكانت له باحة كبيرة للصلاة الجماعية. كان الناس يذهبون إلى الصلاة دون أذان في البداية. فكر محمد باستخدام بوق من قرن كبش مثل اليهود، أو ناقوس خشبي مثل المسيحيين الشرقيين، لكن أحد المهاجرين رأى في حلمه أن رجلاً كان يرتدي عباءة خضراء أخبره أن أفضل وسيلة لمناداة الناس

للصلاة هي أن يردد رجل جهوري الصوت: الله أكبر أربع مرات، ثم يسير النداء كما يلي: «أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله». أحب محمد الفكرة وعين بلالاً كي يقوم بذلك(*). كان بلال يصعد إلى قمة أعلى بيت قرب المسجد كل صباح، وهناك ينتظر بزوغ الفجر، فإذا رآه قال: «اللهم إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يُقيموا على دينك»[٤٤].

كان لمحمد بناءان قديمان صغيران ملاصقان للحائط الشرقي اتخذهما سكناً له، أحدهما لِسَوْدَةْ والآخر لعائشة. لاحقاً، صار لكل واحدة من زوجاته غرفتها الخاصة بها، ويبيت مع كل منهن بالدور. عندما أصبح المسجد جاهزاً أرسل زيداً ليجلب نساء محمد اللواتي بقين في مكة. رجع زيد مع سودة وبنات محمد أم كلثوم وفاطمة عدا زينب التي بقيت مع زوجها الوثني أبي العاص، وزوجة زيد أم أيمن، ورافقه من بقي من أسرة أبي بكر: ابنه عبد الله وزوجته أم رُمان وابنتاه أسماء وعائشة.

ما أن وصلت النسوة حتى حصلت زيجات كثيرة. قرر محمد أن يزوج زيداً امرأة أقرب إليه سناً من أم أيمن، فطلب من عبد الله بن جحش ـ نيابة عن زيد ـ أخته الجميلة زينب التي لم تكن مسرورة للفكرة لأن زيداً لم يكن شاباً وسيماً: قامته قصيرة، وأسود البشرة وأفطس الأنف، وكان لزينب طموحات أكبر كما سنرى. لكنها وافقت عندما رأت أن تلك كانت رغبة محمد. زوج أبو بكر ابنته أسماء لابن عمة محمد الزبير بن العوام كي يمتن روابطه بأسرة النبي.

بعد مضي شهر على وصول عائشة إلى المدينة تقرر زفافها على محمد.

(*) يُروى أن صاحب الحلم بشأن الأذان هو عبدالله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه وجاء في الرواية أيضاً أن عمر بن الخطاب أكد للرسول حين سماع الأذان أنه رأى في حلمه الشيء نفسه). لكن في السيرة رواية أخرى تفيد: «بينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام: لاتجعلوا الناقوس، بل أذّنوا للصلاة. فذهب عمر الى النبي (صلعم) ليخبره بالذي رأى، وقد جاء النبي الوحيُ بذلك، فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال رسول الله (ص) حين أخبره بذلك: قد سبقك بذلك الوحي». انظر السيرة النبوية لابن هشام، تحت عنوان «خبر الأذان».

كانت لمّا تبلغ التاسعة من عمرها بعد. لذا لم تقم مأدبة العرس وكان الاحتفال في حدوده الدنيا. تشير كتب كثيرة إلى أن عائشة لم يكن لديها فكرة عن أنها ستتزوج في ذلك اليوم، فكانت تلعب مع صديقاتها على الأرجوحة. كان أبو بكر قد أحضر قماشاً جميلاً مخططاً باللون الأحمر من البحرين وخاطه ثوباً لها ثم أخذوها إلى سكنها الصغير بالقرب من المسجد. وهناك كان محمد بانتظارها فضحك بينما كانوا يلبسونها المجوهرات ويزينونها ويسرحون شعرها الطويل. وفي النهاية أحضر وعاء مليء باللبن، وشربا منه. لم يشكل الزواج فارقاً كبيراً في حياة عائشة. فالطبري يقول إنها كانت صغيرة جداً لدرجة أنها بقيت في بيت أبيها، وتم الزواج هناك عندما وصلت سن البلوغ. كانت عائشة تذهب لتلعب مع صديقاتها ودماها، وكان محمد يأتي أحياناً لرؤيتها. وتقول عائشة إن الفتيات كن يتسللن إلى خارج المنزل، وكان يذهب ويعود بهن إكراماً لي. كان محمد يستمتع باللعب مع بناته عندما كن صغيرات، وكان أحياناً يشارك عائشة اللعب. فذات يوم «دخل النبي بينما كنت ألعب بالدمى فقال يا عائشة ما هذه الدمى؟ فقلت إنها خيول سليمان، فضحك»[٤٥].

لكن عائشة شعرت بالحزن يخيم على الأمة. فذات يوم وجدت والدها ورجلين أعتقهما ـ هما عامر وبلال ـ ممددين على الأرض مرضى بالحمى التي أصابت الكثيرين لدى وصولهم إلى يثرب. كان الثلاثة يهذون. وكان بلال ممدداً وحده في زاوية ينشد بصوته الجهوري أهزوجة حنين إلى مكة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بفخٍّ وحولي إذْخرٌ وجليل

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مِجنّةٍ

وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطُفيل(*)

إثر هذا المشهد ركضت عائشة إلى محمد الذي كان مدركاً للألم أو الإحساس بالاقتلاع الذي كان يعاني منه المهاجرون. فهدَّأ من روعها وأضاف مبتهلاً: «اللهمّ حبّب إلينا المدينة كما حببتَ إلينا مكة وانقل وباءها إلى مهْيَعَةً»[٤٧].

(*) فخ: موضع خارج مكة ـ إذْخر: نبات طيب الرائحة ـ مجنة اسم سوق للعرب في الجاهلية يقع في أسفل مكة.

كان مدركاً أيضاً لمشكلة أكثر خطورة بين الأنصار. فلم يكن جميع مسلمي المدينة ملتزمين كلياً، لأنهم اعتنقوا الإسلام من أجل المنفعة لا عن قناعة. فكان الإسلام - بالنسبة لهم - تياراً لا سبيل لمقاومته، ولم يكونوا راغبين أن يبقوا في المؤخرة. كانوا - بدايةً - يجلسون على «السور» بانتظار ما ستتمخض عنه هذه المغامرة الجديدة. تجمع هؤلاء الناقمون حول عبد الله بن أبي الذي كان مرجحاً أن يصبح ملكاً على المدينة لولا وصول محمد إليها. لقد أصبح ابن أبي مسلماً، لكنه لم يكن متحمساً، وكان يأمل أن يقبض على ناصية الأمر في اللحظة المناسبة حين تتعثر الحركة. تُبَيِّن السورة الثانية التي نزلت خلال الأشهر القلائل الأولى في المدينة، تبين إدراك محمد للصعوبة التي كان يلقاها المسلمون[٤٨]. توجب على محمد بدايةً أن يكون صبوراً في تعامله مع ابن أُبَيْ، فأعطاه مكانة رفيعة في المسجد، وسمح له أن يخطب في الناس الجمعة، وبالمقابل كان ابن أبي مهذباً مع محمد، لكن أحياناً كانت عداوته تطفوا على السطح. ففي إثر حادثة تناهى الى سمع النبي أمر نُكُرٌ منه، فتغير وجهه. عندها انتحى أحد الأنصار بالنبي وتوسَّل إليه:

> «يارسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكه»[٤٩].

في البداية كان اليهود كبقية المنافقين العرب يسايرون محمداً، خاصة منذ أن أظهر ميلاً واضحاً نحو اليهودية. لكنهم ما لبثوا أن انضموا إلى ابن أبي ضد الإسلام. بدؤوا يتجمعون في المسجد أثناء الخطب بغية «الاستماع إلى قصص المسلمين وليسخروا من دينهم»[٥٠]. وبما أنهم كانوا يلمون جيداً بما كانت تقدمه التوراة من قصص وأخبار فقد مكنهم ذلك من أن يسخروا من بعض قصص القرآن عن الأنبياء التي كانت تختلف كثيراً عن روايتها التوراتية. لقد رفضوا - محدثين ضجة في رفضهم - قبول محمد كنبي حقيقي. وردّوا بسخرية على اعتقاد رجل أنه يتلقى إيحاء من ربه بينما لا يستطيع أن يجد ناقته إن تضل[٥١].

أقلقت هذه الانتقادات اللاذعة المسلمين كثيراً. ووصلت الأمور إلى حدٍّ بات فيه الشجار يتكرر كثيراً. وقعت حوادث كريهة طُرِدَ فيها اليهود بالقوة من المسجد وذلك إثر أنواع من السخرية الخبيثة. فرفضهم كان مبنياً على أسباب دينية راسخة. لقد كانوا يتوقعون مسيحاً وفي الوقت ذاته كانوا يعتقدون أن عصر النبوة قد انتهى. فلم يعد بوسع يهودي أو مسيحي أن يزعم أنه نبي، أكثر من زعمه أنه كان ملاكاً

بطريركاً. كان لليهودية تراث طويل للترحاب بالذين «يتقون الله» في الكنس، فأناس كهؤلاء لم يلتزموا بشريعة موسى كاملة بل كانوا يُعدّون أصدقاء وحلفاء، ولا بد أن المسلمين كانوا مرشحين لهذا التحالف. لكن عندما أدرك اليهود أن مكانتهم قد أخذت تتراجع في المدينة منذ وصول محمد حتى رفضوه بعنف.

ربما كان رفض اليهود لمحمد أكبر خيبة في حياته، وتحدٍ لمكانته الدينية كلها. مع ذلك كان هناك بعض اليهود الطيبين في المدينة ممن ساعدوه في كيفية الردّ على زملائهم بأساليبهم نفسها عن طريق تزويده ببعض المعلومات عن الكتاب المقدس. كان الهجوم القرآني على اليهود يتطور جيداً، ويبين كم كان نقدهم مزعجاً لمحمد، لكن محمداً بمعرفته المتزايدة كان قادراً على الرد على تعليقاتهم اللعينة. فكتابهم المقدس يصفهم بأنهم لايؤتمنون، فقد نقضوا ميثاقهم مع الله عندما ارتدوا إلى الوثنية؛ وعبدوا العجل الذهبي(٥٢)، كما قاموا ببدعة لا أساس لها عندما قدسوا الشريعة الشفوية(٥٣*). ورفضوا الاستماع إلى تحذيرات أنبيائهم مرة تلو أخرى(٥٤). لقد تعلّم محمد أيضاً التسلسل التاريخي اليهودي، واكتشف أن بين اليهود والمسيحيين نقاط خلاف كبيرة، بعد أن كان يعتقد أنهما ينتميان إلى دين واحد. بالنسبة لأناس من الخارج ـ كالعرب ـ فإن الاختيار بين الدينين لم يكن أمراً هاماً. وكان طبيعياً تخيل أن أهل الكتاب قد قاموا بإضافات عناصر غير صحيحة وجديدة إلى الوحي الأصلي النقي. لم يؤثر نزاع محمد مع اليهود على علاقاته بالمسيحية فأحياناً يقف القرآن في صف المسيحيين ضد اليهود ـ عندما يرد على زعم اليهود بأنهم قد صلبوا يسوع ـ بالقول إن يسوعاً لم يمت على الصليب إطلاقاً بل شُبِّه لهم(٥٥*). لكن القرآن رفض زعم المسيحيين أن الله قد اتخذ يسوع ابناً له. فمحمد الذي عانى كثيراً لرفضه قبول

(٥٣*) ـ في السورة ٣ (آل عمران)، الآية: ٧٢ ، ٣: ٨٧ ، وُجِّهت تهمة إلى اليهود بتحريف النصوص كي تخدمهم (٤: ٤٨ ، ٥: ١٦). وفي مرحلة لاحقة استخدم المسلمون هذه الآيات للقول إن الكتاب اليهودي مزور. وتقول الآية إن اليهود قد حرفوا الكلمات عن معانيها الحقيقية.

(٥٥*) ـ انظر مثلاً السورة ٤ (النساء)، الآية: ١٥٦ ـ ١٥٧ . فهذا ليس هجوماً على يسوع أو ضد المسيحية لكنه جزء من اللاهوت ضد اليهود. فكرة أن يسوع لم يتعذب ولم يمت فعلاً على الصليب كانت سمة لفكر الطوائف المسيحية الشرقية والمانوية التي يبدو أنها قد وصلت إلى الجزيرة العربية.

أن لله بنات كان من المحال أن يقبل أن الله اتخذ ولداً. فالقرآن يؤكد مرة تلو أخرى أن هذا الاعتقاد هو مثال على «الظن»: التأمل التفصيلي في الأشياء التي لا يستطيع أحد معرفتها، والذي شق أهل الكتاب إلى معسكرين متحاربين(٥٦).

مع ذلك استمر محمد في التأكيد على أن وحيه كان متسقاً مع الإيحاءات السابقة التي نقلها أنبياء أقدم منه. فاليهود ليسوا جميعاً أعداء، وكان يصر على أنه بالرغم من مشكلات المسلمين الحالية ينبغي أن يؤكدوا على الأشياء المشتركة بينهم وبين أهل الكتاب. ويرجح أن محمداً لم يكن يعتقد أن المسيحيين جميعاً يؤمنون بالفكرة المشينة التي تقول بأن الله اتخذ له ولداً. لذلك كان على المسلمين ألاَّ يناهضوا أحداً من اليهود والمسيحيين إلاَّ من يعادي القرآن أو من يأتي بالبدع التي لايقرها الدين الحق:

> **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزِل إلينا وأُنزِل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون(٥٧)﴾.**

لقد أصبح الجدال مع القبائل اليهودية الرئيسة الثلاث في يثرب أكثر سوءاً، إلا أن السياسة الإسلامية الرسمية بقيت كما نصت عليه الآية السابقة.

في المدينة عرف محمد المزيد عن **إبراهيم**. وقد مكّنته معرفته بالتسلسل الزمني لتاريخ الخلاص من أن يعرف أن **إبراهيم** قد عاش قبل **موسى** و**عيسى** وأدرك أهمية ذلك. وبالتالي كان من المنطقي الافتراض بأن أتباع موسى ويسوع ـ الذين بدوا رهينة جدال لا طائل تحته، قد أدخلوا بدعاً ضارة في دين إبراهيم الحق الذي عاش قبل التوراة والإنجيل:

> **﴿ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. إن أَوْلَى الناس بـإبراهيمَ لَلَّذين اتبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين(٥٨)﴾.**

في مكة كان موسى هو النبي المفضل عند المسلمين، وفي المدينة احتل إبراهيم منزلة موسى، وبذلك وجد محمد رداً كاملاً على سخرية اليهود. لقد كان يعود ـ هو والمسلمون ـ إلى روح الدين النقي (الحنيفيّة) لإبراهيم الذي كان أول المسلمين.

لا نعرف إلى أي حد استجاب محمد لرغبة بعض العرب في البلدان المستقرة بالعودة إلى دين إبراهيم، إذ ليس في القرآن ذكر لطائفة الحنيفية القليلة العدد في مكة. كما لم يكن هناك سوى اهتمام قليل بـ**إبراهيم** قبل السور المدنية. وفي هذه الفترة يبدو أن المسلمين أسموا دينهم «الحنيفية» الدين النقي الذي تبعه **إبراهيم**.

لقد وجد محمد طريقة للرد على اليهود دون أن يتخلى عن معتقده الأساسي بأن الإيمان كان يعني التسليم لله لا تسليماً لأي تعبير دنيوي. إن تقديره الجديد لأهمية إبراهيم مكنه من تعميق ذلك التصور. فاليهود والمسيحيون الذين كانوا يحثون الناس على قبول إيحاءاتهم الخاصة بهم وطرح ماعدا ذلك كانوا يبتعدون عن وحي إبراهيم الأول، وعن الرسالة النقية التي جاء بها أنبياؤهم السابقون الذين أكد كل نبي منهم ما جاء به من سبقه:

> **﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتِيَ النبيُّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[٥٩]﴾.**

لاغرو أنَّ تفضيل تعبير بشري للدين على الله نفسه هو صنمية. فالإيحاءات لم تلغِ رسالات الأنبياء السابقين، بل أكدتها وأكملتها.

كان ذكر إسماعيل ـ الابن الأكبر لإبراهيم ـ ذا أهمية حاسمة في لائحة الأنبياء هذه. كان أصدقاء محمد من اليهود العرب قد أخبروه قصة إسماعيل للمرة الأولى، وأضافوا إليها أساطير محلية من عندهم[٦٠]. ففي سفر التكوين قيل إن إبراهيم كان لديه ابن من **هاجر** خليلته، وكان اسمه إسماعيل أي «سمع الله». وحينما وضعت **سارة إسحاقاً**، استولت عليها الغيرة من **هاجر** وابنها **اسماعيل** فأصرت على إبراهيم أن يتخلص منها ومن ابنها. شعر إبراهيم بالحزن على فراق ابنه لكن الله وعده أن إسماعيل سيغدو أباً لأمة عظيمة. لذلك انطلق إبراهيم والأسى يعتصره بهاجر وابنها الى وادٍ لازرع فيه، أي إلى بَرّيةٍ وتركهما هناك. وهناك نما إسماعيل وترعرع طليقاً وصار محارباً عظيماً[٦١]. اعتقد اليهود العرب أن إسماعيل أصبح جد العرب. وقيل إن إبراهيم أحضر هاجر وابنها إلى وادي مكة وتركهما هناك فأحاطهما الله برعايته. وفي مرحلة تالية زار إبراهيم إسماعيل في مكة، وبنيا معاً

الكعبة أول بيت لله في الجزيرة وبالتالي كان العرب أبناء إبراهيم مثل اليهود.

لا بد أن وقع هذه القصة كان مثل وقع الموسيقا على أذني محمد. لقد أعطت أهمية جديدة للكعبة، وبينت أن الله لم ينس العرب بل كانوا جزءاً من مخططه منذ عصور غابرة. فالقرآن يصور إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان الله أن يرسل إلى العرب نبياً بعد انتهائهما من بناء الكعبة[٦٢]. فمحمد قد أتى بكتاب إلى العرب ومن ثم فهو يجلب لهم ديناً عربياً متميزاً يضرب جذوره في مقدسات أجدادهم.

أعلن دين الله استقلاله الرسمي عن الدين الأقدم بعد أن اتضح أن عداوة معظم اليهود لابد دائمة. ففي أواخر شهر كانون الثاني من عام ٦٢٤ ـ أي خلال شهر شعبان، بعد مضي نحو ١٨ شهراً على الهجرة ـ عندما كان محمد يؤم صلاة الجمعة في المسجد الذي كان قد بني في منطقة عشيرة **البراء بن معرور**، الذي كان قد توفي وكانت تلك تفاصيل لها دلالتها، نزل على النبي فجأة وحي خاص جعله والجمع كله يلتفون ويُصَلُّون باتجاه مكة بدلاً من بيت المقدس. لقد أعطى الله المسلمين بؤرة تركيز جديدة وتوجهاً جديداً (القبلة) يتوجهون نحوه في صلواتهم:

> **﴿قد نرى تَقَلُّبَ وجهك في السماء فَلَنُولِيَنَّكَ قِبْلَةً ترضاها فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فَوَلُّوا وجوهكم شَطْرَهُ وإنَّ الذين أوتوا الكتابَ لَيَعْلَمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون[٦٣]﴾.**

رأى بعضهم في تغيير القبلة ولادة دينية كانت الأكثر إبداعية وإلهاما فيما جاء به محمد. فبالتوجه نحو مكة كان المسلمون يعلنون بذكاء أنهم لا ينتمون إلى أي من المجتمعين القائمين بل يتوجهون فقط باتجاه الله ذاته. ففي توجههم صوب الكعبة كان المسلمون يبجلون الدين الأول الذي بشر به مَنْ بَنَى الكعبة التي كانت تتميز باستقلاليتها عن معتقدي التوحيد القديمين اللّذين يتحملان مسؤولية شرخ دين الله الواحد إلى شيع وأحزاب تتناحر فيما بينها. وهكذا فهم بعملهم هذا يعودون إلى العقيدة الخالصة النقية عقيدة باني الكعبة:

> **﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لستَ منهم في شيء إنَّما أمرُهُم إلى الله ثم يُنَبِّئُهم بما كانوا يفعلون﴾.**

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قِيَماً مِلَّة إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونُسُكي ومَحْيَايَ ومماتي لله ربِ العالمين. لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين. قلْ أَغَيْرَ اللهِ أبغي رباً وهو ربُّ كلِ شيءٍ ولا تكسِبُ كلُّ نفس إلا عليها ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثم إلى ربكم مرجِعُكم فَيُنَبِّـئُكم بما كنتم فيه تختلفون[٦٤]﴾.

إن تفضيل أي نظام بشري على الله ذاته هو صنمية (شرك)، ويجب على المسلمين أن يتخذوا الله بؤرة مركزية في حياتهم لا مؤسسة دينية أو تراثاً .

بالطبع كان القرآن محقاً في جعل المسلمين يفضلون القبلة على قبلة بيت المقدس. وكان المهاجرون والأنصار متحمسين للكعبة فليس مصادفة أن محمداً قابل الأنصار في الحج لأول مرة. أما الآن فلم يعد عليهم أن يشعروا أنهم «أقارب مساكين» للدينين الأقدم من الإسلام، أو أنهم يسيرون على خطاهما. لقد أصبح لديهم توجههم الخاص بهم المستقل عن الدينين اللذين كان فيهما تداعيات إمبريالية تعسة بالنسبة للعرب. كانت الحماسة لمكة عاملاً آخر إضافياً شد الأنصار والمهاجرين معاً في أمة مشتركة، إضافة إلى ذلك جاء هذا التحول نحو مكّة ليهدئ من الإحساس بالاقتلاع الذي تركته الهجرة في نفوس المهاجرين.

إن تغيير القبلة كان دلالة على هوية مسلمة جديدة تشعر بالاعتزاز. بدأ المسلمون يكتسبون ـ تدريجياً ـ هوية مشتركة راحت تربطهم. إذ على الرغم من أنهم كانوا يتحدرون من قبائل منفصلة صار لهم عادات وأخلاق مشتركة وكذلك سلوك وقيم واحدة، فجميعهم كانوا ينهضون في وقت واحد عندما كان يؤذن بلال للصلاة، وكلهم كانوا يتركون أعمالهم في منتصف النهار وفي المساء لأداء الصلاة. وكانت الزكاة تذكرهم بمسؤوليتهم المشتركة عن الفقراء. وسيقفون حيثما كانوا موجهين أنفسهم باتجاه مكة ثلاث مرات، اتجاه شعر الجميع أنهم متعلقون به عاطفياً. لقد تم هذا الاستقلال في وقت كان الأعداء يحيطون بالمسلمين من جميع الجوانب. وفسّر يهود المدينة على عجل تغيير القبلة على أنه تحدٍ. فزاد تصميمهم على الخلاص من محمد. وفي هذا الوقت أيضاً كانت الجماعة الإسلامية في المدينة تتوقع الهجوم الآتي من مكة القوية.

الفصل الثامن

الحرب المقدسة

ظل محمد شخصية مألوفة طيلة فترة ماقبل الهجرة. وحتى بعد تحمّله سنواتٍ من الاضطهاد والهزيمة، - وهي حالة يتفهمها من تربوا في الروحانية المسيحية ويحترمونها - بقي أيضاً نبياً غير معترف به في دياره. لكنه أصبح بعد الهجرة رمزاً لنجاح مذهل على الصعيدين السياسي والروحي، وعلى عكس المرحلة السابقة دفع نجاحه هذا بالغربيين المسيحيين إلى الشك بهذا الجانب من حياته. لقد استبعده منتقدوه في أوروبا بدعوى أنه مُدَّعٍ استخدم الدين كوسيلة للوصول إلى السلطة، بعد أن أصبح قائداً سياسياً ساحراً للجماهير، وغيّر ليس الجزيرة فقط بل غير تاريخ العالم كله. إننا نحن الغربيّين المسيحيين ميالون إلى رؤية الفشل والإذلال سمتين تميزان القائد الديني لأن صورة يسوع المصلوب تهيمن على العالم المسيحي، يسوع الذي قال إن ملكوته ليس من هذا العالم. لذلك فإننا لا نتوقع أن يحرز أبطالنا الروحيون نجاحات مبهرة في شروط دنيوية(١*).

إننا ميالون إلى اعتبار أن يشق محمد طريقه نحو السلام والسلطة أمراً فضائحياً وشريراً. لقد اتُّهم الإسلام بأنه دين السيف، دين تخلى عن الروحانية الحقة بتقديسه للعنف وعدم التسامح. وهذه صورة لاحقت الإسلام في الغرب المسيحي منذ العصور الوسطى، علماً أن المسيحيين كانوا في الوقت ذاته يخوضون حروبهم

(١*) - تنطبق هذه الملاحظات على المسيحية الغربية فقط. فالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لم تطور صورة المسيح المبجل بل صورة المسيح Pantocrater، امبراطور الكون. كان امبراطور بيزنطة ممثله على الأرض وكان بلاطه الرائع على شاكلة بلاط المسيح في السماء.

المقدسة في الشرق الأوسط. في أيامنا هذه كثيراً ما تُرَوِّج الكتب الشعبية والبرامج التلفزيونية عندنا نعوتاً مثل: «غضب الإسلام»، «سيف الإسلام»، «السعار المقدس»، أو «الرعب المقدس»، لكن هذه ليست إلا تشويهاً للحقائق. كل دين له عبقرية محددة ورؤية خاصة تسم بحثه عن معنى وقيمة مطلقة. فالمسيحية هي دين معاناة وخصومة بلا منازع. وكانت كذلك في أفضل حالاتها دائماً ـ على الأقل في الغرب ـ خلال فترات المحن. لقد عززت قرون الاضطهاد في أيام الكنيسة الأولى صورة المسيح المصلوب، فأحدثت أثراً عميقاً على الروح المسيحية. لقد شعر المسيحيون منذ البداية أن عليهم أن يهملوا الدنيا[٢*]. لذا أصبح تحدي أو فك الارتباط عن المؤسسة السياسية فضيلة في عصر الشهداء. لقد أصبح العذاب والموت من أجل المسيح التجربة الدينية العليا، وكان رسماً إيضاحياً لرفض السلطات الأرضية للمسيحيين. فالفكرة المسيحية بأن من الممكن أن يُؤَلَّه الإنسان ويتحول بالمعاناة هي فكرة ملهمة وقدمت العزاء إلى ملايين اليائسين، لكن أيضاً أسيء استخدامها. لقد تم إخبار المسيحيين أن عليهم واجب احتمال الظلم والجور، وأن الله أرسى تراتباً متسلسلاً جلس فيه الغني في قصره بينما جلس الفقير فيه عند بوابة القصر، وأن الإنسان سوف ينال مكافأة عما عاناه في هذا العالم في السماء. حتى يومنا هذا يلقى المسيحيون الأصوليون تشجيع قطاعات محددة من المؤسسة الأمريكية للتبشير بهذا الإنجيل في وسط وجنوبي أمريكا. وفي الوقت ذاته هناك مسيحيون آخرون يشعرون أن من واجبهم العيش إلى جانب المضطهدين والمحرومين بل والانخراط في كفاح من أجل تحقيق مجتمع لائق وعادل. ومن هذه الرؤية الأخيرة يتوجب علينا أن ننظر إلى مفهوم الجهاد الإسلامي الذي يترجمه الغربيون عادة بـ «الحرب المقدسة».

اذن هناك ميل قوي في التراث المسيحي إلى اعتبار النشاط السياسي عرضياً بالنسبة للحياة الدينية: فالمسيحيون عموماً لم يعتبروا النجاح الدنيوي انتصاراً روحياً[٣*]. في أوروبا طورنا تدريجياً مثلاً أعلى يفصل الكنيسة عن الدولة، ونلوم

(٢*) ـ هذا الموقف موجود مسبقاً في العهد الجديد في الجزء الأول من يوحنا ٢: ١٢ ـ ١٧.

(٣*) ـ حتى المتطهرون البريطانيون البيوريتانز رأوا النجاح الدنيوي عبارة عن مكافأة أكثر منه إنجازاً روحياً بحد ذاته.

عادة الإسلام على خلطه مجالين هما بطبيعتهما منفصلان. لكن ينبغي ألا تدفعنا التجربة المسيحية إلى التحامل على تراثات دينية وثقافية أخرى تطورت في ظروف مختلفة. عندما جلب محمد وحيه إلى قومه كانت الجزيرة خارج العالم المتمدن، وكان استقرارها الاجتماعي والسياسي في حالة تردٍ. بينما ولدت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية التي فرضت مقداراً من السلم والأمن الاجتماعي حتى وإن تم ذلك في جو من الوحشية. لم يكن على يسوع وبولص أن يقلقا على الاستقرار الاجتماعي والسياسي لأنهما كانا مُنْجَزَيْن من قبل. وفي الحقيقة كانت رحلات بولص التبشيرية إلى خارج الإمبراطورية مستحيلة لولا ذلك. بالمقابل فإن رجلاً لا يتمتع بالحماية في الجزيرة معرض للقتل على الطريق دون أي عقاب للقاتل. في النهاية أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الرسمية في بداية القرن الرابع، ولم تكن المؤسسة المسيحية الجديدة تشعر أن عليها أن تخلق نظاماً سياسياً جديداً تماماً. لقد قامت فقط بتعميد المؤسسات القانونية الرومانية ولذلك بقيت السياسة عالماً منفصلاً.

إذا كانت ولادة عيسى جاءت في منطقة ومرحلة تسودهما الطمأنينة والسلام، فإن ولادة محمد لم تكن كذلك[٤]. لقد ولد في حمام دم في الجزيرة في القرن السابع حيث كانت تُنْسَفُ القيم القديمة من جذورها دون أن يظهر شيء كافٍ ليحل محلها. في البداية كان محمد يصر على أن مهمته ليست سياسية، مع ذلك فقد دعا ـ مثلما فعل الأنبياء العبرانيون إلى رسالة العدالة الاجتماعية. لكن الأحداث التي لم يستطع التنبؤ بها دفعته إلى مواجهة تحدٍ جديد عندما تلقى دعوة الهجرة إلى المدينة. ربما بدأ مسبقاً تَصَوُّرَ مثلٍ أعلى للوحدة العربية لا تحارب فيها قبيلة قبيلة أخرى، بل تشاركان في نوع جديد من كيان اجتماعي. كانت الحاجة ماسة لحل سياسي جديد، وكان لا بد أن يكون ذلك الحل دينياً. فحتى الهجرة لم يكن لدى محمد رؤية محددة، ولا خطة سياسية موضوعة سلفاً يأمل من خلالها تحقيق هدف واضح تماماً. لم يضع أبداً ذلك النوع من المخططات الكبيرة بل استجاب لكل حادثة جديدة أثناء وقوعها، كان هذا أمراً أساسياً. كان يتحرك تدريجياً باتجاه المجهول الذي لا سابقة له، فأية أفكار وسياسات محددة بوضوح تنتمي بمعنى ما إلى النظام القديم المتهاوي. لقد بقي الله أولويته الأولى قبل كل شيء.

بعد الهجرة إلى المدينة حدث تغير في القرآن عندما بدأ محمد باتخاذ المزيد من القرارات التي لها طبيعة اجتماعية وسياسية. فالسور غير المترابطة التي تنطق بحقائق لا سبيل إلى وصفها حلت محلها آيات أكثر عملية، مُرسِيَةً تشريعاً جديداً أو مُعَلِّقة على الوضع السياسي القائم. لكن هذا لا يعني ـ كما اقترح البعض من منتقديه الغربيين ـ أن رؤيته المحضة كانت مشوبة بشهوة السلطة. فالرجوع إلى الله يظل أمراً أساسياً مهما يكن الشيء الذي يناقشه القرآن. لقد قيل إن ما من تصور قرآني إلا وهو متمركز لاهوتياً: إنه يبقى متمركزاً حول الله بشكل مذهل. ففي كل أمرٍ يضع القرآن المسلمين أمام تحدٍ كبير، فهل يستسلمون لإرادة الله عن إيمان أم يتراجعون إلى وجهة نظرهم المحدودة والقاصرة؟ فمهما تبدو بعض الجمل دنيوية في الترجمة إلا أنها تحتفظ في اللغة العربية الأصلية بوقع عظيم. فالموسيقا وتراتب الكلمات جميعها تساعد على الإعلاء من الصور النثرية عن مستوى معاملات السوق. فعلى سبيل المثال عندما يتحدث القرآن عن إبرام صفقة جيدة مع الله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) فهو يضفي على الصورة هنا صفة القداسة قداسة النص الأساسية. عندما يستمع المسلمون إلى فقرة قصيرة فإنه يتم تذكيرهم بالكل. فالعبارات والتلميحات التي تتكرر دائماً، والتي تبدو مملة في الترجمة تستدعي فقرات أخرى إلى الذهن، وتساعد على تركيز الذهن على النقطة الأساسية. فكلما كان محمد يتطور أكثر كرجل دولة فإنه كان ـ بأعمق معنى ـ يتلقى على الدوام إلهاماً، ويُطَوِّر تدريجياً حلاً يجلب السلام إلى العرب.

إن رسالته الاجتماعية كانت مكملة لرؤيته الدينية، ولم تكن شيئاً أضافه كفكرة لاحقة على الرغم مما اضطلع به من دور سياسي في فترة لاحقة من حياته. فعندما كان القرآن يحث المسلمين على تأمل آيات الله في العالم الطبيعي فإنه كان ينمي فيهم شعوراً بالترتيب الإلهي. فالأسماك والطيور والحيوانات والأزهار والجبال والرياح ليس أمامها خيار سوى الامتثال إلى الخطة الإلهية، أي انها تعبر عمّا يريده الله لها في كل لحظة من وجودها. وعلى هذا النحو فان المسلمين دون ان يكون لهم خيار شخصي هم مُسْلمون بالفطرة يستسلمون لمشيئة الله وبذلك تتحقق إمكانياتهم الكامنة. لقد منح الله الإنسان دون سائر مخلوقاته الأخرى المسؤولية الصعبة، مسؤولية حرية الاختيار. وفي موضع بالغ الروعة يخبرنا القرآن كيف أن الله

عرض هذه المسؤولية الصعبة «الأمانة» التي هي هنا «حرية الاختيار» عرضها على كل مخلوقاته فلم تستطع تحملها وامتنعت عنها إشفاقاً منها. وحده الإنسان كان له من التهور ما دفعه إلى قبولها:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يَحْمِلنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً[٥]﴾.

لكن الله لم يترك البشر دون إرشاد، فلقد أرسل عدداً لا يحصى من الأنبياء إلى كل قوم على وجه الأرض كي يعرفوا ما يريده الله لهم. غير أن الناس منذ النبي آدم رفضوا الاستماع إلى إيحاءات الإرادة الإلهية. فهم إما أخفقوا في فهم الرسالة أو أنهم لم يستطيعوا ترسيخها في حياتهم اليومية. ومرة تلو أخرى كانت مجتمعاتهم تنهار على مرأى ومسمع منهم لأنها لم تكن مبنية وفقاً للطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأشياء. فالقرآن يصور شعباً تلو آخر وهو يرفض حتى أبسط أوامر أنبيائه[٦]. بدلاً من ذلك فقد استغلوا العالم الطبيعي بشكل سيء من أجل غاياتهم الأنانية، وجعلوا من أنفسهم مركزاً للكون. وهم برفضهم قبول الخطة الإلهية الموضوعة لسلوك البشر أفسدوا النظام الطبيعي تماماً، شأنهم شأن البحار تسبب الدمار والفوضى إذا ما انفلتت فجأة من حدودها المرسومة لها. ومن هنا فالمجتمع القرشي هالك لا محالة لأن قريشاً رفضت الاستماع إلى نبيها. لقد تنبأ محمد بكارثة محتمة ـ لا عن طريق تخيُّل أن يُرسل الله صاعقة على مكة في نوبة غضب إلهي - بل لأن القرشيين كانوا يصرون على إفساد النظام الحق.

لم يكن الأوان قد فات بعد، فقد أعطى الله سكان المدينة فرصة كي يستمعوا إلى قرآنهم العربي، وسيتمكن محمد من بناء مجتمع وفقاً لخطة الله في الواحة. بعض الأنبياء كانوا أكثر نجاحاً من بعضهم الآخر: لقد تمكن إبراهيم من إقناع عدد لا بأس به من الناس من أنه ليس هناك سوى إله واحد، وكان موسى ويسوع قادرين على إقناع أهل الكتاب بتطبيق التوراة والإنجيل. ومحمد بدوره أيضاً لن يقنع سكان المدينة فقط بل معظم سكان الجزيرة بالإنضمام إلى أمته الجديدة، وسيعتبره المسلمون أكثر الأنبياء نجاحاً فهم لا يبدؤون تأريخهم بولادة النبي ولا ببدء الوحي الأول بل بالسنة التي حدثت فيها الهجرة، ذلك لأنها كانت السنة التي بدأ فيها المسلمون تجسيد الخطة الإلهية في التاريخ الإنساني.

لقد أوقعهم هذا في صراع خطر جداً. ففي شهر أيلول من عام ٦٢٢م وصل محمد المدينة لاجئاً. وقد نجا من الموت بأعجوبة واستمر يتعرض للخطر على امتداد السنوات الخمس التالية، وإضافة إلى ذلك كانت الأمة تواجه خطر الإبادة خلال هذه الفترة. في الغرب نتصور محمداً كإله حرب شاهراً سيفه لفرض الإسلام بقوة السلاح على العالم المتردد، إلا أن الحقيقة هي شيء مختلف تماماً. فمحمد والمسلمون الأوائل كانوا يقاتلون دفاعاً عن حياتهم، إضافة إلى أنهم وضعوا نصب أعينهم مشروعاً كان لا بد من العنف فيه. فعبر التاريخ لم يتحقق تحول سياسي أو اجتماعي جذري دون سفك دماء، وكان محمد يعيش في فترة فوضى وتردٍ، لا يمكن تحقيق السلام فيها سوى بالسيف. ويعتبر المسلمون سنوات النبي في المدينة العصر الذهبي، لكنها كانت سنوات حزن ورعب وسفك دماء أيضاً. ولقد استطاعت الأمة من وضع نهاية للعنف الخطير المتفشي في الجزيرة لكن ذلك جاء من خلال جهود لم تعرف الكلل.

بدأ القرآن يحث مسلمي المدينة على المشاركة في الجهاد - وهذا كان يعني قتالاً وسفك دماء، لكن جذر الكلمة يتضمن أكثر من معنى «حرب مقدسة»: إنها تعني جهداً جسدياً وأخلاقياً وروحياً وثقافياً. هناك العديد من الكلمات العربية التي تعني القتال المسلح مثل: **حرب، صراع، معركة أو قتال**، ولكان باستطاعته أن يستخدم وبكل سهولة أياً من هذه المفردات لو أن الحرب كانت الطريقة الرئيسة للمسلمين للقيام بهذا الجهد. فبدلاً من ذلك يختار كلمة أكثر غموضاً وغنى ولها مجالُ معانٍ أكثر اتساعاً. فالجهاد ليس ركناً من أركان الإسلام الخمسة. إنه ليس الدعامة المركزية في الدين على الرغم من النظرة الغربية الشائعة. لكن **الجهاد** كان وما يزال واجباً على المسلمين يلزمون به أنفسهم في أي صراع على كافة الجبهات، **الأخلاقية والروحية والسياسية** وذلك من أجل تحقيق مجتمع لائق وعادل لا يتعرض فيه الفقير ولا الضعيف للاستغلال: أي بالطريقة التي أرادها الله للإنسان أن يعيش. فالحرب والقتل قد يكونان ضروريين أحياناً، لكن هذا مجرد جزء ثانوي من الجهاد كله. فهناك حديث عن النبي محمد بعد عودته من إحدى الغزوات:

«لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

أي أن الجهد الحاسم والأكثر صعوبة هو هذا السعي كي تُهزم قوى الشر في ذات الإنسان وفي مجتمعه وفي تفاصيل الحياة اليومية كلها.

مما لاريب فيه أن المسلمين حين هاجروا كانوا يعرفون أن عليهم الاستعداد للقتال. فالأنصار أبرموا ميثاق الحرب في العقبة الثانية. وبعد وصول محمد بفترة قصيرة تلقى وحياً يأذن للمهاجرين بالقتال أيضاً:

﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعض لهُدِّمَت صوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ الله كثيراً وَلَيَنصُرَنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز(٧)﴾.

بدأ القرآن يطور لاهوت الحرب العادلة: فأحياناً قد يكون خوض الحرب ضرورياً حفاظاً على قيم عليا. وما لم يكن المؤمنون مستعدين لصد الهجوم فإن جميع أماكن عبادتهم ـ على سبيل المثال ـ ستكون عرضة للدمار. ولن ينصر الله المسلمين إلّا إذا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وسنوا قوانين عادلة مشرفة وأرسوا مجتمع المساواة.

أُعطي إِذْنُ القتال هذا للمهاجرين فقط الذين ظلمتهم قريش وطردتهم من منازلهم في مكة. فلم يعط الأنصار الإذن بالمشاركة في القتال لأنهم ليسوا على عداوة رسمية مع مكة. لكن لا ينبغي أن نستشف من تلك الآيات التي تتحدث عن القتال أن محمداً كان يملك تصوراً عن حرب واسعة مع مكة في هذه المرحلة المبكرة، فالتفكير في ذلك كان يعني ضرباً من الجنون. لقد كان يفكر بشن هجوم متواضع جداً: فالغزو كان منذ أمد طويل نوعاً من رياضة وطنية في الجزيرة وطريقة مقبولة لتحقيق غايات في الأوقات العصيبة. كانت فرص كسب العيش أمام المهاجرين قليلة جداً في المدينة. فمعظمهم كانوا صيارفة ورجال مال وتجاراً ولا يعرفون إلا القليل عن زراعة النخيل حتى وإن توفرت الأرض لهم للبدء بمغامرتهم الزراعية. كانوا متكلين على الأنصار في معيشتهم، وسوف يصبحون عبئاً على الأمة ما لم يجدوا مصدر دخل مستقل. لم يكن باستطاعة كل منهم أن يفعل ما فعله الشاب الذكي التاجر عبد الرحمن لدى وصوله إلى المدينة. سأل عن الطريق المؤدية

إلى السوق، فأمن بسرعة دخلاً لنفسه عن طريق الشراء والبيع. لكن فرص التجارة كانت قليلة جداً في المدينة، ذلك لأن مكة كانت تحتكر العمل على نطاق كبير.

كان الغزو طريقة فظة وجاهزة لتأمين تداولٍ ذي شأن للثروة المتوفرة في مرحلة البداوة. كان الغزاة يغزون منطقة قبيلة معادية فيأخذون إبلها ومواشيها وسلعها الأخرى وكانوا يحاذرون سفك الدم تجنباً للثأر الذي يجره. كان موقع المدينة مثالياً لمهاجمة القوافل المكية التي كانت تحرسها قلة من التجار في طريقهم إلى ومن الشام. في عام ٦٢٣ أرسل النبي مجموعتي غزو من المهاجرين لمهاجمة القوافل. لم يذهب شخصياً على رأس المجموعتين بل عهد بذلك إلى رجال مثل **الحمزة** والمحارب الخبير **عبد الله بن الحارث**. ما من أحد في الجزيرة كان يتوقع من هذه الغارات أن تقضي على عقائد الآخرين لكن الناس أدهشتهم جرأة المسلمين على مهاجمة أقاربهم الأقوياء. لم تحقق الهجمات الأولى التي وقعت عام ٦٢٣ نجاحاً كبيراً، ذلك لأن الحصول على معلومات دقيقة عن حركة القوافل كان أمراً صعباً، فلم يتم الاستيلاء على بضائع ولم ينشب قتال، مع ذلك فقد تضايق المكيون وغضبوا. كان عليهم اتخاذ إجراءات احترازية لم تكن ضرورية من قبل، ولا بد أن القبائل البدوية على طول ساحل البحر الأحمر (الطريق التجاري المفضل) قد تأثرت بشجاعة المسلمين. فمع أن الغزاة الأوائل أخفقوا في مهاجمة القوافل فقد عقدوا معاهدات مع القبائل في نقاط استراتيجية مختلفة على طول الطريق. في شهر أيلول عام ٦٢٣ قرر محمد أن يقود الغزو بنفسه ضد قافلة كبيرة على رأسها **أمية** من عشيرة **جمح** (وكان أمية هذا قد سام أبا بكر العذاب من قبل). كانت القافلة مؤلفة من /٢٥٠٠/ جملاً، وبما أن الغنائم كانت كبيرة فقد تطوع نحو /٢٠٠/ مسلم للغزو. مع ذلك ضللت القافلة المسلمين ولم يحدث قتال.

في أشهر الشتاء كان القرشيون يرسلون قوافلهم جنوباً إلى اليمن فلم يعد لزاماً عليهم المرور بالمدينة. ولكي يبين لهم محمد جدية نواياه أرسل مجموعة غزو صغيرة مكونة من تسعة رجال بقيادة ابن عمته **عبد الله بن جحش** لمهاجمة إحدى القوافل الذاهبة إلى الجنوب. كانت نهاية شهر رجب ـ الشهر الحرام (كانون الثاني عام ٦٢٤) وكان كل قتال محرماً في أرجاء الجزيرة. أعطى محمد عبد الله أوامر مكتوبة ينبغي عدم معرفتها إلا بعد مضي يومين على خروج الحملة. وعد عبد الله ألا

يعرض أصحابه لأية ضغوط: كانوا يسيرون قريباً من مكة أكثر مما اقتربت أية حملة غزو سابقة، وبالتالي كان الخطر محتملاً.

فتح عبد الله الرسالة في الوقت المحدد، وتقدم لنا المصادر روايات مختلفة لنصها. فابن إسحاق يقول إنه طُلِبَ من المسلمين الذهاب إلى نخلة - بين مكة والطائف. وأن يتجسسوا على القافلة فقط. ولكن المؤرخ **محمد بن عمر الواقدي** الذي عاش في القرن التاسع يزعم أن الرسالة أفادت: «إمْضِ حتى تأتي بطن نخلة، فتَرَصد بها عِيرَ قريش»[٨]. وهذا كان يعني أن على المسلمين انتهاك حرمة الشهر الحرام. وفي حالة الأخذ بالرواية الثانية هذه يصبح ممكناً القول أن محمداً لم يكن يتخذ في ذلك الوقت المحاذير الكافية، فالأشهر الحرم كانت جزءاً من نظام وثني كان يحاول تقويضه. فانتهاك حرمتها كان معادلاً لإهانة الإلهات. قرر اثنان من الغزاة إعفاء نفسيهما من الحملة بدعوى أنهما أضاعا جمليهما في المحطة الثانية التي استراحوا فيها، فطلبا من السبعة الباقين المضي دونهما. عندما وصل عبد الله ومجموعته إلى نخلة وجدوا قافلة صغيرة قد خيمت بالقرب من المكان في اليوم الأخير من شهر رجب. فما الذي عليهم فعله؟ إذا انتظروا حتى اليوم التالي أي عندما يسمح لهم بالقتال ستكون القافلة قد وصلت سالمة إلى الحرم المكي. ولذلك قرروا الهجوم فقتل أول سهم أطلقوه واحداً من التجار الثلاثة واستسلم الباقون حالاً، فأخذ عبد الله الرجلين وتجارتهما عائداً إلى المدينة.

لكن بدلاً من أن يستقبلهم الناس كأبطال منتصرين أصيبوا بالذعر عندما سمعوا أن الغزوة قد انتهكت حرمة الشهر الحرام. لم يكن عرب المدينة كما سبق ورأينا منزعجين من إلغاء محمد لعبادة الإلهات الثلاث، إذ كان اليهود قد أعدوهم لرؤيةٍ تَقُرّ بالوحدانية فكانوا على استعداد للتخلي عن جزء من دينهم الوثني. لكنهم كانوا متعلقين بالأشهر الحرم تعلقاً جلياً ولم يكونوا مستعدين للتخلي عن هذه القيمة الدينية. لهذا السبب تبرأ محمد من الغزوة ورفض قبول أية غنيمة. إذا كانت هذه الحركة تبدو كحركة ساخرة فإنها تبدو جزءاً من نفعية ثقافية باردة مع أنها براغماتية محضة. لم يكن محمد يقبل المساومة على الأساسيات: لقد وضع جميع المسلمين في مكة في خطر عندما رفض حلاً لا يقر بوحدانية الله مع قريش. أما في ذلك الوقت فقد كان يختط طريقه لينشر دين الله ببطء خطوة خطوة كما كانت

تتكشف عنه الأحداث. في البداية لم يكن لديه صورة مفصلة واضحة عن الدين، وكان يعمل وحده دون عون من تراث راسخ. كان عليه أن يتحسس طريقه قدماً عن طريق التجريب والخطأ. كان مستعداً لنبذ الأشهر الحرم. لم تكن تبدو ذات قيمة دينية أساسية، وينبغي أن نتذكر أن العادة الوثنية وموجات الحماس ربما كانت تختلف كثيراً في أرجاء الجزيرة. ويرجح أنه لم يكن لديه فكرة عن أن سكان المدينة كانوا شديدي التعلق بهذه العادة الوثنية. وعندما رأى ضيق الأنصار لدى عودة الحملة أدرك أنه قد داس دون فطنة منه على حساسياتهم الدينية. لم يكن هناك هدف ذو أهمية من التمسك بمسلكه هذا بعناد. فإذا كان الناس يريدون الاحتفاظ بقيمة الأشهر الحرم فينبغي لهم السماح بذلك، فلا شيء في هذه العادة يسيء إلى دين الله الواحد الذي يدعو إليه.

شعر عبد الله وأصحابه بإحباط كبير عندما تبرأ محمد من الغزوة. بدا لهم أنهم قد اتخذوا القرار الخاطىء، واعتقد بعضهم أن خلاصهم كان في خطر. فكان على محمد واجب مواساتهم وفي الوقت ذاته يتلمس طريقه قدماً. لقد كان القتال في الأشهر الحرم خطأ، لكن كانت هناك جرائم أسوأ من هذه. فاضطهاد الناس، مثلما اضطهدت قريش المسلمين، وانتهاك أقدس قيمة عربية بلفظهم خارج قبيلتهم كان أكثر خطورة. وكان على رسول الله ـ أحياناً ـ واجب محاربة خطأ ظاهر كهذا.

﴿يسألونك عنِ الشهر الحرام قِتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيلِ الله وكُفرٌ به والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِهِ منه أكبر عند الله والفِتنةُ أكبر من القتل[٩]﴾.

سهلّت هذه الآية حل الأزمة لكن اليهود استمروا في شجبهم بينما اطمأنت جماعة الغزو والأنصار. كان محمد قادراً على توزيع الغنائم على المهاجرين، وبدأ مفاوضات مع القرشيين حول تبادل الأسرى فعرض أن يطلق من جانبه سراح التاجرين مقابل اثنين من المسلمين اللذين منعتهما قريش من الهجرة. لكن الحكَمَ بن كيسان ـ أحد الأسرى القرشيين ـ تأثر كثيراً بما رآه في المدينة فقرر البقاء واعتناق الإسلام.

إنها لَلحادثة ذات المثال الجيد على أسلوب محمد في العمل. كان مستعداً أن يموت في سبيل دينه لكنه كان أيضاً مستعداً للمساومة على غير الأساسيات. ففي

حالة غياب نظام أخلاقي راسخ منذ أمد طويل كان يستمع بعناية إلى الأحداث، ويرى فيها تجسيداً لإرادة الله - وهذا مبدأ هام في تاريخ الوحدانية. لم يكن محمد يتوقع أن تثير الغزوة عاصفة احتجاج كبيرة كهذه، لكن عندما حدثت اعتقد أن الله كان يريد شيئاً هاماً. دفعته الحادثة إلى صياغة مبدأ أصبح هاماً في الإسلام. يحترم المسلمون رسالة يسوع السلمية (مع أن القرآن يوضح أن المسيحيين قد يكونون محاربين) لكنهم يؤمنون أن القوة ضرورية أحياناً. فالشر سوف يعم العالم إذا لم يتم الوقوف عسكرياً في وجه الطغاة والأنظمة الكريهة. فحتى الأنبياء كانوا مجبرين أحياناً على القتالِ والقتْلِ، مثل **داؤود** الذي ذبح **جالوت** Goliaht بعون من الله.

﴿فهزموهم بـإذن الله وقتَلَ داوُدُ جالوتَ وآتاهُ اللهُ الملكَ والحِكْمَةَ وعلَّمَه مما يشاءُ. ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعضٍ لفَسَدَتِ الأرضُ ولكن الله ذو فضل على العالمين[١١]﴾.

يوافق معظم المسيحيين على هذا التصور للحرب العادلة إذا كانت ضد **هتلر** أو **تشاوشيسكو** لأن الحرب والقتال المسلح هما الوسيلة الفعالة الوحيدة. أما بالنسبة للاسلام فانه بدلاً من أن يكون ديناً مسالماً يدير خده الآخر لمن يصفعه نجده يحارب الظلم والجور. فالمسلم يشعر أن عليه واجباً مقدساً في مناصرة الضعفاء والمضطهدين، وعندما يتنادى المسلمون إلى الجهاد ضد أعدائهم إنّما يستجيبون لهذا المثل الأعلى القرآني[١٢].

بعدئذ توقع المهاجرون حرباً دموية لأن قريشاً ستثأر لقتيلها في نخلة. لكن المسلمين كانوا قد أصبحوا أكثر ثقة بأنفسهم. فبعد مضي بضعة أسابيع - خلال شهر رمضان أي آذار عام ٦٢٤ - قاد محمد جيشاً كبيراً إلى الساحل كي يعترض قافلة مكية عائدة من سوريا برئاسة **أبـي سفيان**. كانت تلك واحدة من أهم قوافل ذلك العام. كان عدد المتطوعين المسلمين /٣٥٠/ مقاتلاً، /٧٠/ من المهاجرين وما تبقى من الأنصار. سارت الحملة إلى **بئر بدر** قرب البحر **الأحمر** - حيث كان يقام سوقٌ تجارية كبيرة كل سنة - كي يقطعوا الطريق على القافلة. لقد أصبحت غزوة **بدر** واحدة من أكثر الأحداث حسماً ونتائجَ في مطلع التاريخ الإسلامي، غير أنه ما من أحد كان يخطر بباله آنذاك أن تكون لها أهمية خاصة. لقد كانت مجرد غزوة أخرى إذ تخلف عنها العديد من المسلمين الملتزمين، وبقوا في منازلهم، وهذا ما فعله صهر محمد **عثمان بن عفان** الذي كانت زوجته رقية مريضة جداً.

بدا وكأن القافلة ستنجو كالعادة، لأن أبا سفيان علم بالخطة الإسلامية عن طريق مساءلة الناس على الطريق، فبدلاً من سلوك الطريق المعتاد عَبْرَ الحجاز إلى مكة باتجاه الساحل، وأوفد **ضمضم** - أحد أفراد قبيلة غفار - إلى مكة كي يخبر قريشاً بأمر محمد. يروي العباس كيف تسمَّرت المدينة رعباً عندما سمعت:

> صوت ضمضم وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره. قد جدع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث! الغوث!(١٣).

ثارت قريش؛ فهل حسب محمد أنه كان قادراً على الاستيلاء على أكبر قافلة في تلك السنة بالسهولة نفسها التي أوقع بها القافلة الصغيرة في كمين عند نخلة؟ جميع الوجهاء أعدُّوا أنفسهم للمعركة، من بينهم العجوز البدين **أمية بن خلف** الذي لبس درعه. تخلف أبو لهب عن المعركة لكن العباس سار لمواجهة ابن أخيه ومعه **طالب** و**عقيل** ولدا **أبي طالب** اللَّذان لم يعتنقا الإسلام. وانضم **حكيم بن حزم** (ابن أخت خديجة) إلى الجيش الذي قارب تعداده الألف رجل، فانطلقوا في طريقهم إلى بدر.

عندما سمع محمد الأنباء المرعبة عقد مجلس حرب لأنه لم يكن القائد العسكري للأمة، ولم يكن باستطاعته أن يقرر ما هي أفضل وسيلة لمواجهة هذه الحالة الطارئة دون استشارة الوجهاء الآخرين: فالمتطوعون المسلمون قد خرجوا من أجل المشاركة في غزوة لا من أجل معركة شرسة. فهل كان عليهم الانسحاب - وأمامهم وقت لذلك - أو أن يبقوا ويحاربوا القرشيين؟ هل كان هناك أي أمل بالاستيلاء على القافلة قبل وصول الجيش؟ ألقى **أبو بكر** و**عمر** خطابين حماسيين، وأقسم المهاجرون على المرابطة في بدر وليحدث ما يحدث، حتى وإن يجدوا أنفسهم يحاربون أقاربهم وأصدقاءهم الحميمين. فشكرهم محمد والتفت إلى الأنصار الذين كانوا في العقبة الثانية، قد وعدوا بالدفاع عن محمد إذا ما هوجم في المدينة. فتحدث **سعد بن معاذ** نيابة عنهم:

> **«لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا**

البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله»[١٤].

كانت هذه الكلمات تشجيعية، ومن الطبيعي أن المسلمين كانوا يأملون ألّا تقع الحرب، وأن الله سيضع قافلة أبي سفيان بين أيديهم قبل وصول الجيش المكي بوقت كاف يسمح لهم بالانسحاب بشرف. أسر المسلمون اثنين من السقاة (سقاة الماء) اللذين أخبرا المسلمين أنهما ليسا مع القافلة بل مع الجيش. كان هذا النبأ مرعباً جداً للمسلمين لدرجة أنهم أخذوا يضربون الأسيرين لاعتقادهم أنهما كانا يكذبان. فاستجوب محمد الرجلين بنفسه. وعندما أخبراه بأمر القرشيين الذين ساروا ضده، أخبر رجاله بأن مكة قد رمت زهرة شبابها في أيديهم.

في هذه الأثناء تمكن **أبو سفيان** من تضليل جيش المسلمين وسار بالقافلة بعيداً عنهم وأرسل موفداً إلى المكيين يطمئنهم بأن القافلة سالمة وأن عليهم العودة جميعاً إلى منازلهم. ربما كانت دعوة أبي سفيان إلى العودة ترجع إلى خشيته من أن يجني أبو جهل رأس مالٍ شخصياً من هذه الحملة، فيربح السيادة على مكة. لقد كان داهية يحسب لكل شيء حسابه، إنه يبدو وكأنما كان لديه أمل بالتوصل إلى تسوية نهائية. لكن أبا جهل لم يكن قد سمع بكلمة التراجع في حياته فقال لرجاله:

«والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»[١٥].

كان كل واحد من قريش متلهفاً للعودة بعد أن اطمأن على القافلة، فانسحبت عشيرتا زهرة وعدي في الحال وهما تشعران بالغيرة من السلطة التي سيجلبها أبو جهل من نصر عسكري وأخلاقي على محمد. انضم طالب بن أبي طالب إلى بني هاشم الذين قفلوا راجعين لأنه كان يصعب عليهم أن يحاربوا أفراد عشيرتهم، لكن العباس وحكيما بقيا في الجيش.

ولدى وصولهم إلى **بدر** أقاموا معسكرهم. أوفد المكيون **عمير بن وهب** من قبيلة **جمح** كي يلقي نظرة على جيش محمد الذي كان متوارياً عنهم وراء كثيب فذهل بما رأى من الثبات والعزيمة التي ارتسمت على وجوه المسلمين، ونصح قريشاً بألّا تدخل الحرب، رغم تفوق عدد جنودها على جنود المسلمين بما يعادل الضعف،

فجاء قوله بالغ التعبير:

«ماوجدت شيئاً ولكني قد رأيتُ - يامعشر قريش - الولايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم مَنَعَة ولا ملجأ إلا سيوفهم».

كان المكيون يترقبون الاشتباك كرياضة فروسية، لكن لمحة سريعة إلى المسلمين أقنعت عميراً أنه لن يموت منهم أحد قبل أن يقتل ما لا يقل عن واحد من القرشيين. سأل عمير يائساً:

«فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟»[١٦].

لم يكن العرب يقومون بمغامرات غير ضرورية في الحرب، وكانوا دائماً يحاولون تجنب وقوع عدد كبير من الإصابات: فالحروب القبلية التي لم تتوقف، وطبيعة الحياة المحفوفة بالمخاطر جعلتهم حريصين على الاحتفاظ قدر ما يمكن بالقوة البشرية. كان بعض القرشيين يشعرون بالقلق لأنهم يحاربون أفراداً آخرين من قبيلتهم. **فحكيم بن حزام** - الذي تأثر بكلمات عمير كثيراً - ذهب إلى **عتبة بن ربيعة** وتوسل إليه أن يحاول منع وقوع المعركة. كان عتبة مجير الرجل الذي قتله المسلمون في نخلة فأقنعه حكيم أن يأخذ واجب الثأر على عاتقه بحيث ترد الكرامة. فهم عتبة مغزى كلام حكيم فنهض وخاطب الجيش:

«يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته...»[١٧].

لم يكن القرشيون محاربين خبيرين في ساح المعركة. كانوا يفضلون دائماً المفاوضات على الحل المتسم بالعنف، لكن أبا جهل رد عليه متهماً إياه بالجبن[*]

(*) يفيد الواقدي في كتابه (المغازي) أن أبا جهل حسد عتبة على خطبته في القوم لذا قرر أن يُرجع الناس عن خطبة عتبة كي تكون له سيادة الجماعة ، فوجه له تهمة الجبن والتخاذل وهذا مادفع بعتبة إلى الغضب. وقد رد على أبي جهل: «يامصفرّ إسته، ستعلم أيُّنا أجبن وألأم، وستعلم قريش من الجبان المفسد لقومه وأنشد:

هل جبانٌ وأمرتُ أمري — فبشري بالثكل أم عمرو

وخشيته من أن يُقْتَل ابنه الذي مضى إلى محمد. لم يكن هناك عربي يحتمل وصمة الجبن. ويقول ابن إسحاق إنه بعد ذلك:

«حمِيتِ الحرب، وحقِب أمر الناس؛ واستوثقوا على ماهم عليه من الشر وأُفسِدَ على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة»[١٨].

كذلك، لم يكن المسلمون يريدون الحرب، لكن وقد صارت أمراً واقعاً ركبوا لها بمعنويات عالية. لم يكن بوسع محمد رؤية الجيش المكي، ولم تكن لديه فكرة عن عدده، فربما لو علم حقيقة الأمر لعدل عن رأيه بشأن الحرب. عيَّن رجاله حول الآبار لمنع الماء عن قريش، وكان ذلك يعني أن على القرشيين الاتجاه شرقاً والشمس في عيونهم. كان وابل من المطر قسَّى رمل الأرض فجعل حركة المسلمين أسهل وفي الوقت ذاته صعَّب حركة المكيين الذين كان عليهم السعي لبلوغ التلال.

بدأت المعركة بنزالات فردية، كما جرت العادة. خاضها ثلاثة مسلمين قياديين هم **الحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث** ضد ثلاثة من قريش هم: **عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة** الذين كانوا يثأرون للرجل القتيل في نخله. فقُتل القرشيون الثلاثة بينما جرح عبيدة ابن الحارث جرحاً بليغاً فنقل خارج المعركة. بعدئذ بدأت المعركة ضارية. فعلى الرغم من تفوق القرشيين عددياً إلا أنهم وجدوا ـ ويالدهشتهم ـ أنهم يجوسون الجانب الأسوأ فيها. حاربت قريش بالأسلوب العربي القديم الذي يقود فيه كل زعيم رجاله معتمداً على التظاهر بالشجاعة لكن دون انتباه. كان كل زعيم على رأس رجاله، مما جعل الجيش يفتقر إلى قيادة موحدة. بالمقابل كان المسلمون شديدي الانضباط ويقاتلون قتال المستميت، وكان محمد قد دربهم جيداً. وفجأة أظهر محمد تكتيكاً عسكرياً رفيعاً. صفهم في تشكيل متراصٍ بدأ بإمطار العدو بالنبال ولم يشهروا سيوفهم لخوض القتال القريب إلا في اللحظة الأخيرة. وفي منتصف النهار كان القرشيون الذين حسبوا أنهم سيقومون باستعراض قوة قد أصيبوا بالذعر فهربوا عشوائياً تاركين وراءهم خمسين قتيلاً في ساح المعركة من بينهم مجموعة من قادتهم وكان من بين القتلى **أبو جهل** نفسه.

لقد تملك الفرح المسلمين، فبدؤوا يدورون حول الأسرى حسب الطريقة العربية وبدؤوا يقتلونهم لكن محمداً أوقف ذلك. وما لبث أن نزل وحي مفاده أن أسرى الحرب يتم افتداؤهم، ومنع المسلمين من التشاجر على الغنائم. فوزعت الغنائم

/١٥٠/ من الإبل، وعشرة خيول وكومة من الدروع والعتاد وُزِّعت بالتساوي. بعدئذ عاد الجيش المنتصر ومعه سبعون أسير حرب بينهم سهيل زعيم بني عامر والعباس وعقيل ونوفل أبناء عم النبي. وفي طريق العودة تلقى محمد وحياً يتعلق بالأسرى:

﴿يا أيها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسرى إنْ يعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخِذَ منكم ويغفر لكم وٱلله غفور رحيم[١٩]﴾.

هكذا يظهر كيف أن محمداً كان حتى وهو في ذروة إحساسه بالانتصار يتطلع إلى الوفاق النهائي.

عندما سار الجيش في المدينة استقبله الناس ونشوة النصر تعمر رؤوسهم، وقد أحدث هذا ضيقاً بين القبائل اليهودية وجماعة ابنُ أُبَيّ. مع ذلك تصعب المبالغة في تقدير التأثير المعنوي لمعركة بدر: فبعد هذه المعركة المظفرة أصبح محمد محط اعتبار جدي في الجزيرة بعد أن كان محط سخرية وإهانات. هذا من جانب أما في تاريخ الحروب المقدسة في الأديان التوحيدية الثلاثة فإن نصراً غير متوقع، أو تغيراً مفاجئاً جاءت به الاقدار يبدو وكأنه فعل من الله، ويملأ الناس بثقة واقتناع جديدين[٢٠]. فالمسلمون الذين كانوا في وضع يائس ـ كحالة الصليبيين المسيحيين(*) ـ تملّكتهم

(*) ـ تقصد الكاتبة بحالة الصليبيين المشابهة ماجرى لجيوشهم عام (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨) في حصارها لمدينة أنطاكية السورية، إذ تهدّمت الجيوش الصليبية شيئاً فشيئاً وكانت على قاب قوسين أو أدنى من الهلاك جسداً وروحاً، إلى أن استطاعت إيحاءات رجال الدين المرافقين للحملة أن تبعث شحنة دينية هائلة في نفوس المقاتلين المنهارة، إذ أوحى الأنونيم أن ثمة جنوداً لا حصر لهم قادمون من الجبال على خيول بيض، إنهم جنود المسيح، قادمون للنجدة. وأعلن الراهب بطرس بارتلمي أنه رأى في حلمه الحربة المقدسة التي اخترقت جسد يسوع وقام على الفور مع عدد اختارهم في الحفر، وأعلن أنه رآها ووجد معها رفاتاً ثمينة. وأما الحقيقة التي حوّلت الهزيمة إلى نصر فتعود إلى أحد الخونة من حراس المسلمين ويدعى فيروز، إذ بادر إلى فتح إحدى بوابات المدينة ليلاً، فانقلبت الأمور رأساً على عقب. انظر حول هذه المعركة الشهيرة التي غيرت مسار الأحداث، كتاب «على خطى الصليبيين» تأليف جان كلود جويبو، ترجمة عبد الهادي عباس/ فصل انطاكية ـ تركيا، نعال من ريح/ص١٧١ ـ ١٧٦ ط١، ١٩٩٥ ـ سورية ـ دمشق. (الناشر)

التهيؤات والرؤى، إذ بدا لهم أن جنوداً من السماء قد هبطت لنجدتهم. وأن كل شيء قد رُتِّبَ من قبل الله، وأنهم كانوا مسوقين إلى انتصارهم رغماً عن أنفسهم تقريباً. لم يكونوا يتوقعون خوض معركة، وكانوا مترددين حيالها، وبدا لهم أن جهلهم بتفوق العدو عددياً كان جزءاً من الخطة الإلهية(٢١). إضافة إلى ذلك كان المسلمون قد مروا في لحظة من احتدام المعركة وكأن جوّاً طقسياً أقيم وذلك حين رمى محمد بحفنة حصىً على الكفار وكأنها صارت رشق سهام، لكن بعد المعركة صوره الله أنهم جند الله:

﴿فلمْ تَقْتُلُوهم ولكن الله قتلهم وما رَمَيْت إذ رَمَيْت ولكن الله رَمَى وليَبْلِي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم(٢٢)﴾.

حتى غزوة بدر كانت قضية المسلمين تبدو وكأنه لا أمل منها البتة لكن بعد الانتصار الذي حققوه سيطرت على المسلمين ثقة منعشة، فبدا أنه ما من شيء يقف في طريقهم:

﴿يا أيها النبي حَرِّض المؤمنينَ على القتال إنْ يكن منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون. الآن خفّفَ الله عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكُم ضَعْفاً فإنْ يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين(٢٣)﴾.

إنه التأكيد على الصبر، ويركز كُتَّابُ السيرة الأوائل على الرصانة والجدية اللتين تميز بهما الجهاد. لم يكن الجهاد تعصباً هستيرياً؛ بل امتحاناً قاسياً للاحتمال. كان محمد وأصحابه الأكثر تعقلاً يعرفون تمام المعرفة أن النصر قد وضعهم على مسار محفوف بالمخاطر التي قد تدمر الأمة. كان على القرشيين الثأر كي يستردوا كرامتهم وامتيازهم اللذين هما عماد نجاحهم. فعلى الرغم من أن المسلمين لم يكن في نيتهم ذلك بدا الله أنه يدفع الأمة إلى خوض حرب واسعة المدى ضد أقوى قبيلة في الجزيرة.

قد تبدو فكرة تدخل الله في الأحداث ومشاركته في المعارك أمراً غريباً وغير مستساغ، لكن الفعل الإلهي كان عنصراً حاسماً في التراث التوحيدي. ففي اليهودية والمسيحية أيضاً فُسِّرت أحداث جارية على أنها تدخلات إلهية، واعتقد

الناس أن الله كان يكشف عن ذاته في المعارك والنكسات والإنجازات السياسية، فبذلك أصبحت بعض الأحداث لحظات صدق وشيئاً فشيئاً أخذت طابعاً أسطورياً فصارت تحمل معنى رمزياً للحدث الأصلي بأكمله. ومن ذلك المنطق أي من محاولة تصور (خارج دائرة العقل) صار ممكناً رؤية الفكرة وتحليل المعنى الأعمق للتاريخ من أجل إيجاد أسلوب تنظيمي بلامعنى لمتابعة وقائع الحياة. فإحدى أكثر الأحداث التي يعاد تركيبها هي حادثة إغراق فرعون وجيشه في البحر الأحمر. لقد اعتبر جميع ناظمي المزامير والأنبياء والحكماء هذا إقحاماً للمقدس في التاريخ، فأصبح نمطاً من الخلاص بحد ذاته. لقد تأمل المسيحيون تلك الحادثة فرأوها إشارة رمزية لعبور المسيح من الموت إلى الحياة، وأصبحت نوعاً من التعميد الذي كان علامة لهجرة مسيحية من اليأس وفقدان المعايير والقيم إلى حالة أمل وحياة جديدة. وفي القرآن سمي عبور البحر الأحمر «بالفرقان»، فهذه كلمة تعني الخلاص والفصل بين الحق والباطل، والقرآن أيضاً يسمى الفرقان لأنه حوّل حياة المؤمنين في الوقت الذي فصلهم بقسوة وبشكل مفاجئ عن أقاربهم:

﴿ولقد آتينا موسى وهارونَ الفرقانَ وضياءً وذكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مُشْفِقُون. وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه أفأنتم له مُنكِرون[٢٤]﴾.

كان تنزيل القرآن ومواكبته للحدث موجهاً للأمة ومؤولاً للأحداث وكان هذا تذكرة بالحضور الإلهي المبهم، وانشغاله في خضم الأمور الدنيوية.

لقد أصبحت معركة بدر فرقاناً أيضاً، أي علامة للخلاص. لقد فصَلَ الله العادلين عن غير العادلين في المنظور الإسلامي، مثلما أقام فارقاً بين المصريين والإسرائيليين في البحر.

«فقال المصريون نهرب من إسرائيل، لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم

في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم ويسارهم. فخلّص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطىء البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى[٢٥].» (سفر الخروج)

بالتأكيد لم يقرأ محمد أبداً هذه الرواية التوراتية لكنه فهم روحها جيداً لأن رؤياه الدينية كان لها الديناميكية الداخلية ذاتها. ففي يوم بدر أنقذ الله الأمة من قريش، ورأى المسلمون وجهاء قريش صرعى في ساح المعركة. لقد شهدت الأمة هذا العمل العظيم الذي قام به الله ضد المكيين. فالفارق بين الحدثين هو أن معركة بدر لم تكن صياغة أسطورية لحدث تاريخي بل حدثاً وقع بالفعل أمام عيونهم المليئة بالدهشة. وما يلفت الانتباه في هذا الصدد ويبين (أن محمداً رأى فرقان اليهود) هو أنهم كانوا يحتفلون بذكرى «الفرقان» في عيد الفصح. غير أن محمداً كان يعتقد أن صوم (عيد الشكر) هو الذي يخصص لانتصار البحر الأحمر. وفي هذا الصدد يقول الطبري:

«وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، قد رأى يهود تصوم يوم عاشوراء فسألهم فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ونجّى موسى ومن معه منهم فقال: نحن أحق بموسى منهم فصام وأمر الناس بصومه[٢٦]».

في هذا الوقت كان محمد يحاول قولبة الحياة الدينية للأمة على شاكلة اليهودية، إلاّ أنه قبل أسابيع من بدر حرر الإسلام من عادات الدين الأقدم منه عندما غير القبلة. وبعد أيام قليلة من النصر في ٩ رمضان أعلن أنّ صوم عاشوراء لم يعد إلزامياً. بدلاً عن ذلك صاروا يصومون شهر رمضان للاحتفاء بذكرى فرقانهم الخاص بهم في بدر. فصوم رمضان الذي طبق لأول مرة في شهر آذار عام ٦٢٥ أصبح ركناً من أركان الإسلام الخمسة.

لكن محمداً أدرك أن هناك جانباً أَقْتَمَ في الوضع الجديد لأن الأمة قد ألزمت نفسها بحرب شاملة ضد قريش. كان على قريش المعتمدة على امتيازها أن تثأر

انتقاماً للمذلة التي لحقت بها في بدر، إذا كانت تريد الاحتفاظ بمكانتها الكبيرة ومهابتها بين العرب. وأن تثأر أيضاً لقتلاها الخمسين. وهكذا دخلت الأمة رغماً عنها في طور جديد من الصراع (الجهاد). لكن المسلمين لم يكونوا على شاكلة الإسرائيليين الذين ألزموا أنفسهم بحرب إبادة مقدسة بعد البحر الأحمر. فمحمد لم يكن راغباً في إبادة قريش، بل كان يشعر أنَّ عليه أن يستميلها بشكل ما إلى جانبه. فحتى في فورة النصر الأولى نراه يعامل الأسرى القرشيين معاملة حسنة. بعد المعركة مباشرة قتل اثنين من الأسرى لأنهما كانا قد شنا هجوماً فكرياً كبيراً ضده قبل الهجرة. فقد رأينا أن محمداً كان يجد هذا النوع من التحدي مهدداً له بخطر كبير. أحضر جميع الأسرى الباقين سالمين إلى المدينة، فقدم لهم سكناً لائقاً في بيوت الذين أسروهم. وفي الحال بدأ القرآن يطور سياسة إنسانية تجاه الأسرى: ينبغي ألا تساء معاملتهم، وأن يطلق سراحهم أو يعادوا إلى ذويهم مقابل فدية، وينبغي السماح للأسير أن يعمل ليكسب مالاً يشتري به حريته، ويجب أن يساعده آسره بالمبلغ المدفوع من مصادره هو، وتم امتداح تحرير الأسرى على أنه فضيلة وصدقة(٢٧). ويحض حديث لاحق المسلمين على معاملة الأسرى معاملة أفراد أسرهم: «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وساعدوهم على القيام بما تطلبون منهم»(٢٨).

كم إنَّ هذا التشريع القرآني مناقض للوضع المحزن الذي يمر به الرهائن المحتجزون من قبل بعض التنظيمات الاسلامية اليوم! حقيقة ما من شيء إسلامي في احتجاز الرهائن. فالمسلمون الذين يسجنون ويسيؤون معاملة أسراهم ويرفضون إعادتهم إلى منازلهم يخالفون الإسلام، وسلوكهم هذا يتناقض مع المفاهيم المركزية المقدسة في دينهم.

لم يكن أسرى بدر أعداء غير معروفين بل أقارب مقربين وأصدقاء المهاجرين. فحالما رأت سَوْدَة زوجة النبي عمها وصهرها **سهيلاً** جالساً ذليلاً في زاوية غرفة ويداه مقيدتان خلف ظهره لم تستطع ضبط نفسها، وظهرت الدوافع القبلية القديمة إلى السطح، وسقطت الإيديولوجيا الإسلامية الجديدة في لحظة. صاحت به ساخرة: «أيْ أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا مِتُّمْ كراماً!»، لكن زوجها الذي دخل خلفها صاح بها: «ياسودة أعَلى الله ورسوله؟». وكانت مشاعر القرابة قوية لدى

محمد أيضاً. فلم يستطع النوم تلك الليلة وهو يفكر بأقاربه القابعين والبؤس يملأ نفوسهم، فأصدر أمراً بإطلاق سراحهم. فكان لهذه المعاملة الإنسانية وقعها الجيد. تأثر بعض الأسرى بالحياة في الأمة فاعتنقوا الإسلام. ربما كان التحول الأكثر دارمية هو تحول **عمير بن وهب** الذي حاول إقناع قريش بعدم القتال. فبعد عودته إلى مكة أقنعه صاحبه **صفوان بن أمية** بالعودة إلى المدينة ليغتال **محمداً** . فعاد عمير فعلاً لكن محمداً اكتشف أمره وعندها تاب واعتنق الاسلام.

كان **أبو العاص** واحداً من الأسرى، بقي هذا مخلصاً للدين الوثني القديم، فأرسلت زوجته زينب التي كانت ما تزال تعيش في مكة أخاه عمرو إلى المدينة ومعه الفدية التي جمعتها بنفسها ومعها سوار كان لخديجة. تعرف محمد عليه حالاً فشحب وجهه. فطلب محمد من الذين يمسكون بأبي العاص إطلاق سراحه دون أخذ الفدية المالية ففعلوا ذلك عن طيب خاطر. كان محمد يأمل أن يعتنق أبو العاص الإسلام، لكن ذلك لم يحدث، فطلب منه أن يرسل زينب وابنتهما الصغيرة أمامة إلى المدينة كي يراهما. عند هذه المرحلة من الصراع كان يتضح أن التزاوج بين الوثنيين والمسلمين لم يعد عملياً. فوافق أبو العاص على طلب محمد حزيناً، لا سيما أنه كان يعلم أن زينب لم تكن تريد تركه، إلا أن مكانتها في مكة أصبحت مستحيلة.

كان لَمُّ الشمل المرتقب مع زينب عزاءً كبيراً لمحمد في هذا الوقت. لأنه علم بعد عودته من بدر أن ابنته الجميلة رقية قد ماتت أثناء غيابه. كان عثمان في وضع لا يقبل العزاء فيه لكنه سُرَّ عندما قدم محمد له يد ابنته الأخرى أم كلثوم. كان محمد يزور قبر رقية مع صغرى بناته، فاطمة مجففاً دموعها بطرف ردائه. صارت فاطمة في العشرين من عمرها وحان وقت زواجها. طلب أبو بكر وعمر يدها لكن محمد كان قد قرر تزويجها من وصيه الشاب **علي** الذي شب مع فاطمة. كان علي متردداً في البداية لفقره الشديد: لم يرث شيئاً من أبيه أبي طالب. لكن محمداً حثه على المضي فتزوج بعد أسابيع قليلة على موقعة بدر.

في الفترة ذاتها قرر محمد أن يتزوج ثانية من **حفصة** ابنة عمر التي ترملت حديثاً. كان زوجها **خنيس بن حذافة** قد تزوجها لدى عودته إلى مكة قادماً من الحبشة، ومات بعد فترة قصيرة من غزوة بدر. كانت حفصة في الثامنة عشرة جميلة

مكتملة الأنوثة وكانت ـ كأبيها ـ تقرأ وتكتب لكنها كانت حامية الطبع فكان هذا يقلل من سحرها وجاذبيتها لدى الرجال. فعندما انتهت فترة عدَّتها (حدادها) عرضها عمر على عثمان لأنه لم يكن يعلم أن محمداً قد قرر تزويجه أم كلثوم. كما عرضها على أبي بكر الذي لزم الصمت حيال هذا العرض المربك. وعندما ذهب عمر إلى محمد يشكو عدم اللباقة الظاهرة لصاحبيه المقربين قدم النبي نفسه صهراً له فهدأت ثورته. فأسرع أبو بكر لإصلاح هذا الإشكال المؤقت مع عمر بإخبار عمر أنه كان عارفاً بنية محمد الزواج من حفصة. احتفلوا بالزواج في مطلع عام ٦٢٥ فتم بذلك التحالف السياسي مع صاحبيه المقربين إذ أصبح صهراً لكليهما.

استقبلت عائشة بسرور قدوم حفصة ومع أنها (عائشة) كانت تتملكها الغيرة من زوجات محمد اللاحقات إلا أن الصداقة التي كانت تربط بين أبويهما جعلتهما حليفتين. كانت عائشة ما تزال شابة، ومن المحتمل أن حفصة كانت مُوَجِّهةً لها. كان من الطبيعي أن تستمتع الاثنتان بإغاظة المرأة العجوز سودة. فذات يوم قررتا أن تمازحانها. أخبراها أن الدجال قد وصل، أي النبي المزيف الذي كان بغيضاً مخيفاً للمسلمين. خافت سودة كثيراً فبقيت في المطبخ مختبئة من هذا الشخص المرعب، ثم اندفعتا إلى محمد تخبرانه بهذه الدعابة، فأسرع كي ينقذ المسكينة من ملجئها وقد علاها الغبار، لكنها شعرت بالارتياح لعدم قدوم الدجال لدرجة أنها لم تحاول تأنيب «أختيها»، كما كانت نساء النبي يدعون أنفسهن، وفيما بعد ناصرتاها.

لكن الحياة لم تكن مسلية دائماً للزوجتين الشابتين. فعندما كانت عائشة في بداية عقدها الثاني طلب إليها محمد مراقبة أسير حرب فغفلت عنه فهرب الرجل. وعندما اكتشف محمد ما حدث، صاح بعائشة غاضباً: «فليقطع الله يدك» واندفع خارج غرفتها ليلاحق الأسير. وبعد فترة أُلقي القبض على الأسير وعاد إلى البيت فوجد عائشة كئيبة تحدق بيديها. فسألها إن كان ألمَّ بها شيء أو إن مسها جني. فأجابته أنها تتساءل عن أي يد سيقطعها الله. فتأثر محمد واعتذر إليها في الحال وأخبرها أنه سيدعو الله أن يبارك ويعفو عن أي امرىء سبق له أن لعنه أو دعى عليه.

بعد بدر أخذ موقف محمد يتحسن لكن لم يكن جميع الأنصار متحمسين حيال امتيازه الجديد. فعلى الرغم من اعتزازهم بالنصر إلا أن عقلاء المسلمين كانوا

يعلمون جيداً أنه قد لا يكون من السهل إلحاق الهزيمة بقريش في مرة قادمة. وكانت السنة التالية لموقعة بدر سنة قلق عظيم. تزايد هذا القلق عندما سمع الناس أن مكة كانت تناشد القبائل البدوية مؤازرتها في صراعها مع محمد. وقد لعب ابن أبي وحزب المعارضة على هذه المخاوف: قالوا إن الإسلام يُعرض المدينة إلى خطر قاتل، كانت الواحة على شفا الدمار قبل وصول محمد إليها، أما الآن فمن المحتمل أن تتحول الجزيرة كلها ضدها. كان بالإمكان فهم هذه المخاوف. أعلن ابن أبي أنه على استعداد أن يطيع الوحي لكنه رفض أن يطيع محمداً شخصياً لأنه كان عازماً ـ كما بدا ـ على توريط المدينة في حرب خطيرة. فحتى عندما نزل الوحي مصدقاً قرارات محمد ومؤكداً على أن الجهاد كان ضرورياً بقيت المعارضة متمردة، وكانت تبدو أحياناً مرعوبة إلى أقصى حد[٣٠].

كانت القبائل اليهودية تدعم ابن أبي لأن موقف محمد الجديد في المدينة قد أرعبها فرأت في قريش حليفاً طبيعياً لها. فبعد بدر ذهب كعب بن الأشرف ـ شاعر يهودي من بني النضير ـ إلى مكة مباشرة، وبدأ ينظم أشعاراً لاهبة يحث القرشيين فيها على السير ضد محمد والثأر لقتلاهم.

صدقوا فليت الأرض ساعَةَ قُتِّلوا
ظلَّت تَسُوخ بأهلها وتُصدَّعُ
صار الذي أثر الحديثَ بطعنة
أو عاش أعمى مُرْعشاً لايسمعُ[٣١]

أوضحت أشعار كعب للقرشيين أن سكان المدينة ليسوا إلى جانب محمد جميعاً. كانت القبائل اليهودية مُهابة، وكانت لديها مقاتلون كُثر ومقدرتها القتالية مؤثرة. وفي حالة هجوم مكي محتمل كان بالإمكان إقناع اليهود بالانضمام إلى قريش من أجل الخلاص من هذا الذي قالوا عنه إنه مدع. كان الشعر يلعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية في الجزيرة. لذا ساعدت أشعار كعب في استنهاض قريش من لجة الإحباط والحزن اللذين نجما عن الهزيمة.

كان أبو سفيان قد أصبح واحداً من أكثر الناس نفوذاً في مكة بعد الكارثة. فقد قتل معظم القادة الآخرين، ومات عم محمد أبو لهب بعد فترة وجيزة من بدر. فمن هذه الفترة فصاعداً سوف يدير أبو سفيان الصراع ضد محمد. ففي اجتماع

خاص للشيوخ اتخذ قراراً بأن تخصص عائدات القافلة التي تمكن أبو سفيان من العودة بها سالمة من سوريا للحرب ضد المدينة. وبعد انقضاء نحو عشرة أسابيع على موقعة بدر قاد أبو سفيان شخصياً الغزو كرمز وإنذار لما كان آتياً. قاد نحو /٢٠٠/ مقاتل إلى ضواحي المدينة، وخيموا في الحقول، وأثناء الليل تسلل إلى حي بني النضير ـ قبيلة كعب ـ فاستقبله زعيمها سلام بن مشكم وناقش الوضع معه وزوده بمعلومات سرية عن المسلمين، وفقاً لما ذكره ابن إسحاق. وفي اليوم التالي دمروا بعض الحقول وأحرقوا بعض أشجار النخيل وكان ذلك عملاً منافياً تماماً لجميع المبادىء العربية، وكان يعتبر مقدمة للحرب، كما قتل اثنان من الأنصار كانا يعملان في الأرض. حالما سمع محمد الخبر قاد جيشاً من المسلمين لملاقاة قريش فهربت في الحال رامية بكل مؤونة كي يتمكن الرجال من الهروب بسرعة.

صار واضحاً أن القبائل اليهودية تشكل خطراً أمنياً. فإن يخيم جيش مكي في جنوب المدينة حيث تقع أراضي أقوى قبيلتين فإن باستطاعة القبائل اليهودية الإنضمام إلى قريش التي اعتبرتهم حلفاءها بكل بساطة. وإذا هاجمت قريش المدينة من الشمال ـ أفضل خيار لها ـ فإن باستطاعة القبائل اليهودية مهاجمة المسلمين من المؤخرة بحيث يصبحون محاصرين تماماً. لقد أدرك محمد أن عليه أن يضع حداً لهذا التشتت. كان اليهود ممن اعتنقوا الإسلام قد أخبروه أن بني قينقاع تحديداً ـ أصغر قبيلة يهودية ـ يضمرون العداء للأمة و يبيّتون لها شراً. وقبل الهجرة كانوا حلفاء ابن أبي، وبعد بدر قرروا نقض العهد مع محمد وإحياء التحالف القديم كي يعززوا حزب المعارضة وليطردوا النبي. كانت منطقتهم أقرب إلى وسط المدينة. لم يكونوا مزارعين بل حرفيين وحدادين. بعد وقت قصير على بدر وخروج كعب إلى مكة زارهم محمد في عقر دارهم وحثهم على قبوله كرسول باسم تراثهم الديني المشترك. استمعوا إليه بصمت متمرد وأجابوه أن ليس في نيتهم البقاء في الأمة ثم قالوا له:

> «يامحمد إنك ترى أنّا كقومك! لايغرنّك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة؛ إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس»[٣٢].

فانسحب محمد إثر هذا التهديد، وانتظر التطورات.

بعد أيام قلائل وقعت حادثة في سوق **بني قينقاع**: احتال أحد الحدادين اليهود على امرأة مسلمة كانت تبيع هناك. وفي أثناء جلوسها شبك خلسة طرف ثوبها إلى ظهرها، وحين وقفت بانت سوأتها فأخذوا يضحكون منها. عندها صاحت فوثب مسلم وقتل اليهودي وهجم اليهود على المسلم وقتلوه فتشابك الطرفان ووقع الشر بينهما. وتساوت الخسائر بين الطرفين. فاستُدعِيَ محمد ليحكم، كونه حكماً، لحل النزاع، وليعيد السلام، لكن اليهود رفضوا قبول تحكيمه واعتصموا في قلعتهم، وناشدوا حلفاءهم العرب المجيء لنجدتهم. كان لدى بني قينقاع نحو /٧٠٠/ محارب مُهيئين، ولو استجاب حلفاؤهم العرب القدامى لمطلبهم وأرسلوا قواتهم لملاقاة محمد لما تمكن من هزيمتهم. كان ابن أُبَيّ متلهفاً لمساعدة بني قينقاع فاستثار حفيظة **عبادة بن الصامت**. لكن عبادة كان مسلماً ملتزماً فأشار إلى أن هذا التحالف القديم مع اليهود قد أصبح مُلْغىً عندما وقعوا جميعاً معاهدة الحرب مع محمد. عند ذلك أدرك ابن أبي أن لا حول له ولا طول في المساعدة لأن بقية العرب ظلوا صامدين خلف النبي. توقع بنو قينقاع أن يقودوا تمرداً على محمد والمهاجرين إلا أنهم وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل كل العرب في المدينة. انتظروا ابن أبي طوال أسبوعين كي يفي بوعده. وفي النهاية وجدوا أنفسهم مجبرين على الاستسلام دون شروط.

ذهب ابن أبي حالاً إلى محمد ليطلب منه أن يحسن معاملتهم، وعندما لم يجبه محمد أمسكه من ياقة ردائه، فامتقع وجه النبي غضباً، مع ذلك استمر ابن أبي في غيه متسائلاً كيف بوسعه التخلي عن حلفائه القدامى الذين ساعدوه كثيراً؟

كان يعرف أن محمداً طبقاً للتقاليد العربية القديمة يملك حق قتل أفراد القبيلة كلها، لكنه أبقى على حياتهم شرط أن يغادروا الواحة حالاً. وهذا ما فعلوه، ويقال إن ابن أبي شيعهم حتى خارج المدينة. فبدوا على استعداد للرحيل بعد أن أدركوا أن ابن أبي ليست لديه أية سلطة كي يساعدهم. لقد بالغوا في التقليل من قوة محمد، ولم يدركوا أن النظام القديم قد ولى إلى غير رجعة. كانوا يعتقدون أن حلفاءهم العرب السابقين ينتظرون الفرصة كي يعيدوا الاستقرار القديم. كما يبدو، غادروا الواحة دون احتجاج لأنهم كانوا مدركين أن الحظ حالفهم لأنهم نجوا بأرواحهم

فأثناء الحروب كانت القبائل تطرد من الواحة في الفترة التي سبقت الفترة الإسلامية: فجميع سكان المدينة كانوا يعرفون هذا العقاب، ولا بد أن بني قينقاع قد توقعوا الرحيل، فالتجأوا عند جماعة يهودية أخرى في وادي القرى، وأخيراً استوطنوا على الحدود السورية.

يصعب علينا نحن الغربيين مناقشة علاقات محمد مع يهود المدينة لأنها تبرز أشباحاً كثيرة مخجلة من ماضينا. لكن صراع محمد مع القبائل اليهودية الرئيسة الثلاث في الواحة كان مختلفاً تماماً عن كراهيتنا الدينية والعنصرية التي ألهبت أوروبا المسيحية طوال قرابة ألف سنة. لقد وجدت مخاوف المسيحيين اللاعقلانية تعبيراً نهائياً في الحملة الصليبية الدنيوية التي شنها هتلر ضد اليهود. بينما لم يكن لدى محمد مخاوف أو أوهام مماثلة. لم تكن لديه رغبة في جعل المدينة خالية من اليهود. كان صراعه مع بني قينقاع صراعاً سياسياً محضاً لم ينتقل إلى عشائر يهودية أصغر في المدينة، فهؤلاء بقوا أوفياء للمعاهدة وعاشوا مع المسلمين في سلام.

كانت هذه الفترة شديدة الخطورة على الأمة التي كان أفرادها يتوقعون هجوماً كبيراً من مكة، وبكل بساطة لم يكن بوسعهم التستر على عدو في الداخل. لقد كان إخراج بني قينقاع تحذيراً للمنشقين البارزين مثل ابن أبي وبني النضير. وقد أوضح أن محمداً لم يعد رجلاً بالإمكان العبث معه. فبعد مضي أشهر قلائل ـ عندما رجع الشاعر كعب إلى المدينة ـ أخذ يكتب أشعاراً تشويهية محرضاً على العصيان فأرسل محمد من يغتاله. كان الشعراء المعادون يزعجون محمداً، ذلك لأن لأشعارهم قدرة سحرية كما رأينا. كان الشاعر سلاحاً قاتلاً، ولم يكن بوسع محمد أن يسمح له بإلهاب الفرقاء الناقمين في المدينة، أو أن يحض القبائل البدوية للانضمام إلى تحالف أبي سفيان ضد المدينة. لقد أدبت هزيمة بني قينقاع بني النضير. فعندما اغتيل كعب ذهبوا إلى محمد يشكون أنه قد قتل واحداً من زعمائهم، كان محمد يعرف أنهم أعداء له مثل كعب، لكنهم لزموا الهدوء مؤقتاً، فأخبرهم أن بالإمكان الصفح عن أفكار وآراء انشقاقية لكنه لا يستطيع الصفح عن أفعال تحرض على الفتنة. بعدئذ عرض عليهم معاهدة خاصة إضافة إلى الاتفاقية السابقة كي يضمن سكوتهم والسلم معهم. فكان بنو النضير سعداء بذلك العرض

فوافقوا عليه. كان محمد يقمع المعارضة في المدينة بكل نجاح وهو ينتظر الهجوم المكي.

لقد عزز تعامل محمد البارع مع هذه الكارثة مركزه في المدينة، ومع ذلك لم يكن بعد يعتبر رئيس الأمة. فلم يكن باستطاعته احتواء التهديد المشترك لبني قينقاع وابن أُبَيّ دون مساندة عبادة بن الصامت. لقد أعطي لمحمد خمس الغنائم التي خلفها بنو قينقاع وراءهم، بينما كانت العادة أن يأخذ الزعيم ربع المغانم ليستخدمها من أجل قومه إذ يُتَوقع منه توزيع الهدايا، والعناية بالفقراء، وحسن الضيافة. كان الخمس نقطة مَيَّزَتْ محمداً قليلاً عن بقية الزعماء، وأوضح ذلك أن الناس كانوا يعتبرون أنه أصبح يشغل مركزاً مماثلاً للزعماء. كان محمد منشغلاً بتعزيز الامتياز الذي كسبه في بدر في الفترة التي كان ينتظر فيها الهجوم المكي قلقاً. فكلما سمع أن إحدى القبائل الرحل تعد العدة لغزو منطقة المدينة متأثرة بالدعاية المكية كان يسير إليها مهاجماً كي يحبط هجومها، وكانت المعارضة ميالة إلى التلاشي فور وصول قوات المسلمين. فتمكن من إذلال قريش ثانية في أواخر الصيف. فمنذ بدر لم تكن القوافل قادرة على استخدام طريق البحر الأحمر إلى سوريا، فقرر صفوان ابن أمية أن يسلك طريق نجد إلى العراق، مسافراً إلى الشرق من المدينة. لم يكن هذا الطريق ملائماً بسبب بعده عن مناطق السقاية، فعوَّض عن ذلك بالجمال التي تحمل الماء فقط. كانت القافلة تحمل شحنة من الفضة تقدر بـ/١٠٠/ ألف درهم(*). فأرسل محمد زيداً كي يعترضها، فتمكن من الاستيلاء عليها دون أن تدري أثناء استراحتها في قَرَدَة. كانت سمعة الجنود المسلمين قد غدت منذ بدر مخيفة، فحالما رآهم المكيون يقتربون فروا رعباً تاركين القافلة كلها وراءهم.

زادت قريش من استعداداتها للهجوم على المدينة لكنها تريثت حتى انقضاء الشتاء. في /١١/ آذار عام ٦٢٥ كان نحو من /٣٠٠٠/ مقاتل و/٣٠٠٠/ جمل و/٢٠٠/ حصان قد غادروا مكة إلى المدينة. وانضم إلى قريش حلفاؤها من البدو

(*) جاء في كتاب المغازي للواقدي أن أبا زمعة أرسل /٣٠٠/ مثقال ذهب ونُقَر فضة إضافة إلى بعض البضائع وكان صفوان نفسه قد خرج بمال كثير ـ (نُقَر فضة وآنية فضة وزن /٣٠٠٠٠/ ألف درهم). «الناشر»

في مجموعة من القبائل المعروفة باسم الأحابيش، وثقيف من الطائف، وقبيلة عبد مناة. في /٢١/ آذار وصل الجيش إلى مشارف المدينة، وأقام معسكره على السهل أمام قمة جبل أُحد إلى الشمال الغربي من الواحة. كان محمد والمدنيون قد علموا بالأمر قبل أسبوع من وصول الجيش. لم يكن هناك وقت كافٍ لجمع المحاصيل من الحقول، لكنهم تمكنوا من جلب الناس من المناطق المترامية التابعة للمستوطنة ليتحصنوا بالمدينة مع دوابهم، ولدى وصول القرشيين عقد زعماء المدينة مجلساً حربياً. فأكد أكثرهم خبرة على الحذر الشديد: يجب أن يبقى كل امرىء داخل المدينة، وينبغي عدم الخروج خارجها لملاقاة العدو. وقد جاء رأيهم هذا من واقع أن الحصار في الجزيرة لم يكن يحقق أي نتيجة. فعندما فرض في مناسبات عدة وجد العدو نفسه مجبراً على الرحيل دون حرب. لكن بعضاً من الجيل الأصغر سناً كان يريد حرباً. قالوا إن النبي قد هزم في بدر جيشاً جراراً، وبالتأكيد سينصرهم الله ثانية. كان يدعمهم في ذلك بعض المزارعين الذين شق عليهم أن تشق قريش طريقها عبر محاصيلهم التي تركوها خارج المدينة. كانت هذه الرؤوس الحامية قد أصبحت محبة جداً للقتال، وفي النهاية فرضوا وجهة نظرهم وبدأت استعدادات المعركة.

لكن همة الصقور اعتراها الخوف بعد أن أخبرهم أناس مثل **سعد بن معاذ** أنهم يجلبون على أنفسهم الهلاك في خروجهم للقاء العدو فأخبروا محمداً أنهم على استعداد للبقاء داخل المدينة، لكن محمداً وقف إلى جانب قرار الحرب كما ينبغي «ماينبغي لنبي إذا لبس لامته ان يضعها حتى يقاتل»[٣٣]. فكان أي تردد حيال هذه النقطة سيجلب نتائج سيئة. في مساء ٢٢ آذار الموافق للسادس من شوال ركب محمد حصانه المفضل على رأس نحو ألف من رجاله باتجاه أحد الذي يبعد نحو عشرين ميلاً لملاقاة جيش تعداده ثلاثة أضعاف جيشه. رفض اليهود الاشتراك في الحرب لأن ذلك اليوم كان يوم سبت، لكن المسلمين كانوا يعرفون جيداً أن اليهود كانوا يصلون من أجل النصر للمكيين. خيم الجيش في منتصف الطريق تلك الليلة وفي الصباح انسحب ابن أبي ومعه /٣٠٠/ من رجاله، فلم يزعج نفسه حتى بإخبار محمد بقراره. لكنه شرح لنفر من الأنصار أنه أراد إعفاء نفسه من هذه الحملة الانتحارية العبثية. قال ابن أبي: «أطاعهم فخرج وعصاني؛ والله ماندري

علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!»[٣٤]. ورغم أن قرار ابن أبي كانت تنقصه الشهامة إلا أنه كان يلعب لعبة أعمق. كان قد انسحب من معركة **بُعاث** في عام ٦١٧ لأنه أدرك أن إحراز نصر كامل كان محالاً، فعزز انسحابه من مكانته وجعله يوشك أن يصبح ملكاً على المدينة تقريباً. فإذا ما تمت هنا هزيمة محمد كما هو محتمل فإن ابن أبي سيكون قد أبقى نفسه في منأى عن الكارثة، وسيكون هناك جاهزاً لقطف الثمار.

واجه المسلمون قريشاً في الصباح التالي بجيش مستنزف جداً، وقف أبو سفيان في منتصف خط الجبهة على يمينه **خالد بن الوليد المخزومي** وعلى يساره **عكرمة بن أبي جهل**. وقبل بدء القتال تقدم أبو سفيان خطوة إلى الأمام وناشد الأوس والخزرج ترك محمد والذهاب إلى بيوتهم، لأنهم ليسوا خصوم مكة. لكن الأنصار صاحوا صيحة تحدٍ بأنّهم لن يتركوا نبيهم أبداً. بعد أبو سفيان تحدّث أبو عامر الذي كان موحداً وغادر المدينة إلى مكة بعد وصول محمد إليها، فخاطب قومه قائلاً: «يا معشر الأوس أنا أبو عامر»، فصاح به قومه: «فلا أنعم الله بك عيناً يافاسق». فصدم أبو عامر لأنه كان يتباهى في مكة بأن كلمة واحدة منه ستجعل الأوس تترك محمداً لتنضم إلى قريش. بعدئذ عاد متمتماً: «لقد أصاب قومي بعدي شر»[٣٥].

بدأ الجيشان يتقدمان باتجاه بعضهما وكانت **هند** زوجة أبي سفيان خلف الجيش المكي، كانت تسير مع مجموعة من النسوة ينشدن وهن يضربن على الرق:

وَيْهاً بني عبد الدارْ . ويهاً حُماةَ الأدبارْ
ضرباً لكل بتارْ
إن تقبلوا نُعانقْ ونفرش النمارقْ
أو تدبروا نُفارقْ فِراقَ غير وامقْ[٣٦]

كانت هند تكره محمداً، ذلك أنها فقدت والدها عتبة بن ربيعة واثنين من أبنائها في بدر فأقسمت أن تأكل كبد الحمزة الذي قتل عتبة في مبارزة واحدة.

يصعب سرد ما حدث بالتفصيل بعد بدء القتال لأن المصادر مشوشة. كان المسلمون قادرين على الصمود في البداية لأن محمداً قد رتب جنوده الترتيب

الدقيق نفسه الذي أدى إلى نجاحه في بدر، وفي إحدى اللحظات بدا المسلمون وكأنهم قد أوشكوا على جعل العدو يفرّ من أمامهم. لكن رماة السهام خالفوا أوامر نبيهم وتركوا مكامنهم التي وُضعوا فيها فهاجمهم خالد من خلفهم ثم تابع هجومه الناجح، فهرب المسلمون. حاول محمد أن يمنعهم لكنه فقد الوعي من ضربة على رأسه، فسرى خبر يفيد بمقتله.

كان محمد يشعر بالدوار فقط، فتعافى سريعاً بعد نقله إلى أيكة. ويبدو أن قريشاً أوقفت القتال لدى سماعها الخبر، فأخفقوا في متابعة النصر حتى النهاية إلى درجة أن المسلمين استطاعوا التراجع بشكل معقول. قتل في المعركة /٢٢/ مكياً و/ ٦٥/ مسلماً، لكنه لم يكن نصراً كبيراً لقريش. لقد أخفقوا في قتل محمد وإزالة الأمة من الوجود. كان من بين قتلى المسلمين ثلاثة من المهاجرين هم **الحمزة، وعبد الله بن جحش، ومصعب**. أما البقية فكانوا من الأنصار الذين لم يكونوا متلهفين للقتال.

بعد المعركة نفّرت قريش بعض حلفائها من البدو، بما قامت به من تشويه الجثث. إذ فتح أحد القرشيين بطن **حمزة** وانتزع كبده وأحضره إلى **هند** التي لاكت مضغة منه لتفي بقسمها. ثم قامت بقطع أنفه وأذنيه، وأعضائه التناسلية محرضة النسوة على القيام بالشيء ذاته بأجساد الجثث الأخرى. لقد غادرت النسوة المكيات ساحة المعركة وهن يلبسن أساور وأقراطاً وقلائد من جثث الموتى الدامية مما أثار اشمئزاز البدو وبعضٍ من رجالهن الذين شعروا أن هذا السلوك قد أفسد قضيتهم.

قبل بدء الجيش بالانسحاب سمع أبو سفيان الخبر الذي يدعو إلى اليأس، سمع بأن محمداً لم يقتل، فالصراع مع المدينة لم ينته إذن. فصاح قائلاً: «إن موعدكم بدر للعام المقبل» كتحدٍ آخر. فرد عليه أحد أصحاب محمد: «نعم هي بيننا وبينك وعد»[٣٧]. كان المسلمون في وضع جيد يكفي للقيام بمطاردة رمزية بعد أن منوا بخسائر كبيرة. تبعوا فلول الجيش المكي طوال ثلاثة أيام، وأثناء الليل جعل محمد رجاله ينتشرون بحيث تفصل كل منهم عن الآخر مسافة، وأن يضرم كل منهم ناراً، وهكذا بدا الأمر وكأن جيشاً جراراً كان يخيم هناك، ردعت الخدعة القرشيين الذين أرادوا العودة إلى المدينة كي يوجهوا الضربة الأخيرة لتأتي على تدمير

الأمة.

لكن هذا كان عزاءً سيئاً، فبعد أُحد شعر معظم المسلمين بإحباط عميق وتساءلوا: إذا كانت بدر آية على الخلاص فهل كانت هزيمة أحد آية على أن الله قد تخلى عن محمد؟ فأجاب القرآن على هذه المخاوف في السورة الثالثة (آل عمران) موضحاً أن من الخطأ الاعتقاد بأن الكارثة كانت من فعل الله، بل يجب أن يلوم المسلمون أنفسهم فقط. لقد كانوا مشاكسين، متمردين، وغير منضبطين طوال الحملة. مع ذلك فقد كانت أحد آية في أسلوبها ذاته: لقد كشفت المسلمين الحقيقيين عن الجبناء الذين فروا مع ابن أبي.

كان ابن أُبي واليهود سعداء جداً، كما كان متوقعاً. فقد أكد هو وأنصاره وبصوت عالٍ على أنه لو تم إتباع رأي زعيمهم لما تكبد المسلمون هذه الإصابات. وقال اليهود أن محمداً كان رجلاً طموحاً دون مؤهلات نبوية: فمن سمع عن نبي حق مُنيَ بنكسة كهذه؟ أراد عمر أن يقتل هؤلاء المروجين للإشاعات لكن محمداً هدأه. فأقسم محمد أن قريشاً لن توقع هزيمة كهذه بالأمة ثانية، وأنهم سوف يتعبدون عند الكعبة ذات يوم. وعلى الرغم من ثقته الهادئة فإن أُحُداً قد دمرت امتيازه، وأحدثت قطيعة مع ابن أُبي. حتى تلك الفترة كانت المعارضة السلمية تجلس دون فاعلية على السياج، لكن بعد أُحد أخذ ابن أُبي يبحث عن كل فرصة لتدمير محمد. في يوم الجمعة الذي تلا المعركة تم تحقير ابن أبي علانية في المسجد. وعندما نهض ابن أبي كي يتحدث أمسكه اثنان من الأنصار، وأخبراه أن عليه أن يبقي فمه مغلقاً بعد خيانته. فخرج من المسجد غاضباً، ورفض طلب المغفرة من محمد. بعد أحد سمي حزب ابن أبي «المنافقين» ولكن **و. مونتغمري واط** يقترح أن تسميتهم بالزواحف أو الفئران قد تكون ترجمة أدق: ففي أحد تسللوا هاربين إلى جحورهم مثل حيوانات صغيرة مذعورة(٣٨).

تسبَّبت معركة أُحد في مشكلات عملية ضاغطة توَجّب حلها. لقد خلف قتلى أُحُد زوجات وأُسراً خلفهم، ويجب تأمين معيشتهم ويبدو أن الوحي قد أذن للمسلمين بالزواج من أربع نساء بعد الهزيمة:

﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيبِ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً. وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا(٣٩)﴾.

يرى منتقدو محمد الغربيون في هذا السماح بتعدد الزوجات نوعاً من شوفينية ذكورية محضة. فالأفلام المعروفة مثل فيلم /الحريم/ تقدم صورة سخيفة ومسطحة للحياة الجنسية التي يحياها الشيخ المسلم، وتكشف هذه الصورة عن الوهم الغربي أكثر مما تكشف عن الحقيقة. فنحن إذا نظرنا إلى السماح بتعدد الزوجات كما هو نصاً نجد أن المراد منه ليس تحسين الحياة الجنسية عند الذكور بل كان جزءاً من تشريع اجتماعي. كما إن مشكلات اليتامى كانت قد أقلقت محمداً منذ بداية حياته، وتفاقمت بعد الوفيات في معركة أحد. فلم يترك شهداء الحرب أرامل فقط بل تركوا بنات وأخوات وأقارب آخرين بحاجة إلى رجل جديد يحميهم. أوصياؤهم الجدد قد لا يكونون أمناء في إدارة ممتلكات هؤلاء اليتامى. وربما عمل بعضهم على منع تزويج بعض هؤلاء النسوة كي يستولوا على أموالهن. بالنسبة للرجل لم يكن أمراً غير عادي أن يتزوج من النساء اللواتي تحت وصايته كطريقة لامتصاص ملكيتهن.

ربما كان هناك أيضاً نقص في عدد الرجال في الجزيرة مما كان يؤدي إلى بقاء نساء دون زواج وكن عرضة للاستغلال نتيجة ذلك، في أغلب الأحيان. لذا اهتمّ القرآن أشد الاهتمام بهذه المشكلة، فلجأ إلى تعدد الزوجات كوسيلة لحلها، وهذا ما جعل زواج اليتيمات أمراً ممكناً لكنه أصر على أن بوسع الرجل أن يأخذ أكثر من زوجة شرط أن يعدل بينهن. هذا يعني أنه يجب عدم تزويج فتاة يتيمة إلى وصيها ضد إرادتها وكأنها متاع نقّال(٤٠). ويقدم القرآن كذلك شروطاً للطلاق. في فترة ما قبل الإسلام كانت الزوجات يعشن في منازل آبائهن، فكان باستطاعة المرأة أو أحد أقاربها الذكور وضع حد لهذه العلاقة مع زوجها. أما في القرآن فنجد أن الرجل مخول في رفض طلبها للطلاق، لكن وُضِعَت حالة جديدة لصالح المرأة.

فالمهر الذي جرت العادة في الجزيرة أن يقدمه الرجل لعروسه، كان يأخذه أقارب المرأة الذكور، إلّا أن الإسلام جعله يذهب للمرأة ولها أن تفعل به ما تشاء. وفي حالة الطلاق لا يسمح للرجل باسترداده وبذلك يكون أمن المرأة مكفولاً[٤١].

غالباً ما يلوم النقاد الغربيون القرآن في تعامله مع النساء اللواتي يعتبرن أنداداً للرجال، لكن في حقيقة الأمر كان تحرير النساء عزيزاً على قلب النبي. هناك شكاوى من أن القرآن يكيل بمعيارين مزدوجين. فقوانين الميراث تنص على أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وهذا لأن على الذكر أن يقدم مهراً كي يبدأ حياة أسرية جديدة. وفي الشهادة امرأتان مقابل شاهد ذكر. واذا ماتذكرّنا أننا ما زلنا ونحن في القرن العشرين، نشن حملات مطالبة بحقوق للنساء مساوية لحقوق الرجال، علينا ألاَّ نرى هذا التشريع القرآني تحريمياً مانعاً بل كان ثورياً في القرن السابع. ينبغي أن نتذكر كيف كانت دورة الحياة بالنسبة للنساء في الفترة الجاهلية عندما كان وأد البنات متفشياً، وليس لهن أية حقوق. كن مثل العبيد، نوع أدنى دون وجود قانوني. إن ما أنجزه محمد للنساء في عالم بدائي كهذا كان أمراً غير عادي. فمجرد فكرة أن بالإمكان أن تكون المرأة شاهدة أو أن ترث أي شيء كان هذا أمراً مدهشاً حقاً قدمه محمد لها. وينبغي علينا أن نتذكر أنه في أوروبا المسيحية، كان على النساء الانتظار حتى القرن التاسع عشر كي يَنَلْنَ أي شيء مماثل لما أعطاه الإسلام للنساء. وحتى آنذاك كان القانون يميل لصالح الرجال كثيراً.

علينا أن نرى الغاية من تعدد الزوجات في ظرفيته ـ ففي شبه الجزيرة في القرن السابع، قبل الإسلام كان باستطاعة الرجل أن يقتني ما شاء من الزوجات، فجاء الاقتصار على أربع في الإسلام بمثابة تحديدٍ وليس إجازة إلى اضطهاد جديد: زد على ذلك ان القرآن يُتْبِعُ مباشرة الآيات التي تعطي المسلمين الحق في الزواج من أربع، بشروط ينبغي أن تؤخذ جدياً. فما لم يكن الرجل واثقاً من أن باستطاعته العدل بين زوجاته يجب أن يظل على واحدة[٤٢]. لقد بني القانون الإسلامي على هذا. ينبغي على الزوج أن يُمَضِّي الزمن نفسه مع كل من زوجاته، ومعاملتهن على قدم المساواة سواء مالياً أم قانونياً. وتم الإجماع في العالم الإسلامي على أن البشر لا يستطيعون تحقيق هذا الشرط القرآني. فمن المحال تبيان نزاهة ونتيجة كهاتين، أي أن كل مسلم يجب ألا يتخذ لنفسه أكثر من زوجة. ففي البلدان الإسلامية التي منع

فيها تعدد الزوجات سوَّغت السلطات هذا المنع وفقاً لأسباب دينية وليس وفقاً لأسباب علمانية.

في المدينة، بعد هزيمة أحد، لم يشجع القرآن الرجال على بناء (حرملك) خاص. لم يقتصر الأمر على تحديد عدد الزوجات عند المسلمين بل كان يطلب منهم أيضاً ممارسة فعل إيماني في المستقبل. فالقرآن يمنع تكراراً عادة وأد البنات حتى أصبحت واحدة من الوصايا الأساسية التي على المسلم أن يوافق عليها. فبدلاً من استخدام هذه الطريقة الوحشية للتحكم بالولادات يحث القرآن المسلمين على الإيمان بالله في مجتمع يعطى فيه الضعفاء والعجزة واليتامى والرضع حقوقاً إنسانية تامة ويعاملون بالمساواة[٤٣]. في واحدة من أجمل فقرات الأناجيل نجد يسوع يحث تلاميذه على تأمل طيور السماء وأزهار الليلك في الحقول، وألا يقلقوا بشأن المستقبل، «فإن الله سيكفل لهم جميع احتياجاتهم[٤٤]». كذلك يحث القرآن المسلمين ـ بطريقة شبه مماثلة على الثقة برحمة الله في آيات الطبيعة. عليهم أيضاً أن يثقوا بالله دون اللجوء إلى إجراءات استغلالية قاسية كالتي كانت في الجاهلية، وأن يُنَمُّوا داخلهم ثقة سعيدة بأنه سوف يرزقهم. يجب أن يتزوج المسلمون المحتاجات، وأن يُكَوِّنوا أسراً كبيرة وكلهم ثقة بأن الله سوف يغنيهم برحمته.

﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يُغنيهُم الله من فضله والله واسعٌ عليم[٤٥]﴾.

كان هذا فعلاً إيمانياً يتطلب شجاعة لا بأس بها. وقد قدم محمد نفسه المثل الأعلى على اهتمامه بالنساء الضعيفات في الأمة. فبعد أحد اتخذ لنفسه زوجة رابعة هي زينب بنت خزيمة أرملة عبيدة بن الحارث(*) الشهيد في بدر وكانت أيضاً ابنة شيخ قبيلة بني عامر. وكذلك أقام هذا الزواج تحالفاً سياسياً. بنى لها مسكناً قرب المسجد فانضمت إلى أخواتها سودة وعائشة وحفصة.

كان النبي يحث المسلمين على الثقة بمستقبلهم، وأن يكون سلوكهم متساوياً مع الناس، وأن يتحملوا مسؤوليات جديدة في وقت كان فيه أبو سفيان يبني تحالفاً

(*) زينب بنت خزيمة هي أرملة الطّفيل بن الحارث أخي عبيدة بن الحارث، ويبدو أن الكاتبة لم تلحظ هذا الخطأ. انظر الطبري في فصل أزواج النبي

ضخماً لتدمير الأمة. غير أن محمداً كان كعادته يتخذ المزيد من الاحتياطات المألوفة. لقد أدرك أن عليه أن يحصل على دعم القبائل البدوية في شرق وشمال شرق المدينة لمنعها من الانضمام إلى التحالف المكي. لهذا كان يرسل مجموعات غزو كي يظل وأصحابه محل اهتمام البدو وانتباههم لكن في صيف عام ٦٢٥ وقعت حادثتان أوضحتا بجلاء أن وضع المدينة ليس محصناً كما يجب.

بعض القبائل البدوية في نجد ممن دخل بعض أفرادها في الإسلام، طلبوا إلى النبي أن يرسل من يعلمهم الإسلام وتلاوة القرآن فأرسل لهم ستة من أقدر رجاله لهذه المهمة. في أثناء رحلتهم استراحوا عند ماء **الرجيع** بالقرب من مكة، فتعرضوا لهجوم شنه أحد زعماء قبيلة **هذيل**(*)، فقتل ثلاثة من المبعوثين وأُسِرَ الثلاثة الآخرون، وعندما حاول أحدهم الفرار رُجِمَ بالحجارة حتى الموت، بينما أُخِذَ الآخران إلى مكة لبيعهما إلى أعدائهما القرشيين. فاشترى **صفوان بن أمية** واحداً كي يثأر لمقتل أبيه الذي قتل في بدر. وبعد ذلك أُخِذ المسلمان إلى خارج المنطقة المحرمة وصلبا. تلك كانت الحادثة الأولى.

وتتلخص الحادثة الثانية في أن **أبا البراء** عامر بن مالك - زعيم قبيلة بني عامر البدوية طلب إلى محمد إرسال من يفقهوا قومه في الدين، لكن طلبه هذا كان أيضاً طلباً للنجدة ضد فريقين متحاربين في القبيلة. تم إيفاد /٤٠/ مسلماً فقتلوا جميعاً تقريباً عند بئر **معونة** خارج منطقة بني عامر. إذ كان أحد المنافسين لأبي البراء في القبيلة قد أقنع بعض أفراد من قبيلة سُليم المجاورة بالقيام بفعلتهم هذه. كان اثنان من المسلمين يرعيان الإبل بالقرب من المكان فعلما بالكارثة عندما شاهدا الصقور تحوم فوق الجثث، فهرعا إلى المكان فوجدا رفاقهما موتى، فأُخِذَ أحد الناجين أسيراً وتمكن الآخر من شق طريقه عائداً إلى المدينة. في طريق العودة قابل اثنين من قبيلة بني عامر نائمين تحت شجرة فقتلهما بسيفه لاعتقاده أن قبيلة بني عامر هي المسؤولة عن المجزرة. وأسرع إلى محمد كي يخبره بما فعل. لقد دهش عندما أخبره محمد أنه قد

(*) في تاريخ الطبري /الجزء الثاني/ باب: ذكر الأحداث التي كانت في سنة أربع من الهجرة (غزوة الرجيع) نجد أكثر من رواية لهذه الحادثة فابن اسحاق يورد أن الوفد الذي طلب إلى النبي إرسال من يعلمهم هم أنفسهم من قاموا بالقتل.

ارتكب خطأً، وأن على الأمة أن تدفع الدية التي بدأت تقبل بها بعض القبائل بديلاً عن الثأر. صحيح أن المجزرة ارتكبتها عشيرة بني سليم إلا أن المسؤولية تطال قبيلة بني عامر أيضاً. فعن طريق دفع الدية لأبي البراء كان محمّد يأمل في كسب قبيلته إلى الإسلام. فبدأ شعراء قبيلة عامر ينظمون الشعر نادبين فيه الشهداء، وممتدحين سلوك المسلمين اللائق تجاه أبي البراء مما حدا ببعض أعداء محمد السابقين إلى إبداء تعاطف أكبر مع المسلمين. إضافة إلى ذلك قيل إن بعضاً من مرتكبي المجزرة قد تأثروا كثيراً بالإيمان والشجاعة اللذيْن تحلى بهما الشهداء لحظة الموت إلى درجة أنهم دخلوا في الإسلام.

بدأ محمد يجمع الدية في المدينة، فاقترب من قبيلة بني النضير حليفة أبي البراء. قدم محمد طلبه في إحدى اجتماعات مجالسهم وبرفقته أبو بكر وأسيد بن حضير الأنصاري. بدا أن اليهود موافقون ومتعاونون، وطلبوا من المسلمين الانتظار خارج المجلس ريثما يتداولون الطلب. لكن محمداً لم يلبث أن انسل من بين أصحابه عائداً إلى بيته، فقد أخبرهم لاحقاً أن جبريل قد حذره من أن اليهود كانوا يتآمرون على قتله. في الواقع لم يكن كبير حاجة لتحذير الوحي فقد كان بعض أفراد بني النضير يريدون أن يثأروا لمقتل الشاعر كعب بن الأشرف، وتذكر المصادر الإسلامية أنها كانت تعرف تماماً من كان على وشك أن يرمي صخرة على محمد من سطح منزل مجاور.

بعدئذ أرسل النبي واحداً من الأنصار كي يسلّم إنذاراً نيابة عنه. فقد أخبرهم محمد بن مسلمة أحد أفراد قبيلة الأوس التي كانت حليفة بني النضير قبل الهجرة في حينه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يأمركم أن تظعنوا من بلاده». جاء ذلك لأنهم نقضوا العهد بينهم وبينه بمحاولتهم قتله. إنذار كهذا عنى أنه لم يعد باستطاعتهم العيش في المدينة. دهش اليهود لقيام فرد من الأوس بنقل هذه الرسالة، وكما حدث مع بني قينقاع في السنة الماضية لم يستطيعوا تقبل أن نمط الاستقرار القديم قد أُلغِيَ إلى الأبد. لقد أخبرهما ابن مسلمة بكل صراحة: «لقد تغيرت القلوب ومحا[*] الإسلام العهود»[٤٦].

جرّب اليهود التفاوض مع محمد للتوصل إلى تسوية، لكن ابن أُبَيّ وجد فيها

فرصة ممتازة له للقيام بمحاولة أخرى للخلاص من محمد. فأخبر اليهود أنه سيضم قواته إلى قواتهم إذا كانوا على استعداد للخلاص من الأمة. فانسحب بنو النضير إلى قلعتهم وراقبوا المسلمين وهم يحيطون بهم، وانتظروا مجيء ابن أُبَيْ وجماعته كي يخلصوهم، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. لقد أخطأ ابن أبي في تقدير قوة محمد ولحقه ضرر كبير من جراء موقفه في أحد أكثر مما اعتقد. بعد مضي أسبوعين أعلن محمد أن ليس باستطاعته الانتظار لمدة أطول فأمر بقطع نخيلهم، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب فأرعب اليهود الذين استسلموا له متوسلين أن يبقي على حياتهم فوافق محمد على ذلك شرط مغادرتهم الواحة حالاً. حَمَّل بنو النضير ممتلكاتهم المنقولة حتى أبواب منازلهم، وغادروا الواحة في موكب كبير وكأنهم كانوا منتصرين. كانت النسوة في كامل حليهن وزينتهن ينقرن الرق وينشدن على أصوات المزامير والطبول. شقوا طريقهم عبر المدينة سالكين الطريق الشمالية متجهين إلى سورية. بقي بعضهم في مستوطنة قريبة تدعى خيبر، ومن هناك ساعدوا أبا سفيان على بناء تحالفه، ودعوا القبائل الشمالية إلى مؤازرته.

في السنة التالية تمكن محمد من استعادة بعض الامتيازات التي فقدها، وكانت قضية بني النضير هزيمة أخرى تلحق بابن أبي. استمر النبي بالقيام بغزوات بسيطة، وفي سنة ٦٢٦ حقق انتصاراً معنوياً حاسماً. فرداً على أبي سفيان وما تحدّى به المسلمين وهو يغادر ميدان المعركة في أحد، بأن يلاقوه في بدر بعد عام، رداً على ذلك فقد انطلق محمد ومعه /١٥٠٠/ مقاتل في شهر نيسان عام ٦٢٦ ، وخيموا في بدر طوال أسبوع كامل، لكن أبا سفيان لم يظهر أبداً. لم يتوقع أن يفي محمد بالموعد فانطلق مع جيشه استعراضياً وفي ذهنه العودة مجرد سماعه أن المسلمين لم يغادروا المدينة. كانت تلك سنة قحط، فلم تكن هناك ورقة عشب لإطعام الإبل أثناء الرحلة، ولذلك قاد أبو سفيان جيشه عائداً إلى مكة. قرّعه مواطنوه على فعلته لأنه خيب ظنهم. لقد أُعجب البدو بشجاعة المسلمين واستعدادهم لمواجهة جيش مكي أكبر من جيش بدر بكثير. لم يكن مركز محمد يتحسن في المدينة فحسب بل كان المد قد بدأ يتحول لصالحه في بقية الجزيرة.

مع أن المسلمين كانوا يدركون المذلة التي تعرض لها المكيون في بدر الثانية فانهم كانوا يعلمون أيضاً أن المكيين يكثّفون استعدادهم لشن هجوم جديد. وأما

محمد فقد كان مايزال يأمل بالتوصل إلى تسوية سلمية مع قريش. في كانون الثاني عام ٦٢٢ توفيت زوجته زينب ـ بعد انقضاء ثمانية أشهر على زفافها ـ وبعد أشهر قلائل طلب يد هند بنت أبي أمية بن المغيرة أرملة ابن عمته أبي سلمة ابن عبد الأسد. كانت أم سلمة ـ وهو الاسم الذي تعرف به ـ أختاً لأحد الأعضاء المرموقين من عشيرة مخزوم المكية القوية التي أثبتت أنها كانت رابطة مفيدة. كان عمرها / ٢٩/ سنة، ولمّا تزل فائقة الجمال، ويظهر انها كانت ذكية ورفيقة جيدة لمحمد. غالباً ما كان يختارها لمرافقته في غزواته الكبرى. وفي إحدى المرات قدّمت له نصيحة قيّمة. تردّدت في الزواج من محمد في البداية، قالت إنها لم تعد شابة، وطبيعتها غيورة، ولم تكن متأكدة من أنها ستحتمل الحياة في بيت الحريم. فأكد محمد لها أنه أكبر منها سناً وأن الله سوف يتدبر أمر غيرتها.

كانت أم سلمة على صواب في خشيتها من منافسة الحريم، فقد أدخل زواج محمد منها شرخاً بين زوجاته، عكس تنافس الفرقاء ضمن الأمة على السلطة السياسية. وإذ كانت أم سلمة المخزومية تمثل الجماعة الأكثر أرستقراطية بين المهاجرين، فإن عائشة وحفصة كانتا تمثلان الجناح العامي في السلطة. وعندما كانت الزوجات الجديدات يدخلن جناح الحريم كن ينضممن إلى واحد من هذين الجناحين المتنافسين.

كانت أم سلمة تبحث عن دعم لجماعة أقلية ثالثة هي آل البيت الذين كانوا من أقارب محمد مباشرة. كانت تتطلع إلى فاطمة التي كانت امرأة خجولة ومتواضعة كأمل رئيس لهذه الجماعة. لقد عكس هذا الشقاق بين زوجات محمد شقاقات حادة في الأمة. وأصبحت خطيرة جداً بعد موت النبي، وما تزال إلى حدٍّ ما تقسم المسلمين حتى اليوم: وقد صار أهل البيت والآخرون الذين أرادوا فاطمة وعلياً وذريتهما قادة للعالم المسلم صاروا يشكلون مايعرف بالشيعة. لم يمض وقت طويل على زفاف أم سلمة حتى انضمت زوجة جديدة إلى الزمرة الأرستقراطية. **فزينب بنت جحش** ابنة عمة النبي طُلِّقت من زيد وتزوجها محمد نفسه. لقد أثارت ظروف قصة زواجه من زينب هذه دهشة الكثيرين، واستخدمها منتقدوه للطعن والحط من قدره.

رأى أناس من أمثال **فولتير وبريدو Pri deaux** في حكاية هذا الزواج مثالاً على غريزته الجنسية التي لا تشبع، وعلى التلاعب البارع بالوحي بما يتناسب ورغباته. وتقدم هذه الإيحاءات عرضاً مثيراً للأحداث أكثر مما يقدمه المسلمون. تروي القصة أن محمداً ذهب عصر يوم لزيارة زيد الذي شاءت الصدف أن يكون خارج البيت. فتحت زوجته زينب الباب وهي ترتدي ثياباً شفافة لأنها لم تكن تتوقع زواراً. كانت في أواخر الثلاثينات، مع ذلك كانت آية من آيات الجمال، فوقع إعجابُها في قلب النبي. فقفل عائداً وهو يتمتم «سبحان الله العظيم، سبحان مقلب القلوب»[٤٧]. لم تكن زينب راغبة بزيد زوجاً لها فرأت في إعجاب محمد بها مخرجاً لها. وقد أخبرت زيداً عن التأثير الشديد الذي تركته في النبي مراراً إلى درجة أن الحياة مع زيد أصبحت مستحيلة. ذهب زيد إلى محمد وعرض عليه رغبته في تطليق زوجته إذا كان يريدها زوجة له لكن محمداً طلب إليه أن يتقي الله ويحتفظ بزوجته لنفسه «أمسك عليك زوجك». لكن لم يكن هناك أمل من هذا الزواج. فزينب التي كانت تناكد زيداً جعلت حياته جحيماً فاضطر إلى طلاقها. بعدئذ قرر النبي أن يتزوجها.

لقد وجه انتقاد إلى هذا الزواج: فقال بعضهم إنه كان زواجاً غير شرعي لأن زينب كانت زوجة ابنه بالتبني، لكن محمداً تلقى وحياً يخبره بأن هذا الزواج لم يكن سفاحاً للقربى بكل تأكيد[٤٨]. كان زيد ابن محمد بالتبني وكانت العلاقة بينهما اصطناعية ولم يكن محمد ينتهك قرابة محرمة بزواجه من زينب. شاءت الصدف أن يكون محمد مع عائشة عند نزول هذا الوحي فعلّقت بصورة غير مهذبة أن الله يستجيب لهواك بسرعة. ويشاركها الغربيون هذا الرأي. لكن الاحتفاظ بهذا الحديث يدل على أن معاصري محمد قد تبنوا نظرة أكثر براغماتية. فقد رأوا أن محمداً رجل ذو عواطف، وإذا أراد الله أن يعطي رسوله بعض الامتيازات فمن ينتقدون؟ في يومنا هذا ينكر المسلمون أن محمداً تزوج زينب بدافع الشهوة. ويبدو من غير المرجح أن تثير امرأة في التاسعة والثلاثين، تعيش على الحد الأدنى من التغذية طوال حياتها، ومعرضة لشمس الجزيرة التي لا ترحم. امرأة كهذه ليس مرجحاً أن تثير انفعالاً عاصفاً في صدر أي رجل، ناهيك عن كونها ابنة عمته، وقد عرفها منذ أن كانت طفلة. وكان محمد قريباً من أسرة جحش ومن بينها زينب.

يقول المسلمون بأن النبي شعر أنه أصبح مسؤولاً عنها بعد طلاقها، وكان شديد الحرص على النساء غير المحصنات في الأمة. فلو أنه أراد زينب لمفاتنها الجسدية لكان بوسعه أن يتزوجها قبل سنوات مضت. كما أوضحت الحادثة أن أبوة التبني لم تكن رابطة دموية، ولا حاجة بها أن تكون عائقاً في وجه الزواج.

بعد وقت قصير من زفاف زينب وربما لأمر يتعلق بذلك الحدث نزل الوحي بآيات الحجاب التي أمرت بعزل زوجات النبي عن بقية الأمة. وتروي الأحاديث الإسلامية قصة إدخال الحجاب بطرق متباينة. يقول البعض أن عمراً ـ الذي كانت آراؤه سلبية عدوانية تجاه المرأة ـ حث محمداً على عزل زوجاته وحجبهن. كانت حوادث مزعجة قد وقعت وراح المنافقون فيها يسيؤون إلى زوجات محمد عندما كن يخرجن ليلاً كي يرحن أنفسهن. ويقول آخرون إن محمداً وقد أصبح أكثر أهمية وازداد إدراكاً للحياة في المناطق المتمدنة، أراد تبني عادة فارسية وبيزنطية في عزل حريم الطبقات العليا كدلالة على مرتبة زوجاته وكرامتهن. ويشير الجميع ـ على أية حال ـ إلى أن الأخلاق الجنسية كانت منحلة في فترة ما قبل الإسلام، فكان ـ على ما يبدو ـ هناك الكثير من الكلام البذيء والتشبيب، والغزل ومراودة النساء. قد تكون الفضيحة الجنسية بالغة الخطورة في مجتمع تراثي، وقد يثير انفعالات حادة في أي مجتمع. ومن المحتمل أن محمداً كان مدركاً أن ابن أُبَيّ وأعوانه يسرهم إذا تمكنوا من إلحاق الضرر بالقضية الإسلامية عن طريق الإشارة إلى عار في أسرته.

يقال إن بعض المدعوين مكثوا طويلاً في أثناء عرس زينب إلى حدٍّ أصبحوا فيه مزعجين فكان سلوكهم سبباً لنزول الوحي الذي وضع مسافة بين عائلة محمد وبقية الأمة:

> ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي إلا أن يُؤْذَنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناه ولكن إذا دُعِيتُم فادخلوا فإذا طَعِمتُم فانتَشِروا ولا مُسْتأنِسينَ لحديثٍ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن مَتَاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تَنكِحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً[٤٩]﴾.

ينبغي أن نتذكر أنه لم يكن لمحمد غرفة خاصة به في المسجد بل كان ينام في غرف زوجاته. وكلما كانت تعلو مكانته في المدينة كان يصبح منزله مكاناً عاماً يتوافد إليه الناس طلباً للمشورة في مشكلاتهم الشخصية والدينية، ويطلبون إليه التحكيم في النزاعات بينهم. وكان بعض المسلمين يحب التقرب إليه عبر زوجاته. فعائشة مثلاً كانت معروفة بتجاذب أطراف الحديث مع أحد الشباب، وقد تذكّر الناس ذلك لاحقاً عندما اندلعت فضيحة هددت بشق الأمة نصفين. لم يكن المراد من الحجاب أن يكون إجراءً اضطهادياً بل كان لمنع تطور ظرف فضائحي قد يستخدمه أعداء محمد بغية النيل من سمعته.

علينا أن نتوقف قليلاً كي نناقش مسألة الحجاب ودستور الحجاب الإسلامي الذي يُعدّ في الغرب رمزاً لاضطهاد الأنثى، بينما هو في القرآن مجرد جزء من سلوك بسيط ينطبق على زوجات النبي فقط. فالمسلمات شأنهن شأن الرجال مطالبات بارتداء ملابس محتشمة، ولم يؤمرن بتغطية أنفسهنّ ولا بعزل أنفسهن في جزء منفصل من المنزل. فهذان الأمران كانا تطورين لاحقين ولم ينتشرا في الإمبراطورية الإسلامية إلا بعد ثلاثة أو أربعة أجيال على وفاة النبي. فعلى ما يبدو دخلت عادة الحجاب وعزل النساء إلى العالم الإسلامي من **فارس** و**بيزنطة** حيث كانت النسوة يعاملن بهذه الطريقة منذ زمن بعيد.

في الحقيقة لم يكن المراد من الحجاب أو الغطاء الحط من قدر نساء محمد بل دلالة على مركزهن الرفيع. فبعد وفاته كان لزوجاته سلطة كبيرة، وكن مرجعيات دينية تلقى التقدير، وكثيراً ما استُشِرن في سُنَّةِ النبي وآرائه. لقد أصبح **لعائشة** أهمية سياسية كبيرة، وفي عام ٦٥٦ قادت ثورة ضد الخليفة الرابع **علي**. وكما يبدو فقد أصبحت بعض النساء غيورات من مراكز نساء محمد فطالبن بلبس الحجاب أيضاً، لأن الثقافة الإسلامية تنادي بالمساواة فبدا تناقضاً تمييز وتكريم نساء محمد بهذه الطريقة. فقد رأت النساء اللواتي ارتدين الحجاب لأول مرة أنه رمز للسلطة والنفوذ وليس علامة لاضطهاد ذكوري. فزوجات الصليبيين أخذن يلبسن الحجاب آملات أن يلقين معاملة أفضل بعد أن رأين الاحترام الذي حظيت به النساء المسلمات. إنه لمن الصعب فهمَ رموز وعادات الثقافات الأخرى. فنحن في أوروبا بدأنا ندرك كم

أسأنا فهم وتفسير ثقافات أخرى في مستعمراتنا ومحمياتنا السابقة. إن كثيراً من المسلمات اليوم وحتى اللواتي تربين في الغرب يجدن ظلماً كبيراً عندما تدين الحركات النسائية الغربية حضارتهن بدعوى أنها كارهة للنساء.

إن معظم الأديان كانت شؤوناً ذكورية، وفيها انحياز بطريركي، ومن الخطأ، في هذا الأمر، أن نرى الإسلام على خطأ أكثر من بقية الأديان. إننا إذا ما عدنا إلى العصور الوسطى وجدنا الموقف معكوساً. كان المسلمون آنذاك يشعرون بالرعب لدى رؤية الطريقة التي يعامل بها المسيحيون الغربيون نساءهم في الدول الصليبية. لقد شجب العلماء المسيحيون الإسلام لإعطائه سلطة أكثر مما ينبغي للعبيد والنساء. واليوم عندما تستأنف المسلمات اللباس التراثي فإنهن يفعلن ذلك لا لأن أدمغتهن قد غسلها دين متعصب بل لأنهن يجدن أن العودة إلى جذورهن الثقافية مقنعة لهن بعمق. ففي أغلب الأحيان هو رفض للموقف الإمبريالي الغربي الذي يدعي أنه يفهم تراثهن أفضل منهن.

في كانون الثاني عام ٦٢٧ ـ أي بعد تحجيب نساء النبي، وقعت حادثة مزعجة عندما قاد الرسول حملة ضد بني المصطلق، إحدى عشائر قبيلة خزاعة التي كانت تحضر لغزو المدينة. وضّحت الحادثة السرعة التي يتأثر بها مركز محمد بأية لطخة تُلصق بأسرته. فبعد أن أخذ بني المصطلق على حين غرة عند بئر المُرَيْسيع على ساحل البحر الأحمر إلى الشمال الغربي من المدينة هربوا تاركين /٢٠٠٠/ من الإبل و/٥٠٠٠/ من الأغنام والماعز و/٢٠٠/ من نسائهم، من بينهن جويرية بنت الحارث زعيم القبيلة. كان النبي قد سمح لعائشة أن ترافق الحملة، فغاص قلبها في صدرها حالما رأت جويرية التي بدأت تساوم محمداً حول فديتها لأنها كانت فائقة الجمال. وعن ذلك قالت عائشة: «فوالله ما هو إلاَّ إن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها صلى الله عليه وسلم مارأيت(٥٠)». وهذا ما حصل تماماً. فقد عرض عليها محمد الزواج بعد أن أسلمت، وبذلك حَوّلَ قبيلة معادية إلى حليف.

خيم المسلمون يومين آخرين عند بئر المُرَيْسيع. كان قد تطوع المزيد من المنافقين للانضمام إلى هذه الغزوة طمعاً في الحصول على الغنائم، وفجأة كشفت

حادثة تافهة التوترات الكامنة في الأمة. لقد وقع شجار بين اثنين من قبيلتين محليتين كان قد تم استئجارهما لسقاية خيل المسلمين، فاستدعى كل طرف حلفاءه التقليديين: كان أحدهما من قبيلة محالفة لقريش والآخر من قبيلة محالفة للخزرج، وفي الحال استجاب المهاجرون والأنصار لهذا التحدي القبلي، فأمسكوا بخناق بعضهم في غضون دقائق قليلة. كان ذلك دلالة أخرى على قوة الولاءات القديمة التي كان بإمكانها أن تقلب العقيدة الإسلامية الجديدة بسهولة كبيرة وكأن محمداً لا شأن له بذلك البتة. تدخل عمر وبعض من أصحاب محمد المقربين فأوقفوا القتال، لكن ابن أبيّ كان عنيداً وراح بغضب يتساءل محرضاً إن كان بلغ الهوان بأهل المدينة هذه الدرجة التي تسمح معه أن يأتمروا بأمر الغرباء فقال: «أو قد فعلوها؟ فقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك. أما والله وان رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل»[٥١]. روى أحد الأنصار هذا التهديد إلى محمد فأمسك عمر بسيفه حالاً. فقال محمد بهدوء: «كيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا». ثم أصدر أوامره بالمسير حالاً وقد كان ذلك في حر الهاجرة ـ وهذا شيء لم يفعله من قبل. فنزلت السورة رقم /١٣/ سورة المنافقين أثناء الرحلة إلى المدينة، لكن محمداً احتفظ بها حتى وصل إلى المدينة.

أثناء إحدى محطات الراحة تسللت **عائشة** لقضاء حاجة، وعندما عادت إلى المعسكر الذي كان على وشك أن يغادر اكتشفت أنها قد أضاعت عقدها. فعادت تبحث عنه. ولما جاء الرجال الذين كانوا برفقتها ورفعوا هودجها إلى ظهر الجمل اعتقدوا أنها كانت داخله، وانطلق الناس. عندما عادت عائشة إلى الموقع وجدت أنهم قد رحلوا، فلم تقلق لأنها كانت تعلم أنهم سوف يفتقدونها ويعودون إليها حالاً. فاستلقت منتظرة. بعدئذ جاء **صفوان بن المعطل** ـ الشاب الذي كان يعرف عائشة جيداً قبل إدخال الحجاب، وكان هو الآخر قد تخلف عن الركب لحاجة أيضاً وحين عاد رآها وقبل أن يعرف أمرها، حجبت عائشة نفسها بسرعة فوضعها على ظهر جمله. وعندما وصلت مع صفوان أخذت الألسنة تتقول عليها. وسرعان ما نشر المنافقون الفضيحة مثيرين العداوة القبلية ضد المهاجرين الذين جرّوا عليهم كل الحروب. حتى أن الشاعر **حسان بن ثابت** الذي امتدح مخلصاً الانتصارات

التي حققها محمد منذ الهجرة بدأ يندب هجر الإلهات القديمة، ووصف نفسه محاطاً ببحر من اللاجئين في المدينة. كذلك بدأ بعض المهاجرين يشك ببراءة عائشة ومن بينهم ابن عمها مِسْطح وحمنة بنت جحش أخت زينب التي كانت تغار من عائشة نيابة عن أختها لأنها كانت زوجة محمد المفضلة، إلا أن زينب نفسها دافعت عنها.

عندما وصل الركب إلى المدينة رقدت عائشة مريضة وسمعت بالإشاعة تدريجياً لأنها لاحظت أن محمداً كان بارداً تجاهها، وبعيداً عنها، وطلب نقلها إلى منزل والديها حيث تلقى العناية هناك. شعر محمد بالضياع من توقف الوحي فجأة فكان ذلك مزعجاً له. لم يكن بوسعه العودة إلى أصحابه هذه المرة طلباً للعون، فلم يكن باستطاعته استشارة أبي بكر في أمر ابنته، ولم يطلب رأي عمر لأن عمراً كان معروفاً بفظاظته حيال النساء، فتوجه إلى الجيل الأصغر سناً بدلاً من ذلك. فعندما سأل ربيبه **زيد بن أسامة** عن رأيه بعائشة تكلم لصالحها بحرارة، وكذلك فعلت العبدة **بريرة** التي قالت لمحمد: «ما أعلم عنها إلّا خيراً، وما كنت أعيب عليها إلاّ أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فيأتي الداجن فيأكله»، بينما كان علي متشككاً وحين سُئل عن رأيه قال: «يا رسول الله؛ إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها تصدقك»[٥٢] . ولذلك لم تسامحه عائشة أبداً.

أما ابن أبي الذي كان مثابراً على إثارة المتاعب، فقد سُرَّ بهذه الحادثة كي ينال من محمد. كان على محمد أن يدعو زعماء المدينة إلى اجتماع طلباً لدعمهم، إذا اقتضت الضرورة أن يقوم بتصرف ضد أحدهم، خاصة إذا كان يحاول إلحاق الأذى بأسرته. كان يعرف أن بعض مسلمي الخزرج سيتضايقون إذا تصرف محمد ضد ابن أبي دون إذن منهم، لقد أوضح هذا الاجتماع مقدار هشاشة الوحدة الإسلامية الجديدة، وكشف عن شرخ عميق كان ما يزال موجوداً بين الأوس والخزرج. فزعماء الأوس كانوا يعرفون جيداً أن معظم أعداء عائشة هم أفراد من الخزرج، فأخذوا يحرضون على قطع رؤوس مروجي الفضيحة. وفي الحال اتهمهم الخزرجيون بالنفاق، وكادت القبيلتان تصلان حد الضرب. فكان لا بد من وجود حل لهذه الأزمة، إذا أريد للأمة أن تبقى سليمة.

أخيراً ذهب محمد إلى عائشة بنفسه، كانت قد شفيت، فبكت طوال يومين، ولم يكن بوسع والديها مساعدتها إطلاقاً. فأخبرتها أمها أم الرمان أن على النسوة الجميلات أن يتوقعن هذا النوع من المتاعب. بينما لم يدر أبو بكر ماذا يقول، فنصحها بالعودة إلى غرفتها قرب المسجد. فعندما وصل محمد كان أبوها معها وكان ثلاثتهم يبكون بمرارة، لكن دموع عائشة جفت عندما ظهر محمد. فحثها محمد على الاعتراف والتوبة إذا كانت مذنبة. لكن الفتاة ابنة الأربع عشرة ربيعاً نظرت إلى زوجها ووالدها نظرة اعتزاز وكبرياء وهي تدلي بإجابتها. قالت أن لا فائدة من كلامها. إنها لن تعترف بشيء لم ترتكبه أبداً، وإذا ما احتجت معلنة براءتها فإنه لن يصدقها أحد. فكل ما وفي وسعها القيام به هو محاكاة ذلك الأب في القرآن. لقد بحثت يائسة عن اسمه في ذاكرتها لكن دون جدوى. ـ إنه يعقوب والد يوسف الذي قال: ﴿بل سوَّلَت لكم أنفُسُكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصِفُون﴾ ثم مضت صامتة واستلقت على فراشها.

لا بد أن محمداً كان قد اقتنع فما إن فرغت من كلامها حتى انتابته غشية كتلك التي تأتيه عادة في حالة الوحي. لقد أغمي عليه فأخذ يتعرق بغزارة على الرغم من البرد في ذلك اليوم. وضع أبو بكر وسادة جلدية تحت رأسه وغطاه بعباءة وراح ينتظر مع أم الرمان سماع تفسير من الله، بينما ظلت عائشة التي كانت في خطر كبير هادئة مثل الجليد. كانت واثقة من أن الله سيعدل في أمرها. وأخيراً استعاد محمد وعيه فصاح: «إبشري ياعائشة، فقد أنزل الله براءتك». فأسرع والدها إليها، وحثها على النهوض والمجيء إلى محمد، لكنها رفضت المجيء وحتى رفضت تقديم الشكر لأي منهما لأنهما استمعا إلى ما افتُرِيَ عليها، وإنما حمدت الله وحده[٥٣]. لقد تقبل محمد ذلك العتاب وخرج إلى الحشد المتجمع ليتلو آيات براءتها وإدانة الإفك[٥٤].

أوضحت هذه الحادثة أن عائشة أصبحت امرأة معتزة بذاتها غير هيابة، وتمكنت من استعادة مكانتها في قلب محمد. واذا مانظرنا إلى معالجتها للأمر فإننا نجد الدليل على الثقة التي منحها الإسلام للنساء. فلا تبدو لنا زوجة من زوجات النبي مهددة من قبل النبي، بل كن مستعدات للوقوف أنداداً له، وكان يستمع دائماً

إلى ما كن يردن قوله. كانت الزوجات الأخريات يتذمرن من تفضيله عائشة عليهن إلا أن محمداً حاول إقامة نظام نزيه. فكل ليلة كان يبيت عند واحدة منهن تبعاً للدور. وعندما كان يذهب في حملة يجري قرعة لتقرير من سترافقه. لكنه كان مجرد بشر وتفضيله كان واضحاً للأمة كلها: فالمسلمون الذين كانوا يودون أن يرسلوا له الهدايا كانوا يرسلونها في اليوم الذي كان يحين فيه دور عائشة اعتقاداً منهم أن هذا يدخل السرور إلى قلبه. وقد وجدت زوجاته الأخريات في هذا إهانة لهن. فذهبت أم سلمة إلى محمد تطلب منه أن يخبر المسلمين إرسال الهدايا إلى زوجاته جميعاً. بيد أن محمداً رجاها أن تكف عن إزعاجه بشأن عائشة مشيراً إلى أنها الوحيدة التي يتلقى الوحي وهو بصحبتها. بعدئذ أرسلت أم سلمة فاطمة آملة أن تحرز تقدماً في هذا الأمر فقال لها: «يا ابنتي العزيزة ألا تحبين من أحب؟» مما دفع فاطمة إلى حالة إرباك تام. وأخيراً أتت زينب محتجة وأخذت تكيل الإهانات لعائشة. فالتفت محمد إلى عائشة وطلب منها أن تدافع عن نفسها ففعلت ذلك بانفعال وبلاغة فاضطرت زينب إلى السكوت، وفرح محمد الذي رأى مابينها وبين أبيها (أبي بكر) من شبه. لكن لم يكن بوسع عائشة معالجة كل شيء دائماً. فذات يوم شعرت بالغيرة من المكانة التي كانت الراحلة خديجة ماتزال تحتلها في قلبه فأسمتها «العجوز الدرداء» فتضايق النبي جداً وردّ عليها أنه ما من أحد أعز عليه من خديجة. كان ذلك وفاء لتلك التي ساندته عندما تخلى عنه العالم.

بعد أسابيع خف اللغط حول عائشة. في هذا الوقت وتحديداً في آذار عام ٦٢٧ كان المكيون وحلفاؤهم يُسيِّرون جيشاً تعداده /عشرة آلاف/ مقاتل بينما لم يستطع محمد أن يعبيء سوى ثلاثة آلاف رجل من المدينة ومن حلفائه البدو، ولذلك لم تطرح مسألة الخروج لملاقاة العدو، على نحو ما حدث في معركة أُحُد، فحصّن المسلمون أنفسهم داخل المدينة، إذ لم يكن الدفاع عنها أمراً صعباً. كانت محاطة بجروف صخرية وسهول مليئة بالصخور البركانية من جهات ثلاث. كانت السيطرة على الطرق التي تخترق هذه الأرض الوعرة إلى داخل الواحة أمراً سهلاً نسبياً. بينما لم تكن المدينة منيعة من جهة الشمال، فقام محمد بحيلة ربما وجدها معاصروه أمراً خارقاً. لم تكن قريش وحلفاؤها في عجلة من أمرهم. كانوا يشقون طريقهم شمالاً بأسلوب استعراضي وفي مراحل متمهلة. وهذا ما جعل أمام المسلمين

متّسعاً من الوقت من أجل إتمام استعداداتهم. استطاعوا جمع المحاصيل من الحقول البعيدة، وبذلك لم يجد الجيشُ المُحاصِر علفاً لخيوله وإبله مثلما وجد في المرة السابقة. بعدئذ انهمكت الأمة بأجمعها في حفر خندق ضخم حول الجزء الشمالي من الواحة. وتروي كتب التراث أن **سلمان الفارسي** هو من اقترح هذه الفكرة. لم تكن ثمة حاجة لحفر المسافة بطولها، ذلك لوجود حصون في مواقع متفرقة كانت تتيح توفير الحماية. كان إنهاء الخندق في الوقت المناسب بحاجة إلى جهد مُرَكّز وكبير. أُوكِل لكل جماعة أسرية المسؤولية عن قطعة من الخندق، وعمل محمد إلى جانب الآخرين وردّد الأراجيز التي كانوا ينشدونها في أثناء بناء المسجد بعد الهجرة.

كانت المعنويات عالية. ويتذكر أصحاب محمد كيف أنه كان بالغ السرور ونشيطاً وكيف كان يعمل ويمزح ويضحك مع الرجال الآخرين وأنه كان يشارك في الأناشيد الحماسية.

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	**ولا تصدقنا ولاصلينا**
فأنزِلَنْ سكينة علينا	**وثبت الأقدام إن لاقينا[٥٥]**

وَصَلَتْ قريش مع جيشها في ٣١ آذار عام ٦٢٧ ، وحدَّقت إلى الخندق العميق حائرةً. استخدم التراب الناتج عن الحفر في بناء ساتر ترابي حمى المسلمين في معسكرهم عند سفح جبل سلَع، وأعطاهم موقعاً عالياً يطلقون منه القذائف. وتأكيداً لذلك فإنه بينما كان الجيش المكي ينظر مرتبكاً إلى الخندق حذَّرهم وابل من السهام من أنهم كانوا أهدافاً سهلة فانسحبوا إلى مسافة بعيدة عن مرمى رماة السهام. لقد أحبط **خندق سليمان** الهجوم الضخم بكل فعالية فلم يعرف القادة القرشيون ماذا يفعلون. كان يقود الجيش القرشي أبو **سفيان** و**عكرمة بن أبي جهل** و**خالد بن الوليد** الذي كان يقود الفرسان مع **عمرو بن العاص**، فهؤلاء قد نذروا أنفسهم لعداوة محمد. ولكن هؤلاء الفرسان الذين كانت تعول عليهم قريش أصبحوا بلا نفع أمام هذا الخندق لأن خيولهم لم تستطع القفز فوقه. وفي المرات القليلة التي تجرّأ واحد أو اثنان على القفز فوقه سقطا محطمين في قاعه. كان إرسال المشاة يعني تكبد إصابات كبيرة إذ لم يكن معهم سلالم ولا أدوات حصار. كان القرشيون يكرهون العمل اليدوي فاعتبروا الخندق عملاً منحطاً أي أنه مناقض لجميع

تقاليد الفروسية في الحرب. كان أمثال عكرمة يحاولون شن هجوم من حين لآخر. لكنهم كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن القيام بذلك.

> «فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأعداؤهم محاصروهم لم يكن بينهم قتال إلاّ أن فوارس من قريش... قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومرّوا على بني كنانة، فقالوا: تهيؤوا يابني كنانة للحرب فستعلمون اليوم من الفرسان! ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها»[٥٦].

لقد حاولوا تجريب طريقة أكثر مكراً للوصول إلى قبيلة **بني قريظة** اليهودية في جنوبي الواحة كي تسمح لهم بدخول الواحة. ففي بداية تلك السنة كان **حُيَيّ بن أخطب** زعيم القبيلة اليهودية المنفية بني النضير التي كانت تعيش في خيبر قد زار أبا سفيان في مكة، ووعده بالدعم في صراعه ضد محمد. لقد ذهب مع صفوان وبعض القرشيين إلى الكعبة كي يقسما يميناً أمام الله ألا يخون أحدهما الآخر حتى تدمر الأمة. وهنا اغتنم أبو سفيان الفرصة كي يسمع منهم رأيهم في مزاعم محمد الدينية فقالت لهم قريش: «يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأُول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى منه بالحق»[٥٧]. وقد استاء المسلمون عندما سمعوا أن حيي دافع عن الوثنية(*). وكان يهود خيبر قد أرسلوا جيشاً كبيراً إلى المدينة، وتمكنوا من استنهاض القبائل العربية في الشمال ضد المدينة بعد أن وعدوهم بأن يعطوهم نصف محصولهم من التمر إذا دعت الضرورة. وهكذا أرسلت قبائل **أسد وغطفان وسليم** المحاربين إلى المدينة للانضمام إلى تحالف أبي سفيان. حاول حُيَيّ إقناع **بني قريظة** إما بالهجوم على المسلمين من الخلف أو السماح لنحو /٢٠٠٠/ مقاتل من بني النضير وغطفان الدخول إلى المستوطنة حيث يتمكنون من البدء بهجومهم بذبح النساء والأطفال المتحصنين في القلاع المنتشرة في المدينة. كان اليهود مترددين

(*) ورداً على ذلك جاءت الآية: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبتِ والطاغوتِ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا﴾**

لأنهم كانوا يعرفون ما حدث لبني قينقاع وبني النضير الذين عارضوا محمداً. وفوق ذلك كان بعضهم بدؤوا يتساءلون إن كان محمد هو النبي المنتظر؟ وهذا ما جعلهم يترددون في اتخاذ القرار. لكن عندما رأوا الجيش الجرار الذي أحضرته قريش إلى المدينة يملأ السهل حتى الأفق وافق **كعب بن أسد** زعيم قريظة على مساعدة الأحزاب.

كان **عمر** أول من علم بخيانة بني قريظة، فأخبر محمداً بالأمر، فبدا عليه الضيق لأنه كان دائماً يخشى هذا الاحتمال، وكان يعرف أن جيش المسلمين لن يكون قادراً على مواجهة هجوم كهذا من جميع الجهات. أرسل سعد بن معاذ الذي كان الحليف العربي الرئيس لبني قريظة قبل الهجرة كي يتحرّى حقيقة الأمر في منطقتهم. ولمّا رجع سعد من مقابلة بني قريظة أعلم النبي أنهم نقضوا العهد وحتى قالوا كلام شتم وسب: «من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولاعقد»[٥٨]. ويبدو أن حفنة منهم بدأت هجومها من الجنوب الشرقي للواحة، فأحاطوا بإحدى القلاع التي كانت تضم نساء وأطفال المسلمين، لكن هذه المحاولة أخفقت. فبدأ النبي هجومه الدبلوماسي وسط بني قريظة محاولاً إحباطهم ونزع الثقة بينهم وبين القرشيين. إلاّ أنه وعلى امتداد ثلاثة أسابيع لم يكن مؤكداً الاتجاه الذي سيسلكه اليهود. أما جيش المسلمين فكان قد غدا منهكاً، ويبدو أن المنافقين كانوا يبثون الخوف واليأس ويحثون الأنصار على التخلي عن محمد، وتركه إلى قبيلته. ولعلّ بعضهم حاول الهرب من المدينة والانضمام إلى أبي سفيان. كذلك يوضح القرآن أن المسلمين قد وصلوا إلى حافة اليأس وأوشك بعضهم أن يفقدوا إيمانهم:

> ﴿إذْ جاؤوكم من فوقكم ومن أَسْفَلَ مِنكُم وإذ زاغَتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ وتظُنُّونَ بالله الظُّنونا. هنالك ابتُلِيَ المؤمنُونَ وزُلْزِلُوا زلزالاً شديداً[٥٩]﴾.

مع ذلك فقد انزاحت عنهم ليلة الرعب تلك. ليس واضحاً ما الذي حدث(*). لكن يبدو أن يهود بني قريظة بدؤوا يشُكّون بالمكيين فأصروا على أخذ

(*) تشير المصادر الإسلامية إلى أن النبي عمد إلى الإيقاع بين اليهود والقرشيين.

رهائن قرشيين لضمان إخلاصهم، إذ ما الذي سيحدث إذا هرب المكيون تاركين اليهود تحت رحمة محمد؟ أمَّا قريش من ناحيتها فقد بدأت هي الأخرى تنهك. كانت استمرارية الحصار أمراً صعباً في الجزيرة العربية، حيث لا مؤونة وكان الرجال والخيول قد أخذوا يعانون من الجوع ولم يكن القرشيون جنوداً بارعين، وأي انقلاب مفاجيء كان يهزهم بكل سهولة. ويبدو أنّ عزيمتهم تراخت عندما تغير الطقس فجأة فقد ورد في القرآن مايفيد عن هبوط في درجة الحرارة وهبوب رياح قوية ونزول المطر وأن ذلك كله كان من فعل الله. أما أبو سفيان فقد اتخذ قراره وخاطب القوم:

«إنكم والله لستم بدار مُقام؛ لقد هلك الخُفُّ والكُراع وأجدب الجناب وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره وقد لقينا من الريح ما ترون! والله مايُثبتُ لنا بناءٌ ولاتطمئن لنا قدرٌ فارتحلوا فإني مرتحل»(٦٠).

وما إن قال قولته حتى قفز إلى ظهر جمله، وساقه دون أن يدرك أن الجمل كان مقيداً. تبعته قبيلته والبدو الذين كانوا قلقين منذ مدة وتفرقوا بسرعة. وبينما كانت الأحزاب تلملم أذيال الخيبة قال **خالد لأبي سفيان:**

«قد علم كل حليم أنَّ محمداً لم يكذب قطّ»(٦١).

في صباح اليوم التالي وجد المسلمون السهل الشاسع خالياً من المقاتلين.

لكن ماالذي كان على محمد أن يفعله حيال بني قريظة الذين دفعوا بالأمة إلى حافة الموت؟ لم يترك رجاله يستريحون إذ أُلهمه جبريل في صباح اليوم التالي بالسير إلى بني قريظة. وماحدث لبني قريظة قصة تثير عندنا اليوم في الغرب معانيَ أخرى من الرعب والكآبة.

انضم حُيَيّ إلى قريظة في مقراتهم بعد أن غادرت قريش والأحزاب المدينة. عندما سمعوا أن محمداً قادم إلى منطقتهم حصنوا أنفسهم في قلاعهم، وتمكنوا من الصمود طوال خمسة وعشرين يوماً. لم يكونوا يتوقعون الرحمة لأنهم لم يكونوا حلفاء أوفياء، ويبدو أن حُيَيّ وكعباً قد حثاهم على قبول ماليس منه مفر. وضعوا

ثلاثة احتمالات أمام شعبهم: إما أن يستسلموا لمحمد دون شروط (خاصة أن النجاح الاستثنائي لمحمد يجعله نبياً صادقاً أمراً ممكناً)، أو أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويهاجموا جيش محمد، فإذا ماتوا لن يتركوا من يعولونهم لمحمد وإذا انتصروا سيكون بمكنتهم العثور على زوجات جديدات بكل سهولة. أما الخيار الثالث فهو أن يأخذوا محمداً على حين غرة فيهاجموه يوم السبت حين لا يتوقع منهم ذلك.

رفض اليهود هذه الخيارات الثلاثة جميعاً، وطلبوا من محمد السماح لهم بمغادرة الواحة بشروط بني النضير نفسها. إلا أن محمداً رفض ذلك. لقد اتضح أن بني النضير كانوا أكثر خطراً على الأمة بعد مغادرتهم المدينة. لذلك كان محمد مصمماً على استسلامهم التام. سمح لبني قريظة استشارة أحد حلفائهم السابقين، **أبو لبابة بن عبد المنذر** شيخ قبيلة **عوف**. ويكتنف الغموض هذا الجزء من القصة. فيقال إن اليهود سألوا أبا لبابة عما ينوي محمد أن يفعل بهم، فلامس عنقه وأخبرهم بما معناه أنه قد حكم عليهم بالموت. بعدئذ سيطر عليه تأنيب الضمير فربط نفسه بأحد أعمدة المسجد طوال خمسة عشر يوماً حتى فكه محمد بعد ذلك. ويبدو أنه لو أخبر اليهود بمصيرهم بهذه الطريقة ماكانوا ليتأثروا بقراره إلى هذه الدرجة. ويقترح البعض أنه ربما عبر عن احترامه لتحالفه القديم مع بني قريظة. لم يكن أمام بني قريظة سوى القبول بحكم محمد فاستسلموا في اليوم التالي، وفتحوا البوابات إلى جيش المسلمين وهم على ثقة بدعم حلفائهم السابقين من قبيلة الأوس.

توسلت قبيلة الأوس إلى محمد أن يكون رحيماً: أفلم يمنح بني قينقاع حياتهم بناء على طلب ابن أُبَيّ الخزرجي؟ فسألهم محمد إذا كانوا يقبلون بالقرار الذي يتخذه أحد وجهائهم فوافقوا على ذلك. أثناء الحصار كان **سعد بن معاذ** قد أصيب بجرح قاتل، لكنه حُمِلَ إلى منطقة قريظة على حمار. فحثه الوجهاء من عشيرته على إنقاذ حلفائهم السابقين، لكن سعداً أكد أن هذه قد تكون النهاية للإسفين الذي إن تُرك سوف يجلب الفوضى ثانية إلى المدينة. فهل سيكون للولاء القديم الأولوية على الالتزام تجاه الأمة؟ حكم سعد:

> «فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء».

فصاح النبي بصوت عالٍ:

«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[٦٢].

في اليوم التالي أمر محمد بحفر خندق آخر في سوق المدينة، فَرُبطَ الرجال جماعات جماعات وضربت أعناقهم، ورميت أجسادهم في الخندق، ولقد تم الإبقاء على حياة البعض منهم بناءً على طلب المسلمين. ولم تقتل سوى امرأة واحدة لأنها رمت حجر رحى على أحد المسلمين أثناء حصار القبيلة. وقد روتها عائشة كما يلي:

> «والله إنها لعندي تحدَّثُ معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله (ص) يقتل رجالهم بالسوق؛ إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت: ويلك مالك! قالت: أقتل! قلت: ولم؟ قالت: حدثٌ أحدثتُه. قالت: فانطلق بها فضُرِبَت عنقُها. فكانت عائشة تقول: «فوالله ماأنسى عجباً منها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقتل»[٦٣].

واليوم قد تجعل قراءة هذه القصة الكثيرين منا يقارنونها بالأعمال النازية وتدفع بالكثيرين إلى الاغتراب الدائم عن الاسلام، لكن وفي الوقت ذاته نجد علماء غربيين مثل **مكسيم رودنسون** و **و. مونتغمري واط** يقولون إن تقييم القصة بمعايير القرن العشرين أمر غير صحيح. لقد كان المجتمع بدائياً أكثر من بدائية المجتمع اليهودي الذي عاش فيه يسوع وأعلن بشارته بالرحمة والحب قبل نحو /٦٠٠/ سنة من هذه الحادثة. في تلك المرحلة لم يكن لدى العرب مفهوم عن قانون طبيعي كوني. وحتى كان يصعب على الناس بل ربما كان يستحيل بلوغ هكذا قانون ما لم يكن هناك بعض من استقرار عام كذلك الذي كانت تفرضه الإمبراطورية الكبيرة في العالم القديم. لقد كانت **المدينة** في عصر النبي محمد مثل **القدس** في عهد الملك داؤود الذي كان سفاحاً جباراً لمن كان يدعوهم أعداء الله، والذي ذبح في إحدى المناسبات مئتين من الفلسطينيين بعد أن خصاهم وأرسل كومة رهيبة من جلود قلفة قضبانهم (أعضائهم الجنسية) إلى ملكهم. كثير من المزامير التي تنسب إلى داؤود والتي تم تأليفها بعد قرون تالية حتى تاريخ ٥٥٠ ق. م. وصفت بتفاصيل مروعة الأشياء المرعبة التي كان الإسرائيليون يأملون القيام بها وسط أعدائهم. وفي مطلع

القرن السابع ماكان لشيخ من شيوخ القبائل العربية أن يتوقع من محمد إظهار الرحمة على الخونة، من أمثال بني قريظة.

بصعوبة نجت الأمة من الانقراض أثناء الحصار فكان من الطبيعي أن تكون الانفعالات جياشة؟. كان بنو قريظة قد أوشكوا أن يدمروا المدينة. فلو أن محمداً سمح لهم بالذهاب لكانوا أججوا حالاً المعارضة اليهودية في خيبر، ونظموا هجوماً آخر ضد المدينة. وقد لا يحالف الحظ المسلمين في مرة قادمة. ويدفع بالتالي إلى استمرار الصراع الدموي من أجل البقاء لفترة غير محددة مصحوباً بعذابات أكثر وبالمزيد من القتلى، ولا بد أن الإعدامات الجماعية قد أثرت كذلك على أعداء محمد. فعلى ما يبدو أن المذبحة لم تصدم أحداً أو أن بني قريظة أنفسهم تقبلوها كأمر لا مفر منه. لقد كانت الإعدامات بمثابة رسالة مُوجّهة إلى يهود خيبر، ولا بد أن القبائل العربية لاحظت أن محمداً لم يكن خائفاً لا من أصدقاء بني قريظة ولا من حلفائهم للانتقام لموتاهم في قتال دموي. لقد كانت رمزاً لسلطة غير عادية قد كسبها محمد بعد الحصار عندما أصبح قائداً للجماعة الأكثر قوة في الجزيرة.

إن ما جرى لبني قريظة يذكر بالظروف السيئة التي كانت سائدة في الجزيرة خلال حياة محمد. فبالطبع نحن محقون بإدانتها (ضمن مفاهيمنا اليوم) لكنها في حينها لم تكن لتشكل جريمة كبرى. فمحمد لم يكن يعمل ضمن إمبراطورية عالمية تفرض استقراراً واسع الانتشار، ولم يكن يعمل ضمن واحد من التراثات الدينية المستقرة. لم يكن لديه ما يشبه الوصايا العشر (**علماً أن موسى قد أمر الإسرائيليين بذبح جميع سكان كنعان بعد فترة وجيزة من إخباره إياهم: «أنتم لن تقتلوا»**. والمجتمع الذي كان يعيش فيه محمد لم يكن قد تشكّل لديه بعدُ سوى الأخلاق القبلية التي كانت تسمح بهذه الذريعة حفاظاً على الجماعة. لقد كانت المشكلة مركبة. فانتصار محمد جعله الزعيم الأقوى في الجزيرة على رأس جماعة لم تكن قبيلة تقليدية. كان قد بدأ يتجاوز مرحلة القبيلة ليدخل في المنطقة التي تفصل بين مرحلتين من التطور الاجتماعي.

من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن هذه البداية المأسوية لم تصبغ الموقف

الإسلامي تجاه اليهود إلى الأبد. فعندما أسس المسلمون إمبراطوريتهم العالمية طوروا قانوناً أخلاقياً أكثر إنسانية وتعقيداً في شريعتهم المقدسة. لقد رسخوا منهجاً من التسامح كذلك الذي ساد مدة طويلة في أجزاء العالم المتمدن في الشرق الأوسط حيث عاشت جماعات دينية متنوعة معاً جنباً إلى جنب ولمدة طويلة. فمعاداة السامية هي رذيلة المسيحية الغربية ولا علاقة لها بالإسلام. وينبغي أن نضع ذلك في اعتبارنا إذا أردنا إصدار تعميمات عن هذه الحادثة المرعبة في المدينة. فحتى في عصر محمد بقيت جماعات يهودية صغيرة في المدينة بعد عام ٦٢٧ ، وسمح لها بالعيش بسلام دون انتقام. ويبدو أن الجزء الثاني من معاهدة المدينة الذي يتناول السكان اليهود في المستوطنة قد تم وضعه بعد هذا التاريخ. كان اليهود في الإمبراطورية الإسلامية يتمتعون ـ مثل المسيحيين ـ بحرية دينية كاملة، وقد عاش اليهود هناك في سلام حتى قيام دولة (إسرائيل) في القرن العشرين. ولم يعان اليهود في البلدان الإسلامية مثلما عانوا في ظل المسيحية. لقد أُدْخِلَتْ الأساطير المعادية للسامية في أوروبا إلى الشرق الأوسط في نهاية القرن الماضي على يد البعثات التبشيرية، وكانت محط سخرية الوسط الشعبي. أما في السنوات الأخيرة فقد تحول المسلمون إلى مسالك القرآن الذي يشير إلى القبائل اليهودية المتمردة في المدينة، ويميلون إلى تجاهل الآيات الكثيرة التي تتحدث إيجابياً عن اليهود وأنبيائهم العظام. فهذا تطور جديد تماماً في تاريخ مدته /١٢٠٠/ سنة من العلاقات الجيدة بين اليهود والمسلمين[٦٤].

كثيراً مايُشير القرآن إلى أن الحرب مقيتة، وأنه ينبغي على المسلمين ألا يبدؤوا العداوة لأن الحرب العادلة الوحيدة هي حرب الدفاع عن النفس. لكن ما إن تنشب الحرب حتى يفرض على المسلمين القتال بالتزام مطلق كي يجعلوا الحرب تبلغ نهايتها بأقصى سرعة ممكنة[٦٥] فإذا اقترح العدو هدنة أو أبدى ميلاً نحو السلام فالقرآن يأمر المسلمين بإنهاء العداوات حالاً شرط أن تكون شروط السلام أخلاقية ومشرفة[٦٦]. ويؤكد القرآن كذلك على أن إنهاء نزاع مسلح هو واجب مقدس مثل مواجهة العدو بشجاعة، فأي تردد أو تمرد في اتخاذ القرار قد يعني استمرار النزاع إلى مدة غير محددة وهذا أمر ينبغي تجنبه[٦٧].

إن الهدف من أي حرب يجب أن يكون إعادة السلم والإنسجام بأقصى سرعة ممكنة. فكما نرتجف من المنظر المرعب في سوق المدينة عام ٦٢٧ إلا أنه ولأسباب سياسية محضة كان القرار الصحيح. لقد كانت آخر الفظائع لأنها كانت نقطة علام في بداية نهاية أسوأ وجه من وجوه الجهاد. لقد هزم محمد أكبر جيش في الجزيرة. وسحق معارضة ثلاث قبائل يهودية قوية، وأوضح أنه لن يحتمل المزيد من الخيانة والتآمر على الأمة. لقد أثبت أنه الأقوى في الجزيرة العربية، وأنهى سريعاً نزاعاً دموياً كان من الممكن أن يستمر سنوات تالية.

إن لفظة «الإسلام» من جذر كلمة تعني «السلام» والمصالحة. بعد مجزرة بني قريظة سنرى تغيراً ملحوظاً في سياسة الجهاد. فمحمد الذي لم يعد يحارب دفاعاً عن حياته كان بوسعه البدء في فرض سلام الإسلام على الجزيرة. وهكذا أصرّ في العام التالي على سياسة السلام والوفاق التي كادت تتسبب في ابتعاد أقرب أصحابه وأخلصهم له(*).

(*) إشارة هنا إلى ماحدث في صلح الحديبية وهو ماسيرد في الفصل التالي (الناشر)

الفصل التاسع

السلام المقدس

كان انتصار محمد على قريش عند حصار المدينة انتصاراً باهراً، فقبل خمس سنوات من ذلك التاريخ كان قد وصل إلى الواحة لاجئاً ومنهكاً من جراء السفر الذي كان فيه المكيون يتعقبونه حتى الموت، أما الآن فقد عكس مجريات الأمور وأثبت أمام الجزيرة كلها أن أيام مكة قد ولّت. لقد أخفق المكيون تماماً في القضاء على محمد والأمة، ولم يَعُد باستطاعتهم استعادة الامتياز الذي كانت سلطتهم وأسلوبهم في الحياة قائمة عليه. صارت **مكة** مدينة هالكة، فمحمد كما اعترف **خالد بن الوليد** عندما رفعت قريش الحصار هو الرجل الآتي. لقد أثبت النظام القبلي القديم ـ أيديولوجيا الحلم والرأسمالية العدوانية في قريش ـ عدم فعاليته أمام السلطة الأخلاقية والسياسية في الإسلام. ومع تلك المرحلة انتهى الجانب الدموي في الإسلام. صار محمد يود دائماً كسب قريش إلى صفه أكثر مما كان يود تدميرها، فبعد الحصار صار عليه البدء بعملية المصالحة دون أن يبدي إمارة ضعف أو تردد، وهذا كان أمراً أساسياً.

يبدو أن تصور محمد لرسالته في هذه المرحلة قد تغير ثانية. فمنذ انتصاره في بدر بدأ يرى أن الوحدة العربية لم تعد أمراً محالاً. لقد كان لهزيمة قريش ومعالجته لبني قريظة أثر حاسم على القبائل البدوية وصار معظمها مستعداً للتخلي عن قريش والدخول في تحالف مع الأمة. أخذ محمد ينظر إلى ماهو أبعد من مكة. صحيح أنه

(*) في بعض المراجع إعلَ هبل

كان بحاجة إلى الانتصار على مكة لأنها أصبحت مركزية في رؤيته الدينية، لكنه بدأ يرى أن منطقة شمال المدينة تقدم فرصة للتوسع الإسلامي. وهذا لايعني أن أحلام فتح العالم كانت تساوره بل أراد بكل بساطة أن ينقل قرآنه العربي إلى القبائل الشمالية، وربما إلى عرب سورية والعراق الذين كانوا مستوعبين في النظام الديني والحكومي البيزنطي. هناك خبر لم يرد في المصادر الأولى يفيد بأن محمداً أرسل رسائل وهدايا نفيسة إلى إمبراطور بيزنطة وكسرى فارس ونجاشي الحبشة ومقوقس مصر يدعوهم فيها إلى دخول الإسلام. ونكاد نجزم بأنه ما من دليل على أن محمداً كان يرى الإسلام ديناً عالمياً وأنه سينسخ إيحاءات أهل الكتاب بل كان الإسلام ديناً لأبناء اسماعيل مثلما اليهودية ديناً لأبناء يعقوب. وقد استمر المسلمون طوال مئة سنة بعد وفاة محمد في اعتبار الإسلام ديناً للعرب فقط(*)، لكن هناك مقداراً من الصدق في أسطورة الموفدين هذه إلى الحكام المجاورين، لأنها تعبر عن ثقة محمد الجديدة وعن رؤيته الأكثر اتساعاً. لم يعد قائداً لفئة مضطهدة، ولم يعد واحداً من بين زعماء آخرين في المدينة، بل أصبح واحداً من أهم السادة في الجزيرة. ربما كان يريد إحباط أية طلبات مكية للحصول على مساعدة أجنبية تمكنهم من الوقوف في وجهه. وفي الرسائل التي وصلتنا لم يطلب محمد من هؤلاء الحكام سوى قبوله نبياً، اذ كان يعتقد أن الله قد أرسله نبياً لجميع العرب. وفي الوقت الذي كتب فيه إلى هؤلاء الحكام يقال إنه كتب إلى القبائل العربية الشمالية المسيحية: الغساسنة والحنيفيين. لم يكن يتوقع منهم التخلي عن مسيحيتهم بل أن يدخلوا الأمة على الأساس نفسه مثل العشائر اليهودية الباقية في المدينة.

في سنة ٦٢٧ ـ ٦٢٨ بدأ محمد بناء تحالفاته فدعا القبائل الى التحالف معه على نمط تحالف الأحابيش مع قريش. ثمة أفراد من البدو اعتنقوا الإسلام، وهاجر

(*) قد يقع إشكال في هذا الفهم. كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول تؤكد أن الاسلام لجميع الخلق ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، وفي الحديث (لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)... قد يعتمد بعضهم في هذه المقولة على حقيقة أن الجيوش كانت كلها عربية. لكن هذا كان في البداية ويرجع ذلك إلى أن الدعوة انطلقت من منطقة كلها عربية. وما إن دخل العرب المسلمون إلى خارج منطقتهم حتى بدأت الشعوب الأخرى تدخل الإسلام والجيش ولايغيب عن الذهن القائد البربري طارق بن زياد.

بعضهم إلى المدينة. كانت هذه التحالفات سياسية تحديداً، مع ذلك كان يأمل أن يؤدي ذلك إلى التزام ديني، فكان تقديم صورة للقوة والحزم أمراً أساسياً، وفي هذه السنة قام أيضاً بحملات على القبائل التي كانت أعضاء في التحالف المكي مثل قبيلة **أسد** و**ثعلبة** اللتين أصبحتا قريبتين من المدينة أكثر من المعتاد بسبب القحط غير العادي في هذه السنة. كان الغزو يطلق العنان لهذه الرسالة. أرسل غزوة إلى قبيلة بني سعد التي كانت تفكر بتحالف مع يهود خيبر. لقد بدأ البدو يرون إقامة علاقة مع أعداء الأمة أمراً خطراً عليهم، وأن قوة الأمة كانت تزيد من تقديرهم لمحمد ودينه.

لم يكن لدى محمد مخطط للهجوم على مكة تلك السنة بل كان يحاول إضعاف الاحتكار المكي للتجارة، إذ كان من الضروري أن تؤسس الأمة تجارتها الخاصة بها مع سورية بينما كان المزيد ممن أسلموا يهاجرون إلى المدينة. أرسل حملات إلى الشمال، ربما كي يجذب بعض التجارة السورية إلى المدينة إضافة إلى نشر رسالته الدينية. فعلى سبيل المثال أخذ **عبد الرحمن** قافلة إلى دومة الجندل الواقعة على الطريق إلى سورية التي كان يقام فيها سنوياً سوق كبير وبذلك كانت المدينة تضرب تدريجياً حصاراً اقتصادياً على مكة منذ بدر عندما أصبح طريق البحر مستحيلاً أمام قريش. في السنة التي تلت حصار المدينة سعى إلى إحكام هذا الحصار وفي الوقت نفسه إتاحة فرص تجارية للمسلمين. فقد أرسل **زيداً** للتجارة مع سورية، لكن القافلة هوجمت وتُرك زيد على وشك الموت، إلا أنه استطاع جر نفسه عائداً إلى المدينة. وبعد فترة وجيزة حصل زيد على حظ أفضل في غزوة على قافلة مكية عائدة من سورية. فشاءت المصادفة أن صهر النبي **أبا العاص** كان مع القافلة فهرب وتسلل ليلاً إلى المدينة لزيارة زوجته **زينب**. وعند صلاة الصبح في المسجد أعلنت زينب أنها أجارت **أبا العاص بن الربيع**. لم يكن محمد يعلم عن الأمر شيئاً مع ذلك ساند حق ابنته في إجارة الرجل إلا أنه حذرها من أن تنام معه. أخبرت زينب أباها أن أبا العاص كان تعساً جداً بسبب خسارته هذه التجارة لأنه كان موكلاً بها نيابة عن عدة أشخاص في مكة. لم يلبث محمد أن طلب من المغيرين الذين أسروا القافلة إعادة البضائع إلى أبي العاص فامتثلوا للأمر كارهين، فقد أعادوا إليه قُرَبَ الماء الجلدية وحتى قطعاً من خشب لها قيمة. عاد أبو العاص بالبضاعة إلى مكة،

ووزعها على أصحابها ثم هاجر إلى المدينة وأسلم، ولمَّ شمله مع زينب. لقد كان مستعداً للتخلي عن زوجته الحبيبة وعن ابنته مقابل حماسته للدين الوثني لكنه رأى الآن أن قومه هالكون فكان عليه قبول مالابد منه. بدأ بعض الناس في مكة يحسون الشعور نفسه ولابد أن محمداً كان مدركاً لذلك. لقد ساروا ضد المدينة تكريماً للآلهة القديمة، وكانت صيحة الحرب في أُحُد «يا لَلْعُزّى، ياآل هُبَل»(*) لكن هذه الآلهة كانت عاجزة عن الوقوف في وجه دين الله الذي جاء به محمد، مع ذلك بقي آخرون مثل **صفوان وعكرمة وسهيل** زعيم بني عامر ملتزمين بالصراع ضد محمد.

مما لاشك فيه أن محمداً كان قد سمع عن تغير قلوب الناس هذا من مسلمين أمثال أبي العاص ومن عيونه الكثيرين، (وكان قد صار له آنذاك جهاز استخبارات محكم). لكن كان صعباً معرفة كيفية التقرب من مكة، لأنه كما سنرى لم يكن لديه نية القيام بهجوم عسكري على المدينة المقدسة. لم تكن لديه خطة محددة، لكنه كان يعالج المشكلة في مستوى العقل الباطني. ففي شهر آذار من عام ٦٢٨ أثناء شهر الحج التقليدي ظهر إلى السطح حلم مصالحة وانتصار. لقد حَلُمَ أنه حليق الرأس حاجاً ويرتدي مئزر الحج التقليدي، وواقفاً في الكعبة ممسكاً مفتاحها بيده. بدا أن هذا الحلم قد ملأه ثقة النصر الذي عبر عنه القرآن بكلمات الله:

> **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فَعَلِمَ ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً[1]﴾.**

في صباح اليوم التالي أعلن أنه ذاهب للقيام بالحج إلى الكعبة ووجه الدعوة إلى أصحابه لمرافقته. عندما سمع المسلمون هذه الدعوة الغريبة امتلؤوا خوفاً وعجباً وبهجة. أوضح محمد أن رحلة الحج هذه لن تكون حملة عسكرية. فكان على المسلمين ارتداء لباس الإحرام التقليدي، أي دون سلاح. كان الأمر ينطوي على خطورة كبيرة فرفض حلفاء الأمة من البدو هذه الدعوة، بينما وافق عليها نحو ألف من المهاجرين والأنصار. كما انضم إليهم ابن أُبَيّ ورهط من أعوانه، وكان هذا دليلاً على الانتصار الإسلامي الذي أضعفهم. قرر محمد أن يختار زوجة ترافقه فاختار أم سلمة وامرأتين حضرتا بيعة العقبة.

بدأ الحجاج بالترتيبات بسرعة فجمعوا نحو /٧٠/ جملاً كأضاحي تقدم عند أداء الشعيرة المقدسة وفقاً للطقس القديم. وارتدى النبي محمد لباس الإحرام التقليدي الذي مايزال يرتديه الحجاج حتى يومنا هذا. جادل عمر أن قريشاً ستهاجم الحجاج، وقال إن عليهم أن يركبوا بكامل أسلحتهم تحسباً لأي هجوم تقوم به قريش. لكن محمداً كان صلباً في قراره فقال بحزم: «لستُ أحملُ السلاح انما خرجتُ معتمراً»[٢]. ظل ممتلئاً ثقة من حلمه بأنه سيزور الكعبة دون خوف علماً أنه لم يكن لديه فكرة تفصيلية عن كيفية حدوث ذلك. إلاَّ أنه أصر على الامتناع عن القتال فلم يأخذ أي حاج سوى سيف قصير مناسب للصيد فقط وأعطى أمراً بألا يخرج أحد سيفه من غمده.

في المحطة الأولى ضحّى النبي محمد بأحد الجمال بالطريقة التراثية، وقام بإشارات خاصة فوقه، وعلَّق أكاليل طقسوية حول رقبته وَوَجَّهه نحو الكعبة. ثم أطلق صيحة الحجاج القديمة عندما كانوا يقتربون من الكعبة: «لبيك اللهم لبيك» فحذا الحجاج حذوه بينما قرر آخرون تأجيل تقديم القرابين المقدسة حتى وقت لاحق، لأن هناك قيوداً طقسوية تتعلق بلعبة صيد في فترة الزيارة.

كان النبي **محمد** يعرف أنه قد وضع **قريشاً** في موقف بالغ الصعوبة. وبما أن قريشاً تتولى حراسة الكعبة فإن منعها لألف حاج مسلم سيكون فضيحة لها، خاصة أنهم كانوا ملتزمين بكل شعائر الحج القديمة، وإذا ما دخلوا المدينة المقدسة بهذا الشكل سيكون انتصاراً معنوياً هائلاً لمحمد وتأكيداً على إذلال قريش على يد المسلمين. لذا صمم **سهيل وعكرمة وصفوان** على منع **محمد** من دخول المدينة حتى وإن يكن ذلك يعني صفعة للقبائل البدوية. أما أبو سفيان فيبدو أنه التزم الصمت. وكان ذلك مثار دهشة. لقد كان شديد الذكاء، ومن المحتمل أنه أدرك أن اللعبة كانت قد انتهت، وأن التعامل مع محمد بالأساليب القديمة لم يعد ممكناً. ويبدو أيضاً أنه كان الوحيد من أعضاء مجلس القيادة القرشية (دار الندوة) الذي اتخذ هذا الموقف اذ أرسلت قريش **خالداً** على رأس جيش من /٢٠٠/ فارس لمنع المسلمين من دخول مكة. فعندما وصل الحجاج إلى بئر عسفان التي تبعد نحواً من /٢٥/ ميلاً إلىالشمال الغربي من مكة أخبرهم كشافتهم أن خالداً لايبعد عنهم

سوى ثمانية أميال. فأجاب محمد واثقاً:

«يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب؛ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين؛ وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة فما تظن قريش! فوالله لاأزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة(٣)».

فطلب من الحجاج العثور على دليل محلي يستطيع إرشادهم إلىالمنطقة المحرمة ـ أي المنطقة المحيطة بمكة حيث يمنع كل عنف واقتتال. فتطوع واحد من عشيرة أسْلم لهذه المهمة، فأخذهم في طريق وعر في منأى عن خالد وعندما وصلوا الأرض السهلية على مشارف المنطقة المحرمة ذكرهم محمد بالطبيعة الدينية لحملتهم. كانوا على وشك دخول المنطقة المقدسة فحثهم على القيام بعبور روحي، وأن يضعوا ذنوبهم خلفهم قائلاً:

«قولوا نستغفر الله ونتوب إليه»(٤).

ثم أمرهم أن يسلكوا طريق الحديبية طالباً منهم أن يجعلوا إبلهم تثير الغبار بحيث يدرك خالد ورجاله أن المسلمين قد أصبحوا الآن خارج دائرة الخطر.

لعلَّ حلم محمد قاده إلى أن يتوقع أن قريشاً سوف تستسلم للضغط فتسمح للحجاج المسلمين دخول مكة، لكن القوة المسلحة التي كان يقودها خالد أظهرت أن قريشاً كانت مستعدة لقتل رجاله العزل ومنعهم من دخول الكعبة. وكالعادة فقد استجاب للوضع إبداعياً كما تعود على ذلك، لأنه لم يكن لديه فكرة عن الكيفية التي تسير فيها الأمور. عندما وصلوا **الحديبية** خَرَّتْ ناقة محمد على ركبتيها ورفضت الوقوف، «فقال الناس: خَلأَتْ الناقة» وصرخوا بها كي تنهض ولكنها تمنعت وعندها قال النبي:

«ماخلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لاتدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»(٥).

كانت المصالحة لا الحرب هي التي ميزت هذه الحملة، فطلب من الحجاج أن

يترجلوا. وعندما اعترضوا على ذلك لأنه لاماء هناك قيل إن محمداً أعطى سهماً إلى أحد أصحابه فغرزه في جوف قليب فتدفق الماء حالاً. فشربت الإبل ورقدت، بينما جلس الحجاج الذين ربما شعروا بالإحباط لأنه لم يطلب منهم القيام بشيء أكثر بطولة وشخصت العيون كلها إلى النبي، وانتقلت الأنباء بسرعة من قبيلة إلى أخرى. ولابد أن الرحل أصيبوا بالذعر لدى سماعهم أن قريشاً كانت مستعدة للهجوم على مجموعة من الحجاج المسالمين وأنهم قد منعوهم من الوصول إلى الكعبة الذي كان حقاً مكتسباً للعرب جميعاً. إن محمداً بجلوسه صابراً على طرف المكان المقدس في لباس الإحرام كان يوضح أن المسلمين في هذه المسألة كانوا منسجمين مع التراث العربي أكثر مما كان حراس الكعبة. وبعد وصولهم بقليل جاءهم مبعوث من قبيلة خزاعة على رأسه **بديل بن ورقة** الذي كان أحد زعماء القبيلة وكان قد سمع الأنباء أثناء زيارته لمكة. وعندما سأل **بديلُ محمداً** عن سبب مجيئه قال إن المسلمين لم يأتوا للقتال بل لزيارة الأماكن المقدسة. وأنهم سيقاتلون إذا دعت الضرورة على الرغم من تسليحهم الرديء دفاعاً عن حقهم في زيارة الكعبة، لكنهم أرادوا أن يعطوا قريشاً وقتاً يُعْملون فيه عقولهم للتوصل إلى ماهم فاعلون. فأصيب بديل بالذعر لدى سماعه أن حجاجاً مسالمين قد منعوا من الدخول إلى الكعبة فوعد المسلمين بمؤازرة **خزاعة** بالطعام والمعلومات طوال مدة بقاء المسلمين في **الحديبية**.

عاد **بديل** حالاً إلى مكة، واعترض غاضباً على سياسة القرشيين التي كانت انتهاكاً لجميع التقاليد التي كان يعتبرها العرب الأكثر قداسة. ورفض **عكرمة** الاستماع إلى ماقاله محمد بيد أن **صفوان** طلب سماع الرسالة. وعندما أكد بديل على نوايا محمد السلمية لم يصدقه بعض القرشيين لا هو ولاصحبه وقالوا:

«وإن كان جاء ولايريد قتالاً فوالله لايدخلها علينا عنوةً أبداً ولاتحدّث بذلك عنا العرب»[٦].

لقد أقسموا أن يحولوا بين محمد وبين الكعبة وأن يقاتلوا حتى آخر رجل. وسعياً لإيقاع الانقسام في صفوف المسلمين أرسلوا كلمة إلى ابن أُبَيّ دعوه فيها إلى إقامة الشعائر عند الكعبة، لأنهم كانوا يعرفون أنه صديق لمكة فأرسل ـ وياللدهشتهم ـ كلمة مفادها أنه لايفكر بالطواف قبل أن يفعل محمد ذلك، فكان في موقفه هذا

مسلماً صالحاً، علماً أنه سوف يعارض محمداً في المستقبل.

اعتقد بعض القرشيين ومن بينهم صفوان وسهيل - أن عليهم التفاوض مع محمد. وكان حليف قريش **عروة بن مسعود** من الطائف في زيارة مكة وعرض عليهم العمل كوسيط بينهم وبين محمد. وجاء في حديثه معهم أنه ليس مجدياً رفض طلب محمد المعقول، خاصة أنه صرح علانية أنه على استعداد لتقديم تنازلات. قبلت قريش عرض عروة، لكنها أرسلت في البداية مبعوثاً من حلفائها البدو هو **الحليَس بن علقمة** زعيم بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وسيد الأحابيش جميعاً. كان وثنياً ورعاً، ولمّا رآه محمد آتياً قال لأصحابه:

«إنَّ هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه».

فلما رأى الهديَ(*) يسيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اعظاماً لما رأى، فقال:

«يا معشر قريش، إني قد رأيتُ ما لايحل صدّه:الهدي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله؛ قالوا له: اجلس، فإنما أنت رجل إعرابي لا علم لك». فكانت هذه خطيئة قاتلة إذ راح حليَس يرد عليهم باعتزاز:

«يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم؛ إن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً له والذي نفس الحُلَيس بيده لتُخلنَّ بين محمد وبين ما جاء له؛ أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد! قال: فقالوا له: مهْ! كُفَّ عنا يا حُليس حتى نأخذَ لأنفسنا ما نرضى به».

بعدئذ أرسلوا **عروة بن مسعود** إلى الحديبية. فجلس مع محمد وحذره من أن قريشاً أعدَّت عدتها لتمنعه فكيف يأمل بالصمود في وجه الهجوم إذا كانت جماعته من (أوشاب الناس) ينتمون إلى قبائل مختلفة وقد حارب بعضهم ضد البعض الآخر بمرارة في الماضي وأخبره بأن أصحابه سينكشفون عنه. وهنا صاح به

(*) الهديَ: الجمل المخصص للتضحية.

أبو بكر ساخطاً: «امصُصْ بَظْرَ اللات، أنحنُ ننكشف عنه؟». فرد عليه **عروة** :«لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها». ولكي يلفت عروة انتباه محمد أمسك بلحيته بالطريقة العربية التقليدية دليلاً على الألفة، لكن مسلماً آخر ضرب يده وأبعدها عن وجه رسول الله(*). فغادر عروة المعسكر متأثراً جداً من إخلاص المسلمين لمحمد وقال لقريش:

> «يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فرَوا رأيكم» .

وكان قد رأى كيف أن محمداً لا يتوضأ إلا ابتدر اصحابه وُضوءَهُ ولا يبصق بُصاقاً إلّا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلّا أخذوه[٨].

قرر محمد إرسال مبعوثه إلى مكة، فأرسل أحد الأنصار اعتقاداً منه أنه سيكون أقل إثارة، لكن قريشاً عقرت ناقة المبعوث، وأوشكت أن تقتله لو لم يهب رجال **حليس** للدفاع عنه. بعدئذ طلب محمد من **عمر** أن يذهب لكن عمر تردّد إذ ما من أحد من أبناء عشيرته يقوى على حمايته، ومن ثم اقترح أن يذهب **عثمان بن عفان** بدلاً منه. كان لعثمان علاقات أرستقراطية كثيرة في المدينة. لذلك استمع القريشيون لرسالته لكنهم لم يتأثروا بما أخبرهم. وقالوا له إن بإمكانه وقد جاء إلى الكعبة أن يقوم بالطواف لكن عثمان رفض ـ قبل أن يفعل محمد ذلك. فأبقته قريش رهينة وأرسلت خبراً إلى معسكره بأنه قد قتل.

عندما سمع محمد النبأ أقسم ألا يغادر الحديبية حتى يواجه العدو. لقد كانت لحظة كارثية فالرحلة التي بدأت فكرة ملهمة بدا أنها قد أخفقت بشكل مرعب. ففي لحظة التطرف هذه قيل إن محمداً قد سقط في نشوة مماثلة لحالات الإغماء التي كانت تعتريه عندما كان يتلقى الوحي إلّا أنه لم يفقد وعيه. ويبدو أنه كان يجول في أعماقه الداخلية باحثاً عن حل، ثم جمع المسلمين وطلب منهم أن

(*) المسلم الذي فعل ذلك هو المغيرة بن شعبة. ويُقال، أن عروة سأل محمداً عنه بقوله: «من هذا يامحمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال أي غُدر، وهل غسلتُ سوأتك إلاّ بالأمس». سيرة ابن هشام جـ٣

يقسموا يمين الولاء له ـ فتقدم الحجاج كل بدوره ليأخذ يده ويحلف اليمين الذي عرف فيما بعد باسم **بيعة الرضوان.** تقدم المصادر روايات متناقضة لمضمون هذا القسم فيقول بعضها إن المسلمين قد أقسموا على قتال قريش حتى الموت، لكن هذه المصادر تمثل أقلية. بينما تزعم الأكثرية أن المسلمين أقسموا «على ألا يفروا» فقط. غير أن **الواقدي** يذكر أن كل مسلم قد أمسك يد النبي وأقسم على أن يتبع «ما في نفسه» وأن يطيع محمداً خلال هذه الأزمة(٩)، وحتى ابن أبي والمنافقين فعلوا ذلك.

ثمة أسباب تُغري بالأخذ بما قاله الواقدي هنا. إذ عندما دخل محمد تلك الحالة من التوتر الشديد كان قد قرر في أعماقه ولربما بمستوى غريزي القيام باتباع طريقة كان يعرف أنها لم تكن فقط لاتغتفر بل كان من الممكن أن تسبب تمرداً وسط أتباعه. إنها تبدو نقيضاً تاماً لسياسته السابقة حيال قريش. لقد اتسمت سياسته حتى هذه الفترة بالاعتماد على الحدس أكثر من كونها سياسة عقلانية واضحة. كان يصغي إلى منطق الأحداث العميق التي كانت تتطور في الحديبية بشكل لم يكن قد توقعه لدى خروجه مع معتمريه من المدينة. بعد فترة قصيرة من قسم اليمين وصل نبأ يفيد بأن عثمان مازال حياً يرزق. بعدئذ رأى محمد سهيلاً مقترباً ومعه اثنان من أصحابه فعرف أن قريشاً قد قررت التفاوض. جلس محمد مع سهيل مدة طويلة وبعد نقاش مطول ومركز تم الاتفاق على الشروط التي أحبطت جميع أصحابه.

وعد محمد أن يعود إلى المدينة دون زيارة الكعبة في هذه السنة، وهذا يعني أن القبائل العربية لن تستطيع القول بأنه لوى ذراع قريش. لكن المسلمين سيعودون في نفس الفترة من السنة التالية إلى مكة حجاجاً بعد أن تخلي قريش مكة لمدة ثلاثة أيام بحيث يستطيع المسلمون تأدية العمرة بسلام. كما اتُّفِقَ على هدنة لمدة عشرة أعوام بين مكة والمدينة شرط أن يعيد محمد إلى مكة أي فرد يُسْلِم أو يُهاجر دون موافقة من وليه، بينما لاتعيد قريش أي مسلم يرتد عن دينه. كذلك اتُّفِقَ على أن تصبح القبائل البدوية حرة من أية التزامات سابقة بحيث تصبح حرة في الدخول في تحالف جديد مع مكة أو المدينة. كان القرآن يُوجب على المسلمين الموافقة دائماً على أية شروط يقترحها العدو إذا كانت هناك فرصة للهدنة، لكن هذه المرة بدت هذه

الشروط مهينة للمسلمين. لقد بدا أن محمداً كان يتنازل عن الامتياز الذي حققه خلال هذه الرحلة من خلال موافقته على الانسحاب دون تحقيق العمرة. والهدنة مع مكة كانت تعني أنه لم يعد في وسع المسلمين غزو قوافل قريش إذن كيف سيكسب المهاجرون رزقهم؟ ولماذا يتخلى محمد عن الحصار الاقتصادي الذي بدأ يضيق الخناق على احتكار مكة للتجارة؟ وما هو السبب الذي جعله يوافق على إعادة أي مسلم جديد إلى مكة بينما لاتطبق قريش الشيء ذاته على المرتدين؟ بدا أن محمداً قد تخلى عن الجهاد الذي قُتِل في سبيله كثيرون، وخاطر من أجله آخرون بكل شيء، وسلّم الامتياز إلى مكة بكل هدوء. فكما يقول ابن اسحاق:

> «وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشُكّون في الفتح، لرُؤيا رآها رسول الله، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمَّل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون[١٠]».

الأسوأ من ذلك كله أن تمرداً راح يلوح في الأفق. لقد كانت المعاهدة أكثر مما كان باستطاعة **عمر** أن يحتمل، فقفز حالاً وذهب إلى **أبي بكر**، وقال:

> «أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى؛ قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى؛ قال: فعلام نُعطى الدنيه في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر إلزم غرزه»[١١] كان أبو بكر هو الآخر قلقاً إلاّ أنه أخبر عمر بأن ثقته بمحمد لازالت قائمة. وفيما بعد قال عمر بأنه لو وجد مئة شخص يوافقونه لترك الأمة ومضى.

لكن محمداً كان أقدر أن يرى أبعد مما يرى أي من أصحابه في الحديبية، علماً أن الرحلة لم تنته مثلما كانوا يتوقعون، بل كانت إلهاماً وضعه على الطريق الصحيح إلى السلام. لقد كان على وشك أن يجرب شيئاً جديداً تماماً، وبعيداً جداً عن فهم أكثر أصحابه ولاءً وثقة به، ناهيك عن القاعدة الواسعة من المسلمين، الذين كانوا يجلسون في صمت مذهل محاولين التأقلم مع هذا المسار العكسي المفاجئ. كان محمد يعرف ـ في مستوى أعمق ما الذي كان يرمي إليه تماماً، ولو أنه كان يتحسس طريقه نحوه في الظلام. كان يرى أنه طالما بقي ممنوعاً من الكعبة ستبقى

القبائل البدوية مترددة في الانضمام إليه. فكان عليه أن يثبت أن المسلمين يتقون أقدس مكان في الجزيرة مثلهم. فمن خلال إحلال السلم مع مكة أصبح باستطاعته الوصول إلى المكان الحرام، وهذا سلاح فعال في الحرب الدعائية، وقد انتزع من قريش الاعتراف الهام بأن مكة والمدينة هما الآن نِدّان. كان هذا واضحاً في الجملة التي سمحت للقبائل البدوية بالتخلي عن تحالفاتها القديمة مع قريش لتصبح حلفاء الأمة، فقبيلة خزاعة التي ارتبط معها محمد بعلاقة مصاهرة(١٢*) سرعان ما اغتنمت الوضع الجديد وانضمت إليه. بعد هزيمة قريش في المدينة كان الشيء الواضح أمام محمد هو الضغط عليها وتدميرها عسكرياً لكنه لم يكن يريد ذلك أبداً. فبتخليه عن الحصار الاقتصادي كان يأمل كسب ود قريش وبالتالي كسبها إلى صفه سلمياً. لقد كان يتحرك نحو حل سياسي وديني لاسابقة له عند العرب، وكان ذلك يعني أنه لن يُقدم على القيام بالشيء المتوقع والجلي لأن ذلك كان يقيده بالوضع الراهن التعس.

عندما جلس محمد مع سهيل ليوقع الاتفاقية كان يعرف أنه قد وسَّع ولاء مسلميه إلى خارج ما باستطاعتهم احتماله. فهل سيبقون مخلصين لبيعة الرضوان أم أن تمرداً يوشك على الوقوع؟ أصبحت الأمور أكثر تعقيداً عندما سمع المسلمون صيغة الاتفاقية. طلب محمد إلى علي بن أبي طالب أن يكتب ما يمليه هو عليه، وعندما بدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي صيغة الافتتاح الاسلامية الخاصة اعترض سهيل فوراً، فقريش لم تكن تطيق مثل هذه الألقاب القدسية ولم تكن على استعداد لتقبل نص معاهدة تبدأ بصيغة دينية كهذه بعدما وضح تقبل محمد للتنازل. طلب سهيل أن يكتب بدلاً من ذلك: «باسمك اللهم». كم كانت صدمة المسلمين موجعة حين رأوا موافقة محمد على الفور إذ طلب من علي أن يغير الكلمات، لكن الأسوأ هو ماجاء لاحقاً: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلاً بن عمرو» فاعترض سهيل ثانية قائلاً: «لو أنني شهدت أنك رسول الله لما أقاتلك» ـ وكان على حق في اعتراضه هذا ـ وقال: «اكتب اسمك واسم أبيك». بعد أن أنهى علي كتابة «رسول الله» قال بأنه لا يستطيع محْوَ ما كتب، لذلك

(١٢*) ـ عن طريق زواجه من جويرية ابنة شيخ بني المصطلق التابعة لخزاعة بعد الهجوم عليهم في كانون الثاني عام ٦٢٧.

طلب محمد منه أن يشير إلى الكلمات على الجلد فحذفها محمد شخصياً. ثم تابع قوله «هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله مع سهيل بن عمرو»[١٣].

ولتأخذ لوحة المشهد (الدرامي) مداها الأبعد أمام المسلمين بخاصة، وصل **أبو جندل بن سهيل** رئيس فريق المفاوضة القرشي، وصل وهو يَرْسُف في الحديد عند توقيع الاتفاقية وأعلن إسلامه، كان سهيل قد سجنه في منزله ليمنعه من اللحاق بمحمد، لكنه هرب ووصل مظفراً يجر أصفاده خلفه. قفز سهيل واقفاً، وصفع ابنه على وجهه، وأمسك بقيوده ثم قال: «يا محمد قد لجَّت القضية بيني وبينك (أي تمت) قبل أن يأتيك هذا؛ قال: صدقت». تأمل المسلمون محمداً غير مصدقين: فهل يا ترى سيتخلى محمد عن أبي جندل ويسلمه إلى أبيه كي يواجه ذلاً وتحقيرا طوال حياته؟ لكن محمداً بقي ملتزماً بالاتفاقية بكل حزم، فرفض السماح لأبي جندل بالهجرة دون إذن من أبيه. وبينما كان سهيل يجر ابنه بكل خشونة إلى مكة صاح **أبو جندل** بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين، أأردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟» ويجيء تعليق ابن اسحق ليعطي مثالاً على التعبير بألفاظ أقل من الواقع. قال: «فزاد ذلك الناس إلى مابهم» ولم يجدوا أي عزاء فيما قاله محمد لأبي جندل:

> **«يا أبا جندل، اصبرْ واحتسِبْ فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرَجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم»[١٤].**

كانت هذه اللقطة الأخيرة من المشهد القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة **لعمر**. فنهض واقفاً، وتجرأ على تحدي الرجل الذي أطاعه طوال /١٢/ سنة وراح يتكلم: أو ليس هو رسول الله؟ أفليس المسلمون على حق وأعداؤهم على باطل؟ لماذا نقرُّ سلاماً مذلاً كهذا؟ ألم يعدهم محمد عندما غادر المدينة أنهم سوف يتعبدون في الكعبة من جديد؟ وفي معرض رده على هذا التساؤل أكد محمد أنه قدَّم هذا الوعد لكنه سألهم بدوره: «أقلت لكم في سفركم هذا؟» فكان عمر مضطراً أن يقول لا. ثم أضاف محمد: «أنا رسول الله ولن يضيعني». فعلى الرغم من أن عمر كان مايزال متضايقاً وحائراً إلا أن ثورته هدأت، ووافق أن يكون شاهداً على المعاهدة وأن يَمُدّ يده ومعه علي، وأبو بكر، وعبد الرحمن، وعبد الله بن سهيل بن عمرو أخو أبي

جندل، ومحمد بن مسلمة.

لكن المعتمرين كانوا مايزالون ثائرين، وقد حلَّت لحظة خطرة كاد يقع فيها العصيان. فبعد أن تمّ التصديق على الاتفاقية نادى النبي محمد على أصحابه طالباً إليهم البدء بتأدية مناسك العمرة في الحديبية نفسها أي حتى وإن لم يَصِلوا إلى **الكعبة** وطلب إليهم أن يحلقوا، وأن يضحوا بالجمال السبعين. إلّا أن الجواب كان الصمت المطلق ولم يستجب له أحد بل ونظروا إليه بيأس. تأمل محمد الحجاج بمرارة فعاد إلى خيمته واليأس يعمر قلبه، عارفاً أنه إذا ما خسر طاعتهم ودعمهم في هذه اللحظة الحاسمة سيضيع كل شيء أدراج الرياح. فماذا عليه أن يفعل؟ وطرح تساؤله ذاك على زوجته **أم سلمة** تلك التي كانت تراقب المشهد من خيمتها الجلدية الحمراء اللون، وتتملاه بدقة وحذق. فجاء جوابها صائباً وشافياً تماماً وإلى الحد الذي أنقذ الموقف برمته. قالت:

> **«يانبي الله أتحب ذلك! اخرُجْ ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بَدَنَتك وتدعو حالقك فيحلقك»**(*).

وفوراً غادر محمد خيمته دون أن يلتفت يمنة ولايسرة، وسار إلى جمله الذي نذره قرباناً ونحرَهُ مؤدياً طقس الأضحية. لقد كان عملاً مقدساً تعرفه العرب جميعاً، لكن كان أيضاً سلوك تحدٍ واستقلالية لأن محمداً كان يخرج على التراث في التضحية خارج مكة ذاتها. فجرّ هذا العمل نبعاً من الادراك في الحشد الصامت وأزال الوهن الذي سببه الاكتئاب والحيرة، وفي الحال وقف الرجال وانطلقوا إلى جمالهم - فربما شعروا بالارتياح لكونهم قادرين على فعل شيء ما أخيراً. ضحوا بهذه الحيوانات وهم يصيحون الصيحة العربية القديمة «باسمك اللهم» ومضيفين الشعار الإسلامي «الله أكبر». حقاً كان مشهد الذبح مثيراً ومهيباً وبه زال التوتر وأفرغت الشحنات. بعدئذ نادى محمد أحد الأنصار وطلب منه أن يحلق له شعره، وكذلك حذا المسلمون حذوه بحماس وكأنّ بهم مساً. وقد قالت **أم سلمة** عن

(*) يمكن الرجوع في هذا المجال إلى سيرة ابن هشام ج٣ طبعة المكتبة العلمية، بيروت ص ٣١٣ - ٣١٤ / في فصل الحديبية وكذلك في تاريخ الطبري ص٦٢٦ - ٦٢٧ ج٢ دار سويدان، فصل: صلح الحديبية.

ذلك فيما بعد: «خشيت أن يَغُمَّ بعضهم بعضاً». وتروي كتب التراث أنهم عندما كانوا على وشك مغادرة الحديبية هبت ريح وحملت الشعر الأسود إلى مكة دليلاً على أن الله قد قبل أضاحيهم.

انطلق الحجاج عائدين وهم يغذون السير خفافاً. مع ذلك بقي طعم مرارة في أنفسهم، وكان محمد يعرف أن عليه أن يعوضهم عنها بالتخطيط لحملة جديدة لاتخرق المعاهدة. لعلَّ شكوكاً شخصية كانت تساوره في توقع أن يسمح له بدخول مكة منتصراً دون توقيع تلك المعاهدة الصعبة. بدا خلال الرحلة شارداً ومنشغلاً. وكان عمر خائفاً من أن يكون عصيانه وتحديه قد دمرا صداقتهما. كما انتابه خوف من نزول وحي يدين تهوره. وقد خشيَ ما هو أسوأ عندما ردَّ محمد بجفاء على ملاحظة أبداها. وحين وصل فجأة رسول يطلب منه التقدم إلى الأمام واللحاق بمحمد غاص قلبه بين جنبيه. لكنه وجد النبي ـ ويالسعادته ـ يبدو مشعاً وكأنما قد أزيح عبء ثقيل عن كاهله. لقد أعلن النبي نزول سورة عليه كانت كما قال:

> **أُنزلت عليَّ سورةٌ هي أحبُّ إليَّ من كل ما طلعت عليه الشمس»[٦٦].**

إنها سورة الفتح ـ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح...﴾ ـ التي تكشف عن الأهمية الكاملة لأحداث الحديبية. فهي إطراء إلهي وتوصيف لاهوتي للحرب العادلة.

عندما يتهم النقاد الغربيون الإسلام بأنه دين عدواني في بنيته ـ بسبب مفهوم الجهاد ـ عليهم أن يأخذوا باعتبارهم لاهوت السلام عند محمد الذي أنزله الوحي بعد أن شق طريقه نحو الهدف، أي حين أصبح باستطاعته فرض السلام الإسلامي على الجزيرة العربية التي كانت تمزقها الحروب.

لقد رأينا سابقاً أنه لم يكن بوسع **محمد** أن يعبر عن نفسه دائماً برمزية سهلة المنال كتلك التي كانت **لعيسى**.

فلماذا لم تكن رسالة محمد متماثلة مع رسالة عيسى؟ الفارق هو أن محمداً كان يحاول أن يصوغ تعاليمه على أرض الواقع، أرض لها علاقة بظرف اجتماعي أو سياسي معين بينما لانعرف سوى النزر اليسير عن الموقف السياسي عند عيسى. في السنوات الأخيرة رأى بعضهم أن الرومان صلبوه لأنه حاول التمرد؛ وبعض

علماء الكتاب المقدس يرون في قصة قلب مناضد المرابين في المعبد رواية غير مكتملة عن محاولة الانقلاب التي تمكن فيها هو وأعوانه من أن يستولوا على الهيكل لمدة ثلاثة أيام. مهما يبدو ذلك الأمر فإن عيسى لمّا دعا بالتأكيد إلى رسالة سلمية أيضاً مديراً خده الآخر رافضاً أن يدافع عن نفسه حتى بالقول، ومديناً أولئك الذين يعيشون بحد السيف. ولقد أربكت هزيمته الظاهرية ومسكنته تلاميذه، وهجره معظمهم في ساعة الحاجة إليهم. أما محمد فقد استجاب إبداعياً إلى ظرف لم يكن متوقعاً في الحديبية وأدار أيضاً خده الآخر لقريش راضياً بذل ظاهري جعل حتى أقرب الناس إليه يوشكون على التخلي عنه. ومثلما أوضح القديس بولس قبلاً بعد موت المسيح، أهمية فضيحة الصلب، كذلك أوضحت سورة الفتح في القرآن التراجع الظاهري للمسلمين[*].

تبدأ السورة بالتأكيد الساطع أن محمداً لم يهزم في الحديبية على الرغم من وجود مؤشرات تشير إلى عكس ذلك:

> **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفِرَ لكَ الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخّرَ ويُتِمَّ نعمته عليك ويَهدِيَكَ صراطاً مستقيماً. وَيَنْصُرك الله نصراً عزيزاً﴾**[١٧].

في بدر كشف الله عن حضوره وسط المعركة، وكان ذلك دليلاً على الخلاص. لكن الله كان حاضراً أيضاً في الذل الظاهري في الحديبية عندما أنزل سكينته:

> **﴿هو الذي أنزل السكينةَ في قلوب المؤمنينَ ليزدادوا إيماناً مَعَ إيمانهم ولله جنودُ السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾**[١٨]

لقد سبق أن أنزل الله سكينته من قبل على محمد المنبوذ من قبيلته عندما اختبأ وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام اتقاء للقتل. ينبغي أن نذكر أن كلمة «السكينة» لها على مايبدو علاقة بالكلمة العبرية «الشكينة Shekinah» أي حضور الله في

(*) كلمة السكينة العربية مشتقة من فعل «سكن» وهو فعل من صميم اللغة العربية وبالتالي كلمة سكينة ليست مصطلحاً مأخوذاً. ويبدو أن التشابه باللفظ بين الكلمة العربية والعبرية أوحى للمؤلفة بالعلاقة بينهما

العالم(*). إذن كانت بدر والحديبية أمارتين على الخلاص الذي أوضح أن الله كان موجوداً في أحداث تاريخية راهنة بطريقة تستعصي على الفهم. لقد كان فعالاً في السلم مثلما كان فعالاً في الحرب. وكان باستطاعته جعل مابدا هزيمة نصراً جلياً. وتتابع السورة القول إنه عندما تَحَمَّل الحجاج هذا المشروع الخطر للحج دون سلاح - فقد برهنوا عن فعل إيماني، بينما رفض البدو مرافقة محمد لأنهم لم يكونوا مستعدين له[١٩]. لقد قام المسلمون بفعل إيماني، ويدلل ذلك على الثقة بالله عندما بايعوا محمداً تحت الشجرة. كان باستطاعة قريش مسحهم من الوجود، لكنهم كانوا قد وعدوا محمداً بالطاعة حتى وإن قادهم وسط ظلمة المذلة. فالمعاهدة كانت أيضاً آية توجّب على المسلمين فهمها وأن ينظروا إلى ماهو أبعد من الأشياء الظاهرية، إلى المعنى الداخلي[٢٠]. في بدر كان النصر فرقاناً فرق بين الحق والباطل في معركة، وقد ميز نصر الفتح في الحديبية المؤمنين عن سواهم من خلال روح السكينة.

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيَّة حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزَمَهُم كَلِمَةَ التقوى وكانوا أَحقَّ بها وأَهْلَهَا وكان الله بكل شيء عليماً﴾[٢١].

كان محمد في قبضة آمر فكان تصرفه تصرفاً سياسياً. لقد نَفَذَ غريزياً إلى فهم أعمق لآليات التغيُّر في الجزيرة وسوف تبرر الأحداث تبصُّره. فبعد أن أنقذ الأمة من خطر الانقراض أصبح الجهاد محاولة لسلام كان يتطلب كل صبره وإبداعه. ولذلك فإن بدراً والحديبية هما وجهان لعملة واحدة وكانتا أساسيتين في المنظور القرآني. من الضروري أحياناً أن تقاتل دفاعاً عن القيم النبيلة، وطالما أن الحرب قائمة فإنه يتوجّب على المسلمين القتال بتفانٍ مطلق، وألا يظهروا أمارة تدل على الضعف لئلا تتسلل إليهم الخصومات مسببة سفك الدماء والمزيد من الحروب دون غاية. لكن كان هناك وقت للسلم أيضاً، مع أن هذا كان يعني خسارة مؤقتة لماء الوجه، وقد يكون هذا السلام هو الأفضل على المدى الطويل. ليس صحيحاً أن الإسلام يعلم التصلب التام، ويُلْهِم تعصباً دون عقل. لقد كان القرآن بدلاً عن ذلك، يطور لاهوتاً متكاملاً للحرب والسلم يجد معظم المسيحيين قبوله أمراً صعباً.

لكن الحديبية كانت تتطلب الإيمان حقاً كما شرح القرآن ذلك فلو لم تكن

رؤية محمد الدينية عظيمة لما استطاع حمل أتباعه على الوقوف معه. فلو كانت الأغلبية تريد نصراً سياسياً سريعاً لما كانت على استعداد للقيام بفعل الثقة هذا. تأتي خاتمة سورة الفتح لتقدم رؤية رصينة وكريمة لمجتمع كان يتميز أساساً بروح دينية، روح جلية في تراث الرسالات السابقة أي اليهودية والمسيحية:

﴿محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدَّاءَ على الكفارِ رُحَماءَ بينهم تراهم رُكّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهمُ في وجوههم من أثر السجودِ، ذلك مثَلُهم في التوراة ومثَلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطْئَهُ فآزرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاستوى على سُوقِهِ، يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفارَ، وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفِرةً وأجراً عظيماً﴾[٢٢].

قد يعترض بعضهم بأن هذه التقوى تنطوي على جانب عدواني فتبدو أنها مصممة لتغضب غير المؤمنين. لكن جميع تراثات الوحدانية التاريخية تشترك في هذا التصلب، وفي رفضها المساومة على الأساسيات الدينية. فحتى يسوع المسالم قال:

«لاتظنوا أني جئتُ لألقي سلاماً على الأرض. ماجئتُ لألقي سلاماً بل سيفاً، جئتُ لأفرق الإنسان ضدَّ أبيه والابنة ضد أمها والكنّة ضد حماتها»[٢٣].

وتقدم لنا الأناجيل لوحة أكثر شراسة مما نجد أحياناً في التقوى الشعبية.

فإذا كان لابد للأمة من أن تستمر في الازدهار واحتلال مكانتها إلى جانب الرسالات السماوية السابقة كان لزاماً أن تزيد وتجذب إليها مؤمنين جدداً. إنه لَبالإمكان رؤية كم كانت مثمرة سياسة محمد التوفيقية هنا، لأن الهدنة خلقت جواً مريحاً أكثر، شجع النقاش بين المسلمين والوثنيين كما أنتجت تبادلاً حراً للآراء. وقد جاء في السيرة النبوية لابن اسحاق تعليقاً على نصر الحديبية الجلي:

«فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، وإنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وَوُضِعت الحرب وأمن الناس بعضُهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه، ولقد دخل في تينك

السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[٢٤].

في الحديبية أوضح محمد أن الإسلام يضرب جذوره في أكثر التراثات قداسة لدى العرب، وأن نهوض الإسلام كالشهاب إلى موقع الأهمية في الجزيرة كان إثباتاً على أن هذا الدين كان ذا فاعلية. فالعرب لم يكونوا متعصبين ولقد جعلتهم سنواتهم العصيبة في الصحراء عمليين جداً. لذلك عندما اكتشفوا النجاح العملي للأمة بدؤوا يرون أن هذا ربما كان هو التحول الذي كان يبحث عنه الناس منذ زمن طويل.

لكن معاهدة الحديبية ألزمت محمداً بإعادة أي مهاجر جاء بعد هذه المعاهدة إلى مكة. إلا أنه حاول أن يجد طريقة كي يعفي نفسه من هذا البند. فعلى سبيل المثال لم تقل المعاهدة شيئاً عن إعادة النسوة المسلمات، فعندما هاجرت شقيقة عثمان إلى المدينة بعد الحديبية بوقت قصير رفض محمد إعادتها. فبعد هذه الحالة من الامتحان سُمِح للنساء بالهجرة، لكنه كان يرسل مهورهن إذا كانت هجرتهن دون موافقة أوليائهن. وفي الوقت ذاته تقريباً ظهر في المدينة رجلٌ دخل الإسلام وكان ذا عزم وحزم، هو **أبو بصير عتبة بن أسيد** المتحالف مع عشيرة **زهرة** وكان قد تمكن من مغافلة وليه وحُمَاتِه وهاجر إلى المدينة. أوفدت قريش مبعوثاً اصطحب معه أحد الموالي لاستعادة أبي بصير، فأخبره محمد أن لاخيار له سوى العودة إلى مكة، لكن ابا بصير لم يستسلم بمثل هذه السهولة فعندما كان المسافرون الثلاثة يستريحون في ذي الحُلَيفة على بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من مكة أمسك أبو بصير بسيف المبعوث وقتله. وعندها ركض المولى عائداً إلى المدينة والرعب يملأ جنبيه، ورمى نفسه على قدمي محمد، وراح يتلعثم في إطلاع محمد على ما حدث، وفي هذه اللحظة وصل أبو بصير إلى المسجد. أخبر أبو بصير محمداً بأن التزامه كان قد انتهى لأنه قد نفذ كلمة الشرف التي أعطاها عندما سلّمه لقريش، وبما أنه لم يكن قادراً على الهجرة لأنه لم يصبح مسلماً بعد، لذلك فلا ذنب لمحمد في سفك دم المبعوث. لكن محمداً استمر في رفض قبوله عضواً في الأمة، وحاول تسليمه إلى الرجل المسكين الذي روعته فكرة السفر مسافة مئتي ميل مع أبي بصير فما كان منه إلا أن قفل راجعاً معفياً نفسه من هذا الأمر. وعندها أخبر محمد أبا بصير بأنه لايستطيع

(*) محش حرب: موقد حرب ومُهَيِّجها

البقاء في المدينة، إلا أنه حر في الذهاب حيثما يشاء. ولمّاً همّ أبو بصير بالسفر قال محمد بغموض: «ويل أُمّه، مِحَش(*)حرب لو كان معه رجال»(٢٥).

فهم أبو بصير الإشارة الضمنية في الكلمات الأخيرة للنبي فمضى إلى معسكر **العيص** وعسكر هناك على ساحل البحر الأحمر بالقرب من طريق التجارة الذي كان باستطاعة قريش استخدامه ثانية بعد الهدنة. فانتقل نبأ الحادثة والإشارة الضمنية التي قالها محمد إلى مكة والتُقِطَت من قبل رجال كانوا متلهفين للهجرة من أمثال **أبي جندل بن سهيل**. وكانت يَقَظَةُ أولياء هؤلاء قد تراخت منذ الحديبية لذلك وجد نحو مايقارب من سبعين شاباً الهروب سهلاً من مكة، وشقوا طريقهم لا إلى المدينة بل إلى أبي بصير في العيص. لم يكن في المعاهدة بند يمنع هذا لأن هؤلاء الشبان ليسوا أعضاء في الأمة لقد أصبحوا صعاليك وراحوا يهاجمون قوافل قريش المارة على طريق التجارة إلى سورية. لم يكن محمد مسؤولاً عنهم، ولم يُعَدّ منتهكاً للمعاهدة. لكن قريشاً اكتشفت أن الحصار الاقتصادي القديم قد أعيد جزئياً. لقد تراجع امتياز قريش منذ هزيمتها كثيراً، ولم يعد بوسعها أن تطلب من بدو المنطقة أن يدعموها إذا قررت إرسال جيش للقضاء على هؤلاء الشبان الصعاليك. وفي النهاية وجدت قريش نفسها مجبرة على تنحية الاتفاقية والطلب إلى محمد قبول الشبان في أمته. كان من دواعي سرور محمد أن يرسل في طلبهم، لكن الدعوة وصلت متأخرة لأبي بصير ذلك لأن المنية كانت قد وافته.

كان محمد قادراً على الالتفاف على بنود الاتفاقية بشكل فني، وكانت هذه سياسة معترفاً بها في الجزيرة. فيما بعد حاولت قريش القيام بشيء مماثل في صراعها مع محمد بعد سنة لاحقة. كان محمد كسياسي عربي بارع - يعرف كيف يستخدم مبادئ النظام القبلي لصالحه هو، وقد يرى شخصٌ غربيٌ في ذلك أمراً غريباً. لأنه يعتبر الأخلاق القبلية جائرة دون أن يفهمها، فيجد أنه ليس من المستحسن أن يكون محمد راغباً بامتلاك كل شيء له علاقة بهذا النظام. لقد خرجنا منذ أمد بعيد عن نطاق الأخلاق القبلية أو الجماعة علماً أنها كانت الطريقة الوحيدة لتأمين جو من السلام والاستقرار في عصور أكثر بدائية. لقد كان أداؤها جيداً في الجزيرة العربية طوال قرون، لكن كان قد حان الوقت كي تنتهي. مع ذلك فقد كان محمد - مثل جميع معاصريه - متجذراً بعمق في النظام القبلي وقبل مبادئه

الأساسية. لقد كان النوع الوحيد من أشكال الحكم، ونظاماً وحيداً للأمن الاجتماعي. فخلال هذه الفترة الانتقالية كان من المحال إحداث تغيير جذري. في قصة أبي بصير استخدم محمد نقطة جيدة من القانون القبلي كي يقوي الأمة التي كانت تسعى إلى إصلاح النظام المنهار، وليصحح بعضاً من أسوأ مساوئه.

في تشريع القرآن الاجتماعي لايقوم محمد بقطيعة تامة مع النزعة القبلية. فالقرآن يرى في القصاص فضيلة وواجباً اجتماعياً ودينياً. على المسلمين أن يقتصوا، انما بعدل: «العين بالعين والسن بالسن»[٢٦]. وهذا أمر يصعب قبوله لدى من تربوا على موعظة جبل سيناء. إننا نجد الأمر بغيضاً أن يوصي كتاب مقدس بقطع يد السارق ولانستطيع فهم لماذا لايُعد الانتقام خروجاً على القانون، ولماذا لم يدع إلى رسالة تسامح. لكن علينا أن نتذكر أن يسوعاً لم يكن رئيس دولة بينما أصبح محمد كذلك بعد الحديبية. لم يكن على يسوع أن يشغل نفسه بالحفاظ على النظام العام فهي وظيفة كانت تقوم بها المؤسسة الدينية التي يقال أن يسوعاً ندّد بها، إلى جانب موظفين رومانيين. فلو أنه كان مسؤولاً عن التشريع الاجتماعي لكان محتملاً جداً أن يجد نفسه مجبراً على اللجوء إلى أساليب قاسية مماثلة. في مجتمعات ماقبل الحداثة كان ينبغي فرض القانون بقوة ووحشية تَظْهران لنا مرعبتين الآن. فحتى وقت قريب كنا في بريطانيا لانقطع يد السارق فحسب بل كنا إما نقتله لجرائم تافهة تماماً أو نرسله إلى المستعمرات عبداً. إنه لمن المؤسف أن تُبْقي بعض البلدان الإسلامية ونحن نؤكد عبارة «بعض» هنا، على هذه العقوبات، لكن اتهام القرآن بقصور في الرؤيا ووصف التراث الإسلامي بالوحشية ليس إنصافاً. لقد ذُكِر أن الحكام المسلمين الذين أتوا بعد محمد لم يكن باستطاعتهم السماح للتشريع القرآني بالوقوف وحده لأنه كان متساهلاً جداً إذ يتعذر أن يصبح فاعلاً في مجتمع أكبر، بل كان عليهم تدعيمه بتشريع جديد لضمان القليل من الأمن الاجتماعي[٢٧].

لقد رأى محمد في الأمة نوعاً من قبيلة كبيرة فاستمر في الأساليب القديمة حفاظاً على الاستقرار منذ زمن مغرق في القدم. لم يكن ثمة شرطة في المدينة ولا

في بقية بلاد العرب. كان أقرب أقرباء الجاني منذ العصور القديمة هو المسؤول عن معاقبته وعن خلق رادع يمنع العنف قدر الإمكان. وقد حافظ القرآن على هذا النظام ومنح ولي المجني عليه سلطاناً في القصاص من الجاني[٢٨]. لكن ينبغي أن يكون هذا الثأر محددا ـ العين بالعين، السن بالسن، ولولا التحديد لكان الناس يدخلون في حلقة جديدة من العداوات والعنف لايمكن إيقافها. ويبين القرآن أن قبول أهل القتيل بأقل مما يجب فضيلة، ويذكرنا هذا بالمبادئ التي أنزلها الله على الأنبياء العبرانيين في التوراة والتي صدّق عليها الحكماء والأحبار لاحقاً.

﴿وكَتَبْنا عليهم فيها أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ، والعينَ بالعين، والأنفَ بالأنفِ، والأُذُنَ بالأُذُنِ، والسِّنَّ بِالسِنِ، والجروحِ قصاصٌ، فمن تصدَّقَ به فهُوَ كفَّارةٌ له ومن لم يحكُم بما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هم الظالمون﴾[٢٩].

عندما أشار يسوع إلى هذه الكلمات في التوراة طلب من أتباعه أن يحبوا أعداءهم: فقد كان فطناً، وتنطوي هذه المفارقة على بصيرة دينية معقدة لكنها عميقة وليس من السهل تفسيرها دائماً. فلم يقطع محمد المسافة التي قطعها يسوع عندما حث المسلمين على التسامح فيما بينهم والتنازل عن الثأر، من المحتمل أنه كان يحثهم على الرضى بالدية بدلاً من زهق حياة أخرى فكان هذا السماح ـ مهما كان شكله محدوداً ـ بدعة في الجزيرة، وتقدماً أخلاقياً على النظام القديم. كثيراً مايقال إن المسيحية هي دين محبة والإسلام هو دين عدالة اجتماعية. المسيحيون يعتبرون محبتك لجارك هي محك الدين الحق، والتعريف القرآني للروح الدينية أقل طموحاً لكنه ذو طابع عملي أكثر:

﴿ليسَ البِرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المشرقِ والمغرب ولكِنَّ البِرَّ من آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينِ وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفونَ بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضَّرَّاءِ وحينَ البأسِ أولئكَ الذين صَدَقُوا وأولئِكَ هُمُ المتقونَ[٣٠]﴾.

في الأمة الاسلامية توجّبَ تنظيم المجتمع على مبادئ المساواة، الواجبات نفسها مفروضة على كل شخص. لا وجود لنخبة أو كهنوت أو رهبان. الغاية من إيتاء الزكاة هي ردم الهوة بين الأغنياء والفقراء. وتحرير عبد هو فضيلة(٣١*). من حيث المبدأ سيعامل كل فرد في الأمة بالطريقة ذاتها. وإذا لم يكن بالإمكان جعل المحبة تسود أو تفرض فقد تم وضع تشريع للعدالة والمساواة، إذ يبدو أن القرآن والشريعة الإسلامية لاحقاً، قد ساعدا المسلمين على تنمية روح مساواة عميقة(٣٢*). بعد وقت قصير من وفاة النبي أصبح ملك الغساسنة، **جُبِلَّةُ بنُ الأيْهم** مسلماً. في أحد الأيام لطم جُبِلّة هذا أحد أفراد الأمة، إعرابياً من العامة على خده. فنال ذلك الأعرابي حقه من جبلة بكل عدل ودقة، إلا أن جُبَلَّة ثار جداً إلى درجة أنه ارتد عن الإسلام وعاد إلى المسيحية.

يمكننا أن نرى مَثَلَ المساواة الأعلى في الإسلام طريقة عملية لفرض حب أخوي من خلال إنزال جميع الناس إلى المستوى الاجتماعي والسياسي ذاته. فبعد الهجرة تماماً أدخل محمد ممارسة المؤاخاة التي كانت تربط بين كل اثنين برابطة الأخوة، واحداً من المهاجرين بواحد من الأنصار. لقد كان ذلك محاولة لصهر الجماعات القبلية الثلاث في جماعة متحدة واحدة، وهذا إيضاح عملي للقرابة الدينية الجديدة التي كان عليها أن تتجاوز روابط الدم. إن المثل الأعلى للجماعة ذو قيمة مقدسة في تراث أديان الوحدانية الثلاثة جميعاً. فحيث يجتمع اثنان أو ثلاثة يكون الله معهم **﴿وما كان اثنان إلاّ والله ثالثهم ولاثلاثة إلاّ والله رابعهم...﴾**، وهذا أمر أساسي في اليهودية والمسيحية. لقد كتب القديس بولس أن الجماعة المسيحية كانت تؤلف جسد المسيح، وسوف نرى أن الأمة قد حظيت بأهمية مقدسة في التقوى الإسلامية. كان محمد يعزز النزعة الفردية التي بدأت بالظهور في الجزيرة. وهكذا يعلن القرآن أن أقارب القتيل يمكنهم أن يعاقبوا قاتله فقط، وليس

(٣١*) ـ السورة ٢ (البقرة)، الآية: ١٧٢ . وجه لوم إلى محمد لأنه لم يلغ الرق لكن هذا الحكم ليس مبنياً على رؤية تاريخية. وفي الحقيقة عمل محمد على تقليل الرق في الجزيرة عن طريق فرض الجزية التي كانت تحسم في الغزوات وأعمال العنف في شبه الجزيرة.

(٣٢*) ـ صحيح أيضاً أن روح المساواة كانت تضرب جذورها عميقاً في ثقافة الشرق الأوسط وأن الإسلام كان استجابة لهذه الروح.

أي فرد من قبيلة القاتل كما كان النظام القديم[٣٣]. مع ذلك بقي المثل الأعلى الجماعي حاسماً أيضاً، وقد مضى معنى الأخوة في الإسلام عميقاً.

لقد بنى محمد نظامه الأخلاقي على المروءة التي هي النزعة الإنسانية في القبلية القديمة عند العرب. كانت المروءة تهتم بالصالح العام والتعاون والاهتمام بالفقراء والضعفاء. كان ابتكار محمد الأساسي هو توسيع هذه المبادئ لجعلها تشمل جميع المسلمين ومنهم إلى الأمة بأكملها بدلاً من أن تكون مقتصرة على قبيلة واحدة. ففي مساعدته أصحابه على تنمية الإحساس بأن جميع المسلمين، سواء انتموا إلى الأوس أم الخزرج أم قريش ـ قد أصبحوا أخوة إنما كان يرسي أسس شكل حكم إسلامي متميز في المستقبل. فذلك واحد من الأسباب الذي يجعل المسلمين يجدون صعوبة في التكيف مع المثل الأعلى الغربي للدولة القومية الذي يقسم الأمة ثانية إلى قبائل متعادية أو جماعات منفصلة[٣٤].

حقيقة الأمر هي أن محمداً شخصياً قد أرسى معياراً عالياً في «الأخوة» في سلوكه فالشخص الذي أصبح يخافه أعداؤه كان محبوباً جداً داخل الأمة وبالرغم من الأخطار التي كانت تواجهها إلا أنها كانت جماعة سعيدة جداً. رفض محمد أن يضع برزخاً يفصل بينه وبين بقية المسلمين. كان يكره المناداة بألقاب فخمة طنانة، وكثيراً ماكان يراه المسلمون جالساً على أرض المسجد، وكثيراً أيضاً ماكان يختار الجلوس إلى جانب أفقر أفراد الجماعة. كان الأطفال ينجذبون إليه: كان يحملهم ويداعبهم ويقبلهم. وعندما كان يغيب في غزوة كان من عادة أطفال الأمة الخروج لملاقاته عند عودته، ويقودونه إلى داخل الواحة في موكب النصر. وفي أثناء صلاته في المسجد كان يسرع في إنهائها قبل موعدها إذا ماسمع طفلاً يبكي، لأنه لم يكن يستطيع تحمّل التفكير بمحنة أم الطفل.

تبدو لنا القوانين المصاغة في القرآن دون رحمة، لكن ماعُرف عن النبي هو الرحمة والتساهل. يُذْكر في الأخبار أنه بعد أن أصدر حكماً على فقير ارتكب خطأً صغيراً طلب إليه أن يتصدق ببعض ماعنده من طعام أو متاع، كفَّارة له. فأجاب الرجل أن ليس لديه طعام ولا متاع يتصدق به. وفي تلك اللحظة قدَّم أحدهم سلة تمر إلى النبي فقدمها بدوره إلى الرجل ليأكل منها وليوزع منها على الفقراء. فأجابه الرجل أنه لايعرف شخصاً في الواحة أفقر منه. فضحك محمد وأخبره بأنه إن يأكل التمر فتلك هي كفارته.

كانت تنمية المحبة والتراحم رسالة أساسية في الإسلام منذ البداية. وإذا ما بدا أن القانون كان آلة قاسية في تلك الفترة إلاّ أن عملية التشذيب التي تُزكي المسلم كانت قد بدأت، وقد ضرب محمد شخصياً المثل الأعلى. هناك حديث عن أنه رأى مرة مولى منهمكاً في عمل يقصم الظهر، فذهب إليه محمد خِلسة من خلفه، ووضع يديه على عينيه فقال الرجل إنه ليس غير النبي من يفكر في إضاءة يومه بهذا الحب ليخفف عنه العناء.

لقد تولد لدينا ميل ـ عبر القرون ـ إلى اعتبار محمد شخصية صارمة، محارباً شرساً، وسياسياً صلباً، لكنه حقيقة كان رجلاً ذا مشاعر تفيض بالرقة والطيبة. لقد أحب حتى الحيوانات فلم يكن ليزعج قطة إذا ما رآها نائمة على عباءته. يُقال إن أحد اختبارات مجتمع ما هو موقفه من الحيوانات. فجميع الأديان تشجع موقف المحبة والاحترام للعالم الطبيعي. وكان محمد يسعى أن يعلّم المسلمين ذلك. كان العرب ـ في أثناء الجاهلية ـ يعاملون الحيوانات بقساوة كبيرة. كانوا يقطعون منها بضعة لحم وهي حيَّة كي يأكلوا، وكانوا يضعون حلقات مؤلمة حول أعناق الإبل. ولكن محمداً منع أية معاملة مؤلمة أو قتلاً منظماً للحيوانات. يروي أحد الأحاديث عن النبي أن رجلاً قدم ماء إلى كلب في يوم قائظ، فذهب الرجل إلى الجنة من عمله هذا، وعن امرأة جوعت قطتها حتى الموت فأُرسلت إلى النار. إنّ حفظ هذه الأحاديث يُظهر لنا مقدار أهمية القيم في العالم الإسلامي، والسرعة التي تقدمت بها الجماعة نحو رؤية أكثر إنسانية ورحمة.

كان على اليهود الآن الاندماج في شبه الجزيرة هذه الأكثر إنسانية. بعد وقت قصير من صلح الحديبية أرسل محمد رسالة إلى الحبشة يطلب فيها من المسلمين هناك الانضمام إليه في المدينة كي يساعدوه في الصراع. ومن ثم حول اهتمامه شمالاً مرة أخرى. كانت خيبر ماتزال تثير العداوة بين القبائل الشمالية، خيبر تلك المستوطنة اليهودية التي لعبت دوراً خطيراً أثناء حصار المدينة، والتي أدبها مصير بني قريظة، ولكنها كانت تسعى إلى إثارة العداوة بين قبائل الشمال ضد محمد فأراد محمد أن يضمن أنها لن تعود من جديد إلى تهديد أمن الأمة أبداً، فانطلق على رأس قوة مكونة من /٦٠٠/ مقاتل تقريبا. كان حلفاؤه من البدو حريصين على الذهاب معه هذه المرة، لأن الغنائم كانت كبيرة، لكنه لم يسمح لهم بمرافقته: لقد أراد أن يكافئ المسلمين الذين شعروا بالإحباط والصد في الحديبية، وأن يقدم لهم

منفذاً لحاجاتهم الداخلية إلى حيز الفعل. لكن خيبر كانت مستوطنة قوية جداً. كانت محاطة بسهول من الصخور البركانية ومزارع النخيل، وكان فيها سبع قلاع للدفاع عنها. لم يصدق القرشيون الأنباء، بأن محمداً قد انطلق في حملة غبية خرقاء. بدا الأمر لهم وكأنما كان يجلب لنفسه كارثة بجيش هزيل كجيشه.

كان الحليف الرئيس لمحمد هو حالة الانقسام التاريخي الذي كان مرافقاً ـ كما يبدو ـ لانهيار النظام القبلي في الجزيرة. فخيبر كانت منقسمة على نفسها بعمق، لم تكن على شاكلة الأمة. فكل قبيلة في المستوطنة كانت تتمتع باستقلال ذاتي ووجدت القبائل أن من المحال اتحادها ضد عدو مشترك. أرسل أهل خيبر رسالة إلى حلفائهم **غطفان** لكن هؤلاء تراجعوا في الطريق. قال بعضهم أنهم سمعوا صوتاً غامضاً يطلب منهم العودة إلى منطقتهم. وربما كان محمد قد وعدهم، إذا ما ابتعدوا، بجزء كبير من محصول التمر في المدينة. وصل المسلمون خيبر ليلاً وفي الصباح خرج العمال ومعهم

«مساحيهم ومكاتلهم(*)، فلما رأوا رسول الله (ص) والجيش، قالوا: محمد والخميس معه! فأدبروا هُرّابا، فقال رسول الله (ص): الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحةِ قدم فساءَ صباحُ المنذرين»(**).

دام الحصار شهراً كاملاً. كان المسلمون يحيطون بكل قلعة بشكل منظم، وكانوا يقذفونها بالنبال بالتناوب حتى تستسلم ثم يستولون على الغنائم والرهائن. وفي النهاية تقدم اليهود من محمد عارضين عليه السلام عندما لم تبق أمامهم إمكانية كسب المعركة. فوفقاً للمفهوم القرآني قبل محمد بالشروط التي لم تكن مذلة لخيبر تحديداً. لقد كانت الصفقة من النوع الذي اعتاد العرب في مناطق الاستقرار إبرامه مع البدو الذين كانوا مقاتلين أفضل عادة. فمقابل نصف المحصول من التمر يقدم حمايته العسكرية ليهود خيبر، ويصبحون تابعين للمدينة، وبذلك استبدلوا محمداً بحُماتهم من البدو. وعندما سمعت **فَدَك** ـ واحة صغيرة غنية إلى الشمال الشرقي من خيبر ـ بهذه المعاهدة قررت تفادي هجوم مسلم محتمل فاستسلمت لمحمد بالشروط نفسها.

(*) المساحي: جمع مسحاة وهي مجرفة الحديد. المكاتل: جمع مكتل وهي القفة الكبيرة.
(**) تاريخ الطبري مجلد ٢ص ٦٣٨ ـ ٦٣١ طبعة دار سويدان بيروت.

ضماناً للاتفاقية تزوج محمد من **صفية** الجميلة ابنة عدوه القديم حُيَيْ وهي التي كانت في السابعة عشرة، وترملت أثناء الحملة ويقال إنها تنبأت لليهود بهزيمة المدينة في حلم رأته، وكانت راغبة في اعتناق الإسلام. احتفل بالزواج خلال النصف الأول من رحلة العودة إلى المدينة. كان المسلمون القادمون من الحبشة قد وصلوا إلى المدينة أثناء وصول محمد إليها، فعانق ابن عمه **جعفر** الذي كان قد ودعه شاباً في السابعة والعشرين، أي قبل نحو ثلاثة عشر عاماً. قبّلَه على جبينه قائلاً:

«ما أدرى بأيهما أنا أُسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»

لقد كان لالتئام الشمل هذا وقعٌ رائعٌ عند محمد. لكن كان عليه أن يُرحب أيضاً بوصول زوجة أخرى من زوجاته. ففي مطلع تلك السنة تلقى نبأ بأن ابن عمته وصهره **عبيد الله بن جحش** قد توفي في الحبشة. وينبغي أن ننوه إلى أن عبيداً كان موحداً قبل ظهور محمد، لكنه ارتد عن الإسلام في الحبشة ليصبح مسيحياً، فقرر محمد أن يتزوج أرملته التي تعرف باسم لقبها /أم حبيبة/، وعند انتهاء فترة العدة عقد القران بالوكالة أمام النجاشي. لم يكن هذا الزواج زواج حب بل حركة سياسية بارعة لأن أم حبيبة كانت ابنة أبي سفيان، فأُعِدَّت لها غرفة بجوار المسجد انتقلت إليها مباشرة لدى وصولها إلى المدينة، بينما بقيت صفية في منزل مجاور حتى تم بناء غرفة لها.

تملّك عائشة شيء من القهر عندما سمعت بهذه الزوجة الجديدة، لم تكن أم حبيبة تهديداً لها بل تلك الفتاة اليهودية التي كانت فائقة الجمال، وعندما سأل محمد عائشة عن رأيها بها كان جوابها فظاً وأجابت دون مواربة بأنها لا تفهم كل هذه الجلبة فهي يهودية، مثلها مثل أية امرأة أخرى. فطلب إليها محمد ألاّ تقول ذلك عنها فهي قد دخلت الإسلام ودخولها حسن. في البداية مرت صفية بوقت عصيب أثناء وجودها في الحريم لأن الزوجات الباقيات كن يعيرنها بأبيها حُيَيْ. فذات يوم ذهبت باكية إلى محمد وأخبرها مواسياً أن عليها أن ترد على الأخريات «أن والدي هو هارون وعمي هو موسى»[٣٥]. ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت عائشة وصفية صديقتين. وشكلت الزوجات الشابات الثلاث: عائشة، وحفصة وصفية ثلاثياً متميزاً عن الأخريات.

انقضى ما تبقى من السنة في غزوات روتينية تم بعضها بناء على طلب اليهود حلفائه الجدد في الشمال. وفي شهر ذي الحجة الحرام / آذار عام ٦٢٩ / كان قد حان الوقت للقيام بالعمرة وفقاً لما جاء في صلح الحديبية. كان برفقته هذه المرة / ٢٦٠٠/ حاجاً. وعندما وصلوا إلى المنطقة الحرام حول مكة أخلت قريش المدينة كما وعدت ليتسنى للمسلمين زيارة الأماكن المقدسة دون إزعاج. وقف زعماء قريش معاً على قمة جبل **أبو قبيس**، وأخذوا يشاهدون المشهد غير العادي كله في نشوة ورعب. كانت مدينتهم المقدسة تغص بحشد الحُجاج الضخم بملابسهم البيضاء، وعلى رأسهم محمد راكباً راحلته. كان الوادي يردد صدى صياحهم «لبيك اللهم لبيك». عندما وصل محمد إلى **الكعبة** ترجّل وَقَبّل الحجر الأسود وعانقه، ثم بدأ يطوف يتبعه الحجاج جميعاً. وركضوا سبع مرات بين **تلال الصفا والمروة** إكمالاً للطقس القديم، دون زيارة جبل عرفات ووادي مِنى.

لقد كانت تجربة غريبة جداً بالنسبة لمحمد والمهاجرين أن يعودوا إلى هذه المدينة المهجورة، ولابد أن مشاهدة قريش **لبلال** الحبشي الأسود الذي كان مجرد عبد في مدينتهم يصعد إلى أعلى الكعبة ويؤذن للصلاة ثلاث مرات يومياً، كان منظراً مرعباً. وفي هذه الأثناء أتى **العباس** عم **محمد** إلى المدينة لزيارة ابن أخيه، وعرض عليه **ميمونة** التي كان مُوَكلاً بها بعد أن ترملت مؤخراً عرضها عليه زوجة له، فقبلها محمد كي يحرض العباس على دخول دينه، ودعا قريشاً لحضور حفل زفافه. فكان هذا دفعاً للأمور إلى مسافة أبعد بكثير مما ينبغي فنزل سهيل من قمة الجبل ليخبر محمداً أن الأيام الثلاثة قد انتهت وأن عليه مغادرة المدينة حالاً. فغضب **سعد بن عبادة** ـ أحد الأنصار الذي كان مع محمد في هذا الوقت ـ لقلة الذوق هذه لكن محمداً أسكته حالاً: «لاتُؤْذِ قوماً زارونا في رحالنا[٣٦]». ويالدهشة قريش فقد غادر حشد الحجاج المدينة عند حلول الظلام منضبطين بشكل لايمكن أن يتصوره المكيون الذين أسهمت انقساماتهم وعدم انضباطهم في سقوطهم.

رأى بعض الشبان القرشيين في هذه العمرة التي كانت نصراً معنوياً هائلاً لمحمد، رأوا فيها فرصة للتأمل والتفكير وكان الناس يتناقلون أنباءها بلهفة في أرجاء الجزيرة. كانت مكة قد انتهتْ منذ تلك اللحظة. مزيد من البدو صاروا حلفاء لمحمد، ومزيد من شبان مكة هاجروا أيضاً إلى المدينة. وكان لهجرة اثنين منهم أهمية

خاصة وهما: **عمرو بن العاص وخالد بن الوليد** اللذان أصبحا أبرز المحاربين في **مكة** بعد **بدر**. لم يكن في وسعهما أن يبصرا مستقبلاً لهما في مكة. فكما قال خالد: «والله لقد استقام المنسِم (أي تبين الطريق ووضح -المترجم) وإن الرَّجُلَ لنبي، أذهبُ والله فأُسلِم فحتى متى؟»[٣٧]. بدا أن المساعدة الإلهية هي التفسير الممكن الوحيد للنجاح غير العادي لمحمد. ويقال إن عمراً وخالداً قد هاجرا سوياً، واستقبلهما الناس في المدينة مسرورين بقدومهما. كان خالد قلقاً من سجله الماضي، فقد كان قائداً في أُحُد وفي **الخندق** وكان مسؤولاً عن قتل مسلمين كثيرين، وكان خائفاً من الثأر. لكن محمداً أكد له أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وأن إسلامه كان بداية جديدة تماماً، وكان هذا مبدأً أساسياً في الأمة. فهذا المبدأ لايعني ولادة روحية جديدة فقط بل كان الطريقة الوحيدة التي بها استطاع الإسلام فرض السلام في الجزيرة.

كانت سنة ٦٢٩ سنةً **مظفرة لمحمد** لكنها كانت **سنة حزن** أيضاً. فقد توفيت ابنته **زينب** بعد وقت قصير من العمرة، وبعدئذ فقد فردينْ من أسرته في حملة إلى الحدود السورية، إذ كان قد حول اهتمامه إلى الشمال في السنوات الأخيرة من حياته. نحن لسنا متأكدين من الأسباب التي دعته إلى ذلك، لكن الوضع السياسي خارج الجزيرة كان يتغير بسرعة درامية. فكانت **فارس** و**بيزنطة** منشغلتين في حرب منهكة. في مطلع حياة محمد كانت قوة فارس تَزْجَح إذ غزت **سورية** وحاصرت **القسطنطينية**. ولأن هذا كان يهم القرشيين، فقد جعلهم ذلك يتساءلون عن موقفهم المحايد. في مرحلة تالية انقلب الأمر لصالح البيزنطيين. ففي سنة ٦٢٥ ـ أي سنة غزوة أُحُد ـ صدَّ هِرَقْل الفُرْسَ وبدأ بمهاجمة مناطقهم. فإذا ماصار بوسع محمد أن يحل محل الإمبراطورية المسيحية في عرب الشمال فإن ذلك قد يعني أنه أصبح قادراً على تحدي البيزنطيين والساسانيين. في السنوات الأخيرة بدا أنه كان يقوم بمحاولة لجعل وجوده على الحدود ملموساً وأن يسحب القبائل المسيحية في الشمال إلى الأمة، على الأسس نفسها التي تم بها ذلك مع المستوطنات اليهودية.

أرسل **زيداً** و**جعفراً** إلى الحدود السورية على رأس جيش كبير /٣٠٠٠/ مقاتل. تبقى هذه الحملة مغلفة بالغموض وقد ضاع الكثير من المعلومات الأساسية

عنها فأثناء مسير المسلمين كما يبدو علموا أن هرقل كان قريباً على رأس جيش تعداده /١٠٠,٠٠٠/ رجل، فقرروا الضغط مهما يكن من أمر. فتعرضوا لهجوم في قرية **مؤتة** ـ بالقرب من البحر الميت ـ شنه فصيل بيزنطي، فقتل **زيد وجعفر** وعشرة مسلمين آخرين فقرر خالد الذي كان يرافق الحملة أن يعود بالجيش.

عندما سمع محمد النبأ ذهب مباشرة إلى أسرتي زيد وجعفر، فوجد أسماء زوجة جعفر تخبز الخبز، فعلمت من ملامح وجهه أن شيئاً مرعباً قد حدث. طلب محمد أن يرى ولدي جعفر، فضمهما وبكى. وبدأت أسماء تبكي بصوت عالٍ وتندب بالطريقة العربية المألوفة، وأسرعت النسوة إليها. وقبل أن يغادر طلب محمد منهن الاعتناء بالأسرة وأن يجلبن لها الطعام خلال الأيام القليلة القادمة. وبينما كان يمشي إلى المسجد ركضت إليه ابنة زيد الصغيرة، ورمت نفسها بين ذراعيه فحملها ووقف هناك وهو ينتحب.

لانعرف تماماً ما السبب الذي دعا خالداً إلى العودة بالجيش طالما أن الإصابات كانت طفيفة نسبياً. وعندما وصل هو ومجموعته إلى المدينة كانوا محط سخرية مما دفع محمد إلى وضعهم تحت حمايته. وبعد شهر لاحق تمت استعادة الكرامة عندما قاد **عمرو بن العاص** حملة على قبائل الشمال التي بدا أنها كانت تحتشد على الحدود، فولت الأدبار.

كانت تلك السنة سنة سرور عظيم شخصي لمحمد، إذ يقال إن **مقوقس مصر** أرسل له فتاة جميلة جعداء الشعر هي **مارية** القبطية المسيحية، فاتخذها محمد خليلة له، وكان يزورها يومياً ليقضي عندها وقتاً طويلاً لأنه كان يجد عندها الراحة بعيداً عن غيرة الحريم. لم يجد أحد الأمر غريباً. فقد قدمت التوراة تبريراً للخليلة عندما كان الإسرائيليون في مرحلة مماثلة من التحول من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار. فقد اتخذ إبراهيم هاجر محظية له، وكان اسماعيل أبو العرب ثمرة ذلك الاتحاد، ولذلك ينبغي أن يبدو الأمر وكأنه بشارة خير عندما حملت **مارية**، وعندما ولدت سمّىَ ابنه منها إبراهيماً.

كانت النسوة غيورات ـ كما هو متوقع ـ من هذه النَّكِرَة الصغيرة التي كانت تحمل ابن النبي، فنظمت **عائشة وحفصة** احتجاجاً وتمرداً في (الحريم).. من الصعب

فهم الحادثة الغريبة التالية التي سببت أزمة كبرى قد يكون لها دلالات غير ماتوحي به الوقائع. فالقصة كما وصلتنا منسوبة إلى عمر الذي كانت آراؤه في النساء صارمة، إذ كان يعتقد أن الرجل يجب أن يشاهدهن ولايستمع إليهن، وشعر أن نساء المهاجرين كن يلتقطن عادات سيئة من نساء المدينة. لكن **محمداً** كان ـ على أية حال ـ أكثر ليونة وتساهلاً مع النساء. وذات يوم رُعب عمر لدى سماعه جلبة لاتنم عن حالة مألوفة صادرة من غرف محمد: كانت النسوة يتشاجرن على غنائم وصلت مؤخراً، وكن يطالبن **محمداً** بأن يعطي أسرته نصيباً أكبر من نصيب بقية الأمة. فنادى عمر محمداً وطلب منه الإذن بالدخول، وفي الحال عم الصمت. فعندما دخل وجد النبي يتملكه الضحك، إذ تراجعت النساء حالاً عندما سمعن صوت عمر واختبأن وراء الحجاب. فأشار عمر أنه من الأفضل أن تبدي النساء احتراماً للنبي ونعتهنَّ بأنهنّ عدوات أنفسهن إذ كيف يخفنَ منه ولايخفنَ من رسول الله؟ فأجابت إحداهن على تساؤله بأنه على عكس الرسول يتميز بالخشونة والغلظة[٣٨].

كان عمر قلقاً من كون ابنته حفصة خارج سيطرته، وأخبرها أن عليها أن تتحكم بغيرتها وقبول حقيقة أنها ليست جذابة مثل عائشة. لكن حفصة أثارت صخباً حول مارية القبطية الى درجة أن محمداً وعدها ألا يراها ثانية. تحت تحريض عائشة وحفصة كانت الزوجات الأخريات يتهكمن من ماريه، واستمر النزاع والمشادات بينهن، فاعتكف محمد عنهن لمدة شهر.

لكن هذا النزاع كان يعكس ـ على مايبدو ـ مشكلة في بقية الأمة. فبعد نصر خيبر استمتع المسلمون برخاء جديد. يذكر أن عائشة قالت إنه لم يكن لها أن تشبع من التمر قبل خيبر. لكن الثروة الجديدة خلقت مشكلات: فبعض المزارعين كانوا يتلهفون للتمتع بهذا الرخاء بينما بدأ آخرون يتآمرون على نصيب أكبر من الغنائم التي عادت من الغزوات،ويبدو أن أسرة محمد بدأت تطالب بالحصول على هبات خاصة كان يجب أن تذهب إلى الفقراء. كان محمد منشغلاً جداً بالآثار الأخلاقية التي بدأت تضعف خاصة بين الحريم. وتتجسد قصة انفصال محمد عن زوجاته الذي روع المسلمين، فأصبح حديث الساعة، تتجسد برواية عمر إذ أن شخصاً اندفع إلى منزله ومعه النبأ، قرع الباب بلهفة إلى درجة أن عمر ظن أن القبائل

الشمالية ضربت حصاراً حول المدينة فصاح الزائر بل الأمر أسوأ من ذلك: لقد هجر محمد جميع زوجاته.

لم تكن هذه أزمة أُسَرِيَّة فحسب، لأن لزيجات محمد تحالفات سياسية تم التخطيط لها بكل دقة. فقد تتأذى علاقته بعمر وأبي بكر إذا طلق ابنتيهما. فأصبح كل شيء في خطر بسبب شجار حفنة من النساء. ربما سبَّبَ الهياج الناجم عن نزاعات داخلية في المدينة تأثيراً على زوجات محمد لكننا لانعرف عنه شيئاً. ركض عمر مسرعاً إلى المسجد ليرى مابوسعه أن يفعل فرفض محمد أن يراه في البداية، وعندما أذن له في النهاية تذكر وهو ينظر فيما حوله في الغرفة الصغيرة البائسة التي لم يكن فيها شيء سوى أغطية غير مصبوغة. كان محمد مستلقياً دون غطاء على حصيرة، وآثار نسيج الحصير بادية على خديه. وزال الغم عن عمر عندما علم أنه لا ينوي طلاق زوجاته، وبصعوبة اعتصر من النبي ابتسامة حين سرد له صعوباته هو مع النساء منذ أن هاجر إلى المدينة. ويبدو من ذلك أن الرجال لم يعودوا قادرين على السيطرة على زوجاتهم. عندما استرخى النبي أخيراً جلس عمر قربه على الأرض، وسأله لماذا لم يعط الله رسوله القليل من أدوات الراحة البيتية فأباطرة بيزنطة وأكاسرة الفرس عاشوا في غنى فاحش. لكن محمداً ردَّ ساخراً بأنهم أخذوا سعادتهم في هذا العالم الفاني.

واليوم قد نجد في هذه القصة عناصر متزمتة مناهضة للمرأة. لكن يبدو أن القصة هي حول النزعة المادية المتنامية في الأمة أكثر مما هي عن الغيرة الجنسية. لقد هجر محمد زوجاته وابتعد عنهن شهراً ثم خيرهن: إما أن يقبلن بشروطه ويعشن حياة إسلامية محتشمة أو أن يسرحهن بمعروف. وهذا ما نلحظه في آية الخيار كما سميت، فلا ذكر لمارية أو لغيرة النساء فيها، بل نرى التأكيد على الموقف من الترف والسلع المادية:

> ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُن وأُسَرِّحكن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تُرِدْن اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخِرَةَ فإن الله أعدَّ لِلْمُحسِناتِ منكن أجراً عظيماً﴾[٣٩].

وافقت النسوة على هذه الشروط، ومن تلك اللحظة أصبحت زوجات النبي

أكثر أهمية في الأمة. فقد منحهن القرآن لقب أمهات المؤمنين، وأعلن أنهن يجب ألا يتزوجن بعد وفاة النبي لأن زيجات كهذه سوف تولد ذرية ومؤامرات تؤدي إلى شرخ الأمة. فبعد آيات الخيار يقدم القرآن صورة أكثر إيجابية للعلاقة بين الجنسين في الأمة، موضحاً أن الرجال والنساء يتقاسمون الواجبات والامتيازات الإسلامية في مجتمع تسوده المساواة:

﴿إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً[٤٠]﴾.

ربما تراجع المسلمون لاحقاً عن النظرة القرآنية للمساواة. لكن على الحركات النسائية الغربية ـ التي تشجب الإسلام بدعوى كراهيته للنساء ـ أن تضع في الحسبان أن التراث المسيحي كان سلبياً جداً تجاه النساء، فالعهد الجديد، يقدم أساساً رسالة إيجابية إلى النساء، غير أن الواقع هو أن الأنجيل لم يكن عبر القرون يحمل الأخبار الجيدة عن الجنس الآخر[٤١]. كانت الكراهية المسيحية للنساء عصابية غريبة لأنها كانت مبنية على رفض النزعة الجنسية وهذا ماتتفرد به المسيحية بين الأديان العالمية، وبالتأكيد ليست موجودة في اليهودية أو الإسلام. فليس عدلاً أن نلوم محمداً والإسلام بدعوى كراهيتهما للنساء. فإذا كانت المسلمات اليوم يرفضن بعضاً من الحريات التي نشعر أننا قدمناها لهن، فهذا ليس مرده إلى انحراف بل لأن النظرة الغربية للنساء والعلاقات بين الجنسين تعاني من إرباك شديد. إننا ندعو إلى مساواة النساء وتحريرهن لكننا في الوقت ذاته نستغلهن ونحط من قدرهن في الإعلانات والأفلام الإباحية والكثير من وسائل الترفيه العامة بطريقة يراها المسلمون شاذة ومهينة.

نحن نسمع عن مزيد من التوترات والتحزبات بين زوجات محمد أكثر مما نسمع عن الزوجات في الحياة اليومية، لكن من الخطأ أيضاً أن نتصور أنه لم يكن هناك حب أو سعادة. فعندما تلا محمد آيات الخيار على عائشة طلب منها أن تفكر جدياً قبل أن تتخذ قرارها، ونصحها أن تطلب رأي والديها، لكن عائشة نحّت

الاقتراح جانباً، ولم يكن عليها حتى أن تفكر به: لأنها اختارت الله ورسوله. لقد كانت شديدة الغيرة وكانت تتجسس أحياناً على محمد لتتأكد من أنه لم يكن يرى نساء أخريات. كان حمل مارية القبطية مزعجاً لها بشكل خاص. وهناك قصة محزنة تذكر كيف أنها طلبت من محمد أن يُكنِّيها مثلما كنَّى زوجاته الأخريات، فأطلق عليها أم عبدالله لأنها كانت على علاقة خاصة مع ابن أختها الصغير الذي كان اسمه عبد الله. وسنكون مخطئين إذا تخيلنا أن حياتها كانت تعِسة لدرجة لاتطاق. لقد كان محمد متسامحاً وشديد الطيبة مع عائشة أكثر مما كان والدها، الذي عرف عنه أنه كان يضرب بناته. ربما أصر محمد على أن تعيش زوجاته حياة تقشف. وتخبرنا عائشة أنه كان يساعدهن دائماً في أعمال المنزل اليومية، وكان يقوم بكل شيء بنفسه: كان يصلح ملابسه، وحذاءه ويهتم بشؤون العنزات. كان يحاول أن يعلّم المسلمين تبني مواقف أكثر احتراماً للنساء. وقد حفظت هذه الأحاديث في فترة كان يعتقد معظم الناس أن اهتمام النبي بشؤون المنزل يدعو إلى الاستهجان. ويوضح أن رسالته قد تم تلقيها إلا أن مسلمين مثل أبي بكر وعمر وجدا من المحال أن يغيرا أسلوبيهما.

لم يكن بوسع أي امرأة أن تملأ الفراغ الذي خلفه موت خديجة، لكن يبدو أن حياة محمد مع عائشة بثت الطمأنينة والبساطة. فقد تحداها ذات يوم في سباق وعندما فاز صاح منتصراً أنهما أصبحا متساويين الآن، مشيراً إلى المرة الأولى التي لم يستطع اللحاق بها حين كانت فتاة صغيرة وأما علاقتهما المنزلية فقد تميزت بدفء كبير. فقد كانت عائشة تحب أن تزيت شعره بعطره المفضل، وأن تغتسل في الوعاء الذي كان يغتسل فيه، وأن تشرب من الكأس التي كان يشرب منها نفسها. كانت تحب الاعتناء به أثناء مرضه مع أنها لم تكن تتورع عن إغاظته إذا ظنت أنه كان يتدلل. فذات يوم كانا جالسين معاً، وكان محمد منشغلاً بإصلاح خفه فأشرق وجهه لفكرة عابرة مرَّت في مخيلته، فلحظته وامتدحت تلك الفرصة السعيدة التي أضاءت محياه فنهض وقبلها على جبينها داعياً الله أن يجزيها خيراً لأنها تدخل البهجة والسرور على قلبه أكثر مما يستطيع أن يفعل من أجلها[٤٢].

كانت عائشة تتمتع بالجدية وشدة الذكاء. يُروى حديث عن النبي أنه أثناء غيابه عن المدينة كان يطلب من المسلمين أن يستشيروا عائشة في المسائل الدينية.

وبعد وفاته أصبحت مرجعاً هاماً فيما يخص السيرة والسنة. كان هذا مدهشاً حقاً عندما يتذكر المرء خلفاء مثل أبي بكر وعمر وعلي لم يشاركوا النبي في احترامه للنساء. ينسب إلى عائشة نحو /٢٢١٠/ حديثاً. ولكن البخاري ومسلم اللذين قاما بجمع الحديث لم يقبلا إلا مئة وأربعة وسبعين حديثاً لعائشة روتها عن النبي مباشرة. كان لها دور هام جداً في الاضطراب السياسي الذي حدث في مطلع الإمبراطورية الإسلامية، وقادت ثورة ضد علي أثناء خلافته. ان الإسلام لم يسحق النساء كما يميل الغرب إلى الاعتقاد، لقد وجد بعضهم أنه مكنهن من بلوغ مكانة كان يستحيل بلوغها في الجاهلية.

في نهاية السنة خرق المكيون صلح الحديبية، فقبيلة **بكر** بقيت حليفة لقريش لكنهما (بكر وقريش) كانتا منذ عقود عدوتين لدودتين **لخزاعة** التي انضمت إلى تحالف محمد. في شهر تشرين الثاني عام ٦٢٩ هاجمت إحدى عشائر **بكر خزاعة** ليلاً بشكل مباغت، ويبدو أن بعض القرشيين ساعدوها في ذلك بمدها بالسلاح، ويقال إن صفوان شارك في القتال، فثارت **خزاعة** حالاً، وحدث قتال بين القبيلتين في المنطقة المكية المحرمة، لذلك توجهت **خزاعة** إلى **محمد** فوافق على المجيء لنجدتها. لم يلبث بعض رجالات قريش أن ترددوا في موقفهم من بكر، لأنهم أدركوا أنهم أعطوا محمداً ذريعة لمهاجمتهم، لكن صفوان وعكرمة ظلا على تشددهما في عداوتهما لمحمد وتحديه، أما الآخرون ومن بينهم سهيل الذي كانت والدته من خزاعة، فقد اقترحوا التبرؤ من فعلة بكر. لقد كان لمحمد عيونه، ولمَّح إلى أصحابه ذات يوم أن باستطاعتهم توقع رؤية **أبي سفيان** في المدينة قريباً. يحتمل أن أبا سفيان بدأ يدرك منذ هزيمة الخندق أن الاستمرار في العداء لمحمد الذي أصبح صهره ـ بزواجه من أم حبيبة لم يعد مجدياً. وجاء توقع محمد في محله فلم يمض وقت طويل حتى وصل أبو سفيان إلى المدينة طالباً السلام، وهذا مالم يكن يُفكر به أحد قبل سنتين.

هناك قصص مختلفة حول مبادرة السلام التي جاء من أجلها أبو سفيان فيقال إنه زار ابنته كي يطلب منها استخدام نفوذها لدى محمد لكنها لم تسمح له حتى بالجلوس على البساط الذي كان يقف عليه. من المرجح أن هذا غير صحيح إذ أن محمداً لم يكن يسره هذا النوع من التبجيل في أثناء حياته. وأما الرواية الثانية فتقول

إن أبا سفيان طلب نصيحة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وهذا أمر مشكوك به أيضاً، لأنها تورد زيارته ومخاطبته الخلفاء الأربعة حسب ترتيبهم في الخلافة. لكن من المؤكد أن أبا سفيان لعب دوراً هاماً جداً في هذه الفترة. لم يكن باستطاعته الإقدام على إعلان إسلامه، لكنه أدرك أن النصر النهائي كان لمحمد حتماً، ولذلك يجب أن تحصل قريش [illegible] ـضل شروط [illegible] ممكنة. كان يحاول ـ هو وسهيل ـ انتشال المكيين من الصراع بإعلانهما عدم مسؤولية قريش عن بكر، مستخدمين الأسلوب الذي استخدمه محمد قبل سنة في قضية أبي بصير. لكن قريشاً كانت ضعيفة جداً الآن كي تقوم بذلك. واقترح علي بن أبي طالب على أبي سفيان أن يطلب من محمد الموافقة على تكريمه كمجير لأي من المكيين الذين يريدون الاستسلام لمحمد. فهذا سيمكنهم من حفظ ماء الوجه، ويصون حياتهم إذا ما فتحت مكة على يد المسلمين. وافق أبو سفيان على التفكير في الأمر وغادر إلى مكة حيث فعل الكثير كي يعد أفراد قبيلته لقبول ما لابد منه. بدأ محمد يستعد لحملة جديدة مناشداً الأمة وحلفاءها الانضمام إلى جيش المسلمين. لقد أبقى وجهة الحملة سراً لأسباب أمنية. في العاشر من رمضان الموافق كانون الثاني عام ٦٣٠ انطلق محمد على رأس أكبر جيش خرج من المدينة. فتطوع جميع الرجال في الأمة تقريباً، وعلى الطريق انضم إليهم حلفاؤهم البدو فوصل تعداد الجيش إلى عشرة آلاف رجل، دون أن يعرف أحد وجهتهم. كان ممكناً التأكيد على أنهم كانوا ذاهبين إلى مكة، لكن كان يحتمل أنهم سيهاجمون بعض القبائل الجنوبية أو مدينة الطائف التي كانت ماتزال معادية للإسلام. لقد خطرت تلك الإمكانية لقبيلة **هوازن** الجنوبية، التي بدأت تجمع جيشها الضخم في الطائف ـ مدينة اللات وأحد المراكز الوثنية عندما سمعت أن محمداً كان يسير نحوها، ومن الطبيعي أن تتوقع قريش الأسوأ. توسل **العباس** إلى القرشيين أن يحاولوا تفادي الكارثة:

> «واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر[٤٣]».

انطلق العباس ليلاً للانضمام إلى محمد، وعلى الطريق التقى أبا سفيان و**بُديلاً** زعيم **خزاعة** اللذين كانا أيضاً متوجهين إلى معسكر المسلمين وقد أمضى الثلاثة

ليلتهم هناك. وفي الصباح سأل محمد أبا سفيان إذا كان على استعداد لإعلان إسلامه فقال أبو سفيان إن بوسعه الموافقة على الجزء الأول من الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله ـ لأن الإلهات الوثنية قد أثبتن عدم جدواهن، لكن ما يزال لديه شكوك حول نبوة محمد. مع ذلك فقد صُدِمَ وتأثر عندما رأى جميع أفراد الجيش المسلم الضخم يوجهون أنفسهم باتجاه الكعبة أثناء صلاة الصبح. فعندما كان يراقب القبائل العديدة تسير بالقرب منه في طريقها إلى مدينته عند ذلك عرف أن على قريش أن تستسلم.

أسرع أبو سفيان عائداً إلى مكة، وصاح في الناس بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بقوة لاقِبَل لكم بها. ثم خيرهم الخيار الذي اقترحه عليه علي بن أبي طالب؛ أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. عند وصول جيش المسلمين، كانت زوجته هند تتلظى غضباً فأمسكت أبا سفيان من شاربيه وصاحت بالناس:

«اقتلوا الحَميتَ الدّسِم الأحمَس(*)، قُبِّح من طليعة قوم»(٤٤).

لكن أبا سفيان رجاهم ألا يستمعوا إليها، فوقت هذا التحدي قد انتهى. ولقد رأى جيشاً لا قبل لمكة به. كانت قريش تؤمن بالواقعية حتى آخر لحظة ولم تكن بالتأكيد تريد انتحاراً جماعياً في بلاد العرب. لذلك مضى القرشيون إلى منازلهم، وبقوا هناك كشعار لخضوعهم. بينما أرادت قلة قليلة أن تقاتل: عكرمة وصفوان وسهيل تجمعوا على جبل أبي قبيس ومعهم قوة صغيرة وهاجموا جناح خالد بينما كان يدخل المدينة لكن سهيلاً أراد أن يستسلم فمضى إلى منزله. دخلت بقية جيش المسلمين المدينة دون ضربة سيف واحدة. ونصبت خيمة محمد الحمراء قرب **الكعبة**. وهناك انضم إلى **أم سلمة وميمونة** اللتين رافقتاه مع **علي وفاطمة** وبعد أن استقر بهم المقام أتت **أم هانئ** ـ أخت **علي** ـ التي كانت متزوجة من وثني لم يهاجر متوسلة من أجل حياة اثنين من أقاربها شاركا في الحرب ضد خالد. فوعدها محمد بإبقائهما تحت حمايته مع أن علياً وفاطمة كانا يريدان إعدامهما. لم يكن لديه رغبة البدء بثارات دموية. يجب ألا يُكْرَه أحد علىاعتناق الإسلام، ولم يكن محمد يريد

(*) الحميت: زق السمن، الدسم: الكثير الورك، والأحمس هنا: الشديد اللحم والمقصود تشبيه الرجل بالزق لعبالته وسمنه.

إجبار الناس بشيء بل أن يقوم بمصالحة. لقد أتى إلى مكة لا ليضطهد قريشاً بل كي يلغي الدين الذي خيب آمالهم. فبعد أن نام قليلاً، وقف ثم توضأ وصلى، بعدئذ امتطى راحلته وطاف حول الكعبة سبع مرات ملامساً الحجر الأسود في كل مرة، وصائحاً الله أكبر وردد الصيحة وراءه نحو عشرة آلاف رجل، فكانت المدينة تردد صدى هذه الكلمات التي جسدت النصر النهائي للإسلام. بعد ذلك رأت قريش محمداً وهو يحطم /٣٦٠/ صنماً كانت تزدحم بها الشرفات والأسقف في الكعبة فحطمها الواحد تلو الآخر وهو يتلو الآية:

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً[٤٥]﴾.

كانت الجدران الداخلية للكعبة مزينة بصور الإلهات الوثنيات فأمر محمد بإزالتها كلها، وسمح ـ كما يقال ـ بإبقاء نقوش جدارية تشير للمسيح وأمه مريم البتول. وفيما بعد منع الاسلام استعمال أي نوع من الصور في العبادة لأن ذلك يشتت الذهن عن الله ويدفعه الى التفكير برموز بشرية محضة للمقدس.

كان بعض المكيين قد غامروا بالخروج من منازلهم، وشقوا طريقهم إلى الكعبة حيث انتظروا محمداً كي يغادرها. وقف أمام بيت الله، ورجاهم أن يقبلوا النهج الجديد، وعماده وحدة الأمة وأن يرموا عنهم كبرياء وعجرفة الوثنية التي لا تولد سوى الانقسام والظلم:

«يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خُلق من تراب.»

ثم تلا الآية:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير[٤٦].﴾

ثم أصدر عفواً عاماً، ولم يوضع على القائمة السوداء سوى عشرة أشخاص، من بينهم **عكرمة** (ولسبب ما لم يكن بينهم صفوان) وقد كان هؤلاء العشرة ممن نشروا دعاية معادية للمسلمين وألحق بعضهم الأذى بعائلة النبي. ومن طلب من هؤلاء المغفرة فقد أبقى الرسول على حياته.

لقد كانت سياسة حكيمة فمحمد كان يعرف ـ مثلاً ـ أن سهيلاً قد بلغ من الكبر عتياً، فقال:

«من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه،... لعمري أن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سُهيل جهل الاسلام»[*47] .

بعد أن ألقى محمد كلمته في الكعبة انسحب إلى جبل الصفا، ودعا المكيين إلى القسم على الإخلاص له وقبول سلطته السياسية. اصطفت قريش وتقدموا واحداً تلو آخر من محمد وكان عن يمينه وشماله عمر وأبو بكر. مرت امرأة محجبة، وعندما تكلمت عرفها محمد، إنها **هند** زوجة **أبي سفيان** التي كانت على اللائحة السوداء لأنها شوهت جسد **الحمزة** فقال لها **محمد**: «وأنك لهند بنت عتبة؟» فأجابته بجرأة «أنا هند بنت عتبة، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك». استمر محمد في طرح مبادئه، وحين اشترط أَلّا يَزْنَيْن أجابت هند «وهل تزني الحرة؟» ولما قال: «ولاتقتلن أولادكُنَّ» قالت: «قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم»[48]. ثم دخلت هند الاسلام وقالت لمحمد: «ليس لك بعد يارسول الله أن تؤاخذني بجريرة بعد إسلامي» صفح عنها النبي وقال لها: اذهبي فأنت من الطلقاء»[49]. وهكذا لم يمضِ كبير وقت حتى رأت زوجها وأبناءها يحتلون مراكز هامة في الأمة مكافأة لأبي سفيان، ثم أصبحت ذرّيته أي سلالة الأمويين، سلالة حاكمة.

توسل أقارب صفوان وعكرمة إلى محمد للإبقاء على حياتهما، فوعد أن بإمكانهما دخول المدينة بحرية شرط قبولهما بقيادته. فقررا العودة، فحيا محمد عكرمة بمحبة ومنع أي شخص من تسفيه والده أبي جهل. وأقسم صفوان وسهيل على الإخلاص لمحمد لكنهما لم يعلنا إسلامهما.

كان أحد الرجال الذين وُضِعُوا على القائمة السوداء ـ والذي خلدته رواية سلمان رشدي /آيات شيطانية/ تلك التي تصور النبي محمداً بارداً وقاسياً ومحباً

(٤٧*) ورد هذا الحديث في كتاب المغازي للواقدي وقد أشارت المؤلفة إلى أنها عثرت عليه في أحد الكتب، دون أن تذكر اسم الكتاب.

للانتقام، وهذا أبعد مايكون عن الحقيقية. كان ذلك الرجل هو **عبد الله بن سعيد** الأخ من الرضاع **لعثمان بن عفان** الذي هاجر عام ٦٢٢ لكنه لم يكن مؤمناً بوحي محمد كما يبدو. لقد أصبح كاتبه وقام ـ إما كاختبار أو دعابة ـ بتعديلات طفيفة في النص القرآني. فعندما تلا محمد «سميع عليم» كتب عبد الله «حكيم عليم». ولمّا لم يلحظ محمد هذه التفاصيل ارتد عبد الله، وهاجر إلى مكة حيث جعلت قريش من قصته رأس مالٍ لها: فالقرآن قد أخبر محمداً أن العواقب ستكون وخيمة إذا حاول تغيير النص القرآني لصالحه، ومن المحتمل أن إصراره على هذه النقطة يعكس وعي محمد لصعوبة الاحتفاظ بكمال رسالته: فهفوات طبيعية كانت أمراً ممكناً جداً. عندما علم عبدالله أن حكم الموت قد صدر عليه هرب إلى عثمان الذي أجاره إلى أن هدأت عاصفة الفتح. بعدئذ أحضره إلى النبي وطلب له الرحمة. ويقال إن النبي بقي صامتاً فترة طويلة قبل أن يرفع حكم الموت، ونبه لاحقاً أصحابه ألا يعتبروا صمته فرصة لقتل عبد الله(*). وبعد شطب اسمه من القائمة السوداء أصبح عبد الله مسلماً ثانية، وشغل مركزاً رفيعاً في الإمبراطورية الإسلامية بعد النبي.

كان فتح مكة هو النصر النهائي /الفتح/ وكان انتصار بدر والحديبية مجرد أمر تمهيدي له. لقد أصبحت كلمة الفتح تدل على هزيمة مدينة وفتح باب جديد للإسلام ومن ثم صارت مصطلحاً رسمياً يطلق على فتوح البلدان. لقد أثبت محمد صدق دعواه النبوية في فتح مكة، وتحقق هذا الفتح دون سفك دماء، فأثمرت سياسة محمد السلمية وخلال سنوات قليلة كانت قد ماتت الوثنية تماماً في مكة،

(*) تتضارب الآراء حول مغزى صمت الرسول فبعضهم يقول إن الرسول عنى بذلك قتله وبعضهم الآخر رأى أن الرسول لم يعنِ قتله. وقد ذكر الطبري في «تاريخه» أن الرسول (ص) سمّى نفراً وأمر بقتلهم حتى «إن وجدوا تحت أستار الكعبة» وكان من بينهم عبد الله بن سعد الذي كان أخاً لعثمان بن عفان من الرضاع وأن عبد الله هذا لجأ إلى عثمان الذي استأمن له رسول الله (ص) الذي صمت طويلاً ثم قال: نعم، فلما انصرف به عثمان، قال رسول الله لمن حوله من أصحابه. أما والله لقد صمتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه».

وأصبح بعض من ألد أعداء محمد مثل عكرمة وسهيل مسلمين مخلصين.

لم يكن أمام محمد فسحة زمنية كي يستمتع بانتصاره لأنه سمع أن **هوازن** قد حشدت جيشاً في الطائف. فأرسل **خالداً** إلى نخلة لتدمير تمثال **العُزّى** هناك، وبعد ذلك أرسل علياً لسحق مقام **مناة في هديل**. لكن ثقيفاً وحلفاءها صمموا على أن **اللاّت** يجب ألا تلقى المصير نفسه، فاجتمع نحو عشرين ألف رجل للدفاع عنها. لقد كانت لحظة خطرة قد يضيع فيها كل شيء. إلاّ أن قريشاً التي كانت قد هزمت حديثاً كانت مستعدة أن تحارب إلى جانب محمد، فالطائف وهوازن أعداء قدامى. فخلال ليلة أصبح محمد فاتح مكة بطل المدينة. التقى الجيشان في وادي **حنين** في نهاية شهر كانون الثاني عام ٦٠ أي بعد أسبوعين من الفتح. كادت أن تحل الهزيمة بالمسلمين لكنهم شنوا هجوماً جديداً في اللحظة الأخيرة فهرب الجيش المعادي، اختبأ البعض بين التلال، والتجأ آخرون إلى المدينة المسورة الطائف. حاول محمد حصار المدينة لكنه أدرك أنه لن يهزمها هذه المرة فانسحب.

كان توزيع الغنائم بعد معركة **حنين** عملاً هائلاً، وسبّب توتراً داخل الأمة. لقد أعطى **النبي** أبا سفيان وصفوان وسهيلاً نصيب الأسد على أمل أن يكسبهم، وبالفعل فقد أسلم صفوان حالاً: «ماطابت نفسُ أحد بمثل هذا إلاّ نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»[٥٠]. وأسلم سهيل كذلك، فقد كان دائماً رجلاً متديناً، فأصبح المسلم الأكثر حماسة من بين المسلمين الجدد. كان طبيعياً أن يشعر أتباع محمد المخلصين وخصوصاً الأنصار بالغبن لهذه المحاباة الظاهرة. وراودهم التفكير في أنه ما إن يلتئم شمل محمد على قريش حتى يتخلى عنهم وينساهم على الرغم من أن الأوس والخزرج قد آووه عندما كان مجرد لاجئ بسيط، وأن محاباته لدليل على ذلك. إلا أن محمداً أنقذ الموقف بكلمة مؤثرة اعترف فيها أن سكان المدينة قد وقفوا إلى جانبه، ووعد أن تكون المدينة مقراً له حتى نهاية حياته. ثم خاطبهم:

> **«أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُم وَلَصَدَقْتُم، أتيتنا مُكَذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك،**

أوجَدْتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعَة من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليُسْلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاةِ والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحالكم! فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً، وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعْبَ الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناءَ أبناءِ الأنصار»

فبكى الأنصار حتى أخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[٥١].

آنذاك ـ على الأقل كان الأنصار راضين، وبعد أن وزع الغنائم، وتلقى خضوع وولاء هوازن وتجميع جيشه قام محمد بالعمرة وعاد إلى المدينة.

في النظام القبلي القديم كانت كل جماعة تسعى من أجل الحفاظ على توازن القوى. لقد حاولت أخلاقيات الدية ضمان ذلك. فإذا ما قتل فرد من قبيلة، سيتم إضعاف قبيلة القاتل إلى الحد نفسه تقريباً. لكن محمداً أصبح في تلك الفترة قوياً جداً ولم يعد يقيده النظام القبلي، فجلب هذا درجة من السلم إلى الجزيرة. كان أمام القبائل الرحل خيار التحالف مع محمد أو أن تصبح لعبة جميلة أمام الأمة المتنامية هي وحلفاؤها. خلال السنتين التاليتين توالى وصول المبعوثين إلى المدينة. كان عليهم أن يَعِدوا بتحطيم أصنامهم، وتقديم المقاتلين عند الطلب، وألا يهاجموا الأمة وحلفاءها، وأن يدفعوا الزكاة. أصبح بعض البدو الرحل مؤمنين مخلصين، بينما بقي آخرون أوفياء في قلوبهم لدينهم القديم، وكان محمد مدركاً تماماً لهذا. وهنا أيضاً لم يحاول فرض عقيدة لاهوتية عنوة على أمل أن يؤدي الخضوع السياسي في النهاية إلى خضوع ديني للإسلام. لقد تمكن محمد وحده تقريباً من فرض السلام الإسلامي.

كان القتال والحملات الحربية جزءاً من طريقة العرب في الحياة، وكانت عادة الغزو في طبعهم. لقد أدرك محمد أنه إذا كان للسلام الجديد ألا يضمحل فإن عليه أن يحاول إيجاد دافع خارجي وأن يحافظ عليه فأصبحت قبائل كثيرة أعضاء في

الأمة أو من حلفائها، وكان ذلك خارج حدود الفاتحين المسلمين. لقد حاولوا تنظيم طاقاتهم في قنوات في هجوم علىالقبائل الشمالية التي بقيت معادية. لقد حدث شيء مماثل في **أوروبا المسيحية** خلال القرن الحادي عشر عندما كانت الكنيسة تبذل سعيّها لمنع الفرسان والبارونات من مهاجمة بعضهم، فحاولت وبوسائل شتى تحقيق ما أسموه السلام الالهي. ومن أجل ذلك حث البابا **أوربان الثاني**، عام ١٠٩٥ في مجلس **كليرمونت**، المسيحيين على الاتحاد ضد عدوهم المشترك في الأرض المقدسة، ودعا إلى الحملة الصليبية الأولى ضد «الكفار» المسلمين: **كي يسود سلام الله في الغرب، وتقوم حرب الله في شرق المتوسط.**

في شهر تشرين الأول عام ٦٣٠ أعلن محمد عن حملة جديدة إلى الحدود، إلى بيزنطة. أعلن الأمر خلافاً لعادته كي يتسنى لرجاله القيام بالترتيبات الملائمة لهذه الرحلة الطويلة. لانعرف بالضبط لماذا أصر محمد على القيام بهذه الحملة التي لم تكن مألوفة أبداً. كان الطقس حاراً، وحان موعد قطاف النخيل، وكان لدى المسلمين تخوف مُبَرَّر من الجيش البيزنطي. من المحتمل أنه كان قد بدأ فعلاً بالتخطيط لفتح سوريا وفلسطين. ربما أراد ـ بكل بساطة ـ الانتقام لهزيمة مؤته، وترسيخ أقدامه وجعل مواقعه أكثر أمناً من جهة الشمال. بدأ معظم المسلمين الاستعداد للحملة، فتجمع عدد كبير، ورفض بعضهم الذهاب، بينما كان المنافقون قد امتنعوا عن الخروج وكان هذا متوقعاً منهم، واعتذر بعض الحلفاء البدو، وفضل بعض المسلمين البقاء كي يحرثوا نخيلهم ويكسبوا المال، وكان من بين المسلمين

(*٩) ذكر ابن اسحاق في سيرته أن رسول الله (ص) خلَّف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة، أخا بني غفار، فأرجف المنافقون بعلي بن أبي طالب وقالوا: ماخلَّفه إلا استثقالاً له. فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليٌ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو بالجرف فقال: يانبيّ الله؛ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني؛ أستثقلتني وتخفَّفت مني! فقال كذبوا، ولكني إنما خلفتك لما ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك؛ أفلا ترضى ياعليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلاَّ أنه لانبي بعدي! فرجع علي إلى المدينة. وقد أثبت الطبري هذه الرواية. (الناشر)

الذين بقوا في المدينة علي بن أبي طالب مع أن المصادر تزعم بكل إخلاص أن محمداً هو من طلب إليه البقاء كي يهتم بشؤون الأسرة أثناء غيابه(*). بعد ذلك انطلق نحو من /ثلاثين ألف مقاتل/ في مسير قاسٍ شمالاً، وبقي نحو تسعين شخصاً في المدينة. ربما كانوا يبغون التآمر على النبي. إذ كان من الطبيعي أن يحز في نفوسهم وهم يرون ألقاب الشرف وأنفس الهدايا تنهال على رجال من أمثال أبي سفيان، بينما تم تناسي الأنصار والمهاجرين تماماً. غالباً مايصبح الأوائل مشكلة في أية حركة، إذ أنهم يبقون متشبثين بالنزعة المثالية الأولى للحركة، وينظرون بغير رضا إلى أولئك الذين أجبروا ـ ربما بدوافع انتهازية تافهة ـ كي يصبحوا تلاميذ آخر النهار. لقد خلق محمد وعن إدراك منه مناخاً ساعد أعداءه القدامى كي يفكروا بالإسلام بطريقة أكثر إيجابية، لكن هذا كان يعني أن لديه مشكلة في موطنه. فأصبح السخط جلياً حتى بين الذين انضموا إلى الحملة. فَعَمَّ التذمر في معسكر بن أُبَيّ، فكان بعضهم يتكلم غيبة عمداً، وآخرون يغمغمون بشكل مبطن: انها لحماقة مواجهة الجيش البيزنطي القوي. وعندما كان محمد يسأل عما كانوا يتكلمون كانوا يجيبونه ألا إننا نتمازح ونتحدث فقط يا رسول الله، إلا أن القرآن يوضح أن النبي كان عارفاً بما كانوا يقولون(٥٢). وفي هذا جاء في القرآن:

﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾.

وصل الجيش إلى تبوك التي تبعد نحو /٢٥٠/ ميلاً إلى الشمال الغربي من المدينة، بقي محمد هناك عشرة أيام. فلم يكن بقاؤه مأثرة هزيلة على عتبة بيزنطة بجيش كبير كهذا، ولابد أن البدو في تلك المنطقة قد تأثروا بذلك، فأخذ يعقد معاهدات مع الحكام المحليين. ومنهم ملك **أيلة** (ميناء إيلات في فلسطين المحتلة) المسيحي **يُحَنَّةُ بن رُؤْبة** الذي دفع له الجزية، وكذلك فعلت ثلاث مستوطنات يهودية في **جرباء** و**أَذْرُح** على ساحل البحر الأحمر. كما أرسل خالداً على رأس قوة صغيرة إلى **أُكَيْدِر دُومة** (وهو أكيدر بن عبدالملك) فعقد **محمد** معه اتفاقية سلام. لقد كان ذلك نجاحاً متواضعاً لكنه كان هاماً، فابتهج محمد وصار أكثر ثقة وهو في طريقه إلى موطنه. صمّم أن يقضي على المعارضة في معسكره بعد أن قام بتلك

البداية الواعدة للدولة المدينية (من كلمة المدينة) في العالم الخارجي، لكن التذمر والتفرقة استمرا في أثناء العودة باتجاه الموطن. ففي مرحلة يبدو لنا أنه كانت هناك محاولة لدفع النبي من أعلى جرف صخري. وفي النهاية وصل سالماً إلى ماقبل المدينة بمسافة قصيرة. فقبل مغادرته الواحة طلب منه أن يبارك مسجداً جديداً في **أوان**(*) فوعد أن يباركه وهو في طريق عودته. ويبدو أنه كان لديه سبب يدعوه إلى الاعتقاد بأن المسجد كان مركزاً للتمرد: ويشير القرآن إلى أن الذين بنوه قد أعادوا علاقات مع بعض أعداء محمد القدامى الذين لم يتصالحوا معه بعد نجاحه(٥٣*). فقبل دخوله المدينة أرسل محمد رجلين إلى **أوان** كي يضرما النار بالمسجد، وفي صباح اليوم التالي: أجرى تحقيقاً في سلوك الذين تخلفوا في المدينة، فقدم معظمهم أعذاراً قوية لكن فرضت المقاطعة على ثلاثة منهم طوال شهرين تقريباً.

يبدو أن هذا قد أنهى المعارضة الإسلامية، ولم يمضِ وقت طويل على عودته من **تبوك** حتى وقف بالقرب من قبر عدوه القديم ابن أُبَيّ كدليل على الاحترام والمصالحة. كما شهدت تلك الفترة نهاية المعارضة الوثنية. في كانون الثاني عام ٦٣١ اضطرت الطائف ـ المعقل الوثني الحصين ـ إلى الاستسلام، أي بعد مرور سنة على حصار محمد لها، إذ كانت **هوازن** قد أصبحت حليفة محمد بعد حُنَيْن، لذلك أصبحت الطائف معزولة، ويعاني سكانها من الضيق حتى أصبح وضعهم مستحيلاً. توسل المبعوثون من الطائف إلى محمد طلباً لشروط خاصة. كانوا تجاراً يسافرون كثيراً فأرادوا السماح لهم النوم مع نساء غير زوجاتهم في رحلات عملهم.

(*) أوان: بلد بينه وبين المدينة ساعة وكان أصحاب مسجد الضِّرار في هذا البلد قد أتوا الرسول وهو يتجهز إلى تبوك وطلبوا الى الرسول ان يباركه لهم بالصلاة فيهم فقال لهم: «إني على جناح سفر، وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه». فلما نزل بزي أوان أتاه خبر المسجد فأمر مالك بن الدخشم ومعن بن عدي أن يذهبا الى المسجد ويحرقاه ففعلا وفيه نزلت الآية: **«والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين»**... (الناشر)

(٥٣*) ـ السورة ٩ التوبة، الآية: ١٠٨ .

لقد رأى بعضهم أن المسلمين المتمردين كانوا على اتصال مع أبي عامر الموحد المعروف باسم (الراهب) الذي رحل إلى مكة بعد وصول محمد إلى المدينة.

وأرادوا كذلك شرب الخمرة من بساتين كرمتهم، وفوق كل شيء توسلوا أن يسمح لهم الإبقاء على مقام **اللات** لسنوات قليلة قادمة، وفي النهاية لسنة واحدة فقط. إلا أن محمداً رفض كل مطالبهم، ولم يقدم سوى تنازل وحيد هو ألا يدمروا اللات بأنفسهم وبالتالي يثيرون سخط قومهم، لذلك أرسل محمد أبا سفيان إلى الطائف لتدمير الإلهة نيابة عنه.

لقد كانت هذه حركة رمزية، لأن أبا سفيان قد حارب خمس سنوات وخاض المعركة واسم اللات على شفتيه، لقد كانت إشارة أكيدة إلى أن الوثنية قد انتهت. لقد خدمت العرب جيداً لكنها أخفقت في مساعدتهم على التكيف مع حياة الاستقرار ومع متطلبات القرن السابع الجديدة. وكانت ديناميات التغير الاجتماعي الداخلية الآن في صف محمد الذي حقق إنجازات خارقة. إنه لم يعتمد فقط على الوحي الإلهي بل وفقاً للمنطلق القرآني ـ استخدم كل مصادره الطبيعية، وعبقريته الشخصية الكبيرة حتى تمكن من الظفر ومواجهة عصره. لكنه في عام ٦٣١ كان قد أصبح عجوزاً وبدأت صحته تتراجع: فهل ستحتمل الأمة موته؟

الفصل العاشر

وفاة النبي

قامت الجماعة الإسلامية بأول خطوة لها باتجاه السلطة السياسية عندما قام محمد بالهجرة عام ٦٢٢ . وبعد عشر سنوات لاحقة كان المسلمون قد سيطروا على كل الجزيرة العربية تقريباً، وأرسوا الأسس الجديدة لحكم عربي مكنهم فيما بعد من إدارة إمبراطورية ضخمة لمدة تزيد على أكثر من ألف عام. كان هذا النجاح السياسي يتضمن توتراً مستمراً وجهداً. فقد أظهرت السنوات العنيفة في المدينة مقدار صعوبة وخطورة تحمل مسؤولية إعادة بناء مجتمع إنساني وفقاً لخطة الله. لقد خبر محمد مشقة ترجمة كلمة الله غير المنطوقة إلى لغة بشرية، بدت أحياناً أن عليها أن تتصدع وتتشظى تحت التأثير الإلهي. إن الصراع من أجل تجسيد كلمة الله في مجتمع إنساني أخذ المسلمين إلى حدود احتمالهم وفهمهم، وقد بلغوا أحياناً حد اليأس وأوشكوا على التخلي عن محمد كلياً. إلا أن نجاحه قد أثبت بلا جدال أنه أفضل مدافع عن سياساته الغريبة المثيرة للجدل: فعندما اتخذ قرار القتال في بدر وطرد أو ذبح القبائل اليهودية، أو عقد معاهدة الحديبية لم يكن ملهماً مباشرة من الله بل كان عليه أن يطلب المساعدة والنصيحة وأن يستخدم فطنته الأصلية. لم يكن القرآن يتوقع من المسلمين التخلي عن إدراك ماهو عامّ طبيعي أو الجلوس وانتظار أن ينقذهم الله بمعجزة. لقد كان الاسلام ديناً عملياً وواقعياً، فالذكاء البشري والوحي الإلهي يعملان بانسجام جنباً إلى جنب. في سنة ٦٣٢ بدا وكأن إرادة الله على وشك الانتصار في الجزيرة. فمحمد لم يجلب فقط للأفراد رؤية شخصية جديدة تحمل الأمل بل أخذ على عاتقه مهمة تحرير التاريخ البشري وخلق

مجتمع عادل يُمَكِّن الرجال والنساء فيه من تحقيق طاقاتهم الكامنة الحقيقية. لقد أصبح للانتصار السياسي مكانة توازي منزلة القربان لدى المسيحيين. كان آية خارجية لحضور الله الخفي بينهم. فالنشاط السياسي يعتبر مسؤولية مقدسة، والنجاح اللاحق للإمبراطورية الإسلامية أصبح آية على أنه باستطاعة الجنس البشري كله الخلاص.

بدلاً من التجول بهيئة لا دنيوية في تلال الجليل مبشراً وشافياً مثل يسوع الأناجيل، كان محمد منخرطاً في جهد سياسي قاسٍ لإصلاح مجتمعه، وكان أتباعه محل ثقة لمتابعة هذا الصراع. فبدلاً من تكريس كل مساعيهم من أجل إعادة حياتهم الشخصية ضمن ظرف السلم الروماني مثلما فعل المسيحيون الأوائل، فقد أخذ محمد وأصحابه على عاتقهم تحرير مجتمعهم، ولولا ذلك لما كان هناك تقدم روحي أو أخلاقي. إن القرآن واضح حيال أن المصير الفردي ذو أهمية كبيرة، وله الأولوية على واجبات المسلم الاجتماعية. فالتاريخ والنشاط السياسي ليسا غاية بحد ذاتهما بل مشوبان وموصَّفان بنظام إلهي متسامٍ. فمصير الفرد الأبدي أكثر أهمية من الإصلاح الاجتماعي، وهذا ما توضحه الرمزية القرآنية ليوم الحساب، وجهنم، والسماء. إن القرآن في هذا الأمر ـ يستجيب مع الروح الجديدة للنزعة الفردية التي كانت قد بدأت تجعل نفسها محسوسة في الجزيرة، وتشريعه الاجتماعي يعكس هذا الاهتمام. فعلى الرغم من انهيار النظام القبلي فإن المثل العليا الجماعية كانت ماتزال معيارية، ولم يستطع محمد تجاهل هذه الحقيقة، وتقديم نزعة فردية قوية ترضي مثلنا الليبرالية العليا الغربية الحالية، لكنه خطا في ذلك الاتجاه. ومع ذلك لم يكن بالإمكان تحقيق خلاص الفرد إذا استمرت حلقة سفك الدم اللامتناهية والاستغلال في الجزيرة، فلابد لمجتمع فاسد أو منحل، أن يُوَلِّدَ اللاأخلاقية والانحراف واليأس في جميع الأفراد ماعدا الأبطال الحقيقيين منهم، ومن هنا فقد كانت ظروف القرن السابع في الجزيرة تتطلب خطة خلاص إجتماعي وفردي أيضاً.

لقد استطاع محمد أن يخلق مجتمعاً في المدينة، مجتمعاً قوياً ومستقلاً عن الفوضى المحيطة به. فبدأت مجموعات قبلية أخرى الانضمام إليه علماً أنهم لم يكونوا ملتزمين جميعاً بهذه الرؤية الدينية. ولكي يُكْتَب للأمة البقاء كان لابد من

أن تكون قوية وقادرة، علماً أن هدف محمد الأساسي لم يكن القوة السياسية بل خلق مجتمع خيّر.

جاء نجاح محمد ليؤكد الاشارة القرآنية بأن المجتمعات التي رفضت الترتيب الإلهي قد كتب عليها الهلاك، لكن الصراع لم يكن قد انتهى بعد. يُقال إنه عندما عاد المسلمون من تبوك وضع بعضهم سيوفهم جانباً، فأخبرهم محمد أن القتال لم ينته وأن عليهم أن يستعدوا لمهمات جديدة. ان التحدّي لتحقيق إرادة الله في التاريخ البشري لن ينتهي أبداً: فهناك دائماً مخاطر ومشكلات جديدة يجب التغلب عليها. أحياناً يجب على المسلمين أن يقاتلوا، وأحياناً أخرى يمكنهم العيش بسلام. لكنهم انطلقوا في مشروع تحرير التاريخ والفرد، لتحويل مايجب أن يكون إلى حقيقة واقعة حية في العالم. ولايزال المسلمون حتى يومنا هذا يأخذون هذه المهمة بجدية كبيرة.

لقد أوضح خضوع الطائف أن عرباً كثيرين كانوا مترددين في اعتناق الدين الجديد، وكان ولاء الحلفاء من البدو لمحمد سطحياً ومع ذلك كانت لديه نواة من مسلمين متفانين، لم يكونوا يفهمون دائماً ما الذي كان يفعله إلا أنهم أثبتوا لاحقاً أنهم قد استوعبوا الرسالة الأساسية. لقد أصبح **أبو بكر وعمر وعثمان** جزءاً من أسرة النبي عن طريق الزواج وقد أكدوا قرابتهم الروحية منه. لقد فهموا أن الدين كان أولوية. كان على العرب أن يصلحوا أنفسهم بتطبيق أركان الإسلام التي علمتهم أن يضعوا الله في مركز حياتهم، وأن يعتنوا بأفراد المجتمع الضعفاء.

وأما التلميذ الرابع والمقرّب من محمد فهو وصيه **علي** الذي كان أصغر سناً من الباقين وكان يتذمر أحياناً من هؤلاء الأكبر سناً. وبحلول عام ٦٣٢ كان الوحيد ممن تبقى من سكان بيت محمد مباشرة. كانت **أم كلثوم** قد توفيت خلال حملة تبوك، وكانت فاطمة هي الإبنة الوحيدة من خديجة التي بقيت على قيد الحياة. كان محمد يحب حباً شديداً ولدي **علي الحسن والحسين**، فكان يلاعبهما ويدعهما يصعـــدان على ظهـــره . كان لدى محمد ابن رضيع جديد من خليلته مارية المصرية، إبراهيم الذي كان يحمله ويدور به في أنحاء المدينة. لكن عائشة لم تبد مودة إزاءهُ وحين كان محمد يسألها «ألا تعتقدين أنه يشبهني؟» كانت تجيبه «لاأرى فيه شبهاً منك»، وعندما قال لها انظري إليه كيف أن جسمه ممتلئ وكم سحنته

جميلة. كانت تجيبه ساخرة «أي طفل يتغذى على حليب الغنم لابد أن يصبح ممتلئ الجسم وجميلاً»[1]. لعلَّها كانت غاضبة لأن ذلك الحليب الخاص كان يقدم يومياً إلى أم إبراهيم. مرض الطفل في عام ٦٣٢ وكان واضحاً أنه لن يشفى على الرغم من العناية به، وكان محمد حاضراً عندما توفي ولده فبكى بكاء مراً، وأخذه بين ذراعيه حتى اللحظة الأخيرة، فعزّى نفسه أنه لن يمضيَ وقت طويل حتى يجتمع به.

أصبح مدركاً لموته الوشيك خلال السنة العاشرة للهجرة. كان دائماً يحب الاعتكاف خلال رمضان إذا كان قادراً على قضائه في المدينة، وفي تلك السنة طلب من أصحابه أن يجعلوا الاعتكاف أطول من المعتاد، وأكد لابنته **فاطمة** أنه كان يعتقد أن منيته قد دنت.

في شهر ذي الحجة، شهر الحج تراثياً، أعلن النبي أنه سيقود قافلة الحج بنفسه تلك السنة. كانت المرة الأولى التي أُدِّيت فيها الشعائر القديمة حول الكعبة والمقامات المقدسة حول جبل عرفات، أداها عابدو الله الواحد فقط. لقد كان محمد مصمماً على تجذير هذا الدين الجديد في تراثات العرب المقدسة القديمة (الديانات التوحيدية القديمة). فانطلق في نهاية شهر شباط عام ٦٣٢ مع زوجاته جميعاً وحشد ضخم من الحجاج، فوصلوا ضواحي مكة في الخامس من ذي الحجة الموافق للثالث من آذار. بدأ النبي بالصيحة التراثية «لبيك اللهم لبيك»، ثم بدأ يقودهم عبر الطقوس الوثنية المقدسة التي كانت عزيزة جداً على قلوب العرب معطياً إياها أهمية جديدة بينما كان يؤكد على استمرارية إبداعية وأساسية مع الماضي.

ينبغي على كل مسلم قادر القيام بالحج مرة في العمر وقد تبدو هذه الشعائر لشخص من الخارج غريبة شاذة ـ تماماً مثلما تبدو أية طقوس دينية أو اجتماعية أخرى ـ لكنها ماتزال قادرة على إلهام تجربة دينية مركزة، وغالباً مايجد المسلمون الحج ذروة حياتهم الروحية سواء كانوا أفراداً أم أعضاء في الأمة. فالجوانب الجماعية والفردية في الروحانية الإسلامية مقدسة تماماً في شعائر وطقوس الحج. في أيامنا هذه يجتمع الآلاف من الحجاج كل سنة في مكة وقسم منهم ليسوا عرباً، لكنهم قادرون على جعل هذه الشعائر العربية القديمة شعائرهم هم. ومع دورانهم حول الكعبة بلباس الإحرام التراثي الذي يزيل كل الفوارق العرقية والطبقية فإنهم يشعرون

أنهم قد تحرروا من عيوبهم الأنانية في حياتهم اليومية، ويشعرون أنهم انخرطوا في جماعة، تركيزها في بؤرة واحدة، ولها توجه واحد. وهذا الطواف حول الكعبة هو ما ألهم الفيلسوف الإيراني **علي شريعتي**:

> «وحين تطوف وتقترب من الكعبة أكثر يتملكك شعور أنك كجدول صغير يندمج بنهر كبير. تحملك موجة فتفقد ملامسة الأرض، وفجأة تجد نفسك محلقاً وقد حملك الطوفان. وبينما تقترب من المركز فإن ضغط الحشود يعصرك بقوة بحيث تشعر أنك قد ولدت من جديد. إنك الآن جزء من الأمة. إنك الآن إنسان حي وخالد.. الكعبة هي شمس العالم التي يجذبك وجهها إلى مدارها. لقد أصبحت جزءاً من هذا النظام الكوني. إن تطف حول الله فإنك ستنسى نفسك حالاً... لقد تحولت إلى جزيء يذوب ويتلاشى تدريجياً. هذا هو الحب المطلق في ذروته»[٢].

لقد شدد اليهود والمسيحيون كذلك على الروحانية الجماعية: صورة جسد يسوع الموسعة التي قدمها القديس بولس تقول إن وحدة الكنيسة هي جماعية أفرادها، هي إلهام بأعلى درجات الحب. وكذلك الحج يقدم لكل فرد مسلم تجربة التكامل الشخصي في الأمة التي مركزها هو الله.

بمعنى من المعاني يعطي الحج المسلمين صورة عن الجماعة المثالية في الموقف والتوجه. فالسلام والانسجام هما موضوعان يتعلقان بالحج وهما هامان في معظم الأديان، ما إن يدخل الحجاج المنطقة الحرام حتى تمنع كل أشكال العنف: فلا يسمح لهم بقتل حتى حشرة، أو التفوه بكلام ينم عن غضب. ومن هنا جاء سخط العالم الإسلامي عندما خُرِقَت شعائر الحج عام ١٩٨٧ بالتظاهرات التي قام بها الحجاج الإيرانيون وقتل فيها /٤٠٢/ شخصاً وجرح /٦٤٩/ آخرين.

يتحدث القرآن باستمرار عن العودة إلى الله التي ستقوم بها جميع المخلوقات، فالحج هو تعبير قوي عن الرحلة الطوعية التي يقوم بها المسلمون إلى الله، المصدر الذي أتوا منه. وتذكرهم صيحة الحج التي يطلقونها بانسجام أنهم كأفراد وأمة قد نذروا أنفسهم كلياً إلى خدمة الله، ويستطيعون عيش هذا الالتزام طوال أيام الحج بتركيز أعلى من المعتاد مديرين ظهورهم إلى جميع المشاغل الأخرى. حقيقة أن



الحجاج من الأنصار والبدو الذين قادهم محمد إلىالكعبة في عام ٦٣٢ لابد أنهم جميعاً قد شعروا أن تلك الرحلة كانت رحلة عودة بمعناها العميق. إن معظم الحجاج إلى الأماكن المقدسة يعتبرون الحج نوعاً من الاقتراب من جذور وجود المرء، أو من بداية العالم، ولابد أن المهاجرين شعروا بإحساس خاص: العودة إلى الوطن. لكن محمداً كان يُذكّر العرب جميعاً أنهم كانوا يعودون إلى جذورهم لأن ابراهيم وإسماعيل جدي العرب هما اللذان بنيا الكعبة. في يومنا هذا يمر المسلمون بإحساس العودة إلى جذور هويتهم الإسلامية، ويتذكرون محمداً بشكل طبيعي. لكن شعائر الحج مصممة أساساً لاستذكار إبراهيم وإسماعيل والِدَيْ كل المؤمنين الصادقين. عندما يركض الحجاج سبع مرات بين **الصفا والمروة** فإنهم يتذكرون كيف ركضت **هاجر** مضطربة جيئة وذهاباً بحثاً عن ماء **لإسماعيل** الصغير بعد أن تركهما **إبراهيم** في الصحراء. وبعد ذلك يمضون إلى ما هو أبعد من ذلك إلى أصولهم المشتركة عندما يقفون على منحدرات عرفات ـ على بعد ١٦ ميلاً خارج مكة. ويتذكرون الميثاق الأصل الذي أبرمه الله مع **آدم النبي** الأول، مؤسس السلالة البشرية. وفي مِنىً يرمون الحصى على ثلاثة أعمدة ترمز للصراع الدائم مع الإغراء الذي يتطلبه الجهاد في سبيل الله. بعد ذلك يقدمون خروفاً أو ماعزاً قرباناً في ذكرى تضحية إبراهيم الحيوانية بعد أن نذر ابنه لله. فالمسلمون في شتى أرجاء العالم ممن لا يتمكنون من القيام بالحج يؤدون الشعيرة في وقتها المحدد، وبذلك تعرب الأمة كلها عن استعدادها للتضحية بكل شيء، حتى بأغلى ماتملك، في سبيل الله.

في يومنا هذا يقع مسجد نميره بالقرب من جبل عرفات على البقعة التي يعتقد أن محمداً قد ألقى فيها خطبة الوداع عام ٦٣٢ . لقد أوصاهم أن **يعدلوا فيما بينهم، وأن يعاملوا النساء بالحسنى، وأن يتجنبوا سفك الدم على أخطاء ارتكبت في الجاهلية. إذْ أن الأمة وحدة واحدة**

> **«... فكل مسلم أخٌ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلِمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلّغت... اللهم فاشهد»**[٣].

قد تبدو هذه الوصية بسيطة مقارنة بخطبة الجبل أو دعوة القديس بولس إلى

المحبة. لكن محمداً كان واقعياً، وكان يعرف أن ماكان يطلبه كان ثورياً. فبدلاً من أن يكون العرب المسلمون أفراداً في قبائل متمايزة فقد شكلوا الآن جماعة واحدة تماماً مثلما كان رب الكعبة واحداً.

عندما رجع محمد إلى المدينة بعد حجة الوداع بدأ يشعر بنوبات صداع لايحتمل. تَذْكُر **عائشة** أنها بينما كانت مستلقية في غرفتها تعاني من صداع وتتأوه «وارأساه!» سمعها محمد وهو داخل فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه!». وحتى تلك اللحظة كان مايزال قادراً على إثارتها، فقد قال لها بعد ذلك: «ما ضرَّكِ لو متِّ قبلي فقمتُ عليك وكفنتك وصليت عليكِ ودفنتك!» فردت عليه بحدتها المعهودة: «والله لكأني بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتي فأعرستَ ببعض نسائك» ورد عليها بالابتسامة. وتتّام بعد ذلك وجعه[٤]». أصبحت الآلام أكثر حدة، ويبدو أنه عانى من نوبات إغماء لكنه لم يخلد أبداً للراحة في فراشه. كان يعصب رأسه بقطعة قماش ويذهب إلى المسجد، ليقيم الصلاة أو ليخطب في الناس. ذات صباح صلى على أصحاب أُحُد واستغفر لهم وأكثر الصلاة عليهم ثم قال:

«إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله».
ويبدو أن أبا بكر عرف أن النبي يقصد بكلامه نفسه وأن وفاته دنت، فراح يبكي بمرارة فقال له محمد: «على رِسْلك يا أبا بكر»[٥]. انهار محمد في غرفة **ميمونة**. تحلقت زوجاته حوله بحب، ولاحظن أنه كان يسأل: «أين سأكون غداً؟ أين سأكون غداً؟». فأدركن أنه كان يريد أن يعرف متى سيكون مع عائشة فاتفقن على نقله إلى غرفتها كي يعتنين به هناك.

رقد محمد ورأسه في حجر عائشة. لكن الناس اعتبروا أن ذلك نوبة ألم طارئة لأنه كان يحضر الصلوات العامة في المسجد، ويبدو أن الأمة قد وجدت أن فكرة موته لاتطاق ومخيفة جداً إلى درجة أنها أخفقت في قراءة بوادرها بشكل صحيح، علماً أن أبا بكر نبه عائشة من أن أيام النبي باتت معدودة.

كان ما حققه في الجزيرة فريداً ولاسابقة له، فالحياة في النظام الجديد بدت أمراً لايمكن تصوره بدونه. ذات يوم أكّد النبي وهو في طريقه إلى المسجد أن **أسامة**

بن زيد قادر تماماً وخبير بما يكفي كي يقود حملة إلى الشمال. وعندما اشتد عليه المرض طلب من أبي بكر أن يؤم الصلاة بدلاً منه ويبدو أن عائشة قد قاومت هذا القرار. كان على محمد أن يتحدث إليها بحدة كي يحملها على طاعته. وقالت عائشة لاحقاً إنها اعترضت لا لأنها وجدت أن أباها غير جدير بهذا الشرف بل لأنها اعتقدت أن الناس سيكرهونه لقيامه بمهمة محمد. لكن محمداً كان يعطيهم أسباباً للأمل، لأنه كان يؤمُّ الصلاة فيهم رغم مرضه الشديد، وكان يجلس بجانب أبي بكر بكل هدوء.

في ١٢ ربيع الموافق ٨ حزيران عام ٦٣٢ لاحظ أبو بكر ـ أثناء الصلاة ـ أن اهتمام الناس كان مشتتاً وأنهم كانوا ينظرون باتجاه مدخل المسجد فعرف حالاً أن محمداً يدخل المسجد. بدا أن محمداً في حال أفضل فقال بعض الحاضرين إنه لم ير أبداً وجهاً مشعاً كوجهه. وإثر دخوله ملأت موجة البهجة والارتياح المسجد. تهيأ أبو بكر للوقوف لكن محمداً وضع يديه على كتفه ودفعه برفق إلى مقدمة الحشد وجلس بجانبه حتى انتهت الصلاة. بعد ذلك عاد محمد إلى عائشة ووضع رأسه في حجرها، بدا أنه كان في حالة جيدة إلى درجة أن أبا بكر استأذنه بالذهاب إلى زوجته التي تزوجها مؤخراً. وفي فترة بعد الظهر دخل علي والعباس وانتشر الخبر بأن محمداً كان يتحسن وعندما عرج عبد الرحمن لعيادته لاحظ أن محمداً كان ممسكاً بسواك ويريد استخدامه، ولاحظت عائشة أنه كان يستخدمه بقوة أكثر من المعتاد. وبعد فترة وجيزة شعرت عائشة أنه كان نائماً بعمق، وبدا وكأنه فقد وعيه، ولم تدرك بعد ما حدث. فعن ذلك قالت لاحقاً:

> «مات الرسول بين سحري ونحري، وفي دولتي، لم أظلم فيه أحداً،
> فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله قبض وهو في حجري»[٦].

ثم اكتشفت أنه توفي فوضعت رأسه على الوسادة وبدأت تضرب صدرها، وتصفع وجهها، وأخذت تندب وتولول.

عندما سمع الناس ولولة النساء وصراخهن أسرعوا إلىالمسجد، وتطايرت الأنباء في الواحة وأسرع أبو بكر عائداً إلى المدينة. فألقى نظرة إليه وقبَّل وجهه

مودعاً. ثم ذهب إلى المسجد حيث وجد عمر يخطب في الحشود معلناً رفضه تصديق نبأ موت محمد:

«إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.... ووالله ليرجعَنّ رسول الله (ص) كما رجع موسى فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم، زعموا أنَّ رسول الله (ص) مات»،

لقد أحدث كلام عمر لغطاً وأثار الناس إلى أن وصل أبي بكر الذي قال له: «على رِسْلك يا عمر، انصت»، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر.

ذَكَّرهم أبو بكر أن محمداً كرس حياته كلها داعياً إلى وحدانية الله. وقد حذرهم القرآن دون كلل أنه يجب ألا يعظموا أحداً فالتعظيم لله وحده. وكان محمد أيضاً يحذرهم من تمجيده كما مجد المسيحيون عيسى لأنه مجرد بشر فانٍ مثلهم. فرفضهم قبول فكرة موت محمد كان إنكاراً لحقيقة أساسية تتعلق بمحمد. لكن طالما بقي المسلمون مخلصين لإيمانهم بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة فإن محمداً سيستمر في العيش:

«ياأيها الناس،! من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت»[٧].

ثم أورد آية نزلت على محمد بعد معركة أحد عندما سرت إشاعة بأن النبي قد قتل:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عِقبَيْه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين.[٨]﴾

كان لهذه الآية تأثير على الناس وكأنهم لم يسمعوها من قبل. وهنا أُحْبِط عمر تماماً وفيما بعد استذكر:

«وما هو إلاَّ أن سمعت أبا بكر تلاها فعقِرت (دُهشت) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله (ص) قد

مات»[9].

كانت الصدمة التي أحدثتها وفاة محمد أخطر أزمة تلم بالجماعة الإسلامية، وعليها أن تواجهها. فحتى هذه اللحظة كان محمد يوجه كل خطوة من خطواتهم، فهل يا ترى سيستمرون بدونه؟ وهل كان مُتَصوّراً أنهم سيستمرون؟ فبعض قبائل البدو التي كان التزامها سياسياً فقط انشقت عن الأمة لاعتقادها أن موت محمد قد ألغى الاتفاقية. لقد تعرضت الأمة لخطر حقيقي إذ أصبحت فريسة الانقسامات القبلية القديمة. فتساءل بعض المسلمين الملتزمين هل موت محمد يعني نهاية المشروع المحمدي[10]. وانقسم الذين أرادوا تعيين خليفة إلى معسكرات متنافسة، وربما أن ذلك كان يعكس الانقسامات في الجماعة الإسلامية التي أقلقت محمداً في سنواته الأخيرة.

ساند معظم المهاجرين دعوة أبي بكر الذي كان صديقاً مقرباً لمحمد منذ بداية الدعوة، ساندوه في أحقيته بالخلافة ودعم عمر هذه الأحقية، بينما أراد الأنصار **سعد بن عبادة**. واعتقدت أسرة النبي أن علياً أحق بها، لكن أبا بكر سيطر على الموقف لأن فهمه الهادئ للأزمة أثر على الأمة كلها. فبعد البيعة خطب في الجماعة مرسياً المبادئ التي ستطبق من تلك الفترة فصاعداً على جميع الحكام المسلمين:

> «أما بعدُ أيها الناس، فإني قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وأن أسأتُ فقوموني؛ الصدقُ أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أُريحَ عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لايَدَعُ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل، ولاتشيعُ الفاحشة في قوم قطُّ إلا عمَّهم الله بالبلاء؛ أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[11]».

امتنع علي عن المبايعة في البداية لكنه فعل ذلك أخيراً. دامت خلافة أبي بكر سنتين ثم خلفه عمر ثم عثمان وأصبح علي الخليفة الرابع في عام ٦٥٦ ، فأطلق عليهم لقب الراشدين لأنهم حكموا وفقاً لمبادئ محمد فقد أكد **علي** تحديداً على أن الحاكم المسلم يجب ألا يكون ظالماً، وأن يقف على قدم المساواة مع رعيته، وأن

يخفف العبء عن الفقراء والمعدمين. فتلك هي السبيل الوحيد كي يستمر النظام:

«فإن شَكَوْا ثِقلاً أو علة أو انقطاع شرب، أو بالة، أو إحالة أرض اغْتمَرَها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولايثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إحجامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم، في رفقك بهم، فربما حدثت من الأمور ما إذا عوَّلْتَ فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيبة أنفسهم به فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يُؤْتَى خراب الأرض من إِعْوازِ أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر[*١٢]».

يجب ألا يفصل الحاكم نفسه عن شعبه بل عليه أن يشاركهم همومهم، وأن يتفرغ لسماع مشاكلهم ومشورتهم.

يصعب القول إنَّ جميع الحكام المسلمين تمثلوا هذه المعايير السامية. وإذا كان المسلمون يعتبرون الفترة الراشدية هي العصر الذهبي، فهذا يُشير إلى أن الخلفاء والسلاطين الذين تبعوهم لم يلتزموا بالمبادئ ذاتها التي تنادي بالمساواة والعدالة. ومع ذلك فقد استطاع بعض الحكام المسلمين إقامة امبراطورية باتِّباعهم تلك المبادئ. فكما رأينا في الفترة الصليبية خرج **نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي** عن طريقهما ليعطيا الفقير ويصلحا الضرائب ويكونا في متناول الناس. وفي يومنا هذا رأينا المسلمين يسقطون حكاماً مثل **شاه إيران وسادات** مصر تحت شعار خروج حكامها عن جادة مبادئ الاسلام[١٣]. لقد استمرت المثل العليا التي ألهمت محمداً والراشدين في أن تكون قوة كبيرة في المجتمع الإسلامي، والحاكم الذي يتجاهلها يعرض نفسه إلى الهلاك.

وإذا كانت الانقسامات الرئيسة في المسيحية قد جاءت نتيجة نزاعات

(١٢*) ـ التعليمات التي أصدرها علي لمالك بن الأشتر عندما ولاه على مصر.

عقائدية وذلك بسبب الحماس تجاه النقاش اللاهوتي، إلاَّ أن الاسلام شأنه شأن اليهودية ليس فيه للهرطقة العقائدية أي وجود وبالتالي ليس لها أي دور في انقساماته الرئيسة. لقد نجمت صراعات الاسلام الشكلية وانقساماته الحادة عن الاختلافات السياسية. لقد انقسمت الأمة عندما تطور الشرخ في الجسم الإسلامي الرئيس بين فرعين: السنة وشيعة علي. كانت شيعة علي تعتقد أن واحداً من ذريته يجب أن يدير شؤون الأمة فطورت التقية لأنها أقلية، وظهر احتجاج جَسَّده حفيد محمد **الحسين** الذي رفض القبول بالخلافة الأموية فقتل بطريقة وحشية هو ومن معه في معركة **كربلاء** على يد الخليفة **يزيد**. إنَّ النزاعات الحادة بين الجماعات الشيعية والجماعات السنية حول من يقود المسلمين ونوع المجتمع المتوجب بناؤه كانت نزاعات شكلية وهامة مثلها مثل النزاعات التثليثية لِتَجَسُّدِ **المسيح** في المسيحية. فهذا بحد ذاته يبين أن الحقيقة السياسية للأمة كانت ذات قيمة مقدسة في الإسلام. لاوجود لاختلافات معتقدية بين السنة والشيعة علماً أن كلاً منهما قد طور نوعاً مختلفاً للتقوى. في القرآن كما رأينا لايبارك الله الانقسامات اللاهوتية والعبثية التي لاطائل منها. كان علم السياسة هاماً في الإسلام ليس لأن الحكام المسلمين استخدموه لتوسيع مدى سلطتهم السياسية بل لأن المشروع الإسلامي كان محاولة ديناميكية لتحرير التاريخ من الفساد والفوضى التي ستقع لامحالة إذا لم يُحْكَم المجتمع بقوانين المساواة والعدل، فالجهد السياسي ليس غريباً عن حياة المسلم الروحية الشخصية، لكن الأمة لها أهمية مقدسة، وبالإمكان اعتبارها تحتل المكانة نفسها التي يحتلها خيار لاهوتي (الكاثوليكية، البروتستانتية، الطرائقية، المعمدانية) في الحياة الروحية لكل مسيحي.

جاء النجاح المستمر للمشروع الإسلامي بعد وفاة محمد ليبرر الجهد السياسي، كما بين أنه إذا ما أعيد تنظيم المجتمع وفقاً لإرادة الله فإنه سوف يسود. لقد أسست الجيوش العربية امبراطورية امتدت من **الهيملايا** إلى جبال **البيرنيه** في وقت قصير. استمد هذا النجاح إلهامه من القرآن لا من نزعة لتأسيس امبراطورية عربية. لم تكن هناك محاولات من قبل العرب لفرض الدين الجديد على رعاياهم الجدد، ورأوا أن الإسلام هو دين العرب مثلما أن اليهودية دين بني إسرائيل. في نحو

عام /٧٠٠/ منع القانون لفترة قصيرة جداً دخول أبناء الديانات الأخرى إلى الإسلام، لكن بعد مئة سنة على وفاة محمد كان الخلفاء يشجعون على الدخول في الإسلام، فبدأ الناس يتقاطرون للدخول فيه بعد أن اتضح أن القرآن استجاب لحاجة دينية لسكان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. لقد كان قادراً على استيعاب حكمة الثقافات القديمة الأخرى، وأسس تراثه الثقافي الخاص بسرعة. لم يكن الإسلام قوة تقسيمية مُهَدِّدة بل أثبت أنه قادر على تكامل المجتمع. لقد طور الفقهاء المسلمون لاهوت الجهاد بما يتلاءم مع الظروف الجديدة، فدعوا إلى توحيد العالم في شكل حكم واحد، وكان واجب المسلمين الانخراط في صراع مستمر لجعل العالم يقبل بالمبادئ الإلهية وخلق مجتمع عادل. فالأمة دار الإسلام - كانت المنطقة المقدسة التي فرضت فيها إرادة الله، أما بقية العالم فكانت دار حرب، أي المنطقة الدنيوية التي يجب أن تجبر على الإستسلام لحكم الله. فحتى يتم تحقيق هذا الهدف يجب أن ينخرط الإسلام في سعي أبدي لما يشبه الحرب. لكن هذا اللاهوت العسكري نُحِّيَ جانباً عملياً، وأصبح رسالة ميتة عندما اتضح أن الإمبراطورية الإسلامية بلغت حدود توسعها بعد نحو مئة سنة على وفاة محمد. لقد طور المسلمون علاقات دبلوماسية عادية واقتصادية مع جيرانهم في دار الحرب. لم يتعرض اليهود أو المسيحيون أو الزرادشتيون لضغط كي يدخلوا الإسلام، فاستمر المسلمون في قبول التعددية الدينية القديمة في شرق المتوسط، وعلموا الناس التعايش مع أفراد من أديان أخرى، لأن القرآن صادق على الإيحاءات السابقة.

بالإمكان رؤية صعود وهبوط السلالات والإمبراطوريات المتنوعة، والتوسع الكبير للإسلام في الهند وأندونيسيا، وتطور مواقف مختلفة وجديدة، وطرق تفسير القرآن كاستمرارية للحوار الإسلامي مع التاريخ: لقد استمر المسلمون في الاستجابة إبداعيا لتحدي الحداثة حتى وقت قريب نسبياً. كانوا قادرين على الاستجابة للكوارث مثل اجتياح **المغول** في القرن الثالث عشر والنهوض ثانية بقدرة وإنجاز جديدين. لقد استمر القرآن في إمداد الناس - من أجناس مختلفة وأوقات مختلفة - بالسبل الكفيلة لتجاوز الكارثة، والعثور على الشجاعة الكافية من أجل الاستمرار. فقد يكون المسعى الجديد أحياناً استجابة روحية تحديداً. وهكذا فقد أنتج المتصوف

الكبير **جلال الدين الرومي** كتابه /المثنوي/ الذي يُعدّ أعظم كتاب كلاسيكي في التراث الصوفي بعد سنوات قليلة من تدمير بغداد على يد المغول. يبين المتصوفون مقدار عمق تأثير العامل الاجتماعي والسياسي الإسلامي على الروحانية المسلمة. كان الولاء للأمة دائماً مكوناً هاماً من رسالة المتصوف. لقد شرح ذلك **لويس ماسينيون** الخبير الكبير في الصوفية السرية: «إن دعوة المتصوف هي كقاعدة، نتيجة تمرد داخلي للشعور في وجه المظالم الاجتماعية، لامظالم الآخرين فقط بل أساساً وبالتحديد ضد عيوب الفرد نفسه: برغبة يزيد من تركيزها تَطَهُّر داخلي للعثور على الله مهما كلف ذلك»[١٤]. فالمهمة الصوفية أساساً هي الزهد: أي الانخراط في مسعى روحي يسمونه الجهاد الأكبر المناقض للجهاد الأصغر. حتى في عصرنا الحاضر تتداخل الروحانية المركزة مع النشاط السياسي بكل سهولة في العالم الإسلامي. لقد كان المتصوفون في الخط الأول في كثير من الحركات الإصلاحية، أو في عربة المعارضة لأي شيء يهدد الأمة سواء كان ذلك عدواً خارجياً كالجيش المغولي أم حاكماً يخفق في الحكم وفقاً للمبادئ الإسلامية. فالمتصوفون لاينسحبون من العالم كما يفعل الرهبان المسيحيون: العالم هو مسرح حملتهم كي يجدوا الله.

هذه الروحانية مبنية على الاقتداء بالنبي نفسه الذي لم ينسحب من العالم بل عمل دون كلل على إعادة تنظيم المجتمع. وبدلاً من الانتظار من أجل مدينة فاضلة أو إنجاز مسيحي مرتقب عمِلَ محمد على خلق مجتمعه المثالي في المدينة. لقد كيَّف المسلمون من البداية، أنفسهم وفقاً لنموذج حياة النبي: فكانت هجرته مقدمة لحملة سياسية، من زمن الخوارج الذين انشقوا عن الأمة في القرن السابع حتى عهد الجماعة التي تعرف باسم التكفير والهجرة في مصر في عهد السادات: لقد انسحب المسلمون الذين يريدون إصلاح الأمة مما يرونه مجتمعاً فاسداً، وسعَّروا حرباً على المؤسسة. لقد أخبر أبو بكر المسلمين أن من واجبهم عزله إذا فشل في تطبيق الحكم الإسلامي(*)، والمسلمون يقتدون بذلك جدياً فمصلحة الأمة جزء مكمل من

(*) حتى اليوم مايزال غالبية حكام الدول الاسلامية يربطون أنفسهم بشكل من الأشكال بالإسلام وأنهم حماته ورعاته وأنهم يقتدون بنبيه بل وتجري في بعض الأحيان منافسات بينهم وبين التنظيمات الدينية المدعية تمثيل الاسلام وأنها القيّمة على مبادئه وكثيراً مايؤدي هذا إلى تشويش رؤية أفراد المجتمع...فيمن هو على حق.

حياتهم الروحية. يجب أن ينخرطوا في الجهاد لا بروح سلفية أو سعار تعصبي بل بروح التضحية بالنفس والشجاعة والاحتمال. فكما شرح علي شريعتي الأمر للإيرانيين أثناء حكم الشاه:

> «إن موت النفس ليس المبدأ الوحيد للرهبنة، بل هو الصراع المكرس للدفاع عن خلق الله حتى وإن يكن ذلك يعني العذاب والموت. ترهُّبكم ليس في الرهبنة بل في المجتمع، والتضحية بالنفس والإخلاص وإنكار الذات واحتمال الذل والحرمان والعذابات والغضب، وقبول الأخطار في معترك الصدامات ومن أجل الناس فإنك تصل إلىالله. لقد قال النبي: كل دين نوع من زهد، والزهد في ديني هو الجهاد»(١٥).

لكل دين نقاط ارتكاز خاصة به، لكن هذا الاهتمام الاجتماعي أمر هام للروحانية في التراثات الوحدانية الثلاثة. وعلى المسيحيين الذين يجدون غرابة في مفهوم المسلمين لمهمتهم السياسية أساساً غريباً، أن يدركوا أن الاهتمام المسيحي العقائدي، وحماسهم للصيغ اللاهوتية العويصة لحقائق لاتوصف، يبدو غير مفهوم لدى المسلمين واليهود.

لقد نمّى المسلمون من خلال الاقتداء بمحمد هذا الحس العميق بالأخُوَّة والتضامن. واستمروا في تأكيدهم على أن محمداً بشر مثلنا، لكنهم أضافوا تعديلات عبر القرون: أجل إنه بشر مثل الآخرين لكنه «مثل جوهرة وسط كومة حجارة»(١٦). فالأحجار العادية قاتمة وثقيلة لكن الجوهرة شفافة يشع النور من داخلها. لقد أصبحت حياة محمد مثل الآيات الأخرى التي يحث القرآن المسلمين على رؤيتها في عالم الطبيعة. كانت حياته النبوية رمزاً طهوراً، وهي لا توضح فعالية الله في العالم فحسب بل توضح الاستسلام البشري الكامل لله. كان تطور المثل الأعلى للقداسة المحمدية محاولة تخيلية للنفاذ إلى معنى حياته وتطبيقه على ظروف الحياة اليومية. لقد طور المسيحيون أيضاً صورة ليسوع الإنسان الذي هو أيضاً اللوغوس «كلمة الله» وصورة لمشيئة الله للخلق. لم يكن ولاء المسلمين لمحمد على شاكلة ولاء المسيحيين للمسيح. إن ولاء المسلمين ليس مكرساً للشخصية التاريخية

بل إلى رمز أو قداسة، مثل رمزية الفن العظيم، تضيء الحياة وتعطيها معنى جديداً من خلال الإشارة إلى بعد آخر للحقيقة خارج ذاتها.

فمحمد يُرى رمزياً أنه الإنسان الكامل،النموذج الإنساني والصورة لانفتاحية كاملة على الله. ومن هنا ندرك الأهمية الإبداعية للاعتقاد بأمية محمد لأنه يوضح حالة انفتاح كلي على كلمة الله: وعلى هذا النحو يُنْظر إلى الرحلة الليلية للإسراء والمعراج التي تعدّ نموذجاً كاملاً للفناء في الله الذي يتحدث عنه المتصوفون. فكما طور المسيحيون عادة محاكاة المسيح كذلك يسعى المسلمون إلى محاكاة محمد في حياتهم اليومية كي يقتربوا قدر الإمكان من هذا الكمال، كي يقتربوا قدر استطاعتهم من الله ذاته. فعملية المحاكاة الإسلامية هي عملية أكثر وملموسة أكثر من محاكاة المسيح. خلال القرنين الثامن والتاسع بدأ العلماء المسلمون جمع الأحاديث النبوية والسنة، فارتحلوا في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية لاكتشاف العديد من الروايات الموثوقة لأشياء قالها أو فعلها محمد في مناسبات محددة، فشكلت هذه الأحاديث إضافة إلى القرآن الأساس الإسلامي للشريعة، وأصبحت أيضاً الأساس لحياة كل مسلم في حياته اليومية وروحانيته. لقد علمت السنة المسلمين أن يحاكوا الطريقة التي تحدَّثَ وأكلَ وأَحَبَّ وغسَلَ وتعبَّد بها محمَّد بحيث يصبح في أصغر جزء من تفاصيل حياتهم، أي أن يعيدوا إنتاج حياته على الأرض واقعياً لكي يعيدوه إلى الحياة ثانية بمعنى رمزي.

ليس لدى المسيحيين أي شيء مماثل للتوراة أو الشريعة، ويميلون إلى الاعتقاد أن هذا الالتزام الطقسي الدقيق لابد أن يكون مرهقاً وتحريمياً. إنه نوع من الروحانية التي أُعطيت دفعة سيئة جداً في «العهد الجديد» حيث يندد القديس بولس بالتوراة لأن جزءاً من لاهوت التوراة هو ضد المسيحيين اليهود الذين أرادوا الاحتفاظ بدين يسوع كطائفة محددة من اليهودية. لكن المسلمين أو اليهود لايرون في الشريعة عبئاً. والمسلمون ينظرون إلى السنة نظرة المسيحيين لـ (السّر) le sacrement بمعنى آخر كنوع من القداسة تساعدهم على الشعور بالله الذي يصفه القرآن في فترات حياتهم اليومية. ومن خلال تكييف أنفسهم بأقرب شكل ممكن وفقاً لما كان النبي

عليه فإنهم لايدخلون فقط عالمه في مستوى عميق جداً فحسب بل يحاولون أيضاً تنمية موقف داخلي كموقف محمد الباطني والاقتراب كثيراً من الله الذي يجدونه في أعماق وجودهم. بعض الأحاديث في الحقيقة أقوال عن الله نفسه وضعت على شفتي النبي. وتؤكد هذه الأحاديث القدسية على أن الله ليس وجوداً ميتافيزيقياً «هناك» لكنه بمعنى ما حضور يمكن تعريفه بأنه الحضور المتماهي مع جوهر كينونتهم، مع قاع الوجود. ويعدد الحديث الشهير المراحل التي يدرك فيها المرء هذا الحضور الداخلي التي يجب أن تبدأ بالالتزام بالأوامر الإلهية ثم تنتقل إلى أفعال التقوى الطوعية:

> **«مازال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته صرتُ سمعه الذي يسمع وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها»**[١٧].

ينبغي الالتزام بالآيات الخارجية لهذه النعمة الداخلية ـ مثل القربان المسيحي ـ ويجب صونها. فهذا الاهتمام يعني أن المسلمين في أرجاء العالم يشتركون في أسلوب حياتي محدد، ومهما تكن اختلافاتهم الأخرى هناك هوية إسلامية واضحة جداً تشدهم معاً حالاً: الطريقة التي بها يصلون، آداب المائدة، والعناية بصحتهم الشخصية تسير وفق نموذج مشترك مميز.

إن المسلمين الذين يبجلون محمداً بهذه الطريقة الرمزية لن يكونوا مهتمين تحديداً في البحث عن محمد التاريخي، أكثر من اهتمام المسيحيين الذي قاموا بالتزام تخيلي مماثل تجاه المسيح، وسيزعجهم البحث الجاري في حياة يسوع الدنيوية. لقد أوضحت قضية **سلمان رشدي** أن ما فهم منه هجوماً على النبي قد انتهك منطقة مقدسة من النفس الإسلامية في أرجاء العالم. فتشويه سمعة محمد أو دينه كان على الدوام جريمة كبرى في الإمبراطورية الإسلامية، أما في وقتنا الراهن فإنه يشكل إهانة واستخفافاً بمشاعر المسلمين وذلك لما يعانيه المسلمون من امتهان على يدي العالم الغربي. في القرن الثامن عشر بدأ الانحطاط يخيم على الإمبراطورية الإسلامية وفي العصر الراهن تجد الأمة أن من الصعب جداً أن تنهض إلى الحياة الجديدة ثانية. فقد تزامن انحطاطها وسقوطها مع نهوض الغرب على

أسس لمجتمعات فريدة لم يتحقق مثيلها في العالم من قبل، ولذلك صارت محاربة هذا الغرب صعبة جداً. لم يكن هذا ذلاً سياسياً فحسب بل لامس قلب الهوية المسلمة. فإن يكن الإسلام ـ ولأول مرة في تاريخه ـ لم يعد ناجعاً، إذن كيف يكون ما ورد فيه صحيحاً؟ لقد أثبتت المبادئ الاجتماعية القرآنية نجاعتها حتى ذلك الحين، إلاّ أن المجتمع الإسلامي انهار رغم مابذلته الأمة من جهد كي تنفذ الخطة الإلهية. إذن لابد وأن خطأ جذرياً قد حدث في التاريخ الإسلامي.

لامندوحة من التأكيد مرة أخرى ان نجاح الأمة له أهمية مركزية شبه مقدسة في الحياة الدينية الشخصية لكل مسلم كما هو الحال في (القربان المسيحي). لقد تسبب هذا السقوط في كارثة دينية في العالم الإسلامي مماثلة في وزنها لتلك الكارثة التي حدثت في أوروبا عندما نسفت الاكتشافات العلمية التي قام بها ليل وداروين أساسات الإيمان المسيحي. فاليأس المسيطر في قصيدة مثل قصيدة /شاطئ الدوفر/ للشاعر ماثيو آرنولد، والخراب في قصيدة ألفرد لورد تينيسون /في الذكرى/ يعيننا على تبصر الخوف واليأس الذي يحسه المسلمون اليوم إذ كيف بالإمكان تفسير عجز الإسلام الظاهري أمام الغرب ونزعته الدنيوية المنتصرة؟ كان جوهر المبدأ الاجتماعي في القرآن أنه لايمكن أن يخفق مجتمع مؤسس على مبادئ الحق لأنه في حالة انسجام مع مايجب أن تكون عليه الأشياء. ولهذا جاء نجاح الأمة بقيادة محمد وخلفائه فاعلاً، وكان لنجاحه قيمة مقدسة.

عندما استعرضنا النظرة الغربية إلى محمد في مطلع هذا الكتاب كنّا ألقينا نظرة موجزة إلى السخط واليأس الذي ملأ قلب شهداء قرطبة المسيحيين في القرن التاسع. في العالم الإسلامي اليوم يلتفت أناس كثيرون إلى شكل جذري جديد للإسلام وقوده خوف مماثل. يحاول مسلمون كثيرون ـ مثل القرطبيين ـ اكتشاف هوية جديدة والعودة إلى جذورهم هم. وكان هذا هو موضوع الحركات الأصولية في السنوات الأخيرة. فالمسلمون لم يشعروا بالذل والاحتقار أمام قوة الغرب الخارجية فحسب بل يشعرون بفقدان التوجه والضياع لأن الثقافة الغربية المهيمنة قد أغرقت تراثاتهم. لقد انبثقت النزعة الدنيوية التي نميناها بعناية في الغرب من تراثاتنا

نحن لكنها تبدو غريبة وشاذة في الدول الإسلامية، من أصل سلبي أكثر مما من أصل إيجابي. لقد ترعرع جيل في العالم الإسلامي في وطنه لا في الشرق ولا في الغرب، والإجابة التي وجدها أناس كثيرون هي العودة إلى جذورهم الإسلامية. ومثلما سعى محمد تماماً لجعل دينه يضرب جذوره في التراثات المقدسة في الجزيرة عندما شذب معنى الحج، كذلك يسعى المسلمون الراديكاليون إلى أن يمدوا جذورهم بأمان أكبر في ماضيهم الإسلامي.

هناك موضوع آخر للأصولية الجديدة هو محاولة اعادة التاريخ الإسلامي إلى المسار الصحيح وجعل الأمة فعالة وقوية من جديد. لم تكن الثورة الإيرانية مجرد دعوة سلفية إلى الماضي بل محاولة لفرض قيم إنسانية لائقة في إيران ثانية. لقد أيقظ المثل الأعلى للدولة الإسلامية في كل من باكستان وإيران آمالاً عميقة، بدت للغربيين غريبة، لأن الغربيين طوروا مثلاً أعلى للحكم دنيوياً، أما في حالة إيران والباكستان فإن هذا يمثل دافعاً ثقافياً ودينياً عميقاً وفرصة لجعل الإسلام يعمل بفعالية مرة أخرى. ويبين تاريخ المحاولتين أن مسعى تجسيد كلمة الله على الأرض في القرن العشرين تعترضه مشاكل ومعوقات يصعب تخطيها. في الماضي كان المسلمون قادرين على النهوض ثانية بعد كوارث ومحن عديدة: موت النبي، اجتياح المغول الخ. ويبدو أن النهوض هذه المرة أصعب بكثير ومن هنا فقد داخل الدين قدر من اليأس الغاضب.

إن ظاهرة النزعة الأصولية الإسلامية هي ظاهرة معقدة: لقد نبعت من ألم كبير، وتعبر عن حاجة يائسة كي يأخذ المسلمون أقدارهم بأيديهم ثانية بالطريقة الإسلامية المعهودة. تبدو بعض هذه الأشكال الراديكالية للإسلام أنها غير صحية، وتبدو أنها مليئة بفقدان الأمن واليأس الذي كان وقوداً شَحَنَ العقيدة الانتحارية لشهداء قرطبة الذين استمدوا إلهامهم من الاحتياجات والمخاوف نفسها. ففي غزو قناة السويس كتب العلامة **ويلفرد كانتويل سميث** أن إسلاماً فاعلاً وصحياً هو أمر مطلوب في الأزمة الراهنة لأنه يساعد المسلمين على تبني قيم ومثل عليا لائقة موجودة لدينا في الغرب، لأنها تنبع من تراث مشترك. لقد استلب الغرب منذ حرب السويس سكان شرق المتوسط أكثر من ذي قبل، وهذا ما أساء إلى العلمانية التي يسعى إلى نشرها. فنحن ـ في الغرب ـ لم نكن قادرين على التعامل مع الإسلام:

كانت أفكارنا عنه فجة ولاغية له، ويبدو أننا نكذب اليوم التزامنا المعهود بالتسامح والرحمة من خلال كراهيتنا للألم والمحنة الحديثة التي يتعرض لها العالم الإسلامي. فالإسلام لن يتلاشى أو يذبل، وإنه لمن الأفضل لو يظل صحياً وقوياً، ونأمل بأن الوقت لم يفت بعد.

يعاني الناس في العالم الإسلامي من مشكلات كثيرة في أواخر القرن العشرين، والغرب بدوره يعاني من مشكلة كما أشار كانتويل سميث في عام ١٩٥٦ . فـ «الضعف الأساسي» في كلا الحضارتين الغربية والمسيحية في العالم المعاصر:

> «هو عدم مقدرتهما على إدراك أنهما يشتركان في كوكب واحد مع من هم ليسوا أدنى منهم بل مع من هم أندادٌ. فإذا لم تتعلم الحضارة الغربية سواء فكرياً واجتماعياً، وسياسياً، واقتصادياً والكنيسة المسيحية لاهوتياً ـ التعامل مع الآخرين باحترام متأصل، فإنهما ستكونان بدورهما قد أخفقتا في الوصول إلى مفردات واقعية القرن العشرين. فالمشكلات التي تثار في هذا الصدد هي بالطبع عميقة مثل أي شي ناقشناه عن الإسلام[١٨].»

حقيقة الأمر هي أن الإسلام والغرب يشتركان في تراث مشترك وقد أدرك المسلمون هذا منذ عصر النبي لكن يبدو أن الغرب يصعب عليه تقبل هذه الحقيقة. لقد بدأ بعض المسلمين اليوم يتحولون ضد ثقافات أهل الكتاب التي أذلتهم واحتقرتهم، فبدأوا يؤسلمون كراهيتهم الجديدة. فأصبحت شخصية النبي المحبوبة مركزية في واحدة من أحدث الصدامات بين الإسلام والغرب في قضية سلمان رشدي. وإذا كان المسلمون بحاجة إلى فهم تراثاتنا الغربية ومؤسساتنا بشكل أوفى اليوم فنحن في الغرب بحاجة إلى أن نجرد أنفسنا من بعض كراهيتنا القديمة. وربما الأنسب هو البدء بشخصية محمد، فقد كان رجلاً ذا مشاعر فياضة وشخصية مركبة، جمع في شخصيته أموراً خارقة وفعل في زمانه أشياء قد نجد صعوبة في قبول بعضها حسب مفاهيمنا اليوم. وبلا شك كان لديه عبقرية عميقة تستعصي على الفهم وقد أسس ديناً وتراثاً ثقافياً لم يكونا قائمين على السيف كما تقول الأسطورة الغربية. فاسم دينه الإسلام أي السلام والمصالحة.

«انتهى»

المراجع والهوامش

الفصل الأول:

١ ـ جون الجوينفيلي /حياة القديس لويس/ ترجمة رينيه هوغ ومراجعة ناتالي دوويلي، لندن ١٩٥٥ ص ٣٦ .

٢ ـ بول ألفارو، Indiculus luminosus استشهد به، دبليو صثرن في كتابه /آراء غربية بالإسلام في العصور الوسطى/ لندن ١٩٦٢ ص ٢١ .

٣ ـ اسم بيرفيكتوس ربما كان الاسم اللاتيني المقابل لاسم الكامل بالعربية (أي الإنسان الكامل)، وقد سمي شهداء آخرون بـ سيرفوس دي Servus Dei إنه ترجمة للإسم العربي عبد الله.

٤ ـ بول ألفارو، فيتا إيولوغي Vita Eulogii، استشهد به نورمان دانييل في كتابه/ العرب وأوروبا الوسطوية/ لندن وبيروت عام ١٩٧٥ ص، ٢٩ .

٥ ـ الثانية إلى أهل تسالونيكي ١: ٤ ـ ٨ المؤلف ليس القديس بولص، الرسالة كتبت بعد وفاة بولص بعدة سنوات.

٦ ـ الوحي ١٩: ١٩

٧ ـ /أعمال الفرانكيين والحجاج الآخرون إلى القدس/ ترجمة روزالين هيل (لندن، ١٩٦٢) ص ٢٢ .

٨ ـ صثرن، آراء غربية بالإسلام ص ٢٩ .

٩ ـ ورد في كتاب دانييل /العرب وأوروبا الوسطوية/.

١٠ ـ /الكوميديا الإلهية/ دانتي ألجيري النشيد الأول: الجحيم ترجمة دوروثي لـ. سيرز (لندن ١٩٤٩ المقطع ٢٨ ، الأبيات ٢٢ ـ ٢٧ ص ٢٤٦).

١١ ـ /جيستا ريجوم/ Gesta Regum أوردها صثرن في كتابه آراء غربية بالإسلام.

١٢ ـ شار نيكون نفس المصدر ص ٣٦ .

١٣ ـ أوردها بنيامين كيدار Kedar، /صليبي ورسالة: طرق أوروبية إلى المسلمين/ (برنستون ١٩٨٤) ص ٩٩ .

١٤ ـ نفس المصدر ص ١٠١ .
١٥ ـ أوردها رينيه بيرنود في كتابه /الصليبيون/ ترجمة إنيد غرانت (أودنبيرغ ولندن، ١٩٦٣) ص ٢٢١ .
١٦ ـ نفس المصدر السابق.
١٧ ـ كيدار /صليبي ورسالة/ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
١٨ ـ أوردها بيرنود /الصليبيون/ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
١٩ ـ أمبيرتو إكو، /الحلم بالعصور الوسطى/ في رحلات في أجواء غير حقيقية / ترجمة وليم ويفر لندن، ١٩٨٧ ص ٦٤ .
٢٠ ـ وردت في كتاب صثرن /آراء غربية بالإسلام/.
٢١ ـ دانييل /العرب وأوروبا الوسطوية/.
٢٢ ـ نورمان دانييل، /الإسلام والغرب: تكوين الصورة/ ادنبيرغ ١٩٦٠ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .
٢٣ ـ أوردها إدوار سعيد في كتابه /الاستشراق: تصورات غربية عن الشرق/ نيويورك ولندن ١٩٨٥ ص ٦٦ .
٢٤ ـ همفري بريدو /الطبيعة الحقيقية للدجل، جلية في حياة محمد/ لندن ١٧٠٨ ص ٨٠ .
٢٥ ـ دانييل /الإسلام والغرب/ ص ٢٩٧ .
٢٦ ـ نفس المصدر ص ٣٠٠ .
٢٧ ـ نفس المصدر ص ٢٩٠ .
٢٨ ـ /انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية/ ديرد، ي. سوندز، مختصر في مجلد واحد (لندن ١٩٨٠) ص ٦٣
٢٩ ـ /في الأبطال وعبادة البطل/ (لندن ١٨٤١ ص ٦٣).
٣٠ ـ وردت في كتاب ادوار سعيد /الاستشراق/ ص ١٧٢ .
٣١ ـ نفس المصدر.
٣٢ ـ نفس المصدر ص ١٧١ .
٣٣ ـ /التاريخ العام/ ص ١٤٩ .
٣٤ ـ م بودريكوت La guerreet gouvernement de Algerie/ باريس ١٨٥٣ ص ١٦٠ .
٣٥ ـ وردت في كتاب ادوار سعيد /الاستشراق/ ص ٣٨ .
٣٦ ـ حرب مقدسة: الصليبيون وتأثيرهم على العالم المعاصر/ لندن ١٩٨٨ .
٣٧ ـ رنا قباني /رسالة إلى المسيحية/ لندن ١٩٨٩ ص ٥٤ .
٣٨ ـ في Fay ولدون /بقرات مقدسات/ لندن ١٩٨٩ ص ٦ و ١٢ .
٣٩ ـ كونور كروز أوبريان /التايمز، الصادر في ١١ أيار ١٩٨٩ .
٤٠ ـ /الإسلام في التاريخ المعاصر/ برنستون ولندن، ١٩٥٧) ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

الفصل الثاني

١ - يقال أن محمداً بعد تلقيه الوحي قد ضَعَّفَ حرف اللام في كلمة الله Al - llah فأصبحت الكلمة Al - llah كي يميز الشكل الإسلامي عن المفهوم الوثني لله. وهذا الاستخدام أقرب للصحة من كلمة allah المألوفة في كتابتها لدينا.

الفصل الثالث:

١ - دعا النبي زرداشت إلى الزرداشتية في إيران في القرنين السابع والسادس ق.م في نفس الوقت تقريباً الذي كان إرميا وأشعيا يدعوان الناس في أورشليم. إنه دين ثنائي يرى صراعاً أبدياً بين قوتين عظميين: الخير والشر.

٢ - أ، جي، توينبي /دراسة للتاريخ/ (لندن، ١٩٥١) المجلد الثالث ص ٧ - ٢٢ .

٣ - دبليو مونتغمري واط/ مكة محمد: التاريخ في القرآن/ ادنبيرغ ١٩٨٨ .

٤ - يبدو أن بعض الوثنيين في يثرب كانوا يحتفظون بتماثيل للإلهة مناة في منازلهم.

٥ - انظر مخطط النسب في الصفحة

٦ - يعتقد تراثياً أن محمد قد ولد في عام الفيل؛ لكن العلماء الغربيين يعتقدون أن غزو الأحباش قد تم قبل ولادته بعشر سنوات، أي في عام ٥٦٠ .

٧ - أوردها محمد بن اسحاق في كتابه /سيرة الرسول ٣٨/، وفي كتاب صادر عن غيلام بعنوان /حياة محمد/ لندن ١٩٥٥ ص ٢١ .

٨ - السورة ٢٩: ٦١ - ٦٣ .

٩ - السورة ١٠: ٢٢ - ٢٤ .

١٠ - انظر سيرة ابن هشام ص٢٢٣ طبعة المكتبة العلمية - بيروت.

١١ - نفس المصدر ص ١٠٠ .

الفصل الرابع:

١ - السورة ٩٣: ٦ - ٨ .

٢ - في يومناهذا يعتقد مسلمون كثيرون أن محمداً كان النمط الأصلي للإنسان الكامل ولذلك فهو معصوم. وأناقش هذه النقطة بشكل مفصل في الفصل التاسع.

٣ - محمد بن اسحاق /سيرة الرسول ١٥٠ وردت في كتاب /حياة محمد/ عن دار غيلام (لندن ١٩٥٥) ص ١٠٤ .

٤ - السورة ٦١: ٦

٥ - سيرة ابن اسحاق. وردت في كتاب /حياة محمد/ عن دار غيلام (لندن ١٩٥٥) ص ٩٤ .

٦ - نفس المصدر ١٤٤ ص ٩٣ . عاد وإرم كانا من الشعوب العربية القديمة ذكر هلاكهما في القرآن.

٧ ـ كتاب الطبقات الكبيرة أوردها أندريه في كتابه /محمد/ ص ٤٣ ـ ٤٤ .
٨ ـ ترجمة حلف الفضول على أنه عصبة الفاضلين أو الفرسان كانت مثار جدل.
٩ ـ سيرة ابن اسحاق ١٠٤ ـ ١٠٥ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٧١ .
١٠ ـ أبو بكر أحمد الباقلاني (d ـ ١٠٦٦) /دليل النبوة/ ١٢٠١ أوردها أنماري شميل / ومحمد رسوله/ تبجيل النبي في التقوى الإسلامية تشابل هيل ولندن ١٩٨٥ ص ٦٨ .
١١ ـ سيرة ابن اسحاق ١١٦ ـ ١١٧ (حياة محمد/ عن دار غيلام ص ٨١ .
١٢ ـ كتاب محمد Thus Andree ص ٥٠ ـ ٥١ .
١٣ ـ سيرة ابن اسحاق في /حياة محمد/ الصادرة عن دار غيلام ص ٨٣ .
١٤ ـ نفس المصدر ١٢٠ ص ٨٢ .
١٥ ـ نفس المصدر ١٥٥ ص ١١١ .
١٦ ـ لقد أشير إلى بعض العرب في هذه القصة بكنياتهم: أبو طالب، أبو سفيان، أم سلمة.
١٧ ـ سيرة ابن اسحاق ١٢٤ ـ ١٢٥ في كتاب /حياة محمد/ دار غيلام ص ٨٥ ـ ٨٦ .
١٨ ـ السورة ٢٨: ٨٦ .
١٩ ـ محمد بن اسماعيل البخاري، ورد في كتاب مارتن لينغز/ محمد: حياته استناداً إلى أقدم المصادر/ (لندن ١٩٨٣) ص ٤٣ ـ ٤٤ .
٢٠ ـ السورة ٩٦: ١ .
٢١ ـ سيرة ابن اسحاق كتاب /حياة محمد/ دار غيلام ص ١٠٦ .
٢٢ ـ أشعيا ٦: ١ ـ ٩
٢٣ ـ إرميا ٢٠: ٧ ـ ٩
٢٤ ـ أندريه /محمد/ ص ٥٩
٢٥ ـ سيرة ابن اسحاق /حياة محمد/ دار غيلام ص ١٠٦
٢٦ ـ نفس المصدر ١٥٤ ص ١٠٧ كلمة الناموس كانت هي الكلمة اليونانية nomos. والشريعة هي شريعة موسى أو التوراة التي يقدسها بنو إسرائيل، هذه الكلمة التي استخدمها ورقة كانت جديدة على مسامع العرب، فقابلها المسلمون بجبريل. بينما كان ورقة يعني أن هذا كان أحد الإيحاءات الكبيرة التي أرسلها الله إلى بشر.
٢٧ ـ السورة ٣٥: ٢٢ .
٢٨ ـ انظر السورة ٦: ١٦٠ .
٢٩ ـ السورة ٣: ٧٦ .
٣٠ ـ السورة ٦١: ٦ .
٣١ ـ السورة ٨١: ١٩ ـ ٢٤ .
٣٢ ـ سيرة ابن اسحاق، /حياة محمد/ دار غيلام ص ١٠٥ .
٣٣ ـ جلال الدين السيوطي /الاتقان في علم القرآن/ استشهد مكسيم رودنسون في كتابه / محمد/ ترجمة آنا كارتر (لندن ١٩٧١) ص ٧٤ .

٣٤ ـ البخاري الحديث ١ ، ٣ ، أورده لينغز في كتابه /محمد/ ص ٤٤ ـ ٤٥ .
٣٥ ـ السورة: ٧٥: ١٧ ـ ١٩ .
٣٦ ـ ترجم آربيري الكلمتين الأخيرتين من السورة «أعلنه Declare» لكن المقابل العربي لها يعني شيئاً مثل «قدم التمجيد لله».

الفصل الخامس

١ ـ السورة ٢٤: ٧
٢ ـ السورة ٨٨: ٢١ ـ ٢٢ .
٣ ـ السورة ٧٤: ١ ـ ٥ ، ٨ ـ ١٠
تعتقد بعض المراجع أن هذه السورة هي أول جزء أوحي من القرآن وليست السورة ٩٦ .
٤ ـ السورة ٨٠: ٢٤ ـ ٣٢ .
٥ ـ السورة ٥١: ١٩ ، ٧٠: ٢٤ . في مطلع الدعوة أرسيت الزكاة كركن لكنها لم تصبح ضريبة نظامية حتى بعد وفاة محمد.
٦ ـ دبليو مونتغمري واط /محمد في مكة/ (أوكسفورد ١٩٥٣) ص ١٦٥ ـ ١٦٩
٧ ـ السورة ٢٩: ١٨ ، ٩: ١٠٣ ، ٦٣: ٩ ، ١٠٢: ١ .
٨ ـ السورة ٤: ٢ ، ٥ ، ١٠ ، ٦: ١٥٢ ، ١٧: ٣٤ ، ٥١: ١٩ ، ٧٠: ٢٤ .
٩ ـ السورة ٩٦: ٦ ـ ٨
١٠ ـ السورة ١٠٤: ١ ـ ٣ .
١١ ـ السورة ٧٠: ١١ ـ ١٤ .
١٢ ـ السورة ١٠٥
١٣ ـ السورة ٨٠: ١١ .
١٤ ـ السورة ١٠٦
١٥ ـ السورة ٥٥: ١ ـ ١٢ .
١٦ ـ السورة ٣٦: ٣٣ ـ ٤٠ .
١٧ ـ السورة ٣٦ ـ ٤١ ـ ٤٤ .
١٨ ـ أشعيا ٥٥: ٨ ـ ٩ .
١٩ ـ السورة ٢: ١٦٤ .
٢٠ ـ السورة ٦: ٩٦ ـ ٩٩
٢١ ـ السورة ١٠ ـ ٦٩ ، ٢١: ٢٦ ـ ٣٠ .
٢٢ ـ السورة ٨: ٢ ـ ٤ .
٢٣ ـ السورة ـ ٢: ٨٩ ، ٢٧: ١٤ .
٢٤ ـ محمد بن سعد/ كتاب الطبقات الكبير/ ٨: ١٠٢ أوردها لينغز في كتابه/ محمد: حياته استناداً إلى أقدم المصادر/ (لندن ١٩٨٣) ص ٥١ .

٢٥ ـ محمد بن اسحاق /سيرة رسول الله ١٦٢ في كتاب /حياة محمد/ دار غيلام ص ١١٦ .
٢٦ ـ نفس المصدر ١٦١ ، ص ١١٥ .
٢٧ ـ طبقات بن سعد ٣: ١ ، ٣٧ ، أوردها لينغز في كتابه /محمد/ ص ٤٧ .
٢٨ ـ وردت في كتاب واط /محمد في مكة/ ص ٨٧ .
٢٩ ـ سيرة بن اسحاق وردت في كتاب /حياة محمد/ دار غيلام ص ١١٧ .
٣٠ ـ السورة ٢٦: ٢١٤ .
٣١ ـ السورة ١٧: ٢٨ ـ ٣١ .
٣٢ ـ أبو جعفر الطبري تاريخ الأمم والملوك ١١٧١ ، في كتاب /حياة محمد/ دار غيلام ص ١١٧ - ١١٨ .
٣٣ ـ السورة ٨٣: ١٣ .
٣٤ ـ السورة ٣٧: ١٥ .
٣٥ ـ السورة ٣٧: ١٢ ـ ١٩ .
٣٦ ـ السورة ٤٥: ٢٤ .
٣٧ ـ السورة ٨٣: ٩ ـ ١٤ .
٣٨ ـ السورة ٣٦: ٧٧ ـ ٨٣ .

الفصل السادس

١ ـ محمد بن اسحاق /سيرة رسول الله/ ١٦٦ ـ ١٦٧ وارد في كتاب /حياة محمد/ منشورات دار غيلام (لندن ١٩٥٥) ص ١١٨ .
٢ ـ انظر السورة ٣٨: ٤ ـ ٨
٣ ـ السورة ٤٦: ٨ .
٤ ـ السورة ١٧: ٧٥ ـ ٧٧ .
٥ ـ وردت في كتاب دبليو مونتغمري واط/ محمد في مكة/ (أوكسفورد ١٩٥٣) ص ١٠٠ .
٦ ـ التفسير ١٧ ، ص ١١٩ ـ ١٢١ وردت في كتاب دبليو مونتغمري واط/ محمد في مكة/ ص ١٠٢ .
٧ ـ تاريخ الأمم والملوك ١١٩٢ ، من منشورات غيلام /حياة محمد/ ص ١٦٥ .
٨ ـ السورة ٥٣: ١٩ ـ ٢٠ .
٩ ـ السورة ٥٣: ٢٦ وحتى هنا فإن تدخل الملائكة في حده الأدنى.
١٠ ـ الطبري /تاريخ الأمم والملوك/ ١١٩٢ /حياة محمد/ من منشورات دار غيلام ص ١٦٦ .
١١ ـ انظر السورة ٧: ٩ ـ ١٥ .

١٢ ـ وليم أو بيمان/ صور الشيطان الكبير: صور الولايات المتحدة في الثورة الإيرانية/ وفي كتاب نيكي. كيدي/ الدين والسياسة في إيران. الشيعة من نزعة الهدوء إلى الثورة/ (نيو هافن ١٩٨٣) ص ١٩١ ـ ٢١٧ .
١٣ ـ تاريخ الأمم والملوك ١١٩٢ /حياة محمد/ من منشورات غيلام ص ١٦٦ .
١٤ ـ السورة ٥٣: ١٩ ـ ٢٦ .
١٥ ـ السورة ٢٢: ٥١ .
١٦ ـ السورة ٢: ١٠٠ ، ١٣: ٣٧ ، ١٦: ١٠١ ، ١٧: ٤١ ، ١٧ ٨٦ .
١٧ ـ السورة ٦٩: ٤٤ ـ ٤٧ .
١٨ ـ السورة ٢٩: ١٧ ، ١٠: ١٨ ، ٣٩: ٩٣ .
١٩ ـ السورة ٧: ١٩٤ ـ ١٩٧ .
٢٠ ـ السورة ٣٦: ٧٤ .
٢١ ـ سيرة ابن اسحاق: ١٦٧ ـ ١٦٨ في كتاب /حياة محمد/ من منشورات غيلام ص ١١٩ .
٢٢ ـ نفس المصدر السابق
٢٣ ـ نفس المصدر السابق ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ص ١٤٥ .
٢٤ ـ السورة ١٩: ١٦ ـ ٢٢ .
٢٥ ـ سيرة ابن اسحاق ١٨٣ ـ ١٨٤ وردت في كتاب حياة محمد ١٣٠ ـ ١٣١
٢٦ ـ نفس المصدر السابق ١٨٥ ص ١٣١ .
٢٧ ـ نفس المصدر السابق ص ١٣٢ .
٢٨ ـ السورة ٤١: ١ ـ ٦ .
٢٩ ـ سيرة ابن اسحاق ١٨٦ ـ ١٨٧ /حياة محمد/ منشورات غيلام ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
٣٠ ـ السورة ٥٢: ٣٤ ، ٢ : ٢٣ ، ١٠: ٣٨ .
٣١ ـ جورج شتاينر/ حضورات حقيقية: هل هناك أي شيء فيما نقول؟ /لندن ١٩٨٩) ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .
٣٢ ـ سيد حسين نصر/ مُثُلُ وحقائق الإسلام/ (لندن ١٩٦٦) ص ٤٧ ـ ٤٨ .
٣٣ ـ سيرة ابن اسحاق ٢٢٧ /حياة محمد/ منشورات غيلام ص ١٥٧ .
٣٤ ـ نفس المصدر السابق ٢٢٨ ص ١٥٨ .
٣٥ ـ نفس المصدر السابق ٢٣٠ ص ١٥٩ .
٣٦ ـ السورة ٢٣: ٢٢ ـ ٢٤ .
٣٧ ـ السورة ١١: ١٠٣ .
٣٨ ـ السورة ١١: ١٠٢ .

الفصل السابع

١ - وردت في سيرة ابن اسحاق ص ٢٧٨ وفي كتاب /حياة الرسول/ (لندن ١٩٥٥ ص ١٩١).
٢ - نفس المصدر السابق ٢٤٤ ص ١٦٩ - ١٧٠ .
٣ - محمد بن اسماعيل البخاري /الحديث/ ٦٣: ٢٦ أورده مارتن لينغز/ محمد: حياته استناداً على أقدم المصادر/ (لندن ١٩٨٣ ص ٩٤).
٤ - سيرة ابن اسحاق، كتاب /حياة محمد/ من منشورات غيلام ص ١٩٣ .
٥ - السورة ٤٦: ٢٨ - ٣٢ .
٦ - السورة ١٣: ١٢ .
٧ - لم يرفض محمد الحماية بسبب دينه تحديداً. بينما رفضها الأخنس لأنه كان يعتبر شيخاً للقبيلة التي كان أحد حلفائها، وبذلك لم تكن لديه سلطة منح الحماية إلى غرباء. أجاب سهيل أنه ليس في وسعه منح حمايته إلى محمد لأنه أتى من الفرع الخاطئ من قريش.
٨ - السورة ١٧: ١ .
٩ - سيرة ابن اسحاق ٢٧١ ، /حياة محمد/، دار غيلام ص ١٨٦ . (انظر سيرة ابن هشام جـ٢ ص٤٠٧ طبعة المكتبة العلمية - بيروت لبنان) (الناشر)
١٠ - السورة ٥٣: ١٣ - ١٨ .
١١ - انظر أنماري شمل/ومحمد رسوله: تبجيل النبي في التقوى الإسلامية/ شابل هيل، لندن ١٩٨٥ ، ص ٢٦١ - ١٧٥ .
١٢ - الاهيناما Ilahinama وردت في المصدر السابق ص ١٦٧ - ١٦٨ .
١٣ - في كتاب /تكوين أواخر العصور القديمة/ (كامبريدج، ماساتشوستس ولندن ١٩٧٨ . يبين بيتر براون أن النشوة كانت معيارية في المسيحية الأولى. كان للحلم أهمية خاصة في الحياة الدينية في ذلك العصر، سواء عندما كان امرؤ نائماً وإحساساته الجسدية خامدة والحد مفتوح أمامه بينه وبين الله. ص ٦٥ .
١٤ - أفعال بير بتيوا وفليسيتاس الجزء الرابع أوردها بيتر درونك في كتابه /مؤلفات من العصور الوسطى: دراسة نقدية لنصوص من بيربتيوا (d - ٢٠٣) حتى مارغريت بورتي (d - ١٣١٠) كامبريدج ١٩٨٤) ص ٢ .
١٥ - /قدرة الأسطورة/ لبل مويرز (نيويورك ١٩٨٨) ص ٨٥ .
١٦ - نفس المصدر السابق ص ٨٧ .
١٧ - سيرة ابن اسحاق ١٣٤ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٩٣ .
١٨ - نفس المصدر السابق، ٢٨٧ ، ص ١٩٨ .
١٩ - نفس المصدر السابق، ٢٤٦ ، ص ١٧١ .
٢٠ - نفس المصدر السابق.

٢١ ـ وردت في سيرة ابن اسحاق في /حياة محمد/ دار غيلام ص ١٩٩ . الأمر الذي حرم على المسلمين قتل أطفالهم منع عادة وأد البنات التي كانت شائعة في الجاهلية.
٢٢ ـ نفس المصدر السابق ٢٩١ ـ ٢٩٢ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
٢٣ ـ وردت في نفس المصدر السابق ٢٩٣ ، ص ٢٠١ .
٢٤ ـ السورة ٥: ٥ ـ ٧ حرم على المسلمين لحم الخنزير والميته والدم والنطيحة والمتردية، وكل ما أهل به لغير الله. أفعال الرسل ١٥: ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٩ .
٢٥ ـ سيرة ابن اسحاق ٢٩٥ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٠٢ .
٢٦ ـ نفس المصدر السابق ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ص ٢٠٨ .
٢٧ ـ كان لبعض المسلمين أقارب في المدينة: فمحمد شخصياً كانت له علاقات مدينية عبر أمه آمنة. لكن الهجرة كانت تتطلب من المسلمين التخلي عن القبيلة كلها وعن الجماعة الدموية إلى قرابة لم تكن موجودة من قبل.
٢٨ ـ دبليو مونتغمري واط/مكة محمد: التاريخ في القرآن/ إدنبيرغ، ١٩٨٨) ص ٢٥ .
٢٩ ـ السورة ٦٠: ١ ، ٩ ، ٤٧ ، ١٣ .
٣٠ ـ السورة ٨: ٣٠ ، ٢٨: ١٩ ، ٢٧: ٤٨ ـ ٥١ .
٣١ ـ يبحث العلماء الغربيون عن الدور التاريخي للعباس في بيعة العقبة الثانية. إنهم يشيرون إلى أن العباس كان المؤسس للسلالة العباسية، وأن هذا المرجع إضافة إلى مراجع مماثلة أخرى كانت محاولة لتبييض سمعته. فكما سنرى يبدو أن العباس قد قاتل ضد محمد ولم يعتنق الإسلام حتى اللحظات الأخيرة تقريباً.
٣٢ ـ سيرة ابن اسحاق ٢٩٦ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٠٣ .
٣٣ ـ نفس المصدر السابق ٢٩٧ ص ٢٠٤ .
٣٤ ـ نفس المصدر السابق ٣١٦ ص ٢١٥ .
٣٥ ـ السورة ٩: ٤٠ .
٣٦ ـ سيرة ابن اسحاق، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٢٧ .
٣٧ ـ نفس المصدر السابق ٣٣٧ ، ص ٢٢٩ .
٣٨ ـ نفس المصدر السابق ٣٤٢ ، ص ٢٣٢ .
٣٩ ـ نفس المصدر السابق
٤٠ ـ نفس المصدر السابق ٣٤١ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .
٤١ ـ السورة ٨: ٧٢ .
٤٢ ـ سيرة ابن اسحاق ٣٤١ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٣٣٢ .
٤٣ ـ السورة ٣: ١٠٩ .
٤٤ ـ سيرة ابن اسحاق ٢٤٧ /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٣٦ .
٤٥ ـ محمد بن سعد /كتاب الطبقات الكبير/ الجزء الثامن، ٤٢ ، أوردها لينغز في كتابه / محمد/ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

٤٦ ـ سيرة ابن اسحاق ٤١٤ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٨٠ .
Fakhkh: مكان خارج مكة.
ماجانا Majanna كان مكان السوق في الجزء السفلي من المدينة. شاما Shama و Tafil طفيل جبلان مكيان.
٤٧ ـ نفس المصدر السابق.
٤٨ ـ السورة ٢: ٦ ـ ١٤ .
٤٩ ـ سيرة ابن اسحاق، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٧٩ .
٥٠ ـ نفس المصدر السابق ٣٦٢ ص ٢٤٦ .
٥١ ـ نفس المصدر السابق ٣٦١ ص ٢٤٦ .
٥٢ ـ السورة ٢: ٢٥ ، ٤: ١٥٣ ، ٥: ١٥ .
٥٣ ـ السورة ٣: ٧٢ ، ٣: ٨٧ ، لقد وجهت تهمة إلى اليهود بتحريف النصوص بحيث تخدمهم (٤: ٤٨ ، ٥: ١٦). وفي مرحلة لاحقة استخدم المسلمون هذه الآيات للقول إن الكتاب اليهودي فاسداً. وتقول الآية أن اليهود قد حرفوا الكلمات عن معانيها الحقيقية.
٥٤ ـ السورة ٢: ٧٩ ، ٥: ٨٢ .
٥٥ ـ انظر مثلاً الآية ٤: ١٥٦ ـ ١٥٧ . فهذا ليس هجوماً على يسوع أو ضد المسيحية لكنها جزء من اللاهوت ضد اليهود. فكرة أن يسوع لم يتعذب ولم يمت فعلاً على الصليب كانت سمة من طوائف مسيحية شرقية والمانوية التي يبدو أنها قد نفذت إلى الجزيرة العربية.
٥٦ ـ انظر السورة ٢: ١١٠ .
٥٧ ـ السورة ٢٩: ٤٦ .
٥٨ ـ السورة ٣: ٦٧ .
٥٩ ـ السورة ٢: ١٣٦ .
٦٠ ـ انظر سيدريسكي D Sidersky أصول الأساطير الإسلامية في القرآن وحول النبي/ (باريس ١٩٣٣) ص ٥١ ـ ٥٣ .
٦١ ـ سفر التكوين ٢١: ٨ ـ ٢١ .
٦٢ ـ السورة ٢: ١٢٢ ـ ١٢٤ .
٦٣ ـ السورة ٢: ١٤٤ انظر أيضاً ٢: ١٤٠ ـ ١٤٦ .
٦٤ ـ السورة ٦: ١٦٠ ، ١٦٢ ـ ١٦٣ .

الفصل الثامن

١ ـ تنطبق هذه الملاحظات على المسيحية الغربية فقط. فالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لم تطور صورة المسيح المبجل بل صورة المسيح Pantocrater، امبراطور الكون. كان

امبراطور بيزنطة ممثله على الأرض وكان بلاطه الرائع على شاكلة بلاط المسيح في السماء.

٢ ـ هذا الموقف موجود مسبقاً في العهد الجديد في الجزء الأول من يوحنا ٢: ١٢ ـ ١٧ .

٣ ـ حتى المتطهرون البريطانيون البيوريتانز أو النجاح الدنيوي عبارة عن مكافأة أكثر منها انجازاً روحياً بحد ذاته.

٤ ـ /سجل الشهداء الروماني/: مدخل إلى يوم عيد الميلاد.

٥ ـ السورة ٣٣: ٧٢ .

٦ ـ انظر مثلاً السورة ١١: ٢٨ ـ ١٢٥ .

٧ ـ السورة ٢٢: ٤٠ ـ ٤٣ .

٨ ـ تور أندريه /محمد: الإنسان ودينه/ ترجمة ثوفيل مينزل (لندن ١٩٣٦) ص ١٩٧ .

٩ ـ السورة ٢: ٢١٧ .

١٠ ـ السورة ٥: ١٧ .

١١ ـ السورة ٢: ٢٥١ .

١٢ ـ لقد ناقشت مفهوم الجهاد الحديث بشكل مفصل أكثر في كتابي /حرب مقدسة: الحملات الصليبية وتأثيرها على العالم المعاصر/ ١٩٨٨) ص ٢٢٣ ـ ٢٨٤ .

١٣ ـ سيرة ابن اسحاق، كما وردت في كتاب /حياة محمد/ دار غيلام ص ٢٩١ .

١٤ ـ نفس المصدر السابق ٤٣٥ ، ص ٢٩٤ .

١٥ ـ نفس المصدر السابق ٤٣٨ ، ص ٢٩٦ .

١٦ ـ نفس المصدر السابق ٤٤١ ، ص ٢٩٨ .

١٧ ـ نفس المصدر السابق.

١٨ ـ نفس المصدر السابق ٤٤٢ ، ص ٢٩٨ .

١٧ ـ نفس المصدر السابق.

١٨ ـ نفس المصدر السابق ٤٤٢ ، ص ٢٩٨ .

١٩ ـ السورة ٨: ٧٠ .

٢٠ ـ آرمسترونغ /حرب مقدسة/.

٢١ ـ السورة ٨: ٤٥ .

٢٢ ـ السورة ٨: ١٧

٢٣ ـ السورة ٨: ٦٤

٢٤ ـ السورة ٢١: ٤٩ .

٢٥ ـ سفر الخروج: ١٤ ـ ٣١ .

٢٦ ـ تاريخ الطبري، أوردها مونتغمري واط في كتابه /محمد في المدينة/ (أوكسفورد ـ ١٩٥٦) ص ٢٠٥ .

٢٧ ـ السورة ٤٧: ٥ ، ٢٤: ٣٤ ، ٢: ١٧٨ .

٢٨ ـ أوردها محمد ظفر الله خان في كتابه /الإسلام: معناه للإنسان المعاصر/ (لندن ١٩٦٢) ص ١٨٢ .
٢٩ ـ سيرة ابن اسحاق، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٣٠٩ .
٣٠ ـ السورة ٤٧: ٢٢ .
٣١ ـ سيرة ابن اسحاق، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٣٦١ .
٣٢ ـ نفس المصدر السابق: ٥٤٥ ، ص ٣٦٣ .
٣٣ ـ محمد بن عمر الواقدي /كتاب المغازي/ ٢١٤ ، أوردها مارتن لينغز في كتابه /محمد: حياته استناداً إلى أقدم المصادر/ (لندن ١٩٨٣) ص ١٧٦ .
٣٤ ـ سيرة ابن اسحاق، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٣٧٢ .
٣٥ ـ نفس المصدر السابق ٥٦٢ ، ص ١٧٤ .
٣٦ ـ نفس المصدر السابق.
٣٧ ـ نفس المصدر السابق ٥٨٣ ، ص ٣٨٦ .
٣٨ ـ /محمد في المدينة/ ص ١٨٤ .
٣٩ ـ السورة ٤: ٣ .
٤٠ ـ السورة ٤: ٢٣ .
٤١ ـ السورة ٢: ٢٢٥ ـ ٢٤٠ ، ٦٥: ١ ـ ٧٠ .
٤٢ ـ السورة ٤: ٣ .
٤٣ ـ السورة ٦: ١٥٢ .
٤٤ ـ انجيل متى ٦: ٢٦ .
٤٥ ـ السورة ٢٤: ٣٢ .
٤٦ ـ أوردها مكسيم رودنسون في كتابه /محمد/ ترجمة آنا كارتر لندن، ١٩٦١ ص ١٩٢ لم يذكر المصدر.
٤٧ ـ محمد بن سعد /كتاب الطبقات الكبير/ المجلد الثامن ص ٧١ ـ ٧٢ أوردها لينغز في كتابه /محمد/ ص ٢١٣ .
٤٨ ـ السورة ٣٣: ٣٦ ـ ٤٠ .
٤٩ ـ السورة ٣٣: ٥٣ .
٥٠ ـ سيرة ابن اسحاق ٧٢٩ ، ص ٤٩٣ .
٥١ ـ نفس المصدر السابق ٧٢٦ ، ص ٤٩١ .
٥٢ ـ الطبري، مجلد٢ / طبعة سويدان ص٦١٤ ـ ٦١٥
٥٣ ـ نفس المصدر السابق ٧٣٥ ، ص ٤٩٦ ، وحديث رواه أحمد بن ها نيلال المجلد السادس: ٦٠ ، ١٩٧ . ومحمد بن البخاري الجزء الثالث: ١٠٨ ، ٢٩٦ .
٥٤ ـ السورة ٢٤: ١١ .
٥٥ ـ الواقدي /كتاب المغازي/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ، طبقات ابن سعد ٢: ٥١ . أوردها لينغز في

كتابه /محمد/ ص ٢١٨ .
٥٦ ـ سيرة ابن اسحاق ٦٧٧ ص ٤٥٤ .
٥٧ ـ انظر السورة ٤: ٥٤ .
٥٨ ـ سيرة ابن اسحاق ٦٧٥ ، ص ٤٥٣ .
٥٩ ـ السورة ٣٣: ١٠ ـ ١١ .
٦٠ ـ سيرة ابن اسحاق ٦٨٣ ص ٤٦٠ .
٦١ ـ /كتاب المغازي/ الواقدي ٤٨٨ ـ ٤٩٠ أوردها لينغز في كتابه/محمد/.
٦٢ ـ سيرة ابن اسحاق ٦٩٨ ص ٤٦٤ .
٦٣ ـ نفس المصدر السابق ٦٨٩ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .
٦٤ ـ انظر كتاب برنار لويس/الساميون، والمعادون للسامية، بحث في النزاع والهوى/ (لندن ١٩٨٦) ص ١١٧ ـ ١٣٩ ، ١٦٤ ـ ٢٥٩ .
٦٥ ـ السورة ٢: ١٩١ ـ ٢١٥ .
٦٦ ـ السورة ٨: ٦٢ ـ ٦٣ .
٦٧ ـ السورة ٣: ١٤٧ ـ ١٤٨ .
٦٨ ـ مونتغمري واط، /محمد في المدينة/ ص ٢١٥ ـ ٢١٧ ، ورودنسون في كتابه /محمد/ ص ٢١٤ .

الفصل التاسع

١ ـ ـ السورة ٤٨: ٢٧ .
٢ ـ الواقدي /كتاب المغازي/ ٥٨٧ أوردها لينغز في كتابه /محمد/ حياته استناداً إلى أقدم المصادر/ ٢٤٧ .
٣ ـ تاريخ الطبري. مجلد ٢ مطبعة سويدان ـ بيروت لبنان تحت عنوان عمرة النبي
٤ ـ نفس المصدر السابق.
٥ ـ نفس المصدر السابق.
٦ ـ نفس المصدر السابق ٧٤٣ ، ص ٥٠١ .
٧ ـ نفس المصدر السابق ص ٥٠٢ .
٨ ـ نفس المصدر السابق ٧٤٥ ، ص ٥٠٣ .
٩ ـ مونتغمري واط /محمد في المدينة/ (أوكسفورد ١٩٥٦) ص ٥٠ .
١٠ ـ سيرة ابن اسحاق ٧٤٨ /حياة محمد/ دار غيلام ص ٥٠٥ .
١١ ـ نفس المصدر السابق ٤٤٧ ص ٥٠٤ .
١٢ ـ عن طريق زواجه من جويرية ابنة شيخ بني المصطلق التابعة لخزاعة بعد الهجوم عليهم في كانون الثاني عام ٦٢٧ .
١٣ ـ سيرة ابن اسحاق ٧٤٧ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٥٠٤ .

١٤ ـ نفس المصدر السابق ٧٤٨ ص ٥٠٥ .
١٥ ـ اوردها لينغز في كتابه /محمد/ ص ٢٥٤ . المصدر غير مذكور.
١٦ ـ نفس المصدر السابق ص ٢٥٥ .
١٧ ـ السورة ٤٨: ١ .
١٨ ـ السورة ٤٨: ٢ .
١٩ ـ السورة ٤٨: ١٠ ـ ١٧ .
٢٠ ـ السورة ٤٨: ٢٠ .
٢١ ـ السورة ٤٨: ٢٦ ـ ٢٧ .
٢٢ ـ السورة ٤٨: ٢٩ .
٢٣ ـ انجيل متى ١٠: ٣٤ ـ ٣٦ .
٢٤ ـ سيرة ابن هشام المكتبة العلمية بيروت ج٣ ص٣٢٢
٢٥ ـ نفس المصدر السابق ٧٥٢ ، ص ٥٠٧ .
٢٦ ـ السورة ٢: ١٧٤ ـ ١٧٥ .
٢٧ ـ مارشال جـ. س. هودغسون/ مغامرة الإسلام: الوجدان والتاريخ في حضارة عالمية/ (شيكاغو، ١٩٧٤ ، المجلد الأول ص ٣٣٩).
٢٨ ـ السورة ١٧: ٣٥ .
٢٩ ـ السورة ٥: ٤٥ .
٣٠ ـ السورة ٢: ١٧٧ .
٣١ ـ السورة ٢: ١٧٢ . وجه لوم إلى محمد لأنه لم يلغ الرق لكن هذا الحكم ليس مبنياً على رؤية تاريخية. لكن محمد في حقيقة الأمر قد قلل الرق في الجزيرة عن طريق فرض الجزية التي كانت تحسم في الغزوات وأعمال العنف في شبه الحزيرة.
٣٢ ـ صحيح أيضاً أن روح المساواة كانت تضرب جذورها عميقاً في ثقافة الشرق الأوسط وأن الإسلام كان استجابة لهذه الروح.
٣٣ ـ مونتغمري واط/ محمد في المدينة/ ص ٢٦٨ .
٣٤ ـ وليم فيدلتي لانكستر /كارثة الخليج والتحرر العربي/ ميدل إيست انترناشونال ٣٨٣ العدد الصادر في ١٢ تشرين الأول عام ١٩٩٠ .
٣٥ ـ كتاب طبقات ابن سعد الجزء السابع، ١٤٧ أوردها لينغز في كتابه /محمد/ ص ٢٧١ .
٣٦ ـ أوردها لينغز في كتابه /محمد/ ص ٢٨٢ . لم يذكر المصدر.
٣٧ ـ سيرة ابن اسحاق ٧١٧ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٤٨٥ .
٣٨ ـ البخاري /٣/ ٥٣/ أورده لينغز في كتابه /محمد/ ص ٢٧٥ .
٣٩ ـ السورة ٣٣: ٢٨ ـ ٢٩ .
٤٠ ـ السورة ٣٣: ٣٥ .

٤١ ـ لقد ناقشت هذه النقطة بشكل أكثر تفصيلاً في كتابي /الإنجيل وفقاً للمرأة: خلق المسيحية لحرب الجنس في الغرب/ (لندن ١٩٨٦).
٤٢ ـ تاريخ أبو نعيم الأصفهاني /دليل النبوة/ الجزء الثاني ٤٥ . أوردتها نبيهة أبوت في كتابها /عائشة حبيبة محمد/ (شيكاغو ١٩٤٢) ص ٦٧ .
٤٣ ـ سيرة ابن ابن هشام، المكتبة العلمية بيروت جـ٤ ، ص٤٠٢
٤٤ ـ نفس المصدر السابق ص٤٠٥ .
٤٥ ـ السورة ١٧: ٨٢ .
٤٦ ـ سيرة ابن اسحاق ٨١٢ ، /حياة محمد/ دار غيلام، ص ٥٥٣ .
٤٧ ـ أوردها لينغز في كتابه /محمد/. لم يذكر المصدر.
٤٨ ـ تاريخ الطبري ١٦٤٢ /حياة محمد/ دار غيلام ص ٥٥٣ .
٤٩ ـ محمد ظفر الله خان/ الإسلام: معناه للإنسان المعاصر/ (لندن ١٩٦٢) ص ٦٠ .
٥٠ ـ أوردها لينغز في كتابه /محمد/ ص ٣١١ . لم يذكر المصدر.
٥١ ـ سيرة ابن اسحاق ٨٨٦ ، /حياة محمد/ دار غيلام ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧ .
٥٢ ـ السورة ٩: ٦٦ .
٥٣ ـ السورة ٩: ١٠٨ .
لقد اقترح أن المسلمين المتمردين كانوا على اتصال مع أبي عامر الموحد المعروف باسم (الراهب) الذي رحل إلى مكة بعد وصول محمد إلى المدينة.

الفصل العاشر

١ ـ أوردها لينغز في كتابه /محمد حياته. استناداً إلى أقدم المصادر/ (لندن ١٩٨٣/ ص ٣١٧) لم يذكر المصدر.
٢ ـ علي شريعتي /الحج/ ترجمة لاله بختيار (طهران ١٩٨٨) ص ٥٤ ـ ٥٦ .
٣ ـ سيرة ابن اسحاق ٩٦٩ /حياة محمد/ دار غيلام ص ٦٥١ .
٤ ـ الطبري، تاريخ الامم والملوك طبعة دار سويدان لبان جـ ٣ ص١٨٨ .
٥ ـ نفس المصدر السابق ص ١٩٠
٦ ـ ابن هشام طبعة المكتبة العلمية بيروت جـ٤ ص٦٥٥ .
٧ ـ المصدر السابق ص٦٥٦ .
٨ ـ السورة ٣: ١٤٣ .
٩ ـ سيرة ابن هشام جـ٤ ص٦٥٦ طبعة المكتبة العلمية ـ بيروت.
١٠ ـ ويلفرد كانتويل سميث /الإسلام والتاريخ الحديث/ (برنستون ولندن، ١٩٥٧) ص ٣٢ .
١١ ـ سيرة ابن اسحاق ١٠١٧ /حياة محمد/ دار غيلام ص ٦٨٧ .
١٢ ـ التعليمات التي أصدرها علي لمالك الأشتر عندما ولاه على مصر في كتاب وليم سي

شيتك ترجمه ومراجعة بعنوان /ديوان الشيعة/ (لندن ١٩٨٠) ص ٧٥ .

١٣ ـ لقد ناقشت هذه النقطة في كتابي /حرب مقدسة: الحملات الصليبية وتأثيرها على العالم المعاصر/ (لندن ١٩٨٨) ص ٢٢٣ ـ ٢٨٤ .

١٤ ـ الموسوعة الإسلامية (ليدن ١٩١٣) مدخل تحت عنوان «التصوف».

١٥ ـ علي شريعتي /الحج/ ص ٥٤ .

١٦ ـ سيد حسين نصر /مثل وحقائق إسلامية/ (لندن ١٩٦٦) ص ٨٨ .

١٧ ـ سيد حسين نصر /أهمية السنة والحديث في الروحانية الإسلامية/ (لندن ١٩٨٧) ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

١٨ ـ كانتويل سميث /الإسلام والتاريخ الحديث/ ص ٣٠٥ .




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين